نهاية الأرب

في

فنون الأدب

تأليف

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري

المتوفى ٧٣٣ هـ

الجزء السابع

تحقيق

الدكتور علي بو ملحم

منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الباب الرابع عشر
من القسم الخامس من الفن الثاني
في الكتابةِ وما تفرّع من أصناف الكُتّاب

ولنبدأ بٱشتقاق الكتابة، ولم سُمّيت الكتابة كتابة، ثم نذكر شرفَها وفوائدَها، ثم نذكر ما عدا ذلك من أخبار المحترِفين بها، وما يحتاج كلٌّ منهم إليه، فنقولُ وبالله التوفيق والإعانة:

أصل الكتابة مشتقٌّ من الْكَتْبِ وهو الجمع، ومنه سُمِّيَ الكتاب كتابًا، لأنه يجمع الحروف، وسُمِّيت الكَتِيبَةُ كتيبة[1]، لأنها تَجْمع الجيشَ، وقد ورد في المعارف: أن حروف المُعْجَم أُنزلت على آدم عليه السلام في إحدَى وعشرين صحيفة، وسنذكر من ذلك طَرَفًا عند ذكرنا لأخبار آدم عليه السلام في فنّ التاريخ، فهذا اشتقاقها.

وأما شرفها ـ فقد نص الكتاب العزيز عليه، فقال تعالى ـ وهو أوّلُ ما أُنزل على رسول الله ﷺ من القرآن بغار حِراءٍ[2] في شهر رمضانَ المعظَّم ـ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ [العَلق: الآيات ١ - ٥]، وقال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾﴾ [الرَّحمٰن: الآيات ١ - ٤]، وقال تعالى في وَصفِ الملائكةِ: ﴿كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾﴾ [الانفِطار: الآية ١١]، إلى غير ذلك مِن الآي.

ومن شرف الكتابة نزولُ الكتبِ المتقدّمة مسطورةً في الصُّحف كما ورد في الصحف المَنزلة على شيثٍ وإدريسَ ونوحٍ وإبراهيم وموسى وداودَ وغيرهم صلى الله

---

(١) الكتيبة: القطعة الكبيرة من الجيش، من المائة إلى الألف. والجمع كتائب. وهي من الكَتْب أي الجمع. وكذا الكتاب لأنه عبارة عن جمع حروف. (ابن منظور، لسان العرب).

(٢) غار حِراء: الغار: الكهف. حراء: جبل ثلاثة أميال من بكة، كان النبي يختلف على ذلك الكهف الموجود في جبل حراء ويتعبد فيه. (ابن منظور، لسان العرب، ياقوت، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٩٨٤).

عليهم كما أخبر به القرآن، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾ [الأعلى: الآيتان ١٨، ١٩] وقال تعالى: ﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ﴾ [الأعراف: الآية ١٥٠]، وما ورد في الأخبار الصحيحة والأحاديث الصريحة أنه مكتوب على العرش وعلى أبواب الجنة ما صورته: لا إلـه إلّا الله محمد رسول الله. وكفى بذلك شرفًا.

وأمّا فوائدُها: فمنها رسم المصحف الكريم[1] الموجود بين الدَّفّتين في أيدِي الناس، ولولا ذلك لاختُلف فيه ودخل الغلط وتداخل الوهم قلوبَ الناس.

ومنها رَقْمُ الأحاديث المرويَّةِ عن النبي ﷺ التي عليها بُنِيَت الأحكام، وتَميَّز الحلال من الحرام، وضبطُ كتب العلوم المنقولةِ عن أعلام الإسلام وتواريخ مَن انقرض مِن الأنام فيما سَلَف مِن الأيام.

ومنها حفظُ الحقوق، ومنْعُ تمرُّد ذوي العقوقِ[2]؛ بما يقعُ عليهم من الشّهادات ويُسَطَّرُ عليهم من السِجلّات التي أمر اللهُ تعالى بضبطها بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٨٢].

ومنها المكاتَبةُ بين الناس بحوائجهم من المسافات البعيدة، إذ لا ينضبطُ مثلُ ذلك برسول، ولا تُنالُ الحاجةُ به بمشافَهةِ قاصدٍ، ولو كان على ما عساه عليه يكون مِن البلاغة والحفظ لوجود المِشَقَّةِ، وبُعْد الشُقَّةِ[3].

ومنها ضبطُ أحوال الناس، كمناشير الجند، وتواقيعِ العمّال، وإدرارات[4] أرباب الصِّلات في سائر الأعمال، إلى ما يجرِي هذا المجرَى، فكان وجودُها في سائر الناس فضيلةً، وعدمها نقيصةً إلا في رسول الله ﷺ، فإنها إحدى معجزاته لأنه ﷺ أمّيٌّ أتى بما أعجز البلغاءَ، وأَخرس الفُصحاءَ، وفَلّ حَدَّ[5] المعارضين من

(١) المُصْحَف الكريم: القرآن. وقد سمي مصحفًا لأنه أُصحف أي جعل جامعًا للصُحُف المكتوبة بين الدفتين. (لسان العرب، مادة صحف).

(٢) ذوو العقوق: منكرو الحقوق. من عق والده عقوقًا أي شق عصا طاعته. وعق والديه: قطعهما ولم يصل رحمه منهما. ورجل عقق وعق: عاق. (لسان العرب، مادة عقق).

(٣) الشُقَّة: المسافة التي يقطعها المسافر؛ السفر البعيد؛ بعد مسير إلى الأرض البعيدة. قال الله تعالى: ﴿وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ﴾ [التوبة: الآية ٤٢]. (لسان العرب، مادة شقق).

(٤) إدرارات: جمع إدرارة، أي أعطية.

(٥) فلّ حد المؤرخين: تفوق عليهم وغلبهم. يقال: فلّ حد السيف: ثلمه؛ ويكون ذلك في المصاولة والمصارعة. (ابن منظور، لسان العرب).

غير مدارَسةِ كتب ولا ممارَسةِ تعليم، ولا مراجَعةٍ لمن عُرف بذلك وٱشتَهر به.

والكتابةُ العربيةُ أشرفُ الكتابات لأن الكتاب العزيز لم يُرْقَم بغيرها خلافًا لسائر الكتب المنزَّلة. وهذه الكتابة العربية أوّلُ من ٱخترعها على الوضع الكوفيّ سكّان مدينة الأنْبَارِ[١]، ثم نُقل هذا القلمُ إلى مكة فعُرف بها، وتعلّمه من تعلّمه، وكثُر في الناس وتداولوه، ولم تزل الكتابةُ به على تلك الصورة الكوفيّةِ إلى أيام الوزير أبي عليّ بن مُقلةَ[٢]، فعرَّبها تعريبًا غير كافٍ، ونقلها نقلًا غيرَ شافٍ، فكانت كذلك إلى أن ظهر عليّ بن هلال الكاتبُ المعروفُ بابن البوّاب[٣]، فكَمّل تعريبَها، وأَحسن تبويبَها؛ وأَبدع نظامَها، وأَكمل ٱلتئامَها، وحَلَّاها بهجةً وجَمالًا، وأَولاها بل أَولى بها مِنّةً وإفضالًا؛ وألبسها من رَقْم أنامله حُللا، وجَلَاها للعيون فكان أوّلَ من أحسن في ترصيعها وترصيفها عملًا؛ ولا زال يَتنوّع في محاسنها، ويتنوّع في ترصيع عقود مَيَامنها؛ حتى تَقَرّرت على أجمل قاعدة، وتَحرّرت على أكملِ فائدة؛ وسنزيد ما قدّمناه من هذه الفصول وضوحًا وتِبيانًا، ونُقِيم على تفصيل مُجْمَلِها وبسط مُدْمَجِهَا أدلّةً وبرهانًا.

ثم الكتابة بحسب من يحترفون بها على أقسام: وهي كتابةُ الإنشاء، وكتابةُ الديوان والتصرّف، وكتابةُ الْحكم والشروط، وكتابةُ النَّسخ، وكتابةُ التعليم؛ ومنهم من عَدّ في الكتابةِ كتابةَ الشُّرَطِ[٤]، ولم نُرِد ذكرَها تنزيهًا لكتابنا عنها، ولا حكمةَ في إيرادها.

---

(١) الأنبار: مدينة عراقية تبعد عن بغداد عشرة فراسخ أول من عمرها سابور بن هرمز ملك الفرس، وسماها فيروز سابور، ثم جددها أبو العباس السفاح أول الخلفاء العباسيين وأطلق عليها اسم الأنبار، وجعلها عاصمة الدولة إلى أن تأسست بغداد. (ياقوت، معجم البلدان ج ١، ص ٢٥٧، ط. دار صادر، ١٩٨٤).

(٢) هو محمد بن علي بن الحسين بن مقلة (٢٧٢ ـ ٣٢٨ هـ) استوزره الخلفاء العباسيون، ولم يوفق في وزارته فسجن وقطعت يمينه. اهتم بالخط ونقل الكتابة من الخط الكوفي إلى الخط النسخي، وأبرزها في هذه الحلة الحسنة، فكان له فضل السبق. وكان شاعرًا وناثرًا. (ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٤، ص ١٩٨ ـ ٢٠١).

(٣) هو أبو الحسن علي بن هلال الكاتب المشهور. هذب طريقة ابن مقلة في الخط وحسنها. عرف بابن البواب لأن أباه كان بوابًا؛ وعرف أيضًا بابن الستري، لأن البواب يلازم ستر الباب توفي في بغداد سنة ٤١٣ هـ أو ٤٢٣ هـ. (ابن خلكان، الوفيات، ج ٣، ص ٢٨ ـ ٢٩).

(٤) الشُّرَط: جمع الشرطي، وهو رجل الأمن. دعوا بذلك لأنهم جعلوا لأنفسهم علامات مميزة يعرفون بها. (لسان العرب مادة شرط).

ولنبدأْ بذكر كتابة الإنشاء وما يتعلّق بها.

ذكر كتابة الإنشاء وما ٱشتملت عليه من البلاغة والإيجاز والجمع في المعنى الواحد بين الحقيقة والمجاز؛ والتلعّب بالألفاظ والمعاني والتوصّل إلى بلوغ الأغراض والأماني

ولنبدأ من ذلك بوصف البلاغة وحَدِّها والفصاحةِ:

فأما البلاغة ـ فهي أن يُبْلِغَ[1] الرجل بعبارته كُنهَ ما في نفسه. ولا يسمَّى البليغ بليغًا إلا إذا جمع المعنى الكثيرَ في اللفظ القليلِ، وهو المسمَّى إيجازًا.

وينقسم الإيجاز إلى قسمين: إيجاز حذف، وهو أن يُحذَف شيء من الكلام وتدلُّ عليه القرينة، كقوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا﴾ [يُوسُف: الآية ٨٢] والمراد أهل القرية وكقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٨٩] والمراد ولكن البرَّ برُّ من ٱتقى، وكقوله تعالى: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا﴾ [الأعرَاف: الآية ١٥٥] والمراد من قومه، وقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٨٤] والمراد لا يطيقونه؛ ونظائر هذا وأشباهُه كثير.

وإيجاز قَصْر، وهو تكثيرُ المعنى وتقليلُ الألفاظ، كقوله تعالى لنبيه محمد ﷺ ما جُمع فيه شرائطُ الرسالة: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ [الحِجر: الآية ٩٤] وسمِع أعرابيّ رجلًا يتلوها فسجد وقال: سجدتُ لفصاحته، ذكره أبو عُبيد. وقوله تعالى مما جُمع فيه مكارمُ الأخلاق: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعرَاف: الآية ١٩٩] وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [النَّمل: الآيتان ٣٠، ٣١] فجُمع في ثلاث كلمات بين العُنوانِ والكتابِ والحاجةِ؛ وقولِه تعالى: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النَّمل: الآية ١٨] فجمع في هذا على لسان النملة بين النداءِ والتنبيهِ والأمر والنهي والتحذير والتخصيص والعموم والإشارة والإعذار؛ ونظير ذلك ما حُكِي عن الأصمعيّ[2] أنه سمع جارية تتكلّم فقال لها: قاتَلك الله، ما أَفصحَكِ!

---

(١) البلاغة: من بلغ الشيء، أي وصل إليه. وقد سبق الجاحظ في كتاب البيان والتبيين، الجزء الأول، الفصل الثاني، إلى هذا التعريف. وهو يختلف عن النويري في أنه لا يجعل الإيجاز أساسًا للبلاغة، بل المساواة.

(٢) الأصمعي: هو عبد الملك بن قريب الباهلي (١٢٣ ـ ٢١٦ هـ). كان راوية للشعر والأخبار=

فقالت: أَوَ يُعَدُّ هذا فصاحةً بعد قول الله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧﴾ [القَصَص: الآية ٧] فجمع في آية واحدة بين أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين.

ولما سمع الوليدُ بنُ المُغيرة من النبي ﷺ قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝٩٠﴾ [النحل: الآية ٩٠] قال: والله إنّ له لحلاوةً، وإن عليه لطُلَاوة، وإن أسفله لمُغْدِق[1]، وإن أعلاه لمُثْمِرٌ، ما يقول هذا بَشرٌ.

وسمع آخرُ رجلًا يقرأ: ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ﴾ [يوسُف: الآية ٨٠] فقال: أشهد أنّ مخلوقًا لا يقدِرُ على مثل هذا الكلام.

وقال أبو عثمانَ عمرُو بنُ بحر الجاحظُ: البيان اَسم جامعٌ لكل ما كَشَفَ لك من قِناع المعنى، وهَتَك الحجابَ عن الضمير، حتى يُفضِيَ السامع إلى حقيقة اللفظ ويَهجُمَ على محصوله كائنًا ما كان[2].

وقيل لجعفر بن يحيىٰ[3]: ما البيان؟ فقال: أن يكون اللّفظ مُحيطًا بمعناك كاشِفًا عن مَغزاك، وتخرجَه من الشُّرْكة، ولا تستعينَ عليه بطول الفكرة، ويكونَ سليمًا من التّكلّف، بعيدًا من سوء الصنعة، بريئًا من التعقيد، غَنيًّا عن التأمّل.

= ولغويًا كبيرًا. ألّف عددًا من الكتب أهمها كتاب الألفاظ، وكتاب النوادر، وكتاب أصول الكلام. (ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٢، ص ٣٤).

(١) مغدق: كثير الماء. من الغَدق: المطر الكثير العام. وغَيْدَقَ المطرُ: كثر. والغَدَق أيضًا الماء الكثير وإن لم يكن مطرًا. من غَدِقَ: غزر وكثر. (لسان العرب، مادة غدق).

(٢) وقع بعض التحريف في كلام الجاحظ. وهاك هو النص الوارد في كتاب البيان والتبيين، الجزء الأول (الصفحة ٨٢، من طبعة دار ومكتبة الهلال، بيروت سنة ١٩٨٨، الطبعة الأولى):
«والبيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير، حتى يفضي السامع إلى حقيقته، ويهجم على محصوله، كائنًا ما كان ذلك البيان، ومن أي جنس كان الدليل، لأن مدار الأمر والغاية التي يجري إليه القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام. فبأي شيء بلغت الأفهام وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضع.
وواضح أن ثمة فرقًا كبيرًا بين القول «حتى يفضي السامع إلى حقيقة اللفظ»، والقول «حتى يفضي السامع إلى حقيقته». فالجاحظ يعني حقيقة المعنى، وليس حقيقة اللفظ.

(٣) هو أبو الفضل جعفر بن يحيىٰ بن خالد البرمكي. وزر لهارون الرشيد وعظمت منزلته عنده، وزوجه أخته العباسة. ولكنه غضب عليه أخيرًا فقتله ونكب أسرته. كان جوادًا ذواقة للأدب والشعر. توفي في بغداد سنة ١٨٧هـ. (ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ١، ص ٢٩٢ ـ ٣٠٥).

وقال آخُر: خير البيان ما كان مصرِّحًا عن المعنى ليُسرعَ إلى الفهم تلقّيه، ومُوجَزًا ليخِفَّ على اللسان تَعاهدُه.

وقال أعرابيٌّ: البلاغة التقرُّب من معنى البُغيةِ، والتَّبَعُّدُ من وحشيِّ الكلام وقربُ المأخذِ، وإيجازٌ في صوابٍ، وقصدٌ إلى الحجة، وحُسنُ الاستعارة. قال عليّ رضي الله عنه: البلاغة الإفصاحُ عن حكمة مُستَغْلِقةٍ، وإبانةُ علمٍ مُشكِلٍ.

وقال الحسن بن عليّ رضي الله عنهما: البلاغة إيضاح الملتبِسات، وكشفُ عورات الجهالاتِ، بأحسن ما يمكن من العبارات.

وأما الفصاحة: فهي مأخوذةٌ من قولهم: أَفصح اللبَنُ إذا أُخِذت عنه الرُّغْوة. وقالوا: لا يسمَّى الفصيح فصيحًا حتى تخلُص لغته عن اللُّكْنة الأعجميّة ولا توجد الفصاحة إلا في العرب. وعلماء العرب يزعمون أن الفصاحةَ في الألفاظ، والبلاغةَ في المعاني، ويستدلّون بقولهم: لفظ فصيح، ومعنى بليغ. ومن الناس من ٱستعمل الفصاحةَ والبلاغةَ بمعنى واحدٍ في الألفاظ والمعاني والأكثرون عليه.

ذكر صفة البلاغة

قيل لعمرو بن عُبَيد[1]؛ ما البلاغة؟ قال: ما بلّغك الجنّة، وعدَل بك عن النار؛ قال السائل: ليس هذا أريد؛ قال: فما بصَّرك مَواقعَ رُشدك وعواقبَ غيّك؛ قال: ليس هذا أريد؛ قال: من لم يُحسنْ أن يسكتَ لم يُحسنْ أن يَسْمَعَ، ومن لم يُحسنْ أن يَسمعَ لم يُحسنْ أن يَسأَل، ومن لم يُحسنْ أن يَسألَ لم يُحسنْ أن يقُولَ؛ قال: ليس هذا أريد؛ قال: قال النبي ﷺ: «إنّا معشر النبيّين بِكاءٌ» ـ أي قليلو الكلامِ، وهو جمعَ بكيءٍ ـ وكانوا يكرهون أن يزيدَ منطقُ الرجل على عقله؛ قال السائل: ليس هذا أريد؛ قال: فكأنك تريد تَخيُّرَ اللفظ في حُسن إفهام؛ قال: نعم؛ قال: إنّك إن أردت تقريرَ حجّةِ الله في عقول المتكلمين، وتخفيفَ المؤونة على المستمعين، وتزيينَ المعاني في قلوب المستفهمين بالألفاظ الحسَنة رغبةً في سُرعة ٱستجابتهم، ونفيِ الشَّواغِل عن قلوبهم بالمواعظ الناطقة عن الكتاب والسُّنة كنتَ قد أُوتيت فصلَ الخطاب.

(١) هو عمرو بن عبيد بن باب، المتكلم المعتزلي الزاهد المشهور. تتلمذ على الحسن البصري ثم انفصل عنه مع رفيقه واصل بن عطاء وأسسا مذهب الاعتزال. عرف بسعة علمه وتقاه؛ كان يدخل على المنصور ويعظه ولكنه لا يقبل عطاياه. توفي سنة ١٤٢ هـ فرثاه المنصور. (ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٣، ص ١٣٢).

وقيل لبعضهم: ما البلاغة؟ قال: معرفةُ الوصلِ من الفصلِ(١). وقيل لآخر: ما البلاغة؟ قال: ألّا يؤتَى القائلُ من سُوء فهم السامع، ولا يؤتَى السامعُ من سوء بيانِ القائِل.

وقيل للخليل بن أحمدَ(٢): ما البلاغة؟ فقال: ما قَرُب طَرَفَاه، وبعُد منتهاه. وقيل لبعض البلغاء: من البليغ؟ قال: الذي إذا قال أسرَع، وإذا أسرَع أبدَع وإذا أبدع حرّك كلَّ نفْس بما أَودَع.

وقالوا: لا يستحقّ الكلامُ اَسمَ البلاغةِ حتى يكونَ معناه إلى قلبك أسبقَ من لفظه إلى سمعك.

وسأل معاويةُ صُحارًا العبدِيَّ(٣): ما هذه البلاغة؟ قال: أن تجيبَ فلا تبطىء وتصيبَ فلا تخطىء.

وقال الفضل: قلت لأعرابيّ: ما البلاغة؟ قال: الإيجازُ في غير عجز والإطنابُ في غير خَطَل.

وقال قُدَامَةُ(٤): البلاغةُ ثلاثةُ مذاهبَ: المساواةُ وهو مطابَقةُ اللفظ المعنى لا زائدًا ولا ناقصًا؛ والإشارةُ وهو أن يكون اللفظ كاللَّمْحَة الدالّة؛ والدليلُ وهو إعادة الألفاظ المترادفة على المعنى الواحد، ليظهَرَ لمن لم يَفهمْه، ويتأكدَ عند من فهِمه.

قال بعض الشعراء: [من الكامل]

يَكفي قليلَ كلامِه وكثيرَه ... بيتٌ إذا طال النّضالُ مصيبُ

---

(١) نسب الجاحظ هذا التحديد للفرس. يقول: قيل للفارسي ما البلاغة؟ قال: معرفة الفصل من الوصل». (البيان والتبيين، ج ١، ص ٩١).

(٢) هو الخليل بن أحمد الفراهيدي الأزدي، عبقري مذ وضع أسس عدة علوم عربية هي النحو والمعجم والعروض والموسيقى. أمد سيبويه تلميذه بعلم النحو، وألف معجم «العين»، وكتاب العروض الذي تضمن خمسة عشر بحرًا. ولم يُضَف عليها سوى بحر واحد ابتكره الأخفش هو الخبب. توفي سنة ١٧٥ هـ ـ. (ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٢، ص ١٥ ـ ١٩).

(٣) هو صحار بن عياش العبدي (٤٠ هـ) كان عالمًا بالأنساب وخطيبًا مصقعًا. وقد سبق الجاحظ إلى ذكر رأيه في البلاغة مع شيء من التوسيع. (البيان والتبيين، (ج ١، ص ٩٨).

(٤) هو قدامة بن جعفر، عاش في القرن العاشر الميلادي، ووضع كتبًا في النقد والبلاغة والمنطق أهمها كتاب نقد الشعر وكتاب نقد النثر وقد طبعا حديثًا، وكتاب جواهر الألفاظ. عاصر المكتفي بالله العباسي، وتوفي في بغداد سنة ٣٣٧ هـ = ٩٤٨ م. (الزركلي، الأعلام).

وقال أحمد بنُ محمد بنِ عبدِ رَبِّهِ صاحب العقد: البلاغة تكون على أربعة أوجه: تكون باللفظ والخط والإشارة والدَّلالة، وكل وجه منها له حظ من البلاغة والبيان، وموضعٌ لا يجوز فيه غيره، ورُبّ إشارة أبلغ من لفظ[1].

وقال رجل للعَتّابيّ[2]: ما البلاغة؟ قال: كلُّ ما أبلغك حاجتك، وأفهمك معناه بلا إعادةٍ ولا حُبْسةٍ ولا ٱستعانةٍ فهو بليغ؛ قالوا: قد فهمنا الإعادةَ والحُبسة، فما معنى الاستعانة؟ قال: أن يقول عند مَقاطع الكلام: اسمع منّي، وٱفهم عنّي، أو يمسحَ عُثنونه، أو يفتلَ أصابعه، أو يكثِرَ التفاتَه، أو يَسعُلَ من غير سُعلة، أو ينبهرَ في كلامه.

قال بعض الشعراء: [من الطويل]

مـلِيءٌ بِبُـهْـر والـتـفـاتٍ وسُـعـلةٍ ومَسحةِ عُثنونٍ وفتلِ الأصابع

ومن كلام أحمدَ بنِ إسماعيلَ الكاتبِ المعروف بِنطاحةَ[3]، قال: البليغ من عرف السقيم من المعتلّ، والمقيَّدَ من المطلقِ، والمشتركَ من المفردِ، والمنصوصَ من المتأوَّل، والإيماءَ من الإيحاء، والفصلَ من الوصل، والتلويحَ من التصريح.

ومن أمثالهم في البلاغة قولُهم: يُقِلّ الحزَّ ويطبِّق المَفْصِل. وذلك أنهم شبهوا البليغ الموجِزَ الذي يُقلّ الكلامَ ويصيب نصوصَ المعاني بالجزّار الرفيق الذي يقلُّ حزَّ اللحم ويصيب مفاصله؛ وقولهم: يضع الهِناء مواضع النُّقْبِ، أي لا يتكلّم إلا فيما يجب الكلام فيه. والهِناء: القِطران. والنُّقْب: الجَرب. وقولهم: قَرطس فلان فأصاب الغرّةَ، وأصاب عين القرطاس. كلُّ هذه أمثال للمصيب في كلامه الموجِز في لفظه.

---

(١) جعل الجاحظ أدوات البيان خمسًا أي بإضافة واحدة على التي أوردها النويري هي الحساب. وقد استبدل النويري الدلالة بالنصْبة التي استعملها الجاحظ. (البيان والتبيين، ج ١، الفصل الأول).

(٢) العتابي: هو كلثوم بن عمر، شاعر ومتكلم معتزلي. غضب عليه الرشيد فهرب إلى اليمن. وعاد إلى بغداد في عهد المأمون، وتوفي فيها سنة ٨٢٣ م والنص موجود في كتاب البيان والتبيين، الجزء الأول.

(٣) هو أبو علي أحمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن الخصيب، عرف بابن نطّاحة، واشتهر بالكتابة والأدب. كان كاتب عبد الله بن طاهر، وقتله محمد بن طاهر؛ أهم كتبه «ديوان الرسائل» و«طبقات الكتاب» و«صفة النفس». (الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، ط ٦، بيروت ١٩٨٤).

فصول من البلاغة

قيل: لما قدم قُتَيبةُ بن مسلِم(١) خُراسانَ واليًا عليها، قال: من كان في يده شيء من مال عبد الله بن حازم فلينبِذْه، ومن كان في فيه فليلفِظْه، ومن كان في صدره فلينفِثْه. فعجِب الناس من حُسن ما فصَّل.

وكتب المعتصم إلى ملك الروم جوابًا عن كتاب تهدَّده فيه: الجواب ما ترى لا ما تسمع ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرّعد: الآية ٤٢].

وقيل لأبي السَّمَّال الأسديّ أيام معاوية: كيف تركت الناس؟ قال: تركتهم بين مظلوم لا ينتصف، وظالم لا ينتهي. وقيل لشبيب بن شبّةَ عند باب الرشيد: كيف رأيت الناس؟ قال: رأيت الداخل راجيًا، والخارجَ راضيًا.

وقال حسّانُ بن ثابت في عبد الله بن عباس رضي الله عنهم: [من الطويل]

إذا قال لم يترك مقالًا لقائل   بملتقَطات لا ترى بينها فضلا
وكفَى وشفَى ما في النفوس فلم يدع   لذي إربة في القول جِدًّا ولا هَزلا

قال سهل بن هارون(٢): البيان تَرجُمان العقول، وروض القلوب؛ البلاغةُ ما فهمته العامّة، ورضيَتْه الخاصّةُ؛ أبلغ الكلام ما سابق معناه لفظَه؛ خير الكلام ما قلّ وجلّ، ودلّ ولم يُمَلّ؛ خير الكلام ما كان لفظه فحلًا، ومعناه بِكرًا.

وقال ابن المعتزّ(٣): البلاغة أن تبلُغ المعنى ولم تُطِل سَفَرَ الكلام؛ خير الكلام ما أسفر عن الحاجة؛ أبلغُ الكلام ما يؤنِس مَسمَعه، ويوئس مضَيَّعُه؛ أبلغ الكلام ما

(١) هو قتيبة بن مسلم الباهلي. ولّاه عبد الملك بن مروان على خراسان، فأقام فيها ثلاث عشرة سنة بعد المهلب بن أبي صفرة. وفتح خوارزم وسمرقند وبخارى. ولما ولي سليمان بن عبد الملك خرج عليه قتيبة فانقلب جنده عليه وقتلوه بفرغانة سنة ٩٦ هـ. (ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٣، ص ٢٤٩ ـ ٢٥٣).

(٢) سهل بن هارون (٢١٥ هـ = ٨٣٠ م) كاتب وشاعر فارسي الأصل شعوبي النزعة، عاصر الجاحظ (٢٥٥ هـ) وأورد له رسالة في كتاب البخلاء يمدح فيها البخل. كما ذكره مرارًا في كتاب البيان والتبيين مستشهدًا بأقواله في البيان والبلاغة. وله مؤلف اسمه «تعلة وعفرة» على غرار كتاب كليلة ودمنة ألفه للمأمون الذي قدمه وعينه رئيسًا لخزانة الحكمة. (الزركلي، الأعلام).

(٣) هو عبد الله بن المعتز (٢٤٦ ـ ٢٩٦ هـ/ ٨٦١ ـ ٩٠٨ م). شاعر وناثر وناقد، امتاز شعره بسهولته وسلاسته. بويع بالخلافة فلم يمكث في سدتها سوى يوم واحد إذ قتله القواد الأتراك. أهم كتبه «البديع» و«السرقات» و«طبقات الشعراء». (ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٢، ص ٢٦٣ ـ ٢٧٠).

حسُن إيجازُه، وقلّ مجازُه، وكثر إعجازُه، وتناسبت صدورُه وأعجازه؛ البلاغة ما إشار إليه البحتريُّ حيث قال: [من الخفيف]

* وركِبن اللّفظَ القريب فأدرَكن به غاية المرادِ البعيدِ *

جُمَل من بلاغات العجم وحِكمها

قال أبْروِيزُ لكاتبه: إذا فكّرت فلا تَعجل، وإذا كتبت فلا تستعِنْ بالفضول فإنها عِلاوةٌ على الكفاية، ولا تقصّرن عن التحقيق فإنها هُجْنة في المقالة، ولا تُلبِسن كلامًا بكلام، ولا تباعدنّ معنى عن معنى، واْجمع الكثير مما تريد في القليل مما تقول. ووافق كلامه قولَ اْبن المعتزّ: ما رأيت بليغًا إلا رأيت له في المعاني إطالةً وفي الألفاظ تقصيرًا. وهذا حثٌّ على الإيجاز. وقال أبروِيزُ أيضًا لكاتبه: اعلم أن دعائم المقالات أربع إن التمِس إليها خامسةٌ لم توجد، وإن نقص منها واحدةٌ لم تتمَّ وهي سؤالك الشيءِ، وسؤالُك عن الشيءِ، وأمرك بالشيء، وخَبَرُك عن الشيء؛ فإذا طلبتَ فأنجِح، وإذا سألتَ فأوضح، وإذا أمرتَ فأحكِم، وإذا أخبرتَ فحقّق[1].

وقال بَهرام جُور: الحُكْم ميزان الله في الأرض. ووافق ذلك قولَ الله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧﴾ [الرحمـٰن: الآية ٧] وقال أنوشِروانُ لابنه هُرْمُز[2]: لا يكون عندك لعمل البر غايةٌ في الكثرة، ولا لعمل الإثم غايةٌ في القلّة. ووافق من كلام العرب قولَ الأفوهِ[3]: [من البسيط]

والخير تزداد منه ما لقِيتَ به والشر يكفيك منه قلّما زادُ

وقال أرْدَشِير بن بابِكَ: من لم يرض بما قسم الله له طالت مَعتبتُه، وفحُش حِرصُه، ومن فحش حِرصه ذلّت نفسُه، وغَلب عليه الحسد، ومن غَلب عليه الحسدُ لم يزل مغمومًا فيما لا ينفعه، حزينًا على ما لا ينالُه. وقال: من شغل نفسه بالمنى لم يَخْلُ قلبه من الأسى.

وقال بعضهم: الحقوق أربعة: حقٌّ لله، وقضاؤه الرضا بقضائه، والعمل

---

(١) حقق: فتش عن الحقيقة، وتحرى صحة الأخبار.

(٢) أبرويز وبهرام جور وأنوشروان وهرمز، من سلاطين آل ساسان الفرس قبل الفتح الإسلامي. ذكرهم مؤرخو العرب في كتبهم أمثال الطبري والمسعودي. (تويني، تاريخ البشرية، ج ٢ ص ٤٢ ـ ٤٥).

(٣) هو الأفوه الأودي صلاءة بن عمرو بن مَذحج، ويكنّى أبا ربيعة. (الشعر والشعراء، ص ١٢٩).

بطاعته، وإكرامُ أوليائه؛ وحقٌّ لنفسك، وقضاؤه تعهدُّها بما يُصلحها ويُصحُّها ويَحسِم موادَّ الأذى عنها؛ وحقّ للنّاس، وقضاؤه عمومُهم بالمودّة، ثم تخصيصُ كلِّ أمرىء منهم بالتوقير والتفضيل والصِّلة؛ وحقّ للسلطان، وقضاؤه تعريفُه بما خَفِيَ عليه من منفعة رعِيَّةٍ، وجِهَادِ عدوٍّ، وعمارةِ بلد، وسدِّ ثغر. وقال بُزُرْجُمِهْر(١): إلزام الجهول الحجّةَ يسير، وإقراره بها عسير.

صفة الكاتب وما ينبغي أن يأخذ به نفسه

قال إبراهيم بن محمد الشيبانيُّ: من صفة الكاتب اعتدالُ القامة، وصغرُ الهامة وخفةُ اللّهازِم(٢)، وكثافة اللحية، وصدقُ الحسّ، ولطفُ المذهب، وحلاوةُ الشمائل وخطفُ الإشارة، وملاحةُ الزِّيّ. وقال: من كمال آلة الكاتب أن يكون بهيَّ الملبس، نظيفَ المجلس، ظاهرَ المروءة، عَطِرَ الرائحة، دقيقَ الذهن، صادقَ الحِسّ حسَنَ البيان، رقيقَ حواشي اللسان، حلوَ الإشارة، مليحَ الاستعارة، لطيفَ المسلك مُستفْرَهَ المركَب(٣)، ولا يكون مع ذلك فَضْفاضَ الجُثَّةِ، متفاوتَ الأجزاء، طويلَ اللحية عظيمَ الهامة؛ فإنهم زعموا أن هذه الصورةَ لا يليق بصاحبها الذكاءُ والفطنةُ.

قال بعض الشعراء: [من الخفيف]

وشَمولٍ(٤) كأنما اعتصروها   من معاني شمائلِ الكُتَّاب

هذا ما قيل في صفة الكاتب.

وأما ما ينبغي للكاتب أن يأخذ به نفسه، فقد قال إبراهيم الشيبانيّ: أوّل ذلك حسنُ الخط الذي هو لسان اليد، وبهجةُ الضمير، وسفيرُ العقول، ووحيُ الفكْر، وسلاحُ المعْرفة، وأُنس الإخوان عند الفُرقة، ومحادَثتهم(٥) على بُعد المسافة ومستودَعُ السِرّ، وديوانُ الأمور.

وقد قيل في قوله تعالى: ﴿يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ [فَاطِر: الآية ١]: إنه الخطّ

(١) بزرجمهر: حكيم فارسي، وزر لكسرى ولكن الملك غضب عليه فقتله. ذكره ابن المقفع ونسب إليه بابًا من أبواب كليلة ودمنة يبين فضله في رعاية العلم ونقل الحكمة من اللسان الهندي إلى اللسان الفارسي. ونظم خليل مطران قصيدة رائعة عنوانها «مصرع بزرجمهر».
(٢) اللهازم: جمع لهزمة، أي أصل الحنك.
(٣) مستفْرَهَ المركب: قحم المركب وكريمه.
(٤) شمول: الخمر.
(٥) محادثتهم: يعني بها مراسلتهم.

الحسن.

وقد اختلف الكتّاب في نَقْطِ الخطّ وشكْلهِ، فمنهم من كرِهه.

قال سعيد بن حُمَيْد الكاتب:

لأن يُشْكِلَ الحرفُ على القارىء أحبُّ إليّ من أن يعابَ الكاتب بالشكل.

وعُرِض خطٌّ علَى عبد الله بن طاهر[١] فقال: ما أحسنه لولا أنه أكثر شُونِيزُه[٢].

ونظر محمد بن عبّاد إلى أبي عُبَيْدٍ وهو يقيِّد البسملة فقال: لو عَرفتَه ما شكَلْتَه. ومنه مَن حمِده فقال: حَلُّوا عواطلَ الكتب بالتقييد، وحصِّنوها من شبَهِ التصحيف والتحريف.

وقيل: إعجامُ الكتب يَمنع من استعجامها، وشكلُها يصونها عن إشكالها.

قال الشاعر[٣]: [من الكامل]

وكأنّ أحرُفَ خطّه شجرٌ والشكلُ في أغصانه ثمرُه

وأما ما قيل في حسن الخطّ وجودةِ الكتابة ومدح الكُتّاب والكِتاب.

قال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: الخط الحسَن يزيد الحقَّ وضوحًا.

وقال: حُسن الخطّ إحدى البلاغتين.

وقال عُبيد الله بنُ العباس: الخط لسان اليدِ. وقال جعفر بن يحيىٰ: الخطّ سِمْطُ[٤] الحكمة، به تُفصَّل شذورُها، ويَنتظم منثورُها؛ وقال أبو هلال العسكريُّ[٥]: [من الكامل]

---

(١) هو أبو العباس عبد الله بن طاهر بن الحسين بن مصعب الخزاعي. كان سيدًا نبيلًا عالي الهمة شهمًا اعتمد عليه المأمون وولاه الدينور وحارب الخوارج في خراسان، كما تولى الشام مدة ومصر مدة. وكان إلى ذلك أديبًا ظريفًا وجيد الغناء. توفي في نيسابور سنة ٢٣٠ هـ. (ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٢، ص ٢٧١ ـ ٢٧٥).

(٢) شُونيزُهُ: الحبة السوداء (فارسية).

(٣) الشاعر هو أحمد بن إسماعيل بن نطاحة. وقد مرت ترجمته في هامش الصفحة ٩.

(٤) السِّمْطُ: خيط النظم، الجمع سموط.

(٥) هو أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري، أديب وناقد ولغوي، اشهر كتبه «كتاب الصناعتين أي الشعر والنثر. نسبته إلى عسكر مُكرم في الأهواز، توفي سنة ٣٩٥ هـ = ١٠٠٥ م. (الزركلي، الأعلام).

الكَتْبُ عَقْلُ شوارد الكلم والخطّ خيْط في يد الحِكَم
والخطّ نظّم كلَّ منتشر منها وفَصَّل كلَّ منتظم
والسيفُ وهو بحيث تعرفه فرضٌ عليه عبادةُ القلم

وقد ٱختلف الناس في الخطّ واللفظ، فقال بعضهم: الخطّ أفضلُ من اللفظ لأن اللفظ يُفْهِم الحاضرَ، والخطُّ يُفْهِم الحاضرَ والغائبَ.

قالوا: ومن أعاجيب الخطّ كثرةُ ٱختلافه والأصلُ فيه واحدٌ، كاختلاف صور الناس مع ٱجتماعهم في الصِّبغة. قال الصُّولي[١]: سئل بعض الكتاب عن الخطّ متى يستحقّ أن يوصف بالجودةِ؟ قال: إذا ٱعتدلت أقسامُه، وطالت ألفه ولامُه؛ وٱستقامت سطورُه، وضاهى صعودَه حدورُه؛ وتفتّحت عيونُه، ولم تشتبه راؤه ونونُه؛ وأشرق قرطاسُه، وأظلمت أنقاسُه[٢]، ولم تختلف أجناسُه؛ وأسرع إلى العيون تصوّرُه، وإلى القلوب ثمرُه؛ وقُدّرت فصولُه، وٱندمجت وُصولُه، وتناسَبَ دقيقُه وجليلُه؛ وتساوت أطنابُه، وٱستدارت أهدابُه؛ وخرج عن نَمَطِ الورّاقين، وبعُد عن تصنُّع المحرّرين؛ وقام لكاتبه مقام النِّسبة والحِلية وكان حينئذ كما قلتُ في صفة الخطّ: [من المتقارب]

إذا ما تَخلَّل قرطاسَه وساوره القلمُ الأرقَشُ[٣]
تَضمَّن من خطِّه حُلَّةً كمثل الدنانير أو أنقَشُ
حروف تكون لعين الكَليلِ نشاطًا ويقرؤها الأخفَشُ[٤]

وقال ٱبن المعتزّ: [من الطويل]

إذا أخذ القرطاسَ خِلتَ يمينَه تُفَتِّح نَوْرا أو تنظِّم جوهرا

وقيل لبعضهم: كيف رأيت إبراهيمَ الصُّوليَّ؟[٥] فقال: [من البسيط]

---

(١) هو أبو بكر محمد بن يحيىٰ بن عبد الله بن العباس بن محمد بن صول. وصول جده الأبعد وإليه ينسب وليس إلى بلدة صول المعروفة. أديب كبير اتصل بالخلفاء ونادمهم ولعب وإياهم الشطرنج كالراضي والمقتدر والمكتفي. أهم تصانيفه «أدب الكاتب»، «أخبار أبي تمام»، «أخبار السيد الحميري»، «أخبار القرامطة». توفي سنة ٣٣٦ هـ بالبصرة. (الأعلام، للزركلي).

(٢) أنقاس: جمع نِقْس، وهو المداد.

(٣) الأرقش: الذي فيه نقط سوداء وبيضاء.

(٤) الأخفش: الضعيف البصر.

يؤلِّف اللُّؤلؤَ المنثورَ مَنطِقُه ... وينظِم الدرَّ بالأقلام في الكتب

وقال آخرُ[١]: [من السريع]

أضحكْتَ قرطاسَك عن جَنَّةٍ ... أشجارها من حكَم مثمره
مسودَّة سطحًا ومبيضَّة ... أرضًا كمثل الليلة المقمره

وقال آخرُ: [من الطويل]

كتبتَ فلَوْلا أنّ هذا مُحلَّلٌ ... وذاك حرامٌ قستُ خطّك بالسحر
فوالله ما أدري أزهرُ خميلةٍ ... بِطِرْسِكَ أم درّ يلوح على نحر[٢]
فإن كان زهرًا فهو صنع سحابة ... وإن كان درًّا فهو من لُجج البحر

وقال آخرُ: [من السريع]

وكاتبٍ يرقُم في طِرسِه ... روضًا به ترتع ألحاظُه
فالدرّ ما تنظِم أقلامُه ... والسحر ما تنثِرُ ألفاظُه

وقال آخرُ: [من البسيط]

وشادنٍ من بني الكُتَّاب مقتدر ... على البلاغة أحلى الناسِ إنشاءَ
فلا يجاريه في مَيْدانه أحد ... يريك سَحبانَ في الإنشاء إن شاءَ[٣]

وقال آخرُ: [من البسيط]

إن هزّ أقلامَه يومًا لِيُعْمِلَهَا ... أنساك كلَّ كميٍّ هزَّ عامله[٤]
وإن أمرَّ على رِقّ أنامله ... أقرّ بالرِقّ كتّاب الأنام له[٥]

---

(١) هو أبو العباس بن محمد بن صول. أحد الشعراء المجيدين. وله نثر بديع. اتصل بالفضل بن سهل، ذي الرئاستين، وتولى الكتابة في الدواوين حتى وفاته بسُر مَن رأى سنة ٢٤٣ هـ. (ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ١، ص ٢٥ ـ ٢٩).

(٢) هو أحمد بن إسماعيل المعروف بابن نطاحة، كما جاء في أدب الكتاب (مرت ترجمته على هامش الصفحة ٩).

(٣) الطرس: جمع أطراس وطروس، الصحيفة.

(٤) سحبان: هو سحبان وائل، ضرب به المثل في البيان البلاغة والخطابة، ترجم له الجاحظ في كتاب البيان والتبيين في أماكن عدة، ما ذكره في كتاب الحيوان، المقدمة في مدح الكتب.

(٥) عامل الرمح: وسطه.

(٦) الرق: (١) الصحف يكتب عليها؛ (٢) العبودية.

وقال أبو الفتح كُشاجِمُ[١]: [من الخفيف]

وإذا نـمـنـمـت بـنـانُـك خـطًّـا مُـعْـرِبًـا عـن بـلاغـة وسَـدادِ
عَـجِب الـنـاسُ من بـياض معـانٍ تُـجـتـنَـى مـن سـواد ذاك الـمِـدادِ

وقال الممشوق[٢] الشاميّ شاعر اليتيمة: [من المنسرح]

لا يُـخْـطِـر الـفـكـرَ في كـتـابـتـه كـأنّ أقـلامَـه لـهـا خـاطـر
الـقـولُ والـفـعـل يـجـريـان مـعًـا لا أوّلٌ فـيـهـمـا ولا آخـر

قال أبو عثمانَ عمرو بن بحر الجاحظ: الكتاب نِعم الذُّخر والعُقْدة[٣]، ونِعم الجليس والعمدة، ونِعم النُّشرة[٤] والنُّزهة، ونِعم المُشْتَغَلُ والحِرفة، ونِعم الأنيس ساعة الوُحدة ونِعم المعرفة ببلاد الغُرْبة، ونِعم القَرين والدَّخيل، والوزيرُ والنَّزيل؛ والكتاب وِعاء مُلِيء علمًا، وظَرْف حُشِيَ ظَرْفًا، وإناء شُحِنَ مُزاحًا وجِدًّا، إن شئتَ كان أبْينَ من سحبانِ وائل، وإن شئتَ كان أعيا من باقِل[٥]، وإن شئتَ ضحكتَ من نوادره وعجِبتَ من غرائب فوائده، وإن شئت أَلْهَتْكَ نوادرُه، وإن شئت شَجَتْك مواعظُه ومَنْ لك بواعظ مُلْهٍ، وبزاجر مُغْرٍ، وبناسك فاتك، وناطقٍ أخرسَ، وببارد حارّ ومن لك بطبيب أعرابيّ، وبروميّ هنديّ، وفارسيّ يونانيّ، وبقديم مُوَلَّد، وبميت مُمتِع، ومن لك بشيءٍ يجمع لك الأوّلَ والآخرَ، والناقصَ والوافرَ، والشاهدَ والغائبَ والرفيعَ والوضِيع، والغثّ والسمِين، والشكلَ وخلافَه، والجنس وضدّه؛ وبعد: فمتى رأيت بستانًا يُحمَلُ في رُدْن[٦]؟ وروضةً تُقلَّب في حِجر؟ ينطق عن الموتى، ويترجم كلام الأحياء، ومن لك بمؤنس لا ينام إلّا بنومك، ولا ينطق إلّا بما تهوَى، «آمن من الأرض» وأكتمُ للسر من صاحب السرّ، وأضبطُ لحفظ الوديعة من أرباب الوديعة، وأحضر لما أُستُحفِظ من الأمّيين، ومن الأعراب المعْربين، بل

(١) هو أبو الفتح محمود كُشاجم السندي، عمل طباخًا في بلاط سيف الدولة الحمداني، وتعاطى التنجيم، وتوفي سنة ٩٦١ م. له كتاب «أدب النديم» الذي طبع في القاهرة سنة ١٨٠٣ م. ونسب إليه كتب البزيرة» في الصيد وهو مخطوط في غوط. (المنجد).
(٢) الممشوق أو المشوق الشامي هو عبد المحسن بن محمد الصوري. (اليتيمة، ج ١، ص ٢٣٥، المطبعة الحنفية). لعله عبد المحسن بن محمد بن أحمد بن غالب الصوري، ولد وعاش ومات في صور.
(٣) العقدة: ما يحفظ به الإنسان ويحكم إغلاقه.
(٤) النشرة الرقية التي يعالج بها المريض، سميت نشرة لأنها تنشر الداء وتكشفه وتزيله.
(٥) شخص ضرب به المثل بالعي.
(٦) الردن: أصل الكم، جمعه أردان.

من الصِّبيان قبل اعتراض الأشغال، ومن العُميان قبل التَمتُّع بتمييز الأشخاص، حِينَ العنايةُ تامة لم تُنتَقصْ والأذهانُ فارغة لم تُقتَسَمْ، والإراداتُ وافرة لم تتشعب، والطينةُ لينة فهي أَقْبَلُ ما تكون للطابعَ، والقضيبُ رَطْب فهو أقرب ما يكون للعُلُوق، حينَ هذه الخصالُ لم يُلبَس جديدُها، ولم تتفرّقْ قواها، وكانت كقول الشاعر: [من الطويل]

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلبي فارغًا فتمكّنا

وقال ذو الرُّمَّة[١] لعيسى بن عمَر[٢]: أُكتُبْ شعري، فالكتاب أعجب إليّ من الحفظ لأن الأعرابيّ يَنسَى الكلمةَ قد تعب في طلبها يومًا أو ليلةً، فيضع موضعَها كلمة في وزنها لم يُنشِدْها الناس، والكتابُ لا يَنسى ولا يُبدِّلُ كلامًا بكلام. قال: ولا أعلم جارًا أبرَّ، ولا خليطًا أنصَفَ، ولا رفيقًا أطوعَ، ولا معلّمًا أخضَعَ، ولا صاحبًا أظهَر كفايةً، ولا أقلَّ خيانةً، ولا أقلّ إبرامًا وإملالًا، ولا أقل خلافًا وإجرامًا ولا أقلّ غِيبةً، ولا أكثرَ أُعجوبةً وتصرّفًا، ولا أقلَّ صَلَفًا وتكلُّفًا، ولا أبعدَ من مِراء، ولا أتركَ لشَغْب، ولا أزهدَ في جدال، ولا أكَفَّ عن قتال من كتاب؛ ولا أعلمُ شجرةً أطولَ عمرًا، ولا أجمعَ أمرًا، ولا أطيبَ ثمرةً، ولا أقربَ مُجتَنًى ولا أسرعَ إدراكًا، ولا أوجَدَ في كل إبَّانٍ[٣] من كتاب؛ ولا أعلمُ نَتاجًا في حداثة سنّه وقربِ ميلاده، وحضورِ ذهنه، وإمكانِ موجوده، يجمع من التدابير العجيبة، والعلومِ الغريبة، ومن آثار العقول الصحيحة، ومحمود الأذهان اللطيفة، ومن الأخبار عن القرون الماضية، والبلادِ المتراخية، والأمثالِ السائرة، والأمم البائدة ما يجمع الكتاب؛ وقد قال الله تبارك اسمه لنبيه ﷺ: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤﴾ [العَلق: الآيتان ٣، ٤] فوصف نفسه تعالى جَدّه بأن علّم بالقلم، كما وصف نفسَه بالكرم، واعتدّ ذلك من نعمه العظام، وفي أيادِيه الجِسام[٤].

---

(١) ذو الرُّمة: هو الشاعر غيلان بن عقبة، بدوي تردد على البصرة والكوفة، وأغرم بحب مية وشبب بها، وعاصر جرير أو الفرزدق. وترك ديوان شعر يحوي ثلثي لغة العرب. توفي سنة ١١٧هـ ودفن في البادية. (ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٣ ص ١٨٤ ـ ١٨٩).

(٢) عيسى بن عمر: هو أبو عمرو عيسى بن عمر الثقفي النحوي البصري. عرف بتقصيره في كلامه واستعمال الغريب فيه، وبقراءته. أخذ عنه سيبويه النحو وقد ألف فيه كتابًا سماه «الجامع» وأخذ عنه الخليل بن أحمد والأصمعي القراءات. توفي سنة ٢٤٩ هـ (ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٣، ص ٥٤).

(٣) الإبان: الوقت والحين.

(٤) هذا النص مستل من كتاب الحيوان للجاحظ مع شيء من التصرف. وقد ورد في الجزء الأول=

ذكر شيء مما قيل في آلات الكتابة

قال إبراهيم بن محمد الشَّيبانيُّ فيما يحتاج إليه الكاتب:

من ذلك أن يصلح الكاتب آلته التي لا بدّ منها، وأداتَه التي لا تتمّ صناعتُه إلا بها، وهي دواته، فليُنعِمْ ريّها وإصلاحها، ثم يتخير من أنابيب القصب أقلّه عُقَدًا وأكثفَه لحمًا، وأصلَبَه قشرًا، وأعدلَه استواءًا، ويجعل لقرطاسه سكّينًا حادًّا لتكون عونًا له على بري أقلامه، ويَبريها من جهة نبات القصبة، فإنّ محلّ القلم من الكاتب كمحلّ الرمح من الفارس. وقد خَصَّ الفضلاءُ القلَم بأوصاف كثيرة، ومزايا خطيرة فلنذكر منها طَرَفًا.

ذكر شيء مما قيل في القلم

قال الله تعالى: ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ۝١﴾ [القلم: الآية ١]، وقال: ﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤﴾ [العَلق: الآيتان ٣، ٤].

وقال الحكماء: القلم أحد اللسانين، وهو المخاطِب للعيون بسرّ القلوب. وقالوا: عقول الرجال تحت أسنّة أقلامها. بِنَوْءِ[1] الأقلام يصُوب غيث الحكمة. القلم صائغ الكلام، يُفرِغ ما يجمعه القلب، ويصُوغ ما يسبِكه اللُّبّ.

وقال جعفر بن يحيىٰ: لم أر باكيًا أحسنَ تبسمًا من القلم.

وقال المأمون: لله درّ القلم كيف يَحُوك وَشْي المملكة!.

وقال ثُمامة بن أَشْرَس[2]: ما أثَّرته الأقلامُ، لم تطمع في دَرسه الأيام. بالأقلام تُدَبَّرُ الأقاليمُ. كتاب المرء عُنوان عقله، ولسان فضله. عقل الكاتب في قلمه.

وقال ابن المعتزّ: القلم مُجَهِّزٌ لجيوش الكلام، يُخدِم الإرادة كأنه يقبِّل بِساط سلطان، أو يفتِّح نُوَّار بستان.

= فيه، وفي المقدمة، وفي الصفحة ٣٢ ـ ٣٥ من طبعة دار ومكتبة الهلال في بيروت الأولى، سنة ١٩٨٦.

(١) النوء: النجم إذا مال للمغيب، جمعه أنواء ونوآن، أو المطر وكانوا يعتقدون أن الأمطار والرياح والبرد تتعلق بحركة الأنواء أو النجوم.

(٢) ثمامة بن أشرس: متكلم معتزلي كبير، اتصل بالمأمون وحظي عنده. وقال بحرية الإنسان، وكان سيىء الظن بالعامة ويكره معاوية كرهًا شديدًا. وكان إلى ذلك بذيء اللسان ميالًا للانتقام من خصومه. استغل حظوته لدى المأمون لنصرة المعتزلة ومذهبهم. (ابن المرتضى، طبقات المعتزلة، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٦١، ص ٦٢ ـ ٦٧).

وقال الحسن بن وهب: يحتاج الكاتب إلى خلال: منها جَودةُ بري القلم وإطالةُ جِلْفَته[١]، وتحريفُ قطّته، وحُسْن التأتّي لامتطاء الأنامل، وإرسالُ المَدّة بعد إشباع الحروف، والتحرُّز عند فراغها من الكسوف، وتركُ الشكل على الخطإ والإعجام على التصحيف.

وقال العَتَّابيّ: سألني الأَصْمَعِيُّ في دار الرشيد: أيّ الأنابيب للكتابة أصلَحُ وعليها أَصْبَرُ؟ فقلت له: ما نَشِف بالهجير[٢] ماؤه، وستَره من تلويحه غِشاؤه؛ من التِّبْرِيَّة[٣] القشور، الدُّرِّيَّة الظهور، الفضّيّة الكسور؛ قال: فأي نوع من البري أصوبُ وأكتَبُ؟ فقلت: البِرية المستوية القَطّة التي عن يمين سنها برية تؤمن معها المَجَّة عند المدة والمطَّة، للهواء في شقّها فتيق، والريحُ في جوفها خَريقٌ[٤]، والمداد في خُرطومها رقيق. قال العتابيّ: فبقيَ الأصمعيّ شاخصًا إليّ ضاحكًا، لا يُحِير مسألة ولا جوابًا.

وكتب عليّ بن الأزهر إلى صديق له يستدعي منه أقلامًا: أما بعد: فإنا على طول الممارَسة لهذه الكتابة التي غَلبت على الاسم، ولزمت لزومَ الوَسم[٥]؛ فحلّت محل الأنساب، وجرت مَجرى الألقاب؛ وجدنا الأقلام الصُّحْريّة[٦] أجرى في الكواغد[٧] وأمرَّ في الجلود، كما أنّ البحريّة منها أسلسُ في القراطيس، وألينُ في المعاطف وأشد لتعريف الخط فيها، ونحن في بلد قليلِ القصب رديئِه، وقد أحببتُ في أن تتقدّم في اختيار أقلام صُحْريّة، وتتنوّق[٨] في ٱقتنائها قِبلك، وتطلبَها من مظانّها ومنابتها من شطوط الأنهار، وأرجاء الكروم، وأن تتيمّن[٩] بٱختيارك منها الشديدةَ الصُّلبة النقيّةَ الجلود، القليلةَ الشحوم، الكثيرةَ اللحوم، الضيقةَ الأجواف، الرزينةَ الْمَحمِل فإنها أبقى على الكتابة، وأبعدُ من الحَفَا، وأن تقصد بٱنتقائك للرِقاق القُضبان المقوَّماتِ المتون، الْمُلْسِ المَعَاقد، الصافيةِ القشور، الطويلةِ الأنابيب، البعيدةِ ما بين الكعوب، الكريمةِ الجواهر، المعتدلةِ القوام، المستحكِمةِ يَبَسًا وهي قائمةٌ على أصولها، لم تُعجَل عن إبّان ينعها، ولم تؤخَّر إلى الأوقات المخُوفة عليها من

(١) جلفة القلم: ما بين مبراه إلى سنة.
(٢) الهجير: شدة الحر.
(٣) التبرية: نسبة إلى التبر أي الذهب.
(٤) الخريق: الذي يتخلله الهواء أو يخرقه.
(٥) الوسم: أثر الكي.
(٦) الصحرية: نسبة إلى الصحرة: وهي أرض وسط الحرة كثيرة الحجارة.
(٧) الكواغد: جمع كاغد أي القرطاس أو الورق.
(٨) تتنوق: تتأنق.
(٩) تتيمن: الأصح تتيمم أي تقصد.

خَصَر[١] الشتاء وعَفَن الأنداء[٢]؛ فإذا ٱستجمَعَتْ عندك أمرت بقطعها ذراعًا ذراعًا قَطْعًا رقيقًا، ثم عبأت منها حُزَمًا فيما يصونها من الأوعية، ووجَّهتها مع من يؤدّي الأمانة في حراستها وحفظها وإيصالها وتكتب معها بعدّتها وأصنافها بغير تأخير ولا توان، إن شاء الله تعالى.

وأهدى ابن الحَرُون[٣] إلى بعض إخوانه أقلامًا وكتب إليه:

إنه لما كانت الكتابة ـ أبقاك الله ـ أعظمَ الأمور، وقِوامَ الخلافة، وعمودَ المملكة أتحفتك من آلتها بما يخف حَمله، وتثقُل قيمتُه، ويعظُم نفعُه، ويجلّ خطرُه، وهي أقلام من القصب النابت في الصحراء الذي نَشِف بحرّ الهجير في قشره ماؤه، وستره من تلويحه غشاؤه؛ فهي كاللآليء المكنونة في الصدف، والأنوار المحجوبة في السَدَف[٤]؛ تِبريّة القشور، دُرّية الظهور، فضية الكسور؛ قد كستها الطبيعة جوهرًا كالوَشْي المحَبَّر، ورونقًا كالديباج المنيَّر.

ومن كتاب لأبي الخطاب الصابي ـ يصف فيه أقلامًا أهداها في جملة أصناف ـ جاء منه:

وأضفتُ إليها أقلامًا سليمةً من المعايب، مبرّأةً من المثالب؛ جَمّةَ المحاسن بعيدةً عن المطاعن؛ لم يُرَ بها طول ولا قصر، ولم يَنقُصها ضعف ولا خَور؛ ولم يَشِنْهَا لِينٌ ولا رَخاوة، ولم يعبها كَزَازة[٥] ولا قساوة؛ فهذه آخذةٌ بالفضائل من جميع جهاتها، مستوفيةٌ للممادح بسائر صفاتها؛ صُلْبةُ المعاجم، لَيِّنَةُ المَقَاطع؛ مُوفيةُ القدود والألوان، محمودةُ المَخْبَر والعِيان؛ قد ٱستوى في الملاسة خارجُها وداخلُها، وتَناسَب في السلاسة عاليها وسافلُها؛ نبتت بين الشمس والظلّ، واختلف عليها الحرّ والقُر؛ فلفَحها وَقَدَانُ[٦] الهواجر، وسفعتها سمائم شهر ناجر[٧]؛ ووقذها الشَّفَّانُ بصَرْدِه[٨]، وقذفها الغمام بِبَرْده؛ وصابتها الأنواء بصَيِّبها[٩]، وٱستهلّت عليها السحائب

(١) خصر الشتاء: برده.
(٢) الأنداء: جمع الندى. قطرات الماء المتكاثفة.
(٣) ابن الحرون: هو محمد بن أحمد بن الحسين بن الأصبغ بن الحرون من أهالي بغداد.
(٤) السدف: ظلمة الليل.
(٥) الكزازة: اليبس والانقباض.
(٦) وقدان: حر.
(٧) ناجر: كل شهر فيه حرارة شديدة يدعى ناجرًا لأن الإبل تنجر فيه أي يشتد عطشها.
(٨) وقذها الشفان بصرده: وقذ: ضرب. الشفان: الريح الباردة مع المطر. الصرد: البرد.
(٩) الصيب: المطر.

بشآبيبها[١]؛ فاستمرّت مرائرها[٢] على إحكام، وٱستحصد سَحْلُها بالإبرام[٣]؛ جاءت شَتَّى الشِيات[٤]، متغايرَة الهيئات، متباينةَ المحالّ والبُلدان؛ تختلف بتباعد ديارها، وتأتلف بكرم نِجارها؛ فمن أنابيبَ ناسبت رماحَ الخَطّ في أجناسها، وشاكلت الذهب في ألوانها، وضاهت الحرير في لمعانها؛ بطيئةُ الحفا[٥]، مُمَرّة القُوَى؛ لا يُشظيها[٦] القطّ، ولا يُشعِّث[٧] بها الخط؛ ومن مصريّةٍ بيض، كأنها قُباطيُّ[٨] مصر نقاء، وغِرْقِىءُ البَيض[٩] صفاء؛ غذاها الصعيد من ثراه بلبّه وسقاها النيل من نمِيره وعذبه؛ فجاءت ملتئمةَ الأجزاء، سليمةً من الالتواء؛ تستقيم شقوقُها في أطوالها، ولا تنكّب عن يمينها ولا شِمالها؛ تقترن بها صفراءُ كأنها معها عِقْيانٌ[١٠] قُرن بلُجَين[١١]، أو ورِقٌ خلط بعَيْن[١٢]؛ تختال في صُفر مَلاحفها، وتميس في مُذهب مَطارفها[١٣]؛ بلون غياب الشمس، وصِبغ ثياب الوَرْس[١٤]، ومن منقوشة تَرُوق العين، وتُونق النّفس؛ ويهدي حسنُها الأرْيَحيّةَ إلى القلوب، ويحُلّ الطرب لها حَبْوةَ الحكيم اللبيب؛ كأنها ٱختلافُ الزهر اللامع، وأصنافُ الثمر اليانع؛ ومن بحريَّة مَوْشيَّةِ اللِّيط[١٥] رائقةِ التخليط[١٦]؛ كأنّ داخِلَها قطرةُ دم، أو حاشيةُ رداء مُعَلم، وكأنّ خارجهَا أرْقَم، أو متنُ واد مُفْعم، نَشرت ألوانًا تُزرى بورد الخدود، وأبدت قامات تفضح أوَدَ[١٧] القُدود. [من الطويل]

وقد أكثر الشعراء القول في وصف القلم، فمن ذلك قول أبي تمّام الطائيّ: [من الطويل]

لك القلم الأعلى الذي بشَباته تصاب من الأمر الكُلَى والمفاصلُ

(١) شآبيب: جمع شؤبوب: الدفعة من المطر.
(٢) مرائرها: واحدة مريرة وهي الحبل المفتول، شبه بها القصب.
(٣) السحل: الحبل المفتول على طاقة واحدة. والإبرام: الحبل المفتول على طاقتين.
(٤) شتى الشيات: مختلفة الألوان.
(٥) بطيئة الحفا: لا يبريها أو ينقصها الجري على القرطاس والاحتكاك به. يقال: حفا شاربه أو شعره إذا بالغ في أخذه أو قصه.
(٦) يشظيها: يفتتها إلى شظايا أو قطع صغيرة. (٧) يشعث: يفرق.
(٨) القباطي: ثوب أبيض رقيق يصنع في مصر. (٩) غرقىء البيض: بياض البيض.
(١٠) العقيان: الذهب الخالص. (١١) اللجين: الفضة.
(١٢) ورق خلط بعين: نقود ورقية على شكل دينار (عين).
(١٣) المطارف: الثياب المصنوعة من الخز. (١٤) الورس: نبات أصفر.
(١٥) الليط: القشر. (١٦) التخليط: التخطيط.
(١٧) الأود: الانحناء والتثني.

لُعـاب الأفـاعـي الـقـاتـلاتِ لُعـابُـه وأَرْيُ الجنَى أشتارته أيدٍ عـواسـل[١]
لـه ريـقـةٌ طَـلٌ ولـكـنّ وَقـعَـهـا بـآثـاره فـي الـشـرق والـغـرب وابـل
فصيح إذا استنطقتَه وهو راكب وأعـجـمُ إن خـاطـبـتَـه وهـو راجـل
إذا ما أمتطى الخمسَ اللِّطافَ وأُفرِغت عليه شِعابُ الفكر وهي حوافل
أطاعتـه أطـرافُ الـقـنـا وتـقـوّضـت لنجواه تقويضَ الخِيام الجحافل
إذا أستَغزر الذهنَ الجليَّ وأقبلت أعاليه في القرطاس وهي أسافل
وقد رفدتـه الـخِـنـصـران وسَدَّدت ثـلاثَ نـواحـيـه الـثـلاثُ الأنـامـل
رأيـت جـلـيـلًا شـأنُـه وهـو مـرهَـف ضنًى وسمينًا خَطبُه وهو ناحل

وقال آخر: [من البسيط]

قوم إذا أخذوا الأقلام من غضب ثم أستمدّوا بها ماءَ المنيّات
نالوا بها من أعاديهم وإن بعُدوا ما لم ينالوا بحدّ المَشْرَفِيَّات[٢]

وقال أبن المعتزّ: [من الخفيف]

قـلم مـا أراه أم فَـلَك يَـجـري بـمـا شـاء قـاسـم ويَـسـيـر
خـاشـع فـي يـديـه يـلقِـمُ قـرطـا سًا كما قبَّل البِساط شكور[٣]
ولطيفُ المعنى جليل نحيف وكـبـيـر الأفـعـال وهـو صـغـيـر
كـم مـنـايـا وكـم عـطـايـا وكـم حـتـفٍ وعـيـشٍ تَـضُـم تـلـك الـسـطـور
نَـقَـشَـتْ بـالـدجـى نـهـارًا فـمـا أدرى أخـطٌّ فـيـهـن أم تـصـويـر

وقال محمد[٤] بن عليّ: [من البسيط]

في كفهِ صارمٌ لانَتْ مَضاربه يسوسنا رَغَبًا إن شاء أو رَهَبا
السيف والرمح خُدّام له أبدًا لا يَبلغان له جِدًّا ولا لعبا
تجري دماءُ الأعادي بين أسطره ولا يُحَس له صوت إذا ضَربا
فما رأيت مداداً قبل ذاك دمًا ولا رأيت حسامًا قبل ذا قَصبا

(١) الأري: عسل النحل. يقصد مداد القلم. (٢) يعني أن الكلام أشد فتكًا من السيوف.
(٣) يشبه جريان القلم على القرطاس بجريان السفينة في البحر.
(٤) الأصح نسبة هذه الأبيات إلى أبي بكر محمد بن يحيىٰ الصولي (سبقت ترجمته) من قصيدة يمدح بها محمد بن علي.

وقال ٱبن الروميّ: [من المتقارب]

لعمرك ما السيفُ سيفُ الكمِّي ... بـأخـوفَ مـن قـلـم الـكـاتـب
لـه شـاهـد إن تـأمّـلتَـه ... ظـهـرتَ عـلـى سـره الـغـائـب
أداةُ الـمـنـيّـة فـي جـانـبـيـه ... فـمِـن مـثـلِه رهـبـةُ الـراهـب
ألـم تـر فـي صـدره كـالـسـنـان ... وفي الرِدف كالمرهَف القاضب؟

وقال الرفّاء[1]: [من السّريع]

أخـرسُ يـنـبـيـك بـإطـراقـه ... عـن كـل مـا شـئـتَ مـن الأمـر
يُـذري عـلـى قـرطـاسـه دمـعَـه ... يُـبـدي لـنـا الـسـرّ ومـا يـدري
كـعـاشـق أخـفـى هـواه وقـد ... نـمّـت عـلـيـه عَـبـرةٌ تـجـري
تـبـصِـره فـي كـل أحـوالـه ... عُـريانَ يكسـو النـاس أو يُعـرِي
يُـرَى أسـيـرًا فـي دواة وقـد ... أطـلق أقـوامًـا مـن الأسْـر

وقال آخر: [من السريع]

وذي عـفـافٍ راكـعٍ سـاجـدٍ ... أخـو صـلاح دمـعـه جـاري
مـلازم الـخـمـسِ لأوقـاتـهـا ... مـجـتـهـد فـي خـدمـة الـبـاري

وقال ٱبن الروميّ: [من البسيط]

إن يخدُم القلم السيفُ الذي خضعت ... لـه الـرقـابُ ودانـت خـوفَـه الأمـم
فـالـموت والـموت لا شـيءٌ يـغـالـبه ... مـا زال يَـتـبـع مـا يـجـري بـه الـقـلـم
كـذا قـضـى الله لـلأقـلام مـذ بُـرِيَـت ... أن الـسـيـوف لـهـا مـذ أرهِـفـت خَـدم

وقال أبو الطيّب الأزديّ: [من الرّمل]

قـلَـم قـلَّـم أظـفـار الـعـدى ... وهـو كالإصبع مقصوصَ الظُّفُر
أشـبـه الـحـيّـة حـتـى أنـه ... كـلـمـا عُـمِّـر فـي الأيـدي قَـصُـر

---

(١) الرفاء: هو أبو الحسن السري بن أحمد بن السري الكندي الموصلي الشاعر المعروف. كان في صباه يرفو ويطرز في دكان الموصل، ولكنه كان مولعًا بالأدب وينظم الشعر. قصد سيف الدولة الحمداني في حلب ومدحه وبعد موته قصد بغداد ومدح الوزير المهلبي. يمتاز شعره بالطبعية والعذوبة وحسن التشبيهات والأوصاف. توفي في بغداد سنة ٣٦٤ هجرية. (ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٢، ص ١٠٤ ـ ١٠٦).

وقال أبو الحسن بن عبد الملك بن صالح الهاشميّ: [من الطويل]

وأسمرَ طاوي الكَشحِ أخرسَ ناطق له زَمَلان [١] في بطون المَهارق [٢]

ذكر ما يحتاج الكاتب إلى معرفته من الأمور الكلية [٣]

قال شهاب الدين أبو الثناء محمودُ بنُ سليمانَ الحلبيُّ في كتابه «حسن التوسل»: فأوّل ما يبدأ به من ذلك حفظُ كتاب الله تعالى، ومداومةُ قراءته، وملازمةُ درسه وتدبُّرُ معانيه حتى لا يزال مصوّرًا في فكره، دائرًا على لسانه، ممَثلًا في قلبه، ذاكرًا له في كل ما يرِد عليه من الوقائع التي يحتاج إلى الاستشهاد به فيها، ويَفتقِر إلى إقامة الأدلّة القاطعة به عليها؛ وكفى بذلك معِينًا له في قصده، ومغْنيًا له عن غيره، قال الله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: الآية ٣٨].

وقد أُخرج من الكتاب العزيز شواهدُ لكل ما يدور بين الناس في محاوراتهم ومخاطَباتهم مع قصور كل لفظ ومعنى عنه، وعجزِ الإنس والجنّ عن الإتيان بسورة من مثله؛

ومن ذلك أن سائلًا قال لبعض العلماء: أين تجد في كتاب الله تعالى قولَهم: الجار قبل الدار؟ قال: في قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ﴾ [التّحريم: الآية ١١] فطلبت الجارَ قبل الدار، ونظائرُ ذلك كثيرة. وأين قول العرب: «القتلُ أنفَى للقتلِ» لمن أراد الاستشهاد في هذا المعنى قوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٧٩]. وأكثر الناس على جواز الاستشهاد بذلك ما لم يحوَّلْ عن لفظه، ولم يغيِّرْ معناه.

فمن ذلك ما رُوِي في عهد أبي بكر رضي الله عنه: هذا ما عهد أبو بكر خليفةُ رسول الله ﷺ آخرَ عهدِه بالدنيا، وأوّلَ عهدِه بالآخرة، إني استخلفت عليكم عمرَ بنَ الخطّاب، فإن برّ وعَدَل فذلك ظنّي به، وإن جار وبدّل فلا علم لي بالغيب، والخيرَ أردتُ بكم، ولكل امرىء ما اكتسب من الإثم ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ٢٢٧].

---

(١) الزملان: مشي الدابة. (٢) المهارق: واحدة مُهرق، وهي الصحف.
(٣) ما هو محصور بين مربعين يعني أنه لم يرد في الأصل. وقد استل من كتاب اسمه «حسن التوسل».

ورُوي أن عليًا رضي الله عنه قال لِلمُغِيرة بنِ شُعْبة(١) لما أشار عليه بتولية معاوية: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ [الكهف: الآية ٥١].

وكتب في آخر كتاب إلى معاوية: وقد علمتَ مواقع سيوفنا في جدّك وخالك وأخيك ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هُود: الآية ٨٣].

وقول الحسن بن علي عليه السلام لمعاوية: ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾﴾ [الأنبياء: الآية ١١١]، ورُوِي مثل ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وكتب الحسن إلى معاويةَ: أما بعد، فإن الله بعث محمدًا ﷺ رحمة للعالمين، ورسولًا إلى الناس أجمعين ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [يس: الآية ٧٠].

وكتب محمد بنُ عبد الله بنِ الحسن بنِ الحسن بنِ علي(٢) إلى المنصور في صدر كتاب لمّا حاربَه: ﴿طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾﴾ [الشُّعَراء: الآيتان ١، ٢]، ﴿نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ﴾ إلى قوله: ﴿مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾ [القَصَص: الآيات ٣ ـ ٦]. ونَقَضَ عليه المنصور في جوابه عن قوله: «إنه ابنُ رسول الله ﷺ» بقوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب: الآية ٤٠].

ونُقِل عن الحسن البصريّ(٣) رحمه الله ما يدل على كراهية ذلك، فقال حين بلغه أن الحجاج أنكر على رجل استشهد بآية: أنَسِيَ نفسه حين كتب إلى عبد الملك بن مروان: بلغني أن أمير المؤمنين عطس فشمّتَهُ من حضر فَردَّ عليهم ﴿يَٰلَيْتَنِي كُنتُ

(١) المغيرة بن شعبة: صحابي ثقفي كوفي، أسلم يوم الخندق، وشهد الحديبية، ولاه عمر بن الخطاب البصرة، شارك في معارك القادسية ونهاوند وذهبت عينه يوم اليرموك. عرف بالدهاء، وحكم الكوفة وأخذ الفتن بين الشيعة والخوارج. توفي بالطاعون سنة ٦٦٦ هـ. (المنجد).

(٢) محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي (ـ ٧٦٢ م). لقب بالنفس الزكية، أمضى حياته يطالب الأمويين والعباسيين بالخلافة بشجاعة وهمة حتى قتل سنة ٧٦٢ م في المدينة. (المنجد).

(٣) الحسن البصري: (٦٤٢ ـ ٧٢٨ م)، ولد في المدينة ونشأ في وادي القرى، واستقر في البصرة حيث توفي. انصرف إلى الوعظ والعبادة في جامع البصرة وعرف بورعه وتقاه وتقشفه. أثبت له الجاحظ في كتاب البيان والتبيين مجموعة كبيرة من المواعظ والحكم واعتبره أصحاب الفرق الدينية رئيسهم كالمعتزلة والمتصوفة والمرجئة لأنه جمع كل فن في علم وزهد وورع وعبادة، ورفض مبايعة يزيد بن معاوية. (ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ١، ص ٣٥٤).

مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [النساء: الآية ٧٣]؟ وإذا صحت هذه الرواية عن الحسن فيمكن أن يكون إنكارُه على الحجاج لأنه أنكر على غيره ما فعله هو. وذهب بعضهم إلى أن كل ما أراد الله به نفسَه لا يجوز أن يُستشهَدَ به إلا فيما يضاف إلى الله سبحانه وتعالى مثل قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: الآية ١٦]. وقوله تعالى: ﴿بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: الآية ٨٠] ونحو ذلك مما يقتضيه الأدب مع الله سبحانه وتعالى.

ومن شرف الاستشهاد بالكتاب العزيز إقامةُ الحجة، وقطعُ النزاع، وإرغامُ الخصم كما رُوي أن الحجاج قال لبعض العلماء: أنت تزعم أن الحسين رضي الله عنه من ذرية رسول الله ﷺ، فأتني على ذلك بشاهد من كتاب الله عز وجل، وإلا قتلتك؛ فقرأ: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ﴾ إلى قوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ [الأنعام: الآيات ٨٣ - ٨٥] وعيسى هو ابنُ بنته؛ فأسكت الحجاج. وقد تقوم الآيةُ الواحدةُ المستشهد بها في بلوغ الغرض وتوفية المقاصد ما لا تقوم به الكتب المطوّلة، والأدلّةُ القاطعةُ؛

وأقرب ما اتفق من ذلك أن صلاح الدين[1] رحمه الله كتب إلى بغداد كتابًا يعدِّد فيه مواقفه في إقامة دعوة بني العباس بمصر، فكُتب جوابُه بهذه الآية: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الحُجرَات: الآية ١٧].

وكتب أمير المسلمين يعقوبُ بنُ عبد المؤمن إلى الأذْفُونِش[2] مَلكِ الفرنج جوابًا عن كتابه إليه ـ وكان قد أبرق وأرعد فكتب في أعلاه ـ:

﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [النّمل: الآية ٣٧].

---

(١) صلاح الدين الأيوبي (٥٣٢ هـ = ٥٨٩ هـ/ ١١٣٧ م ـ ١١٩٣ م) هو مؤسس الدولة الأيوبية، ولد في تكريت ونشأ وتوفي في دمشق، وسيطر على بلاد الشام ومصر وحارب الصليبيين وهزمهم في وقعة حطين سنة ١١٨٧ وفتح القدس. عرف بشجاعته وكرمه وقناعته وتواضعه وكان رفيق الناس، ورجل سياسة وحرب. (الزركلي، الأعلام).

(٢) هو ألفونس الثاني ملك البرتغال (١٢١١ ـ ١٢٢٣ م). حارب العرب وغلبهم في عدة مواقع أهمها موقعة «قصر الملح». (المنجد).

ومما جوّزوا الاستشهاد به ما لا يقصد به إلا التلويحُ إلى الآية دون اَطّراد الكلام نحو قول القاضي الفاضل[١] مما كَتب به إلى الخليفة عن الملك الناصر صلاح الدين في الاستصراخ وتهويل أمر الفرنج: ﴿رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى﴾ [المَائدة: الآية ٢٥] وها هي في سبيلك مبذولة، وأخي وقد هاجر إليك هجرة يرجوها مقبولة. وأما تغيير شيء من اللفظ أو إحالةُ معنى عما أريدَ به فلا يجوز، وينبغي العدل عنه ما أمكن.

ويتلو ذلك الاستكثارُ من حفظ الأحاديث النبوية ـ صلوات الله وسلامه على قائلها ـ وخصوصًا في السير والمغازي والأحكام، والنظر في معانيها وغريبها وفصاحتها وفقهُ ما لا بدّ من معرفته من أحكامها، ليحتج بها في مكان الحجة، ويستدل بموضع الدليل، فإن الدليل على المقصد إذا استند إلى النص سُلِّم له، والفصاحةُ إذا طُلِبت غايتُها فإنها بعد كتاب الله في كلام من أوتي جوامعَ الكَلِمِ. وينبغي أن يراعى في الحَلِّ لفظ الحديث ما أمكن، وإلا فمعناه.

ويتلو ذلك قراءةُ ما يتفق من كتب النحو التي يحصل بها المقصود من معرفته العربيةَ، فإنه لو أتى الكاتب من البلاغة بأتمّ ما يكون ولَحن ذهبت محاسن ما أَتَى به وانهدمت طبقةُ كلامه، وألغِيَ جميعُ ما حسَّنه، ووُقِف به عند ما جهِله.

ويتعلق بذلك قراءة ما يتهيأ من مختصرات اللغة، كالفصيح، وكفاية المتحفظ وغيرِ ذلك من كتب الألفاظ ليتسعَ عليه مجال العبارة، وينفتحَ له باب الأوصاف فيما يحتاج إلى وصفه، ويضطر إلى نعته.

ويتصل بذلك حفظ خطب البلغاء من الصحابة وغيرهم، ومخاطباتِهم ومحاوراتِهم ومراجعاتِهم ومكاتباتِهم، وما ادّعاه كلّ منهم لنفسِه أو لقومه، وما نقضه عليه خَصمُه، لما في ذلك من معرفة الوقائع بنظائرها، وتلقِّي الحوادث بما شاكلها والاقتداءِ بطريقة من فَلَجَ[٢] على خصمه، واقتفاءِ[٣] آثار من اضطُر إلى عذر، أو إبطال دعوى أو إثباتها، والأجوبَةِ الدامغةِ[٤]؛ فتأمله في موضعه فإنك ستقف منه على ما اَستغنى به عن ذلك.

---

(١) القاضي الفاضل (١١٣٥ ـ ١٢٠٠) وزير صلاح الدين الأيوبي رافقه في رحلاته وتولى تدبير الدواوين، وبعد وفاته توسط لحل النزاع بين أولاده. (الزركلي، الأعلام).

(٢) فلج: ظفر. (٣) اقتفاء: تتبع.

(٤) الدامغة: المبطلة والماحقة.

ثم النظرُ في أيام العرب ووقائعهم وحروبِهم، وتسميةُ الأيام التي كانت بينهم، ومعرفةُ يوم كل قبيلة على الأخرى، وما جرى بينهم في ذلك من الأشعار والمنافَسات، لما في ذلك من العلم بما يُستشهَد به من واقعةٍ قديمةٍ، أو يَرِد عليه في مكاتبةِ مَنْ ذَكَرَ يومًا مشهورًا، أو فارسًا معيَّنًا وسنذكر ذلك إن شاء الله تعالى في فنّ التاريخ على ما ستقف عليه؛ فإن صاحب هذه الصناعة إذا لم يكن عارفًا بأيام العرب، عالمًا بما جرى فيها لم يدر كيف يجيب عمّا يَرِد عليه من مثلها، ولا ما يقول إذا سئل عنها، وحسبه ذلك نقصًا في صناعته وقصورًا.

ثم النظر في التواريخ ومعرفة أخبارِ الدول، لما في ذلك من الاطلاع على سِيَر الملوك وسياساتهم، وذكر وقائعهم ومكايدهم في حروبهم، وما ٱتفق لهم من التجارِب؛ فإن الكاتب قد يُضطرّ إلى السؤال عن أحوال من سلف، أو يَرِد عليه في كتاب ذكرُ واقعة بعينها، أو يُحتج عليه بصورة قديمة فلا يَعرِف حقيقتها من مجازها؛ وقد أوردنا في فن التاريخ ما لا يحتاج الكاتب معه إلى غيره من هذا الفن.

ثم حفظ أشعار العرب ومطالعة شروحها، وٱستكشافُ غوامضها والتوفُّرُ على ما ٱختاره العلماء بها منها، كالحماسة[(١)]، والمُفَضَّليّات[(٢)]، والأصمعيّات[(٣)]، وديوانِ الهُذَليِّين، وما أشبه ذلك، لما في ذلك من غزارةِ الموادِّ، وصحّةِ الاستشهاد، والاطلاع على أصول اللّغة، ونوادر العربيّة؛ وقد كان الصدر الأول يعتنون بذلك غاية الاعتناء، وقد حكي أن الإمام الشافعيّ رحمه الله كان يحفظ ديوان هُذَيل؛ فإذا أكثر المترشّح للكتابة من حفظ ذلك وتدبَّر معانيه سهُل عليه حَلّه، وظهرت له مواضع الاستشهاد به، وساقه الكلام إلى إبراز ما في ذخيرةِ حِفظِه منه، ووضعِه في مكانِه ونقلِه في الاستشهاد وٱلتضمين إلى ما كأنه وضِع له، كما اتفق للقاضي أبي بكر[(٤)] الأرَّجانيّ في تضمين أنصاف أبيات العربِ في

---

(١) كتاب للشاعر العباسي أبي تمام الطائي (... ـ ٨٠٤ م)، جمع فيه منتخبات شعرية من العصر الجاهلي حتى العصر العباسي.

(٢) كتاب للشاعر والنحوي الكوفي المفضل الضبي (... ـ ٧٨٤ م) ضمنه مجموعة كبيرة من الأشعار من الجاهلية إلى العصر العباسي.

(٣) كتاب ألفه الراوية واللغوي الكبير عبد الملك الأصمعي (٧٤٠ ـ ٨٢٨ م) وضمنه مجموعة كبيرة من الأشعار من الجاهلية إلى عصره.

(٤) هو أحمد بن محمد بن الحسين الأرجان نسبة إلى مسقط رأسه في الأهواز. عمل قاضيًا لتستر وعسكر مكرم وله شعر كثير. وكان فقيهًا إلى جانب كونه شاعرًا وقد أشار إلى ذلك بقوله:

أنا أشعر الفقهاء غير مدافع   في العصر أو أنا أفقه الشعراء

=

بعض قصائده، فقال: [من الوافر]

وأهدِ إلى الوزيرِ المدح يجعل — لك المِرباعَ(١) منها والصفايا»(٢)

ورافِق رِفقة حلّوا إليه — فآبوا بالنِّهاب وبالسبايا»(٣)

وقل للراحلين إلى ذراه — ألستم خيرَ من ركِب المطايا»(٤)

ولا تسلُكْ سوى طرقي فإنّي — «أنا ٱبنُ جلا وطلّاع الثّنايا»(٥)

وقال بديع الزمان الهمذانيّ:

أنا لِقربِ دار مولاي «كما طرِب النشوان مالت به الخمر» ومن الارتياح إلى لقائه «كما ٱنتفض العصفور بلله القطر» ومن الامتزاجِ بوَلائه «كما ٱلتَقت الصهباء والبارد ٱلعذبُ» ومن الابتهاج بمزَارِه «كما اهتزّ تحت البارِحِ الغصْن الرطبُ».

وكما قال ٱبن القرطبيّ وغيرُه في رسائلهم على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

وكذلك حفظُ جانب جيّد من شعر المحدَثِين، كأبي تمّام ومسلِم بن الوليد والبُحتريّ وابنِ الروميّ والمتنبيّ، للطف مَأخذِهم، ودَورانِ الصناعة في كلامهم، ودِقّةِ توليد المعاني في أشعارهم، وقربِ أسلوبهم من أسلوب الخطابة والكتابة.

وكذلك النظرُ في رسائل المتقدّمين دون حِفظها لما في النظر فيها من تنقيحِ القريحةِ، وإرشادِ الخاطرِ، وتسهيلِ الطرقِ، والنسجِ على مِنوال المُجيد، والاقتداءِ بطريقةِ المحسنِ، واستدراكِ ما فات القاصرَ، والاحترازِ مما أظهره النقدُ، وردِّ ما بهرجه السبكُ؛ فأمّا النهي عن حفظ ذلك فلئلا يتّكلَ الخاطرُ على ما في حاصلِه، ويستندَ الفكرُ إلى ما في مودَعه، ويَكتفي بما ليس له، ويتلبّسَ بما لم يُعطَ «كلابس

= عاش بين سنتي (٤٦٠ ـ ٥٤٤ هـ). (ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ١، ص ١٣٤ ـ ١٣٧).

(١) المرباع، ربع الغنيمة، وهي من نصيب الرئيس.

(٢) الصفايا: ما يصطفيه الرئيس من الغنائم.

(٣) هو صدر بيت من قصيدة عمرو بن كلثوم وعجزه:
«وأنبا بالملوك مصفدينا»

(٤) هو صدر بيت لجرير من قصيدة يمدح بها عبد الملك بن مروان، وعجزه:
«وأندى العالمين بطون راح»

(٥) هو صدر بيت للشاعر سحيم بن وثيل، تتمته:
«متى أضع العمامة تعرفوني»
استشهد به الحجاج في خطبته الشهيرة عندما ولي على العراق.

ثوبَيْ زور»؛ وأمّا من قصد المحاضرةَ بذلك دون الإنشاءِ فالأحسنُ به حِفظُ ذلك وأمثالِه.

وكذلك النّظرُ في كتبِ الأمثالِ الواردةِ عن العرب نظمًا ونثرًا كأمثال المَيدانيّ[١] والمفضَّل بنِ سلَمةَ الضبيّ وحمزةَ الأصبِهانيّ وغيرِهم، وأمثالِ المحْدَثين الواردة في أشعارهم، كأبي العتاهيةِ وأبي تمّام والمتنبيّ، وأمثالِ المُوَلَّدين؛ وقد أوردنا من ذلك في باب الأمثال جُملًا.

وكذلك النّظرُ في الأحكامِ السّلطانيّةِ، فإنه قد يأمر بأمر فيعرفُ منها كيف يخلُص قلمه إلى حكم الشريعةِ المطهّرةِ من توليةِ القضاءِ والحِسبةِ وغيرِ ذلك؛ وقد قدّمنا في هذا الكتابِ من ذلك طرَفًا جيّدًا. قال: فهذه أمور كليّة لا بدّ للمترشّح لهذه الصناعةِ من التّصَدي للاطّلاع عليها، والإكبابِ على مطالعتها، والاستكثارِ منها لِينفِق من تلك الموادّ، وليسلُكَ في الوصول إلى صناعته تلك الجوادّ، وإلا فليعلم أنه في وادٍ والكتابةُ في واد.

قال: وأمّا الأمور الخاصّةُ التي تزيد معرفتُها قدرَه، ويزين العلم بها نظمَه ونثرَه، فإنّها من المكَمّلاتِ لهذا الفنّ وإن لم يُضطرَّ إليها ذو الذِهن الثاقبِ، والطبعِ السلِيم، والقريحةِ المطاوِعةِ، والفِكرةِ المنقّحةِ، والبديهةِ المُجيبةِ، والرويّةِ المتصرّفةِ، لكنّ العالمَ بها متمكّن من أزِمّة المعاني، يقول عن عِلْم، ويتصرّفُ عن معرفة، وينتقِدُ بحجّة، ويتخيّرُ بدليل، ويستحسِنُ ببرهانٍ، ويصوغُ للكلامَ بترتيبٍ؛ فمن ذلك علم المعاني والبيان والبديع، والكُتبُ المؤلّفةُ في إعجازِ الكتابِ العزيزِ، ككتب الجرْجَانِيّ[٢] والرُمّانِيّ[٣] والإمامِ فخرِ الدينِ السكّاكيّ[٤] والخفاجيّ[٥] وابنِ الأثير[٦]

---

(١) هو كتاب ضخم جمع فيه مؤلفه أحمد النيسابوري الميداني نحو ستة آلاف مثل ونيف ودعاه «مجمع الأمثال». وله كتاب آخر في الشرعيات والعلويات والسفليات عنوانه «السامي في الأسامي» وكان الميداني (. . . ـ ١١٢٤ م) أديبًا ومؤرخًا. (المنجد).

(٢) أهم مؤلفات عبد القاهر الجرجاني (. . . ـ ١٠٧٨ م) في البلاغة كتاباه «أسرار البلاغة». و«دلائل الإعجاز».

(٣) أهم كتب علي بن عيسى الرماني (٩٨٠ ـ ٩٩٤ م) «النكت في إعجاز القرآن» و«الأسماء والصفات».

(٤) أهم كتب السكاكي (١١٦٠ ـ ١٢٢٨ م) في البلاغة والبيان والمنطق كتاب «مفتاح العلوم».

(٥) أشهر كتب عبد الله بن محمد الخفاجي الحلبي الشاعر (١٠٣٢ ـ ١٠٧٣ م) «سر الفصاحة».

(٦) أهم كتب ابن الأثير (. . . ـ ١٢٣٩ م) في البيان والبديع كتابه «المثل السائر» وهو كتاب ضخم يعتبر مرجعًا هامًا في علوم البلاغة.

وغيرِهم؛ وذكر في كتابه جُملًا بهذه المعاني وأورد أيضاً أموراً أخرى تتصلِ بذلك من خصائص الكتابة وهي الاقتباس والاستشهاد والحلّ، وأتى على ذلك بشواهدَ وأمثلة، وسأذكر في هذا الكتاب ملخّصَ ما أَوْرده في ذلك باختصارِ وزيادةِ عليه.

فأمّا علوم المعاني والبيانِ والبديعِ، فمنها: ذكر الفصاحةِ، والبلاغةِ والحقيقةِ والمجازِ، والتشبيهِ، والاستعارةِ، والكنايةِ، والخبرِ وأحكامِه، والتقديم والتأخيرِ، والفصلِ والوصلِ، والحذفِ والإضمارِ، ومباحثِ إنّ وإنّما، والنظم والتجنيسِ، والطباقِ، والمقابلةِ، والسجعِ، وردّ العجزِ على الصدر، والإعناتِ والمذهبِ الكلاميِّ، وحسنِ التعليلِ، والالتفاتِ، والتمامِ، والاستطرادِ، وتأكيدِ المدحِ بما يشبه الذم، وتأكيدِ الذّم بما يشبه المدحَ، وتجاهلِ العارِف، والهزلِ الذي يراد به الجِدّ، والكناياتِ، والمبالغةِ، وإعتابِ المرء نفسَه، وحسنِ التضمينِ والتلميحِ، وإرسالِ المثلِ، وإرسالِ مثلين، والكلامِ الجامعِ، واللّفّ والنشرِ والتفسيرِ، والتعديدِ - ويسمّى سياقةَ الأعدادِ - وتنسيقِ الصِفاتِ، والإيهام - ويقال له: التورية - والتخييل، وحسنِ الابتداءات، وبراعةِ التخليص، وبراعةِ الطّلب وبراعةِ المقطعِ، والسؤالِ والجوابِ، وصحةِ الأقسامِ، والتوشيحِ، والإيغالِ، والإشارةِ والتذييلِ، والترديدِ، والتفويفِ، والتسهيمِ، والاستخدامِ، والعكسِ، والتبديلِ والرجوعِ، والتغايرِ، والطاعةِ والعصيانِ، والتسميطِ، والتشطيرِ، والتطريزِ، والتوشيعِ والإغراقِ، والغلوّ، والقسمِ، والاستدراكِ، والمؤتلِفةِ والمختلِفةِ، والتفريقِ المفردِ والجمعِ مع التفريقِ، والتقسيم المفردِ، والجمعِ مع التقسيمِ، والتزاوجِ، والسّلبِ والإيجابِ والاطّرادِ، والتجريدِ، والتكميلِ، والمناسبةِ، والتفريعِ، ونفي الشيء بإيجابِه والإيداعِ، والإدماجِ، وسلامة الاختراعِ، وحسنِ الاتّباعِ، والذّمّ في معرِض المدحِ والعنوانِ، والإيضاحِ، والتشكيكِ، والقولِ بالموجِبِ، والقلبِ، والتنديرِ، والإسجالِ بعد المغالطةِ، والافتنانِ، والإبهامِ، وحصرِ الجزئي وإلحاقِه بالكلّي، والمقارنةِ والإبداعِ، والانفصالِ، والتصرّفِ، والاشتراكِ، والتهكّمِ، والتدبيجِ، والموجّه وتشابهِ الأطرافِ. هذا مجموعُ ما أورده منها، واستشهد عليه بأدلّةٍ، وأوردَ أمثلة سنشرح منها ما يكتفي به اللّبيب، ويستغني به اللّبيب[1].

وأما الفصاحة والبلاغة، فقد تقدّم الكلام فيهما في أوّل الباب، فلا فائدة في إعادته.

---

(١) سيعالج النويري هذه الموضوعات في سائر أقسام هذا الجزء من نهاية الأرب.

وأما الحقيقةُ والمجازُ - فالحقيقة في اللّغة فعيلةٌ بمعنى مفعولة، من حقّ الأمر يُحِقُّه بمعنى أثبته، أو من حققتُه إذا كنت منه على يقينٍ. والمجاز من جاز الشيء يجوزه إذا تعدّاه، فإذا عدِل باللّفظ عما يوجبه أصل اللّغةُ وُصف بأنه مجازٌ على أنهم قد جازوا به موضعَه الأصليّ، أو جاز هو مكانَه الذي وُضع فيه أوّلًا، لأنه ليس بموضعٍ أصليّ لهذا اللّفظ ولكنّه مجازه ومتعدّاه يقف فيه كالواقف بمكان غيرِه ثم يتعدّاه إلى مكانِه الأصليّ. ولهما حدود في المفرد والجملة، فحدّهما في المفرد: أن كل كلمة أريد بها ما وضعت له فهي حقيقة، كالأسد للحيوانِ المفترِس، واليدِ للجارحةِ ونحوِ ذلك. وإن أريد بها غيرُه لمناسبة بينهما فهي مجاز[1]، كالأسدِ للرّجلِ الشجاعِ واليدِ للنّعمة أو للقوّة، فإن النعمة تُعطَى باليدِ، والقوّةَ تظهر بكمالها في اليد. وحدّهما في الجملة: أن كلّ جملة كان الحكم الذي دلّت عليه كما هو في العقل فهي حقيقة كقولنا: خلق الله الخلق؛ وكلّ جملة أخرجت الحكم المفاد بها عن موضعه في العقل بضرب من التأويل فهي مجاز، كما إذا أضيف الفعل إلى شيء يضاهي الفاعل، كالمفعول به في قوله عزّ وجلّ: ﴿فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [الحَاقَّة: الآية ٢١] و﴿مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ [الطّارق: الآية ٦]؛ أو المصدرِ، كقولهم: شِعرٌ شاعر؛ أو الزمانِ، كقول النعمان بن بشِير لمعاوية: [من الطويل]

* ولـيـلُـك عـمّـا نـاب قـومـك نـائـم *

أو المكان، كقولك: طريق سائر؛ أو المسبّبِ، كقولهم: بنى الأمير المدينة؛ أو السببِ، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفَال: الآية ٢]. فمجاز المفردِ لغويّ، ويسمّى مجازًا في المثبَتِ، ومجاز الجملة عقليّ، ويسمّى مجازًا في الإثبات. قال: فالمجاز قد يكون في الإثبات وحده، وهو أن يُضيف الفعلَ إلى غير الفاعلِ الحقيقيّ كما ذكرناه، وقد يكون في المثبَت وحده، كقوله تعالى: ﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ [فَاطِر: الآية ٩] جعل خُضرة الأرض ونَضرتها حياة، وقد يكون فيهما جميعًا، كقولك: أحيتني رؤيتك، تريد سرّتني، فقد جَعلتَ المسرّة حياة وهو مجاز في المثبَتِ وأسندتَها إلى الرؤية وهو مجاز في الإثبات.

قال: واعلم أنهم تعرّضوا في اعتبار كون اللّفظ مجازًا إلى اعتبار شيئين:

(١) حدد السكاكي الحقيقة بأنها الكلمة المستعملة فيما هي موضوعة له أصلًا. وحدد المجاز بأنه الكلمة المستعملة في غير ما هي موضوعة له بالتحقيق». (مفتاح العلوم، ص ١٦٩ - ١٧٠).

الأوّل: أن يكون منقولًا عن معنى وُضِع اللّفظ بإزائه، وبهذا يتميّز عن اللّفظ المشترك.

الثاني: أن يكون هذا النقل لمناسبة بينهما، فلا توصف الأعلام المنقولة بأنّها مجاز إذ ليس نقلها لتعلّق نسبةٍ بين المنقولِ عنه ومن له العلم، وإذا تحقّق الشرطان سمي مجازًا، وذلك مثل تسميةِ النعمةِ والقوّةِ باليدِ، لما بين اليد وبينهما من التعلّق وكما قالوا: رَعينا الغيثَ، يريدون النبت الذي الغيثُ سببه، وصابتنا السّماء، يريدون المطر، وأشباه ذلك ونظائره.

وأما التشبيه ـ فهو الدّلالة على ٱشتراك شيئين في وصف هو من أوصاف الشيء في نفسه[1]، كالشجاعة في الأسد، والنّورِ في الشمس. وهو ركن من أركان البلاغة لإخراجِه الخفيّ إلى الجليّ، وإدنائِه البعيد من القريبِ. وهو حكم إضافيّ لا يوجد إلا بين الشيئين بخلاف الاستعارة.

ثم التّشبيه على أربعة أقسام: تشبيه محسوس بمحسوس، وتشبيه معقول بمعقول، وتشبيه معقول بمحسوس، وتشبيه محسوس بمعقول.

فأما تشبيه محسوس بمحسوس فلاشتراكهما إمّا في المحسوسات الأولى: وهي مدرَكات السمعِ والبصرِ والذّوقِ والشمّ واللّمسِ، كتشبيه الخدّ بالوردِ والوجهِ بالنهارِ، وأطيطِ الرّحلِ بأصواتِ الفراريج والفواكهِ الحلوةِ بالسكّرِ والعسل ورائحةِ بعضِ الرياحينِ بالمسكِ والكافورِ، واللّيّنِ الناعمِ بالحريرِ، والخشِنِ بالمِسحِ[2]. أو في المحسوسات الثانية: وهي الأشكال المستقيمة والمستديرة، والمقادير، والحركات كتشبيه المستوِي المنتصِبِ بالرّمح، والقدّ اللّطيفِ بالغصنِ، والشّيءِ المستديرِ بالكرةِ والحَلَقَةِ، والعظيم الجثّةِ بالجبلِ، والذاهبِ على الاستقامة بنفوذ السهمِ. أو في الكيفيّاتِ الجُسمانيّةِ، كالصلابةِ والرخاوة. أو في الكيفيّاتِ النفسانيّة، كالغرائزِ والأخلاقِ. أو في حالةٍ إضافيةٍ، كقولك: هذه حجّة كالشّمس، وألفاظ كالماء في السّلاسة وكالنّسيم في الرّقة، وكالعسل في الحلاوة. وربمّا كان التشبيه بوجه عقليّ،

---

(١) حدد القزويني التشبيه بقوله إنه الدلالة على مشاركة أمر لآخر في معنى. والمراد بالتشبيه هٰهنا ما لم يكن على وجه الاستعارة التحقيقية، ولا الاستعارة بالكناية، ولا التجريد» (الإيضاح في علوم البلاغة، ص ١٨٩، طبعة دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط ٢، ١٩٩١).

(٢) المسح: جمعه أمساح ومسوح، الكساء في الشعر.

كقول فاطمة بنتِ الخُرْشُب الأنمارِيّةِ حين وصفت بنيها الكملة فقالت: هم كالحلقة المفْرغةِ لا يُدرَى أين طرفاها(١).

وأما تشبيه المعقولِ بالمعقولِ فهو كتشبيهِ الوجود العاري عن الفوائدِ بالعدمِ، وتشبيهِ الفوائد التي تبقى بعد عدم الشّيء بالوجود، كقول الشاعر: [من الخفيف]

رب حيّ كـميّـتٍ لـيـس فـيـه أمـل يـرتـجـى لـنـفـع وضـرّ
وعـظـامِ تـحـت الـترابِ وفـوق الأرضِ منـهـا آثار حـمدٍ وشكـر

وأمّا تشبيه المعقول بالمحسوس فهو كقوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ [إبراهيم: الآية ١٨].

وأما تشبيه المحسوسِ بالمعقولِ فهو غير جائز، لأن العلوم العقليّة مستفادةٌ من الحواسّ ومنتهيةٌ إليها، ولذلك قيل: من فقد حِسًّا فقد عِلمًا، فإذا كان المحسوس أصلًا للمعقولِ فتشبيهه به يكون جعلًا للفرع أصلًا والأصلِ فرعًا ولذلك لو حاول محاول المبالغة في وصفِ الشمسِ بالظهور والمِسكِ بالثناءِ فقال: الشمس كالحجّةِ في الظّهور، والمسكُ كالثّناءِ في الطِّيبِ، كان ذلك سَخَفًا من القول.

فأمّا ما جاء في الشعر من تشبيه المحسوس بالمعقول فوجهه أن يقدَّر المعقولُ محسوسًا، ويُجعل كالأصل المحسوس على طريق المبالَغةِ، فيصحّ التشبيه حينئذ وذلك كما قال الشاعر: [من الخفيف]

وكـأنّ الـنـجـوم بـيـن دجـاهـا سُـنـنٌ لاح بـيـنـهـنّ ٱبـتـداع

فإنّه لما شاع وصف السنّةِ بالبياضِ والإشراقِ، وٱشتهرت البدعة وكلّ ما ليس بحقٍّ بالظلمةِ تخيّل الشاعر أن السنن كأنها من الأجناس التي لها إشراق ونور، وأن البِدع نوع من الأنواع الّتي لها ٱختصاص بالسواد والظُّلمة، فصار ذلك كتشبيه محسوسٍ بمحسوسٍ، فجاز له التشبيه، وهو لا يتمّ إلا بتخييل ما ليس بمتلوّنٍ متلوّنًا

---

(١) يقول القزويني في أقسام التشبيه باعتبار طرفيه: «أما طرفاه فهما إما حسيان كما في تشبيه الخد بالورد والقد بالرمح والفيل بالجبل في المبصرات والصوت الضعيف بالهمس في المسموعات، والنكهة بالعنبر في المشمومات، والريق بالخمر في المذوقات، والجلد الناعم بالحرير في الملموسات، وأما عقليان كتشبيه العلم بالحياة. وإما مختلفان، والمعقول هو المشبه كما في تشبيه المنية بالسبع، أو بالعكس كما في تشبيه العطر بالخلق الكريم». (الإيضاح، ص ١٩٣).

ثم يتخيّله أصلًا فيشَبِّه به، وهذا هو الّذي تُؤوِّل في قول أبي طالب الرَّقِّيّ: [من الكامل]

ولـقـد ذكـرتـك والـظـلام كـأنّـه يومُ النّوى وفؤاد من لم يعشَقِ[1]

فإنّه لمّا كانت الأوقات التي تحدُثُ فيها المكاره توصف بالسواد كما يقال: اُسودّت الدنيا في عينه، جعل يومَ النوى كأنّه أشهرُ بالسواد من الظلام، فعرّفه به وشبَّهه، ثم عطف عليه فؤادَ من لم يعشَق لأنّ من لم يعشَق عندهم قاسي القلبِ والقلب القاسي يوصَفُ بشدّة السواد، فأقامه أصلًا، فقس على هذا المثال.

قال: واعلم أنّ ما به المشابهة قد يكون مقيّدًا بالانتساب إلى شيء، وذلك إما إلى المفعول به كقولهم: «أخذ القوسَ باريها» وإلى ما يجرِي مجرى المفعول به وهو الجارّ والمجرور كقولهم لمن يفعل ما لا يفيد: «كالراقِم على الماء» وإمّا إلى الحال، كقولهم: «كالحادي وليس له بعير» وإما إلى المفعول والجارّ والمجرور معاً، كقولهم: «هو كمن يجمع السيفين في غمد» و«كمبتغي الصيدِ في عرينة الأسد»، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ [الجمعة: الآية ٥] فإن التشبيه لم يحصل من مجردِ الحملِ، بل لأمرين آخرين، لأن الغرض توجيهُ الذّم إلى من أتعب نفسه في حمل ما يتضمّن المنافعَ العظيمةَ ثم لا يَنتفع به لجهله، وكقوله لبِيد: [من الطويل]

ومـا الـنّـاس إلا كـالـدّيـار وأهـلِـهـا بـهـا يـوم حـلّـوهـا وغـدَوْا بـلاقـع

فإنّه لم يشبِّه الناس بالديار، وإنّما شبّه وجودهم في الدنيا وسرعة زوالهم بحلولِ أهلِ الدّيار فيها، ووَشْكِ رحيلهم منها. قال: وكلّما كانت التقييدات أكثرَ كان التشبيه أوغل في كونه عقليًا، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ [يُونس: الآية ٢٤]. فإن التشبيه منتزَعٌ من مجموعِ هذه الجملِ من غير أن يمكن فصلُ

(١) نسب القزويني هذا البيت للشاعر أبي طالب الرقي وضربه شاهدًا على وجه الشبه التخييلي. وقد نقل النويري تفسيره والتعليق عليه حرفيًا. واستشهد ببيت آخر على هذا النوع في وجه الشبه للشاعر ابن بابك وهو التالي:

وأرض كـأخـلاق الـكـرام قـطـعـتـهـا وقـد كـحـل الـلـيـل الـسـمـاك فـأبـصـرا

(الإيضاح، ص ١٩٧).

بعضِها عن بعضٍ، فإنّك لو حذفت منها جملة واحدة من أيّ موضع كان أخلّ ذلك بالمغزى من التشبيه. قال:

ثم ما به المشابهة إن كان مركّبًا فإنّه على قسمين:

الأوّل: ما لا يمكن إفراد أحدِ أجزائه بالذّكر، كقول القاضي التَنوخيّ: [من السريع]

كأنّما المرّيخُ والمشترِي قدّامَه في شامخ الرِّفعه
منصرف بالليل من دعوة قد أُسرِجت قدّامه شمعه(١)

فإنّك لو ٱقتصرت على قوله: كأنّ المرّيخ منصرفٌ من دعوة، أو كأن المشترِي شمعةٌ لم يحصل ما قصده الشاعر، فإنّه إنّما قصد الهيئة التي يلبَسُها المِرّيخ من كون المشترِي أمامه.

الثاني: ما يمكن إفرادُه بالذّكر ويكونُ إذا أزيل منه التركيب صحيحَ التشبيهِ في طرفيهِ إلّا أن المعنى يتغيّر، كقول أبي طالب الرَّقّيّ: [من الكامل]

وكأنّ أجرامَ النجوم لوامعا درر نُثِرن على بِساط أزرق(٢)

فلو قلت: كأن النجوم درر، وكأن السماء بساط أزرق، وجدتَ التشبيه مقبولًا ولكن المقصود من الهيئة المشبَّه بها قد زال. قال: وربّما كان التشبيه في أمور كثيرة لا يتقيّد بعضها ببعض، وإنّما يكون مضمومًا بعضها إلى بعض وكلّ واحد منها منفرد بنفسه، كقولك: زيد كالأسد بأسًا، والبحرِ جُودًا، والسيفِ مَضاءً والبدرِ بهاءً؛ وله خاصيتان: إحداهما أنه لا يجب فيه الترتيب، والثانية أنّه إذا سقط البعض لم يتغير حكم الباقي.

ومن المتأخّرين من ذكر في التشبيه سبعة أنواع:

الأوّل: التشبيه المطلق، وهو أن يشبّه شيئًا بشيء من غير عكس ولا تبديل كقوله تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ۝٣٩﴾ [يٰس: الآية ٣٩]، وقوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ۝٢٤﴾ [الرَّحمٰن: الآية ٢٤]، وقوله

---

(١) استشهد القزويني بهذين البيتين على التشبيه الذي طرفاه مركبان، ولا يصح تشبيه كل جزء من أحد طرفيه بما يقابله من الطرف الآخر.

(٢) واستشهد القزويني بهذا البيت على التشبيه الذي طرفاه مركبان ويصح تشبيه كل جزء من أجزاء أحد طرفيه بما يقابله من أجزاء الطرف الآخر. (الإيضاح، ص ٢١٣ ـ ٢١٤).

تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحَاقَّة: الآية ٧]. وقول النبي ﷺ: «الناس كأسنان المُشْطِ».

الثّاني: التّشبيه المشروط، وهو أن يشبّه شيئًا بشيء لو كان بصفة كذا، ولولا أنّه بصفة كذا، كقوله: أُشَبِّهُ وجهَ مولانا بالعيدِ المقبلِ لو كان العيد تبقَى ميامنه وتدوم محاسنه، وكقوله: وجه هو كالشمسِ لولا كسوفها، والقمرِ لولا خسوفه.

وكقول البديع: [من البسيط]

قد كان يحكيك صَوبُ الغيثِ منسكبًا   لو كان طَلقَ المحيّا يُمطِر الذهبا
والدهرُ لو لم يخُن والشمسُ لو نَطقت   والليثُ لو لم يُصَدْ والبحرُ لو عذُبا

وكقول الآخر(١): [من الكامل]

عَزَماته مثلُ النجوم ثواقبًا   لو لم يكن للثاقبات أُفول

الثالث: تشبيه الكناية، وهو أن يشبّه شيئًا بشيء من غير أداة التشبيه، كقول المتنبّي: [من الوافر]

بدت قمرًا وماست خُوطَ بانٍ   وفاحت عنبرًا ورَنَتْ غزالا

وقول الوأواء(٢) الدِّمَشقيّ: [من البسيط]

فأمطرت لؤلؤًا من نرجسٍ فسقت   وَردًا وعَضَّت على العُنّاب بالبَرَدِ

الرابع: تشبيه التسوية، وهو أن يأخذ صفة من صفات نفسه، وصفة من الصفات المقصودة، ويشبّههما بشيء واحد، كقوله: [من المجتث]

صُدْغ الحبيب وحالي   كلاهما كالليالي
وثغره في صفاء   وأدمُعي كاللآلي

---

(١) نسب هذا البيت للشاعر رشيد الدين الوطواط، (٥٧٣ هـ = ١١٧٧ م) اسمه محمد بن محمد بن عبد الجليل البلخي، أديب مترسل شاعر. ولد ببلخ وتوفي في خوارزم. (الزركلي، الأعلام).

(٢) الوأواء: لقب الشاعر الدمشقي محمد بن أحمد الغساني، وكنيته أبو الفرج. شاعر مطبوع حلو الألفاظ، رقيق المعاني، كان في بادىء أمره مناديًا بدار البطيخ في دمشق. له ديوان شعر مطبوع، توفي سنة ٩٩٥ م. (الأعلام، للزركلي).

الخامس: التشبيه المعكوس، وهو أن تشبِّه شيئين كلَّ واحد منهما بالآخر كقول الشاعر: [من السريع]

الـخـمـر تـفـاح جـرى ذائـبًـا   كـذلـك الـتـفـاح خـمـر جَـمُـد
فـاشـرب عـلى جـامـدٍ ذَوْبَـهُ   ولا تَـبِـعْ لـذّة يـومٍ بـغـد

وكقول الصّاحب بن عَبّاد[1]: [من الكامل]

رَقَّ الـزّجـاجُ وراقـت الـخـمـر   فـتـشـابَـهـا فـتـشـاكَـلَ الأمـر
فـكـأنّـه خـمـرٌ ولا قـدح   وكـأنّـه قـدحٌ ولا خـمـر

وكقول بعضهم في النثر: كم من دمٍ أهرقناه في البَرّ، وشخصٍ أغرقناه في البحر؛ فأصبح البرّ بحرًا من دمائهم، والبحر برًّا بأشلائهم.

السادس: تشبيه الإضمار، وهو أن يكون مقصودَه التّشبيهُ بشيء فدلّ ظاهر لفظه أنّ مقصودَه غيرُه، كقول المتنبّي: [من المتقارب]

ومـن كـنـتَ جـارًا لـه يـا عـليّ   لـم يـقـبـل الـدرّ إلّا كـبـارا

فيدلّ ظاهرُه على أنّ مقصودَه الدرّ، وإنّما غرضه تشبيهُ الممدوح بالبحر.

السابع: تشبيه التفضيل، وهو أن يشبِّه شيئًا بشيءٍ ثمّ يرجع فيرجّح المشبَّه على المشبَّهِ به، كقوله: [من الوافر]

حـسـبـت جـمـالـه بـدرًا مـضـيـئًا   وأيـن الـبـدر مـن ذاك الـجـمـال

وكقول ابن هندو[2]: [من السريع]

مَـن قـاس جَـدواك بـالـغـمـام فـمـا   أنـصـف في الحكم بين شيئين
أنـت إذا جـدت ضـاحـك أبـدًا   وذاك إن جـاد دامـع الـعـيـن

قال: وقد تقدّم تشبيه شيء بشيء.

---

(١) الصاحب بن عباد (٣٢٦ ـ ٣٨٥ هـ = ٩٣٨ ـ ٩٩٥ م) هو إسماعيل بن عباد بن العباس، أبو القاسم الطالقاني، وزر لمؤيد الدولة بن بويه وأخيه فخر الدولة، ولقب بالصاحب لصحبته إياه في صباه. غلب عليه الأدب فأجاد الرسائل والشعر. وله ديوان شعر مطبوع. (الزركلي، الأعلام).

(٢) ابن هندو: ورد هكذا في معجم الأدباء لياقوت الحموي الجزء الخامس، ص ١٦٨ طبع الطبعة الهندية. ولم يرد في معاجم الأعلام.

فأمّا تشبيه شيء بشيئين فكقول امرىء القيس: [من الطويل]

وتَعطو برَخْص غيرِ شَثْنٍ كأنّه ... أساريعُ رمل أو مساويك إسْحِلِ(١)

وأمّا تشبيه شيء بثلاثة أشياءَ فكقول البحتريّ: [من السريع]

كأنّما يبسِم عن لؤلؤ ... منضَّدٍ أو بَرَدٍ أو أقاح

وأمّا تشبيه شيء بأربعة أشياءَ فكما قال المولى شهاب الدّين أبو الثناء محمود الحلبيُّ الكاتبُ: [من الرجز]

يفتَرُّ طِرسك عن سطور جادَها الـ ... ـفكر السليم بصَوبِ مِسكٍ أذفرِ(٢)

فكأنّما هو روضةٌ أو جدول ... أو سِمْطُ درّ أوْ قلادةُ عنبرِ

وأمّا تشبيه شيء بخمسة أشياءَ فكقول الحريريّ:

يفتَرُّ عن لؤلؤ رطب وعن بَرَد ... وعن أقاحٍ وعن طَلْع وعن حَبَبِ(٣)

وأمّا تشبيه شيئين بشيئين فكقول امرىء القيس: [من الطويل]

كأنّ قلوب الطّير رَطبًا ويابسًا ... لَدَى وكرها العُنّابُ والحَشَفُ البالي

وأمّا تشبيه ثلاثة بثلاثة فكقول الآخر: [من المجتث]

ليلٌ وبدرٌ وغصن ... شعرٌ ووجهٌ وقدُّ

خمر ودرّ وورد ... ريق وثغر وخد

وأمّا تشبيه أربعة بأربعة فكقول امرىء القيس: [من الطويل]

له أيْطَلا ظَبْيٍ وساقا نعامةٍ ... وإرخاءُ سِرحان وتقريبُ تَتْفُلِ(٤)

وكقول أبي نواس: [من السريع]

تبكي فتُذري الدرّ من نرجس ... وتلطِم الورد بعُناب

---

(١) تعطو: تتناول. الرخص: الناعم. الشثن: الغليظ. الأساريع: دود أحمر. الأسحل: شجر المساويك.

(٢) الطرس: الورق يكتب عليه. (٣) يفتر: يبتسم.

(٤) يشبه امرؤ القيس أعضاء حصانه بأعضاء أربع حيوانات هي الظبي والنعامة والذئب والثعلب. الايطل: الخاصرة. الارخاء: شدة العدو. التقريب: وضع الرجلين مكان اليدين في العدو. التتفل: ولد الثعلب.

وأمّا تشبيه خمسة بخمسة فكقول أبي الفرج الوأواء الدِمَشقيّ: [من البسيط]

قالت متى البين يا هذا فقلت لها إمّا غدا زعموا أو لا فبعد غد
فأمطرت لؤلؤًا من نرجس فسقت وردًا وعضّت على العُنّاب بالبَرد

وشبّه قاضي القضاة نجم الدين بن البارزيّ سبعة أشياءَ بسبعةِ أشياءَ وهي: [من الطويل]

يُقَطِّعُ بالسّكّين بِطّيخةً ضحى على طبقٍ في مجلسٍ لان صاحبه
كشمسٍ ببرق قَدَّ بدرًا أهلّةً لدى هالة في الأفق شتّى كواكبه

قال: والغرض من التشبيه قد يكون بيانَ إمكان وجود الشيء عند ادّعاء ما لا يكون إمكانُه بيّنًا، كقول ابن الرّوميّ: [من البسيط]

وكم أب قد علا بابن ذُرى شرفٍ كما عَلَتْ برسول الله عدنانُ

وكقول المتنبّي: [من الوافر]

فإن تفُق الأنام وأنت منهم فإنّ المسك بعضُ دم الغزال

أو بيانَ مقداره، كما إذا حاولْت نفي الفائدةِ عن فعل إنسان قلت: هذا كالقابض على الماء، لأن الخلوّ الفعل عن الفائدة مراتبَ مختلفةٌ في الإفراط والتفريط والوسط، فإذا مُثّل بالمحسوس عُرِفت مرتبته، ولذلك لو أردت الإشارة إلى تنافي الشيئين فأشرْت إلى ماء ونار فقلت: هذا وذاك هل يجتمعان؟ كان تأثيره زائدًا على قولك: هل يجتمع الماء والنار؟ وكذلك إذا قلت في وصف طول يوم: كأطول ما يُتوهّم، أو لا آخر له، أو أنشدت قوله[1]: [من البسيط]

في ليل صُولٍ تناهَى العَرض والطول كأنّما ليله بالليل موصول[2]

لم تجد فيه من الأنس ما تجده في قوله: [من الطويل]

ويومٍ كظلّ الرمح قصّر طُولَه دمُ الزِقّ عنّا واصطفاقُ المزاهر

وما ذاك إلّا للتشبيه بالمحسوس، وإلّا فالأوّل أبلغ، لأن طول الرمح متناهٍ وفي الأوّل حَكمتَ أنّ ليلَه موصول باللّيل، وكذلك لو قلت في قِصر اليومِ: كأنّه ساعة،

(١) البيت للشاعر حندج بن حندج المري. (٢) صول: مدينة في بلاد الخزر.

أو كلمح البصرِ، لوجدته دون قوله: [من الوافر]

ظللنا عند دار أبي أنيسٍ ... بيوم مثل سالفةِ الذُّباب(١)

وقولِه: [من الطويل]

ويومٍ كإبهام القطاةِ مُزيَّن ... إليّ صِباه غالبٌ لِيَ باطله

قال: وقد يكون غرض التشبيه عائدًا على المشبه به، وذلك أن تقصد على عادة التخييل أن توهِم في الشيء القاصِر عن نظيرِه أنه زائد، فتشبِّهَ الزائد به، كقوله: [من الكامل]

وبدا الصباح كأنّ غرّتَه ... وجه الخليفة حين يُمْتَدَح(٢)

وهذا أبلغ وأحسن وأمدح من تشبيهِ الوجه بالصباح، لأن تشبيه الوجه بالصباح أصل متّفق عليه لا يُنكر ولا يُستكثَر، وإنما الذي يستكثر تشبيه الصباح بالوجه. قال: ثم الغرض بالتشبيه إن كان إلحاقَ الناقِص بالزائِد امتنع عكسه مع بقاء هذا الغرض، وإن كان الجمعَ بين شيئين في مطلقِ الصورةِ والشكلِ واللونِ صحّ العكس كتشبيه الصبح بغرّة الفرس الأدهم لا للمبالغة في الضياء، بل لوقوع منيرٍ في مظلم وحصولِ بياضٍ قليلٍ في سوادٍ كثيرٍ.

قال: والتشبيه قد يجيء غريبًا يحتاج في إدراكه إلى دقّة نظر، كقول ٱبن المعتزّ: [من الرّجز]

* والشمس كالمِرآة في كفّ الأشلّ *

والجامع الاستدارة والإشراق مع تواصل الحركة التي تراها للشمس إذا أنعمت التأمّل في ٱضطراب نورِ الشمس، ويقرب منه قول الآخر: [من الطويل]

كأن شعاعَ الشمس في كلّ غُدوة ... على ورق الأشجار أوّلَ طالعِ
دنانيرُ في كفّ الأشلّ يضمّها ... لقبض وتهوِي من فروجِ الأصابعِ(٣)

---

(١) سالفة الذباب: عنقه.
(٢) صاحب هذا البيت هو الشاعر محمد بن وهيب الحميري من قصيدة يمدح بها المأمون.
(٣) يشبه أشعة الشمس على أوراق الأشجار بالدنانير التي في كف الأشلّ في شكلها ولونها واضطرابها.

وكقول المتنبيّ: [من السريع]

الشمس من مشرقها قد بدت مشرقةً ليس لها حاجب
كأنها بُودَقةٌ أُنقِيَتْ يجول فيها ذهب ذائب(١)

ومن لطيف ما جاء في هذا المعنى من التشبيه قول الأخطلِ في مصلوب: [من البسيط]:

أو قائمٌ من نعاس فيه لُوثته مُواصِل لتمطِّيه من الكسل(٢)

شبّهه بالمتمطّي، لأنّ المتمطّي يمدّ يديه وظهرَه ثم يعود إلى حالته الأولى، فزاد فيه أنّه مواصل لذلك، وعلّله بالقيام من النعاس لما في ذلك من اللُّوثة والكسل.

قال: والتشبيه ليس من المجاز، لأنه معنى من المعاني، وله ألفاظ تدلّ عليه وضعاً فليس فيه نقل اللفظ عن موضوعه، وإنّما هو توطئة لمن يسلك سبيل الاستعارة والتمثيل، لأنه كالأصل لهما وهما كالفرع له، والذي يقع منه في حيّز عند أهل هذا الفنّ هو الذي يجيء على حدّ الاستعارة، كقولك لمن يتردّد في الأمر بين أن يفعله أو يتركه: «أراك تقدّم رجلًا وتؤخّر أخرى» والأصل فيه أراك في تردّدك كمن يقدّم رجلًا ويؤخر أخرى.

وأما الاستعارة: فهي ادّعاء معنى الحقيقة في الشيء للمبالغة في التشبيه مع طرح ذكر المشبّه من الشيئين(٣) لفظاً وتقديراً. وإن شئت قلت: هو جعل الشّيءِ الشّيءَ أو جعل الشيءِ للشيءِ لأجل المبالغة في التشبيه.

فالأول: كقولك: لقيت أسداً وأنت تعني الرجل الشجاع.

والثاني: كقول لبِيد: [من الكامل]

* إذا أصبحتْ بيد الشَّمال زمامُها *

أثبت اليد للشَّمال مبالغةً في تشبيهها بالقادر في التصرف فيه على ما يأتي بيانُ ذلك.

---

(١) البودقة والبوتقة هي القالب الذي يصفى فيه الذهب والفضة عند الصاغة. وهو لفظ مولد معرب في كلمة بوته.
(٢) اللوثة: الاسترخاء. يشبه حركة المصلوب بتمطي المستيقظ من النوم.
(٣) الاستعارة بنظر القزويني مجاز لغوي قائم على التشبيه. (الإيضاح، ص ٢٤١ ـ ٢٤٦).

وحدّ الرمّانيّ الاستعارة فقال: هي تعليق العبارة على غير ما وُضعت له في أصل اللّغة على سبيل النقل للإبانة.

وقال ابن المعتزّ: هي أستعارة الكلمة من شيء قد عُرف بها إلى شيء لم يُعرف بها. وذكر الخفاجيّ كلامَ الرمّانيّ وقال: وتفسير هذه الجملة أن قوله عز وجل: ﴿وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا﴾ [مريَم: الآية ٤] استعارة، لأن الاشتعال للنار، ولم يوضع في أصل اللغة للشيب فلما نقِل إليه بأن المعنى لما أكتسبه من التشبيه، لأن الشيب لما كان يأخذ في الرأس شيئًا فشيئًا حتى يحيله إلى غير لونه الأوّل كان بمنزلة النار التي تسري في الخشب حتى تحيلَه إلى غير حالته المتقدّمة؛ فهذا هو نقل العبارة عن الحقيقة في الوضع للبيان، ولا بدّ من أن تكون أوضحَ من الحقيقة لأجل التشبيه العارِض فيها لأن الحقيقة لو قامت مقامها لكانت أولى بها، لأنها الأصل، وليس يخفى على المتأمّل أن قوله عزّ وجلّ: ﴿وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا﴾ أبلغ من كثُر شيبُ الرأس، وهو حقيقة هذا المعنى.

ولا بدّ للاستعارة من حقيقة هي أصلها، وهي مستعار منه، ومستعار ومستعار له[١]، فالنار مستعار منها، والاشتعال مستعار، والشيب مستعار له. قال: وأمّا قولنا مع طرح ذكر المشبّهِ[٢]، فأعلم أننا إذا طرحناه كقولنا: رأيت أسدًا، وأردنا الرجل الشجاع فهو استعارة بالاتفاق، وإن ذكرنا معه الصيغةَ الدالّة على المشابَهة كقولنا: زيد كالأسد أو مِثلُه أو شِبهُه فليس باستعارة؛ وإن لم نذكر الصيغة وقلنا: زيد أسد فالمختار أنه ليس بأستعارة إذ في اللفظ ما يدلّ على أنه ليس بأسد فلم تحصل المبالغة، فإذا قلت: زيد الأسد فهو أبعد عن الاستعارة، فإنّ الأوّلَ خرج بالتنكير عن أن يحسُن فيه كاف التشبيه، فإنّ قولك: زيد كأسد كلامٌ نازل بخلاف الثاني.

قال ضياء الدين بنُ الأثير: وهذا التشبيه المضمر الأداةِ قد خلطه قوم بالاستعارة ولم يفرّقوا بينهما، وذلك خطأ محض.

قال: وسأوضح وجه الخطإ فيه وأحقق القول في الفرق بينهما فأقول: أما التشبيه المظهَر الأداة فلا حاجة بنا إلى ذكره لأنّه لا خلاف فيه، ولكن نذكر التشبيه المضمَرَ الأداة فنقول: إذا ذكر المنقول والمنقول إليه على أنّه تشبيهٌ مضمر الأداة قيل

(١) المستعار منه هو المشبه به. والمستعار له هو المشبه والمستعار هو وجه الشبه.

(٢) يعني ضرورة حذف المستعار له أو المشبه كقولنا رأيت أسدًا. فإذا أثبتناه وقلنا رأيت زيدًا الأسد لم تكن ثمة استعارة.

فيه: زيد أسد، أي كالأسد، فأداة التشبيه فيه مضمَرة مقدّرة، وإذا أظهرت حسُن ظهورها، ولم تقدح في الكلام الذي أظهِرت فيه، ولم تزُل عنه فصاحته؛ وهذا بخلاف ما إذا ذُكر المنقول إليه دون المنقول فإنه لا يحسُن فيه ظهور أداة التشبيه، وإذا ظهرَت زال عن ذلك الكلام ما كان متّصفًا به من الحسن والفصاحة.

قال: ولنضرب لذلك مثالًا يوضحه فنقول: قد ورد هذا البيت لبعض الشعراء وهو: [من الكامل]

فرعاءُ إن نهضت لحاجتها عجِل ٱلقضيب وأبطأ الدِّعص[١]

وهذا لا يَحسن تقدير أداة التشبيه فيه، فلا يقال: عجل قد كالقضيب وأبطأ رِدف كالدِّعص؛ فالفرق إذن بين التشبيه المضمرِ أداةُ التشبيه فيه وبين الاستعارة أن التشبيهَ المضمر الأداةِ يحسن إظهار أداة التشبيه فيه، والاستعارة لا يحسن ذلك فيها. والاستعارة أخصّ من المجاز إذ قصد المبالغة شَرطٌ في الاستعارة دون المجاز، وأيضًا فكلّ ٱستعارة من البديع وليس كلّ مجاز منه. والحقّ إن المعنى يعار أوّلًا ثم بواسطته يعار اللّفظ؛ ولا تحسن الاستعارة إلا حيث كان التشبيه مقرَّرًا بينهما ظاهرًا، وإلا فلا بدّ من التصريح بالتشبيه، فلو قلت: رأيت نخلة أو خامة وأنت تريد مؤمنًا إشارة إلى قول النّبي ﷺ: «مثل المؤمن كمثل النخلة» أو «كمثل الخامة» لكنت كالملْغِز التارك لما يُفهم. وكلّما زاد التشبيه خفاء زادت الاستعارة حسنًا بحيث تكون ألطفَ من التصريح بالتشبيه، فإنّك لو رمت أن تظهر التشبيه في قول ٱبن المعتزّ: [من الرمل]

أثمرت أغصان راحتِه لجُناةِ الحسن عُنّابا

ٱحتجت أن تقول: أثمرت أصابع راحتِه التي هي كالأغصان لطالب الحسن شِبهَ العُنّاب من أطرافها المخضوبة، وهذا ممّا لا خفاء بغَثاثته.

وربمّا جُمع بين عدّة ٱستعارات إلحاقًا للشكل بالشكل لإتمام التشبيه فتزيد الاستعارة به حُسنًا، كقول ٱمرىء القَيْس في صفة اللّيل: [من الطويل]

فقلت له لمّا تمطّى بصُلبه وأردف أعجازًا وناءَ بكَلكَل[٢]

---

(١) فرعاء: طويلة الشعر. الدعص: جمع ادعاص ودعصة كثيب الرمل. شبه القد بالقضيب، وشبه الردف بكثيب الرمل.

(٢) يشبه امرؤ القيس، الشاعر الجاهلي، الليل بالجمل. لقد أناخ الليل عليه كما أناخ الجمل على الأرض متباطئًا متثاقلًا. يمدد ظهره أولًا ومؤخره ثانيًا ثم ينوء بصدره على الأرض.

فصل فيما تدخله الاستعارة وما لا تدخله

قال: الأعلام لا تدخلها الاستعارة لما تقدّم في المجاز. وأما الفعل فالاستعارة تقع أوّلًا في المصدر، ثم تقع بواسطة ذلك في الفعل، فإذا قلت: نطقت الحال بكذا فهذا إنّما يصحّ لأنّك وجدت الحال مشابِهة للنطق في الدِلالة على الشيء، فلا جَرَمَ أنك ٱستعرت النطق لتلك الحالة ثم نقلته إلى الفعل. والأسماء المشتقّة في ذلك كالفعل؛ فظهر أنّ الاستعارة إنّما تقع وقوعًا أوّليًا في أسماء الأجناس. ثم الفعل إذا كان مستعارًا فٱستعارته إمّا من جهة فاعله، كقوله: نطقت الحال بكذا ولعبت بي الهموم، وقولِ جرير: [من الكامل]

تحيي الروامسُ رَبْعَها فتُجِدّه بَعد البِلى وتميته الأمطار[1]

وقولِ أبي حيّة[2]: [من البسيط]

وليلةٍ مرضت من كل ناحية فما تضيء لها شمس ولا قمر

أو من جهة مفعوله، كقول ٱبن المعتز: [من الرّمل]

جُمِع الحقّ لنا فِي إمامٍ قتل الجوع وأحيا السَماحا

أو من جِهة مفعوليه، كقول الحريري: [من المتقارب]

وأَقري المسامعَ إمّا نطقتُ بيانًا يقُود الحَرُون الشَّموسا

أو من جهة أحد مفعوليه، كقول الشاعر[3]: [من البسيط]

نَقْريهمُ لَهذميّاتٍ نَقُدّ بها ما كان خاطَ عليهم كلُّ زرّاد

أو من جهة الفاعل والمفعول، كقوله تعالى: ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٠]. قال: ويتصل بهذا ترشيح الاستعارة وتجريدُها، أما ترشيحها فهو أن يَنظُر

---

(١) الروامس: جمع رمس، وهو الريح. يقول إن الرياح تكشف التراب المغطي لآثار الربع فتظهرها، وعندما يهطل المطر يخفيها من جديد.

(٢) أبو حية: (١٨٣ هـ = ٨٠٠ م)، شاعر مخضرم بين الدولتين الأموية والعباسية اسمه الهيثم بن الربيع بن زرارة النميري شاعر مجيد بصري، مدح خلفاء عصره وكان أهوج به لوثة. (الأعلام، للزركلي).

(٣) هو القطامي: (١٣٠ هـ = ٧٤٧ م)، واسمه عمير بن شييم بن عمرو بن عباد التغلبي، الملقب بالقُطامي. شاعر غزل فحل، لقب بصريع الغواني. له ديوان مطبوع. (الزركلي، الأعلام).

فيها إلى المستعار، ويراعِيَ جانبَه، ويوليَه ما يستدعيه، ويضمَّ إليه ما يقتضيه، كقول كُثيّر: [من الطويل]

رمتني بسهم رِيشُه الهُدب لم يُصِب   بظاهر جسمي وهو في القلب جارح[١]

وكقول النابغة: [من الطويل]

وصدرٍ أراح الليلُ عازِبَ همِّه   تَضاعَف فيه الحزن من كلّ جانب

فالمستعار في كل واحد منهما وهو الرمي والإراحة منظور إليهما في لفظ السهم والعازب، وكما أنشد صاحب الكشّاف: [من الوافر]

ينازعني ردائي عند عمرو   رويدك يا أخا عمرٍو بنِ بكر
لِيَ الشَطر الذي ملكت يميني   ودونَك فاْعتجر منه بشَطر[٢]

أراد بردائه سيفه، ثم نظر إلى المستعار في لفظ الاعتجار. وأما تجريدها فهو أن يكون المستعار له منظورًا إليه، كقوله تعالى: ﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ﴾ [النّحل: الآية ١١٢] فإن الإذاقة لمّا وقعت عبارة عما يدرَك من أثر الضرر والألم تشبيهًا له بما يدرَك من الطعم المرّ البشع، واللباسَ عبارة عما يَغشى منهما ويلابِس فكأنه قال: فأذاقها الله ما غشيها من ألم الجوع والخوف، وكقول زهير: [من الطويل]

لدى أسدٍ شاكي السلاحِ مقذَّفٍ   له لِبد أظفاره لم تُقلّم

فلو نظر إلى المستعار لقال: أسد دامي المخالب أو دامي البراثن، ونظر زهير في آخر البيت إلى المستعار أيضًا، ومنه قول كُثيّرٍ: [من الكامل]

غَمْرُ الرِّداءِ إذا تبسّم ضاحكًا   غَلِقت لضحكته رقاب المال

استعار الرِّداء للمعروف لأنه يصون عِرض صاحبه صونَ الرداء لما يُلقَى عليه ووصفَه بالغمر الذي هو وصف المعروف والنوال لا وصفُ الرداء.

قال: ويقرب من ذلك الاستعارة بالكناية[٣]، وهي أن لا يصرّح بذكر المستعار بل بذكر بعض لوازمه تنبيهًا به عليه، كقولهم: شجاع يفترس أقرانه، وعالم يغترف منه الناس.

---

(١) يقول إنها وجهت إليه نظرة كالسهم ريشه أهداب العين، فجرح قلبه دون جسمه.
(٢) اعتجرْ: أضرب. ويريد بالرداء السيف.
(٣) عرف القزويني الاستعارة المكنية بقوله: «قد يضمر التشبيه في النفس فلا يصرح في أركانه سوى لفظ المشبه، ويدل عليه بأن يثبت للمشبه أمر مختص بالمشبه به...» (الإيضاح، ص ٢٦٤).

وكقول أبي ذؤيب: [من الكامل]

وإذا المنيّة أنشبت أظفارَها ألفيتَ كلّ تميمة لا تنفع

تنبيهًا على أنّ الشجاع أسد، والمنيّة سبع، والعالِم بحر، وهذا وإن كان يشبِه الاستعارة المجرّدة إلّا أنّه أغرب وأعجب، ويقرب منه قول زهير: [من الطويل]

ومَن يعصِ أطراف الزِجاجِ فإنه يطيع العوالي رُكِّبت كلّ لَهذم(١)

أراد أن يقول: من لم يرض بأحكام الصلح رضيَ بأحكام الحرب، وذلك أنهم كانوا إذا طلبوا الصلح قلبوا زِجاج الرماح وجعلوها قدّامها مكانَ الأسنّة، وإذا أرادوا الحرب أشرعوا الأسنّة؛ وقد يسمّى هذا النوع المماثلة أيضًا.

قال: وقد ينزلون الاستعارة منزلة الحقيقة، وذلك أنهم يستعيرون الوصف المحسوس للشيء المعقول ويجعلون كأنّ تلك الصفةَ ثابتةٌ لذلك الشيء في الحقيقة، وأنّ الاستعارة لم توجد أصلًا، مثاله ٱستعارتهم العلوّ لزيادة الرجل على غيره في الفضل والقدر والسلطان ثم وضعُهم الكلام وضعَ من يذكر علوًا مكانيًا، كقول أبي تمّام: [من المتقارب]

ويَصعَد حتى يظنَّ الحسود بأنّ له حاجةً في السماء

وكقوله أيضًا: [من الطويل]

مكارم لَجّت في علوّ كأنّما تحاول ثأرًا عند بعض الكواكب

ولذلك يستعيرون ٱسم شيء لشيء من نحو شمس أو بدر أو أسد ويَبلُغون إلى حيث يُعتقد أنه ليس هناك ٱستعارة، كقول ٱبن العمِيد: [من الكامل]

قامت تظلّلني من الشمس نفس أعزّ عليّ من نفسي
قامت تظلّلني ومن عجبٍ شمس تظللني من الشمس(٢)

وكقول آخر: [من الوافر]

أيا شمعًا يضيء بلا ٱنطفاءِ ويا بدرًا يلوح بلا مُحاق
فأنت البدر ما معنى ٱنتقاصي؟ وأنت الشمع ما معنى ٱحتراقي؟(٣)

---

(١) الزجاج: مفرده زج، وهو الحديدة الموضوعة في أسفل الرمح.
(٢) وقفت حبيبته التي تشبه الشمس في جمالها، حيالة فحجبت عنه أشعة الشمس.
(٣) يشبه حبيبته بالشمعة التي تضيء، والبدر الذي يطلع دون غياب أو انتقاص. المحاق: آخر=

فلولا أنه أنسى نفسه أن هٰهنا ٱستعارةً لما كان لهذا التعجب معنى، ومدار هذا النوع على التعجب.

وقد يجيء على عكسه، كقول الشاعر: [من المنسرح]

لا تعجبوا مِن بِلى غلالته قد زرّ أزراره على القمر[١]

فصل في أقسام الاستعارة

قال: وهي على نوعين:

الأوّل: أن تعتمد نفسَ التشبيه، وهو أن يشترك شيئان في وصف وأحدهما أنقص من الآخر، فتعطِي الناقصَ ٱسم الزائِد مبالغةً في تحقّق ذلك الوصف له كقولك: رأيت أسدًا وأنت تعني رجلًا شجاعًا، وعنّت لنا ظبيةٌ وأنت تريد ٱمرأةً.

والثاني: أن تعتمد لوازمه عندما تكون جهة الاشتراك وصفًا، وإنما ثبت كماله في المستعار منه بواسطة شيء آخر فتثبِت ذلك الشيء للمستعار له مبالغة في إثبات المشترك، كقول لبِيد: [من الكامل]

وغداةِ ريح قد كشفتُ وقِرّةٍ إذا أصبحت بيد الشَّمال زمامُها[٢]

وليس هناك مشار إليه يمكن أن يُجرِيَ ٱسمَ اليد عليه كما جرى الأسد على الرجل لكنّه خَيّل إلى نفسه أن الشمال في تصريف الغداة على حكم طبيعة الإنسان المتصرّف فيما زمامُه ومَقادتُه بيده، لأن تصرف الإنسان إنما يكون باليد في أكثر الأمور فاليد كالآلة التي تَكمُل بها القوّة على التصرف، ولما كان الغرض إثباتَ التصرف ـ وذلك مما لا يَكْمُل إلا عند ثبوت اليد ـ أثبت اليد للشّمال تحقيقًا للغرض، وحكم الزمام في ٱستعارته للغداة حكم اليد في استعارتها للشَّمال[٣]، وكذلك قول تأبّط شرّا: [من الطويل]

إذا هزّه في عظم قَرن تهلّلت نواجذُ أفواهِ المنايا الضواحكِ

= الشهر القمري، يختفي فيه القمر ولا يظهر.

(١) إذا كانت غلالته بالية فإن جسمه يشبه القمر في جماله.

(٢) القرة: شدة البرد.

(٣) يقول القزويني في شرح بيت لبيد: وعداه ريح قد كشفت... الخ. لقد جعل للشمال يدًا. وحكم الزمام في استعارته للقرة حكم اليد في استعارتها للشمال، فجعل القرة زمامًا...» (الإيضاح، ص ٢٦٤).

لمّا شبّه المنايا عند هزّه السيف بالمسرور ـ وكمال الفرح والسرور إنما يظهر بالضحك الذي تتهلّل فيه النواجذ ـ أثبته تحقيقًا للوصف المقصود، وإلّا فليس للمنايا ما يُنقل إليه اسمُ النواجذ، وهكذا الكلام في قول الحماسيّ: [من الطويل]

سقاه الردى سيف إذا سُلّ أومضت إليه ثنايا الموت من كلّ مَرقَبِ

ومن هذا الباب قولُهم: فلان مُرخَى العِنان، ومُلقَى الزمام.

قال: ويسمّى هذا النوع استعارة تخييليّة، وهو كإثبات الجناح للذلّ في قوله تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الإسراء: الآية ٢٤]. قال: إذا عُرف هذا فالنوع الأوّل على أربعة أقسام:

الأوّل: أن يستعار المحسوس للمحسوس، وذلك إما بأن يشتركا في الذات ويختلفا في الصفات، كاستعارة الطيران لغير ذي جناح في السرعة، فإن الطيران والعدو يشتركان في الحقيقة وهي الحركة الكائنة إلّا أن الطيرانَ أسرعُ. أو بأن يختلفا في الذات ويشتركا في صفة إما محسوسةٍ كقولهم: رأيت شمسًا ويريدون إنسانًا يتهلّل وجهه، وكقوله تعالى: ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ [مريَم: الآية ٤] فالمستعار منه النارُ، والمستعار له الشيبُ، والجامعُ الانبساطُ، ولكنّه في النار أقوى؛ وإمّا غيرِ محسوسة كقولِه تعالى: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ [الذاريَات: الآية ٤١] المستعار له الريحُ، والمستعار منه المرءُ والجامعُ المنعُ من ظهور النتيجة.

الثاني: أن يستعار شيء معقولٌ لشيء معقولٍ لاشتراكهما في وصف عدميّ أو ثبوتيّ وأحدهما أكملُ في ذلك الوصف، فيتنزّل الناقص منزلة الكامل كاستعارة اسم العدم للوجود إذا اشتركا في عدم الفائدة، أو استعارة اسمِ الوجود للعدم إذا بقيت آثاره المطلوبة منه، كتشبيه الجهل بالموت لاشتراك الموصوف بهما في عدم الإدراك والعقل، وكقولهم: فلان لَقِي الموت إذا لقي الشدائد، لاشتراكهما في المكروهيّة، وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ﴾ [الأعرَاف: الآية ١٥٤] والسكوت والزوال أمران معقولان.

الثالث: أن يستعار المحسوسُ للمعقولِ كاستعارة النور الذي هو محسوس للحجّة، واستعارةِ القِسطاسِ للعدلِ، كقوله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ﴾ [الأنبيَاء: الآية ١٨] فالقذف والدمغ مستعاران، وقولُه تعالى: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ [الحِجر: الآية ٩٤] استعارة لبيانه عما أوحي إليه كظهور ما في الزجاجة عند

أنصداعها، وكلُّ خوضٍ في القرآن العزيز فهو مستعار من الخوض في الماء، وقولُه تعالى: ﴿قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ﴾ [فُصِّلَت: الآية ١١] جعل لهما طاعة وقولًا.

الرابع: أن يستعار اسمُ المعقولِ للمحسوسِ على ما تقدّم ذكره في التشبيه كقوله تعالى: ﴿إِذَآ أُلۡقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ۝٧ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۖ﴾ [الملك: الآيتان ٧، ٨] فالشهيق والغيظ مستعاران، وقولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَاۚ﴾ [محمَّد: الآية ٤] والأقوال في الاستعارة كثيرة، وقد أوردنا فيها ما يُستدلُّ به عليها.

وأما الكناية ـ قال: اللفظة إذا أطلِقت وكان الغرض الأصليّ غيرَ معناها فلا يخلو: إما أن يكون معناها مقصودًا أيضًا ليكون دالاً على ذلك الغرضِ الأصليّ وإما أن لا يكون كذلك.

فالأوّل: هو الكناية، ويقال له: الإرداف أيضًا.

والثاني: المجاز.

فالكناية عند علماء البيان أن يريد المتكلّم إثباتَ معنى من المعاني لا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفُه في الوجود فيُومِي به إليه، ويجعله دليلًا عليه[1]، مثال ذلك قولُهم: طويل النِّجادِ وكثير رَمادِ القِدر، يعنون به أنه طويلُ القامةِ، كثيرُ القِرى، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرًا لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٩٠] كنى بنفي قبول التوبة عن الموت على الكفر.

وقول الشاعر[2]: [من الطويل]

بعيدة مَهوَى القُرطِ إما لنَوفلٍ أبوها وإمّا عبدُ شمسٍ وهاشمُ

---

(١) حد السكاكي الكناية بقوله: «الكناية هي ترك التصريح بذكر الشيء إلى ذكر ما يلزمه لينتقل من المذكور إلى المتروك كما تقول: فلان طويل النجاد لينتقل إلى ما هو ملزومه وهو طول القامة» (المفتاح، ص ١٨٩).

(٢) هو عمر بن أبي ربيعة المخزومي القرشي. زعيم مدرسة الغزل الإباحي في العصر الأموي. ولد بمكة في الليلة التي قتل بها عمر بن الخطاب سنة ٢٣ هـ. ومات سنة ٩٣ هـ باحتراق سفينته بالبحر. (ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٢، ص ١١١ ـ ١١٣).

أراد يذكر طُولَ جِيدها فأتى بتابعه وهو بُعد مهوى القرط، وكقولِ ليلى الأخيَلِيّة[١]: [من الكامل]

ومخرَّقٍ عنه القميصُ تخاله وسطَ البيوت من الحياء سقيما

كَنَتْ عن جوده بخَرق القميص من جذب العُفاة له عند ٱزدحامهم لأخذ العطاء، وأمثالِ ذلك. قال:

والكناية تكون في المثبتِ كما ذكرنا، وقد تكون في الإثبات وهي ما إذا حاولوا إثبات معنى من المعاني لشيء فيتركون التصريح بإثباته له، ويثبتونه لما له به تعلُّق، كقولهم: المجدُ بين ثوبيه، والكرم بين برديه، وقولِ الشاعر[٢]: [من الكامل]

إن المروءةَ والسماحةَ والندى في قُبّةٍ ضُربت على ٱبن الحَشْرَجِ

قال: وٱعلم أن الكناية ليست من المجاز لأنك تعتبر في ألفاظ الكناية معانيها الأصليةَ، وتفيد بمعناها معنى ثانيًا هو المقصود، فتريد بقولك: كثيرُ الرماد حقيقتَه وتجعل ذلك دليلًا على كونه جوادًا، فالكناية ذكر الردِيف وإرادةُ المردوف.

وأما التعريض ـ فهو تضمين الكلام دَلالةً ليس لها ذكر، كقولك: ما أقبحَ البخلَ! لمن تُعرِّض ببخله، وكقولِ محمد بنِ عبد الله بنِ الحسن: لم يُعرِق في أمّهات الأولاد، يعرّض بالمنصور بأنه ٱبن أمةٍ، وأمثالِ ذلك.

وأما التمثيل ـ فإنما يكون من باب المجاز إذا جاء على حدّ الاستعارة، مثاله قولك للمتحيّرِ: فلان يقدّم رِجلًا ويؤخّر أخرى، فلو قلت: إنه في تحيّره كمن يقدّم رِجلًا ويؤخر أخرى لم يكن من باب المجاز، وكذلك قولُك لمن أخذ في عمل لا يتحصّل منه مقصودٌ: أراد تنفخ في غير ضَرَم، وتخُطّ على الماء.

قال: وأجمعوا على أنّ للكناية مزيّةً على التصريح لأنك إذا أثبتّ كثرة القِرى بإثبات شاهدِها ودليلِها فهو كالدعوى التي معها شاهد ودليل، وذلك أبلغ من إثباتها بنفسها.

---

(١) هي ليلى الأخيلية العقيلية، اشتهرت بمراثيها الحزينة أحبت ثوبة بن العمير ورثته، اتصلت بعبد الملك بن مروان والحجاج. توفيت سنة ٨٠ هـ. ولها ديوان مطبوع. (الزركلي، الأعلام).

(٢) هو زياد الأعجم. وابن الحشرج أمير نيسابور. وهو زياد بن سليم أو سليمان مولى عبد القيس، شاعر أموي جزل الشعر. لقب بالأعجم لعجمة في لسانه عاش في خراسان ومات فيها سنة ١٠٠ هـ مدح هشام بن عبد الملك وعبد الله بن جعفر. (الزركلي، الأعلام).

وأما الخبر وأحكامه ـ فقد قال: الخبر هو القول المقتضِي تصريحُه نِسبةَ معلوم إلى معلوم بالنفي أو الإثبات. وتسمية أحد جزئيه بالخبر مجازيّة. ثم المقصود من الخبر إن كان هو الإثبات المطلق فيكون بالاسم، كقوله تعالى: ﴿وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ﴾ [الكهف: الآية ١٨] وإن لم يتمّ ذلك إلا بإشعار زمانه فيكون بالفعل، كقوله تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: الآية ٣] فإن المقصود لا يتمّ بكونه معطيًا للرزق بل بكونه معطيًا للرزق في كل حين وأوان، والإخبار بالفعل أخصّ من الإخبار بالاسم، وإذا أنعمت النظر وجدت الاسم موضوعًا على أن تثبت به المعنى للشيء من غير إشعارٍ بتجدّدِهِ شيئًا فشيئًا، بل جعلِ البسط مثلاً صفة ثابتة ثبوتَ الطول أو القِصر في قولك: زيد طويل أو قصير، بخلاف ما إذا أخبرت بالفعل فإنه يشعِر بالتجدّد وأنه يقع جزءًا فجزءًا، وإذا أردت شاهدًا على ذلك فتأمّل هذا البيت[1]: [من البسيط]

لا يألَف الدرهم المضروب صُرَّتنا إلا يمرّ عليها وهو منطلق

فجاء بالاسم، ولو أتى بالفعل لم يَحسن هذا الحسنَ. والفعل المتعدي إلى جميع مفعولاته خبر واحد، حتى إذا قلت: ضرب زيد عمرًا يوم الجمعة خلف المسجد ضربًا شديدًا تأديبًا له كان الخبر شيئًا واحدًا وهو إسناد الضرب المقيَّدِ بهذه القيود إلى زيد، فظهر من ذلك أن قولك: جاءني رجلًا مغايِر لما دلّ عليه قولك: جاءني رجل ظريف، وإنك لست في ذلك إلا كمن يضمّ معنى إلى معنى. وحكم المبتدأ والخبر أيضًا كذلك، فقول بشّار[2]: [من الطويل]

كأن مُثار النَّقعِ فوق رؤوسنا وأسيافَنا ليل تَهاوَى كواكبه[3]

خبر واحد. وإذا قلت: الرجل خير من المرأة فاللام فيه قد تكون للعموم أو للخصوص بأن ترجع إلى معهودٍ، أو لتعريف الحقيقة مع قطع النظر عن عمومها وخصوصها. وإذا قلت: زيد المنطلق، أو زيد هو المنطلق أفاد انحصار المخبَرِ به في المخبَرِ عنه، فإن أمكن الحصر تُرِك على حقيقتِه، وإلّا فعلى المبالغة. وإذا قلت:

---

(١) هذا البيت للنضر بن جؤبة بن النضر.

(٢) هو بشار بن برد العقيلي. شاعر عباسي ضرير بالولادة بصري المولد، قدم بغداد ومدح المهدي، ثم رمي بالزندقة فضرب سبعين سوطًا فمات ودفن في البصرة سنة ١٦٨ هـ. (ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ١، ص ٢٤٥ ـ ٢٤٨).

(٣) النقع: الغبار. شبه السيوف بالكواكب، وشبه الغبار بالليل.

المنطلق زيد فهو إخبار عما عُرِف بما لم يُعرَفُ، فكأن المخاطَب عَرَف أن إنسانًا ٱنطلق ولم يعرف صاحبه، فقلتَ: الذي تعتقد أنه منطلق زيد.

وأما الذي ـ فهو للإشارة إلى مفرد عند محاولة تعريفه بقضية معلومة كقولك: ذهب الرجل الذي أبوه منطلق، وهو تحقيق قولهم: إنه يُستعمل لوصف المعارف بالجُمل. والتصديق والتكذيب يتوجهان إلى خبر المبتدأ لا إلى صفته، فإذا كذّبت القائل في قوله: زيد بنُ عَمرٍو كريم، فالتكذيب لم يتوجه إلى كونه ٱبنَ عَمرٍو بل إلى كونه كريمًا.

وأما التقديم والتأخير ـ قال: إذا قُدّم الشيء على غيره فإما أن يكون في نيّة التأخير، كما إذا قدّم الخبر على المبتدإ؛ وإما أن يكون في نية التأخير ولكن ٱنتقل الشيء من حكم إلى آخر، كما إذا جئت إلى ٱسمين جاز أن يكون كلُّ واحد منهما مبتدأً فجعلت أحدهما مبتدأ، كقولك: زيد المنطلق، والمنطلق زيد. قال الجرجانِيّ: قال صاحب الكتاب[1]: كأنهم يقدّمون الذي بيانُه أهمّ لهم وهم بشأنه أعنَى، وإن كانا جميعًا يهمّانِهم ويعنيانهم، مثاله: أن الناس إذا تعلق غرضهم بقتلِ خارجيّ مفسدٍ ولا يبالون مَن صَدَرَ القتل منه، وأراد مريدُ الإخبار بذلك فإنه يقدّم ذكر الخارجيّ فيقول: قتل الخارجيَّ زيد، ولا يقول: قتل زيد الخارجيَّ لأنه يعلم أن قتل الخارجيِّ هو الذي يَعنيهم، وإن كان قد وقع قتل من رجل يبعُد في ٱعتقاد الناس وقوعُ القتل من مثله قَدّم المخبِرُ ذكرَ الفاعل فيقول: قتل زيد رجلًا لاعتقاد الناس في المذكور خلافَ ذلك. ٱنتهى كلام الجرجانيّ[2].

قال: ولنذكر ثلاثة مواضعَ يُعرف بها ما لم يُذكر:

الأوّل: الاستفهام ـ فإذا أدخلته على الفعل وقلت: أضربت زيدًا؟ كان الشكّ في وجود الفعل، وإذا أدخلته على الاسم وقلت: أأنت ضربت زيدًا؟ كان الفعل محقّقًا والشكّ في تعيين الفاعل. وهكذا حكم النكرة، فإذا قلت: أجاءك رجل؟ كان المقصود: هل وُجد المجيء من رجل؟ فإذا قلت: أرجل جاءك؟ كان ذلك سؤالًا عن

(١) يعني بصاحب الكتاب سيبويه لأنه سمى مؤلفه في النحو «الكتاب». ولد في البصرة وتوفي قرب شيراز سنة ٧٧٠ م. واسمه عمرو بن عثمان. وهو إمام البصريين في النحو كما أن الكسائي إمام الكوفيين في هذا العلم. (المنجد).

(٢) هو عبد القاهر الجرجاني وقد تكلم على هذا الموضوع في كتابه أسرار البلاغة في سياق حديثه عن النظم.

جنس من جاء بعد الحكم بوجود المجيء من إنسان؛ وقس عليه الخبر فِي قولك: ضربت زيدًا، وزيدًا ضربت، وجاءني رجل، ورجل جاءني؛ ثم الاستفهام قد يجيء للإنكار، فإن كان في الكلام فعل ماضٍ وأدخلت الاستفهام عليه كان لإنكاره، كقوله تعالى: ﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ۝١٥٣﴾ [الصافات: الآية ١٥٣] وإن أدخلته على الاسم فإن لم يكن الفعل مترددًا بينه وبين غيره كان لإنكار أنه الفاعل، ويلزم منه نفيُ ذلك الفعلِ، كقوله تعالى: ﴿ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ [يونس: الآية ٥٩] أي لو كان إذنٌ لكان من الله، فلمّا لم يوجد منه دلّ على أن لا إذْنَ، كما تقول: متى كان هذا، في ليلٍ أم نهارٍ؟ أي لو كان لكان في ليلٍ أو نهارٍ، فلما لم يوجد في واحد منهما لم يوجد أصلًا، وعليه قوله تعالى: ﴿ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ [الأنعام: الآية ١٤٣]. وإن كان مردَّدًا بينه وبين غيره كان إما للتقرير والتوبيخ، وعليه قوله تعالى حكاية عن قول نُمرُودِ: ﴿ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا﴾ [الأنبياء: الآية ٦٢]. وإما لإنكار أنه الفاعلُ مع تحقيق الفعلِ، كقولك لمن انتحل شعرًا: أأنت قلت هذا؟[1]

وإن كان الفعل مضارعًا، فإن أدخلت حرف الاستفهام عليه كان إمّا لانكار وجودِه، كقولِه تعالى: ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾ [هُود: الآية ٢٨]. أو لإنكار أنه يقدِر على الفعل، كقول امرىء القيس: [من الطويل]

أيقتلني والمشرَفيُّ مُضاجعي ومسنونةٌ زُرقٌ كأنياب أغوال

أو لإزالة طمَعٍ من طَمِع في أمر لا يكون، فَيُجَهِّلُهُ في طمعه، كقولك: أيرضى عنك فلان وأنت علَى ما يكره؟. أو لتعنيف من يضيّع الحق، كقول الشاعر: [من الطويل]

أأتـرك إن قـلّت دراهـم خـالـدٍ زيـارتَـه إنّـي إذن لـلـئـيـم[2]

أو لتنديم الفاعل، كما تقول لمن يركب الخطَرَ: أتخرج في هذا الوقت؟

وإن أدخلتَه على الاسم فهو لإنكار صدور الفعل من ذلك الفاعلِ إما للاستحقار كقولك: أأنت تمنعني؟. أو للتعظيم كقولك: أهو يسأل الناسَ؟. أو للمبالغة إما في

---

(١) تحدث عبد القاهر الجرجاني على التقديم والتأخير في كتابه أسرار البلاغة، ص ٤٠ وما بعدها. والنويري يتابعه في كلامه هنا على هذا الموضوع.

(٢) البيت للشاعر عمارة بن عقيل بن بلال بن جرير. من قصيدة يمدح فيها خالد بن يزيد بن فريد الشيباني.

كرمه، كقولك: أهو يمنع سائله؟؛ وإما في خساسته، كقولك: أهو يسمح بمثل هذا؟. وقد يكون لبيان ٱستحالة فعلٍ ظُنَّ ممكنًا، كقوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ﴾ [الزخرف: الآية ٤٠]، وكذلك إذا أدخلته على المفعول، كقوله تعالى: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ [الأنعام: الآية ١٤]، و﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ﴾ [الأنعام: الآية ٤٠]، و﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥ﴾ [القمر: الآية ٢٤].

الثاني: في التقديم والتأخير في النفي - إذا أدخلتَ النفيَ على الفعلِ فقلتَ: ما ضربتُ زيدًا فقد نفَيت عن نفسِك ضربًا واقعًا بزيدٍ، وهذا لا يقتضِي كونَ زيدٍ مضروبًا.

وإذا أدخلتَه على الاسم فقلتَ: ما أنت ضربتُ زيدًا ٱقتضى من باب دليل الخطاب كونَ زيدٍ مضروبًا، وعليه قول المتنبي: [من الطويل]

وما أنا وحدي قلت ذا الشعرَ كلَّه ... ولكن لِشعري فيك من نفسه شِعرُ[1]

ولهذا يصح أن تقولَ: ما ضربتُ إلا زيدًا، وما ضربتُ زيدًا ولا ضربه أحد من الناس، ولا يصح أن تقولَ: ما أنا ضربت إلا زيدًا، وما أنا ضربت زيدًا ولا ضربه أحد من الناس.

أما الأول فلأنّ نقضَ النفي بإلّا يقتضي أن تكون ضربته، وتقديمَك ضميرَك وإيلاءه حرفَ النفي يقتضي ألا تكون ضربته فيتدافعان[2].

وأما الثاني فلأن أوّلَ الكلام يقتضي أن يكون زيدٌ مضروبًا، وآخرَه يقتضي ألا يكونَ مضروبًا فيتناقضان. إذا عُرِف هذا في جانب الفاعل فإنه مثلُه في جانب المفعول، فإذا قلتَ: ما ضربتُ زيدًا لم يَقتضِ أن تكون ضاربًا لغيره، وإذا قلتَ: ما زيدًا ضربتُ اقتضى ذلك، ولهذا صحّ ما ضربتُ زيدًا ولا أحدًا من الناس ولا يصح ما زيدًا ضربت ولا أحدًا من الناس.

وحكمُ الجار والمجرور حكمُ المفعول، فإذا قلتَ: ما أمرتُك بهذا لم يقتضِ أن تكون قد أمرته بشيء غيرِ هذا، وإذا قلت: ما بهذا أمرتك اقتضاه.

---

(١) يريد أن يقول إنه شعره في ممدوحه ليس من صنعه وحده، وإنما يسهم فيه الممدوح أيضًا.

(٢) بحث عبد القاهر الجرجاني التقديم والتأخير في النفي في كتابه دلائل الإعجاز ص ٤٠ وما بعدها. وأتى بآراء مشابهة لآراء النويري.

وإذا قدَّمتَ صِيغةَ العموم على السلب وقلتَ: كلُّ ذا لم أفعلْه، برفع كلّ كان نفيًا عامًّا، ويناقضه الإثباتُ الخاصُّ، فلو فعلتَ بعضه كنتَ كاذبًا.

وإن قدَّمتَ السلب وقلتَ: لم أفعل كلَّ ذا كان نفيًا للعموم ولا ينافي الإثباتَ الخاصَّ، فلو فعلت بعضه لم تكن كاذبًا، ومن هذا ظهر الفرق بين رفعِ كلّ ونصبِه في قول أبي النجْم[1]: [من الرّجز]

قد أصبحت أمّ الخيار تدّعي عليّ ذنبًا كلّه لم أصنع

فإن رفعتَه كان النفي عامًّا، وٱستقام غرضُ الشاعر في تبرئة نفسِه من جملة الذنوب، وإن نصبتَه كان النفي نفيًا للعموم، وهو لا ينافي إتيانَ بعضِ الذنب فلا يتم غرضه.

الثالث: في التقديم والتأخير في الخبر المثبَت ـ ما تَقدّم في الاستفهام والنفي قائم هنا، فإذا قدّمتَ الاسم وقلتَ: زيد فعل وأنا فعلت فالقصد إلى الفاعل، إما لتخصيص ذلك الفعل به، كقولك: أنا شَفعت في شأنه مدّعيًا الانفرادَ بذلك أو لتأكيد إثباتِ الفعل له لا للحصر، كقولك: هو يعطي الجزيل، لتمكّن في نفس السامع أن ذلك دأبه دون نفيه عن غيره، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ﴾ [الفرقان: الآية ٣]، فإنه ليس المراد تخصيصَ المخلوقية بهم، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلۡكُفۡرِ وَهُمۡ قَدۡ خَرَجُواْ بِهِۦۚ﴾ [المَائدة: الآية ٦١].

وكقول دُرْنَى بنتِ عَبْعَبَةَ: [من الطويل]

هما يَلبَسان المجدَ أحسنَ لِبسةٍ شحيحان ما ٱسطاعا عليه كِلاهما

وقولِ الآخر: [من الطويل]

همو يفرِشون اللِّبدَ كلَّ طِمِرَّةٍ وأجردَ سَبّاح يبُذّ المُغالبا[2]

قال: والسبب في هذا التأكيد أنك إذا قلت مثلًا: زيد، فقد أشعرتَ بأنك تريد الحديثَ عنه فيحصل للسامع تشوّق إلى معرفته، فإذا ذكرته قبِلته النفس قبول العاشق

(١) أبو النجم (١٣٠ هـ = ٧٤٧ م)، هو الفضل بن قدامة العجلي الوائلي. عاش في العصر الأموي واتصل بعبد الملك بن مروان وولده هشام. من أكابر الرجاز. (الزركلي، الأعلام).
(٢) الطمرة: الفرس الطويلة القوائم الخفيفة.

معشوقه فيكون ذلك أبلغَ في التحقيق ونفيِ الشكّ والشبهة، ولهذا تقول لمن تَعِدُه: أنا أُعطيك أنا أُكفيك، أنا أقُوم بهذا الأمر، وذلك إذا كان من شأن من يَسبِقُ له وعدٌ أن يعترضَه الشك في وفائه، ولذلك يقال في المدح: أنت تعطِي الجزيل، أنت تجود حين لا يجود أحد، ومن هٰهنا تعرف الفخامة في الجمل التي فيها ضميرُ الشأن والقصة كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحجّ: الآية ٤٦]، وقولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المؤمنون: الآية ١١٧] وأن فيها ما ليس في قولك: فإن الأبصار لا تَعمَى، وإن الكافرين لا يفلحون؛ وهكذا في الخبر المنفيّ، فإذا قلتَ: أنت لا تُحسِنُ هذا، كان أبلغَ من قولك لا تُحسِن هذا، فالأوّل من هو أشدّ إعجابًا بنفسه وأكثر دعوى بأنه يُحسن.

قال: واعلم أنه قد يكون تقديمُ الاسم كاللازم نحو قوله: [من السريع]

يا عاذلي دعنِيَ من عذلكا ... مِثلي لا يقبَل من مثلكا

وقولِ المتنبي: [من السريع]

مِثلُك يَثني الحُزنَ عن صَوبه ... ويستردّ الدمعَ عن غَرْبه

وقولِ الناس: مِثلُك يرعى الحق والحرمة، وما أشبه ذلك مما لا يُقصَد فيه إلى إنسان سوى الذي أُضيف إليه وجيء به للمبالغة، وقد عبّر المتنبي عن هذا المعنى فقال: [من السريع]

ولم أقل مِثلُك أعنِي به ... سواك يا فردًا بلا مُشبِه[1]

وكذلك حكم «غير» إذا سُلك فيه هذا المسلك، كقول المتنبي: [من البسيط]

غيري بأكثر هذا الناسِ ينخدع ... إن قاتلوا جَبنُوا أو حَدّثوا شجعُوا[2]

أي لستُ ممن ينخدع ويغترّ، ولو لم يقدّم مثلًا وغيرًا في هذه الصور لم يؤدِّ هذا المعنى.

قال: ويقرب من هذا المعنى تقديمُ بعض المفعولات على بعض في نحو قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ﴾ [الأنعام: الآية ١٠٠] فإن تقديم شركاءَ على الجن أفاد أنه ما ينبغي لله شركاءُ لا من الجنّ ولا من غيرهم، لأن شركاءَ مفعولٌ ثان لجعلوا،

---

(١) يريد أن يقول إن ممدوحه لا يشبهه أحد فيشبهه به.

(٢) يعني أنه لا يثق بالناس ولا ينخدع بادعاءاتهم فهم شجعان في الكلام جبناء في ساحة الوغى.

ولله متعلّق به والجنّ مفعوله الأوّل، فقد جعل الإنكار على جعل الشريك لله على الإطلاق من غير اختصاص بشيء دون شيء، لأن الصفة إذا ذكرت مجرّدة عن مَجراها على شيء كان الذي تعلق بها من المنفيّ عامًا في كل ما يجوز أن تكون له تلك الصفةُ، فإذا قلتَ: ما في الدار كريم، كنتَ نفيتَ الكينونةَ في الدار عن كل شيء يكون الكرم صفةً له، وحكم الإنكار أبدًا حكم النفي، فأما إذا أخرتَ شركاءَ فقلت: وجعلوا الجنَّ شركاءَ لله فيكونُ جَعْلُ الشركاء مخصوصًا غيرَ مطلق فيحتمل أن يكون المقصودَ بالإنكار جعلُ الجنّ شركاء لا جعلُ غيرهم، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا، فقدّم شركاء نفيًا لهذا الاحتمال.

فصل في مواضع التقديم والتأخير[1]

قال: أما التقديم فيحسن في مواضعَ:

الأول: أن تكون الحاجة إلى ذكره أشدَّ، كقولك: قطع اللّصَّ الأميرُ.

الثاني: أن يكون ذلك أليق بما قبله من الكلام أو بما بعده، كقوله تعالى: ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ [إبراهيم: الآية ٥٠]، فإنه أشكَلُ بما بعده وهو قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٩٩]، وبما قبله وهو: ﴿مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾ [إبراهيم: الآية ٤٩].

الثالث: أن يكون من الحروف التي لها صدر الكلام، كحروف الاستفهام والنفي، فإنّ الاستفهامَ طلبُ فهم الشيء، وهو حالة إضافية فلا تستقلُّ بالمفهومية فيشتدّ اتصاله بما بعده.

الرابع: تقديم الكليّ على جزئياته، فإن الشيء كلما كان أكثرَ عمومًا كان أعرفَ فإن الوجود لما كان أعمَّ الأمور كان أعرفَها عند العقل.

الخامس: تقديم الدليل على المدلول.

وأما التأخير فيحسُن في مواضعَ:

الأوّل: تمام الاسم كالصلة والمضاف إليه.

(١) تكلم القزويني على التقديم والتأخير في باب المسند والمسند إليه من كتابه الإيضاح، ص ٩٣ وما بعدها. وكذلك تحدث عن هذا الموضوع السكاكي في كتابه «مفتاح العلوم، ص ٩٠ وما بعدها.

الثاني: توابع الأسماء.

الثالث: الفاعل.

الرابع: المضمَر، وهو أن يكون متأخرًا لفظًا وتقديرًا، كقولك: ضرب زيدٌ غلامَه أو مؤخَّرًا في اللفظ مقدَّمًا في المعنى كقوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ﴾ [البقرة: الآية ١٢٤] أو بالعكس كقولك: ضرب غلامَه زيد؛ وإن تقدّم لفظًا ومعنى لم يجز كقولك: ضرب غلامُه زيدًا.

الخامس: ما يُفضِي إلى اللَّبس، كقولك: ضرب موسى عيسى، أو أكرم هذا هذا، فيجب فيه تقديم الفاعل.

السادس: العامل الذي هو ضعيف عملُه، كالصفة المشبّهة والتمييز وما عمل فيه حرف أو معنى، كقولك: هو حسنٌ وجهًا، وكريم أبا، وتصبب عَرَقا، وخمسة وعشرون درهمًا، وإن زيدًا قائم، وفي الدار سعد جالسًا. ولا يجوز الفصل بين العامل والمعمول بما ليس منه، فلا تقول: كانت زيدًا الحمّى تأخذ إذا رفعتَ الحمّى بكانت للفصل بين العامل وما عَمِل فيه، فإن أضمرت الحمّى في كانت صحت المسألة.

وأما الفصل والوصل ـ فهو العلم بمواضع العطف والاستئناف، والتهدّي إلى كيفيّة إيقاع حروف العطف في مواقعها، وهو من أعظم أركان البلاغة، حتى إن بعضَهم حدّ البلاغَة بأنها معرفة الفصل والوصل[(١)]. وقال عبد القاهر: إنه لا يكمُل لإحراز الفضيلة فيه أحد إلا كَمُل لسائر معاني البلاغة.

قال: اعلم أن فائدة العطف التشريكُ بين المعطوف والمعطوف عليه[(٢)]، ثم من الحروف العاطفة ما لا يفيد إلا هذا القَدْرَ وهو الواو، ومنها ما يفيد فائدة زائدة كالفاء وثمّ وأو، وغرضنا هٰهنا متعلق بما لا يفيد إلا الاشتراكَ فنقول: العطف إما أن يكون في المفردات، وهو يقتضي التشريكَ في الإعراب، وإما أن يكون في الجمل، وتلك الجملة إن كانت في قوّة المفرد كقولك: مررت برجل خَلْقه حَسَنٌ وخُلُقه قبيح، فقد

---

(١) لعل أقدم من أشار إلى أهمية الفصل والوصل الجاحظ في كتابه البيان والتبيين، الجزء الأول، باب البلاغة، صفحة ٩١.

(٢) حد القزويني الفصل والوصل بقوله: «الوصل عطف بعض الجمل على بعض، والفصل تركه». (الإيضاح، ص ١٤٥).

أشركتَ بينهما في الإعراب والمعنى لاشتراكهما في كون كل واحد منهما تقييدًا للموصوف، ولا يُتصور أن يكون ٱشتراك بين شيئين حتى يكون هناك معنى يقع ذلك الاشتراكُ فيه، وحتى يكونا كالنظيرين والشريكين، وبحيث إذا عرف السامع حالَه الأوّلَ عساه يعرف حاله الثاني، يدلك على ذلك أنك إذا عطفت على الأول شيئًا ليس منه بسبب ولا هو مما يُذكَر بذكره لم يستقم، فلو قلتَ: خرجت اليوم من داري، وأحسنَ الذي يقول بيتَ كذا قلتَ ما يُضحَك منه، ومن هٰهنا عابوا على أبي تمّام قوله: [من الكامل]

لا والـذي هـو عـالـم أن الـنـوى صَـبِرٌ وأن أبـا الـحـسـيـن كـريـم

وإن لم تكن في قوّة المفرد فهي على قسمين:

الأوّل: أن يكون معنى إحدى الجملتين لذاته متعلقًا بمعنى الأخرى كما إذا كانت كالتوكيد لها أو كالصفة، فلا يجوز إدخال العاطف عليه، لأنّ التوكيد والصفة متعلقان بالمؤكَّد[1] والموصوف لذاتهما، والتعلق الذاتيّ يغني عن لفظ يدل على التعلق، فمثال التوكيد قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البَقَرَة: الآيتان ١، ٢] فلا ريب فيه توكيد لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢] كأنه قال: هو ذلك الكتاب، وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾ [البَقَرَة: الآية ٦]، وقوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٧﴾ [البَقَرَة: الآية ٧] تأكيد ثان أبلغ من الأوّل، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [البَقَرَة: الآيتان ٨، ٩] ولم يقل: ويخادعون، لأن المخادعة ليست شيئًا غيرَ قولهم: آمنّا مع أنهم غيرُ مؤمنين، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ﴾ [لقمَان: الآية ٧] ولم يقل تعالى: وكأن، وأمثال ذلك في القرآن العزيز كثيرة.

القسم الثاني: ألا يكون بين الجملتين تعلق ذاتيّ، فإن لم يكن بينهما مناسَبة فيجب ترك العاطف أيضًا، لأن العطف للتشريك ولا تشريكَ، ومن هٰهنا أيضًا عابوا

---

(١) اعتبر القزويني التأكيد أحد أنواع الفصل الثلاثة لكمال الاتصال بين الجملتين. أما النوعان الآخران فهما أن تكون الجملة الثانية بدلًا من الأولى، أو أن تكون الجملة الثانية بيانًا للأولى. (الإيضاح، صفحة ١٤٨ ـ ١٥٠).

على أبي تمّام البيتَ المتقدِّمَ، لا والذي هو عالم. . .، إذ لا مناسبة بين مرارة النوى وبين كرم أبي الحسين، ولذلك لم يحسُن جوازُ العاطف.

وإن كان بينهما مناسَبة فيجب ذكر العاطف.

ثم إن كان المحدَّث عنه في الجملتين شيئين فالمناسَبة بينهما إما أن تكون بالذي أخبر بهما، أو بالذي أخبر عنهما، أو بِهِمَا كليهما؛ وهذا الأخير هو المعتبَر في العطف. قال: ونعني بالمناسَبة أن يكونا متشابهين، كقولك: زيد كاتب وعمرو شاعر أو متضادّين تضادًا على الخصوص، كقولك زيد طويل وعمرو قصير، وكقولك: العلم حسن والجهل قبيح، فلو قلت: زيد طويل والخليفة قصير لاختل معنى عند ما لا يكون لزيد تعلق بحديث الخليفة، ولو قلتَ: زيد طويل وعمرو شاعر لاختل لفظًا، إذ لا مناسَبة بين الطويل القامة والشاعر.

وإن كان المحدَّث عنه في الجملتين شيئًا واحدًا، كقولك: فلان يقول ويفعل ويضرّ وينفع، ويأمر ويَنهَى، ويسيء ويحسِن، فيجب إدخال العاطف فإن الغرض جعلُه فاعلًا لأمرين، فلو قلتَ: يقول يفعل بلا عاطف لتُوهّم أن الثانيَ رجوع عن الأوّل.

وإذا أفاد العاطف الاجتماعَ ٱزداد الاشتراكُ، كقولك: العجَب من أنك أحسنت وأسأت، والعجَب من أنك تنهى عن شيء وتأتي مثله، وكقوله: [من البسيط]

لا تَطمَعوا أن تُهينونا ونكرمَكم   وأن نكفَّ الأذى عنكم وتؤذونا

فإن المعنى جعلُ الفعلين في حُكم واحد، أي لا تطمَعوا أن ترَوا إكرامنا إيّاكم يُوجَد مع إهانتكم إيّانا.

قال: وقد يجب إسقاط العاطف في بعض المواضع لاختلال المعنى عند إثباته كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ﴾ [البَقَرَة: الآيتان ١١، ١٢]، فقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٢] كلام مستأنَفٌ، وهو إخبار من الله تعالى، فلو أتى بالواو لكان إخبارًا عن اليهود بأنهم وصفوا أنفسَهم بأنهم يُفسِدون فيختل المعنى، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٣] وأمثالُ ذلك كثيرة؛ وإذا كان كذلك فلا حاجة إلى العاطف بخلاف قولِهِ تعالى: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النساء: الآية ١٤٢]، ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٥٤] فإن كل واحدةٍ من الجملتين خبرٌ من الله تعالى.

قال: ومما يجب ذكره هٰهنا الجملةُ إذا وقعت حالًا[١] فإنها تجيء مع الواو تارة وبدونها أخرى فنقول: الجملة إذا وقعت حالًا فلا بدّ أن تكون خبريّة تَحتمِل الصدقَ والكذبَ، وهو على قسمين:

الأوّل وله أحوال:

الأولى: أن يُجمع لها بين الواو وضمير صاحب الحال، كقولك: جاء زيد ويدُه على غلامه، ولقِيتُ زيدًا وفرسُه سابقُه، وهذه الواوُ تسمّى واوَ الحال.

الثانية: أن تجيء بالضمير من غير واو، كقولك: كلمتُه فوه إلى فيّ، وهو في معنَى مُشَافِهًا، والرابط الضمير، فلو قلتَ: كلّمتُه إلى فيّ فوه، ولقِيتُه عليه جبّةُ وَشْيٍ لم يكن من باب وقوع الجملة حالًا، لأنه يمكننا أن نرفع فُوهُ وجبّةُ بالجارّ والمجرور فيرجع الكلام إلى وقوع المفرد حالًا، والتقدير كلّمتُه كائنًا إلى فيّ فوه، ولقِيتُه مستقرّةً عليه جبّة وشيٍ، وعليه قول بشّار: [من الطويل]

إذا أنكرتني بَلدة أو نكِرتُها غدوت مع البازي عليّ سوادُ

الثالثة: أن تجيء الواو من غير ضمير وهو كثير، كقولك: لقِيتُك والجيشُ قادم وزرتّنا والشتاءُ خارج. ويجوز أن يُجمع بين حالين مفردٍ وجملةٍ إذا أجزنا وقوع حالين كقولك: لقِيتُك راكبًا والجيشُ قادم، فالجملة حال من التاء أو من الكاف، والعامل فيها لَقِيتُ، أو من ضمير «راكبًا» و «راكبًا» هو العامل فيها.

القسم الثاني: الجملة الفعلية، ولا بدّ أن تكون ماضيًا أو مضارعًا أما الماضي فلا بدّ معه من الإتيان بالواو وقد أو بأحدهما، كقولك: تكلمت وقد عجلت، وجاء زيد قد ضرب عمرًا، وجئت وأسرعت في المجيء، قال الله تعالى: ﴿۞ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ١١١﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ١١١]، ولم يُجِز البصريون خلوّه عنهما، وقالوا في قوله تعالى: ﴿أَوۡ جَآءُوكُمۡ حَصِرَتۡ صُدُورُهُمۡ﴾ [النِّساء: الآية ٩٠] وفي قول أبي صخر الهُذَليّ: [من الطويل]

وإني لتعروني لذكراكِ هِزّة كما انتَفَض العُصفور بلّله القَطر

---

(١) بحث القزويني حكم الجملة الحالية. وقال إن الجملة التي تقع حالًا ضربان، خالية من ضمير تقع حالًا، وغير خالية. الأولى يجب أن تكون بالواو. أما الثانية فتارة تكون بالواو وتارة يمتنع ذلك، وتارة يترجح أحدهما، وتارة يستوي الأمران. (الإيضاح، ص ١٥٨ - ١٥٩).

إنّ قد مقدَّرةٌ فيهما، فإنّ الشيء إذا عُرف موضعُه جاز حذفه.

وأما المضارع فإن كان موجَبًا فلا يؤتَى معه بالواو، فتقول: جاءني زيد يضحك، ويجيء عمرو يسرع، وأجلس تحدّثنا بالرفع أي محدِّثًا لنا، لأنه بتجرّده عما يغير معناه أشبَه اسمَ الفاعل إذا وقع حالًا.

وإن كان منفيًا جاز حذف الواو مراعاةً لأصل الفعل الذي هو الإيجابُ وجاز إثباتها، لأن الفعلَ ليس هو الحالُ، فإن معنى قولك: جلس زيد ولم يتكلّم جلس زيد غيرَ متكلّم، فجرى مَجرى الجملة الاسمية، فالحذف كقولك: جاء زيد ما يَفُوهُ ببنت شَفة، قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾ [فاطر: الآية ٣٥]، فقوله: لا يمسّنا في موضعِ نصبٍ على الحال من ضمير المرفوع في أحلّنا، والإثبات كقولك: جلس زيد ولم يتكلّم، قال الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾﴾ [طه: الآية ٨٩]. قال: وشبهوا به الفعلَ الماضِيَ فقالوا: جاء زيد ما ضرب عمرًا، وجاء زيد وما ضرب عمرًا.

وأما الحذف والإضمار ـ فقد قال: الأفعالُ المتعدّيةُ التي تُرك ذكر مفعولاتها على قسمين:

الأول: ألا يكونَ له مفعول معيَّن فقد يُترك مفعولُه لفظًا وتقديرًا ويُجعل حاله كحال غير المتعدِّي، كقولهم: فلان يَحُلّ ويَعْقِد، ويأمر ويَنهَى، ويضرّ وينفع والمقصود إثباتُ المعنى في نفسه للشيء من غير التعرّض لحديث المفعول، فكأنك قلت: بحيث يكون منه حَلّ وعَقد وأمر ونهي ونفع وضرّ، وعليه قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزُّمَر: الآية ٩] أي هل يستوي من له علم ومن لا علم له من غير أن ينص على معلوم، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾﴾ [النجم: الآيات ٤٣ ـ ٤٨] وبالجملة فمتى كان الغرض بيانَ حال الفاعل فقط فلا تُعدّ الفعلَ، فإنّ تعدِيتَه تنقُض الغرض. ألا ترى أنك إذا قلت: فلان يُعطِي الدنانيرَ كان المقصود بيانَ جنس ما يتناوله الإعطاءُ لا بيانَ حالِ كونهِ معطيًا؟.

الثاني: أن يكون له مفعول معلوم إلا أنه يُحذَف في اللفظ لأغراض:

الأول: أن يكون المراد بيانَ حالِ الفاعِل وأنّ ذلك الحالَ دأبه لا بيانَ المفعول كقول طُفَيل(١): [من الطويل]

جزى الله عنا جعفرًا حين أُزْلِقَتْ ... بنا نعلُنا في الواطئين فَزَلَّتِ
أبَوا أن يَمَلُّونا ولو أنّ أمنا ... تُلاقِي الّذي لاقَوْه منّا لَمَلَّتِ
هُمُ خلطونا بالنفوس وألجؤوا ... إلى حُجُرات أدفأت وأظلّت

والأصل أن تقول: لَمَلّتنا وألجؤونا وأدفأتنا وأظلّتنا، فحذَف المفعولَ المعيَّن من هذه المواضع الأربعة، وكأنه قد أبهم ولم يَقصِد قصدَ شيء يقع عليه، كما تقول: قد ملّ فلان، تريد قد دخل عليه الْمَلَالُ من غير أن تخصّ شيئًا بل لا تزيد على أن تجعل الْمَلَال من صفته، فلذلك الشاعرُ جعل هذه الأوصافَ من دأبهم، ولو أضاف إلى مفعول معيّن لبطَل هذا الغرض، وعليه قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ [القَصَص: الآيتان ٢٣، ٢٤] فقد حذف المفعولَ في أربعة مواضعَ، فإن ذكره ربما يُخلّ بالمقصود، فلو قال تعالى مثلًا: تذودان غنمَهما لَتُوُهِّمَ أنّ الإنكارَ إنما جاء من ذَوْدِهما الْغَنَمَ لا من مطلق الذَّوْد، كقولك: ما لك تمنع أخاك؟ فإنّ الإنكار من منع الأخ لا من مطلق المنع.

الثاني: أن يكون المقصود ذكره إلا أنك لا تذكره إيهامًا بأنك لا تقصد ذكره كقول البحتريّ: [من الخفيف]

شَجْوُ حسّاده وغيظُ عِداه ... أن يَرى مبصر ويَسمعَ واع

المعنى أن يرى مبصرٌ محاسنَه، أو يَسمَعَ واعٍ أخبارَه، ولكنه تغافل عن ذلك إيذانًا بأن فضائله يكفي فيها أن يقع عليها بصرٌ أو يَعِيَها سمع حتى يُعلَمَ أنه المتفرّد بالفضائل، فليس لحسّاده وعِداه أشجى من عِلمٍ بأن هنا مبصرًا وسامعًا.

الثالث: أن يُحذَف لكونه بيّنًا، كقولهم: أصغَيت إليك، أي أُذني، وأغضَيت عليك، أي جَفني.

---

(١) هو طفيل بن كعب الغنوي، من أوقف الناس للخيل، كان يقال له في الجاهلية «المحبِّر» لحسن شعره، شاعر جاهلي. (الشعر والشعراء، ص ٢٩٥).

فصل في حذف المبتدأ والخبر

قال: قد يحسُن حذف المبتدأ حيث يكون الغرضُ أنه قد بلغ في استحقاق الوصف بما جُعِل وصفًا له إلى حيث يُعلَمُ بالضرورة أن ذلك الوصفَ ليس إلا له سواء كان في نفسه كذلك، أم بحسب دعوى الشاعر على طريق المبالغة، فذِكره يُبطِل هذا الغرضَ، ولهذا قال الإمام عبدُ القاهِر[١]: ما من آسم يُحذفُ في الحالة التي ينبغي أن يُحذفَ فيها إلا وحذفُه أحسن مِن ذِكره، فمن حذف المبتدأ قوله تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا﴾ [النُّور: الآية ١] أي هذه سورة، وقول الشاعر: [من الكامل]

لا يُبعِد الله التلبُّب والـ ... ـغارات إذ قال الخمِيس نَعَمْ[٢]

أي هذه نَعَم. قال عبدُ القاهِر: ومن المواضع التي يَطَّرِد فيها حذف المبتدأ بالقطع والاستئناف أنهم يبدؤون بذكر الرجل ويقدّمون بعض أمره، ثم يَدَعون الكلام الأوّلَ ويستأنفون كلامًا آخر وإذا فعلوا ذلك أتَوا في أكثر الأمر بخبر من غير مبتدإ، مثال ذلك قوله: [من الكامل]

وعلمت أنّي يوم ذا ... ك مُنَازِلٌ كَعبا ونَهْدا
قوم إذا لبِسوا الحديـ ... ـد تَنمّروا حُلُقا وقِدّا

وقال الحُطَيئة: [من الوافر]

هُمُ حَلُّوا من الشرف المعلّى ... ومن حَسَبِ العشيرة حيث شاؤوا
بُناة مكارم وأُساة كَلْمٍ ... دماؤهم من الكَلَبِ الشفاء[٣]

وأمثلة ذلك كثيرة.

ومن حذف الخبر قوله تعالى: ﴿لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ [سَبَأ: الآية ٣١]، أي: لولا أنتم مضلونا وقولُ عمرَ بنِ الخطاب رضي الله عنه: لولا عليٌّ لهلكَ عمر، أي: لولا عليٌّ حاضر أو مُفتٍ.

---

(١) يعني به عبد القاهر الجرجاني الذي يعتمد عليه النويري كثيرًا ولا سيما كتاباه «أسرار البلاغة» و«دلائل الإعجاز».
(٢) التَّلبب: التهيؤ للحرب.
(٣) كانوا يعتقدون أن المصاب بالكلب يشفى إذا شرب من دم الملوك.

فصل

الإضمار على شريطة التفسير كقولهم: أكرمني وأكرمت عبدَ الله أي: أكرمني عبدُ الله وأكرمت عبدَ الله، ومما يشبه ذلك مفعول المشيئة إذا جاءت بعد لو، فإن كان مفعولها أمرًا عظيمًا أو غريبًا فالأَولى ذكرُه، كقوله(١): [من الطويل]

ولو شئتُ أن أبكي دَمًا لبكَيتُه عليه ولكن ساحةُ الصبر أَوسع

فإن بكاءَ الإنسان دمًا عجيبٌ، وإن لم يكن كذلك فالأَولى حذفه، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [الأنعام: الآية ٣٥] والتقدير لو شاء الله أن يجمعهم على الهدى لجمعهم، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النحل: الآية ٩]، وقوله تعالى: ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشورى: الآية ٢٤]، و﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: الآية ٣٩].

قال: واعلم أنه قد تُترك الكنايةُ إلى التصريح لما فيه من زيادة الفخامة كقول البحتريّ: [من الخفيف]

قد طَلبْنا فلم نَجد لك في السُّو دَدِ والمجد والمكارم مِثلا(٢)

المعنى قد طلبنا لك مِثلا، ثم حُذف، لأن هذا المدحَ إنما يتم بنفِي المِثل، فلو قال: قد طلبنا لك مِثلا في السُّودَدِ والمجد فلم نجده لكان قد أوقع نَفْيَ الوجود على ضمير المِثل، فلم يكن فيه من المبالغة ما إذا أوقعه على صريح المِثل، فإن الكناية لا تبلُغ مَبلغ الصريح، ولهذا لو قلت: وبالحق أنزلناه وبه نزل، وقل هو الله أحد وهو الصمد لا تجدُ من الفخامة ما تجدُه في قولِه تعالى: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء: الآية ١٠٥] و ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾ [الإخلاص: الآيتان ١، ٢] وعلى ذلك قول الشاعر: [من الخفيف]

لا أرى الموتَ يسبِق الموتَ شيءٌ نَغَّص الموتُ ذا الغنى والفقيرا

وأما مباحث إنّ وإنما ـ فإنه قال: أما إنّ فلها فوائد:

---

(١) هذا البيت للشاعر إسحٰق بن حسان الخريمي بالولاء وهو من قصيدة يرثي بها عامر بن عمارة الخُريمي. شاعر مطبوع. ولد في الجزيرة وسكن بغداد. ووصف ما حل ببغداد إبان الفتنة بين الأمين والمأمون، توفي سنة ٢١٢ هـ. (الأعلام، للزركلي).

(٢) يريد البحتري أن يقول إنه لم يجد شبيهًا لممدوحه في المجد والمكارم.

الأُولى: أن تربُط الجملةَ الثانيةَ بالأُولى، وبسببها يحصل التأليف بينهما حتى كأن الكلامين أُفرِغا إفراغًا واحدًا، ولو أسقطْتَها كان الثاني نائيًا عن الأوّل، كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٞ ١﴾ [الحجّ: الآية ١]، وقوله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [لقمان: الآية ١٧]، وقوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمْۗ﴾ [التوبة: الآية ١٠٣]، وقد تتكرر في كلام واحد، كقوله تعالى: ﴿۞وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥٣﴾ [يوسف: الآية ٥٣]. ثم متى أسقطْتَ «إنّ» من الجملة التي أدخلتها عليها، فإن كانت الجملةُ الثانيةُ إنما تذكَر لإظهار فائدةِ ما قبلها كما في الآيات المذكورة اُحتجتَ إلى الفاء، وإلا فلا، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ٥٠ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٖ ٥١﴾ [الدخان: الآيتان ٥٠، ٥١]، فلو قلت: فالمتقون لم يكن كلامًا، وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ﴾ [الحجّ: الآية ١٧] فقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ﴾ [الحجّ: الآية ١٧] في موضع خبر إنّ، فدخول الفاء يوجب عطفَ الخبر على المبتدأ، وهو غير جائز عند أكثر النحويين.

الثانية: أنك ترى لضمير الشأنِ والقصةِ في الجملة الشرطيّة مع «إنّ» من الحسن واللطف ما لا تراه إذا هي لم تدخل عليها، كقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: الآية ٩٠]، وقولِه تعالى: ﴿أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ [التوبة: الآية ٦٣]، وقولِه تعالى: ﴿أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [الأنعام: الآية ٥٤].

الثالثة: أنها تهيِّىء النكرة وتُصلحها لأن يحدَّث عنها، كقوله[1]: [من الرجز]

إن شِـــواءً ونَـــشْـــوةً   وخَـبَـبَ الـبازلِ الأَمُـونِ[2]

(١) البيت: لسلمى بن ربيعة.

(٢) الخبب: نوع من السير، فيه مراوحة بين اليدين والرجلين. الأمون: الناقة المأمونة العثار والإعياء.

فلولا هي لم يكن كلامًا؛ وإن كانت النكرة موصوفةً جاز حذفها ولكن دخولُها أصلَحُ، كقول حسّانَ: [من الخفيف]

إنّ دهـرًا يَـلُفُّ شـمـلي بـجُـمْـلٍ   لـزَمـان يَـهُـمُّ بـالإحـسـان

الرابعة: أنها قد تُغنِي عن الخبر، كما إذا قيل لك: الناس إِلْبٌ[1] عليكم فهل لكم أحد؟ فقلتَ: إنّ زيدًا وإنّ عمرًا، أي لنا، قال الأعشى[2]: [من المنسرح]

إنّ مَـحَـلًّا وإنّ مُـرتَـحَـلا   وإنّ في السَّفْرِ إذ مضَوا مَهَلا[3]

الخامسة: قال المُبرّد[4]: إذا قلت عبد الله قائم، فهو إخبار عن قيامه، فإذا قلتَ: إنّ عبد الله قائم، فهو جواب عن إنكارِ مُنكِرٍ لقيامه، سواء كان المنكر هو السائل أو الحاضِرين؛ والدليل على أنّ إنّ إنما تذكر لجواب السائل أنهم ألزموها الجملةَ من المبتدأ والخبر، نحو: والله إنّ زيدًا لمنطلق، فالحاجة إنما تدعو إلى «إنّ» إذا كان للسامع ظنّ يخالف ذلك، ولذلك تراها تزداد حسنًا إذا كان الخبر بأمر يَبعُد، كقول أبي نواس: [من الرجز]

عـلـيـك بـالـيـأس مـن الـنـاس   إنّ غِـنـى نـفـسِـك فـي الـيـأسِ

ومن لطيف مواقعها أن يُدّعَى على المخاطَب ظنٌّ لم يظنّه ولكن صدر منه فعل يقتضي ذلك الظنَّ، فيقال له: حالك تقتضي أن تكون قد ظننت ذلك، كقول الشاعر[5]: [من السريع]

جـاء شَـقِـيـقٌ عـارضًـا رمـحَـه   إنّ بـنـي عـمّـك فـيـهـم رمـاح

---

(١) الإلب: الجماعة.

(٢) هو الأعشى الأكبر، واسمه ميمون بن قيس بن جندل لأن لقب الأعشى أطلق على اثنين وعشرين شاعرًا أكبرهم هذا أعشى قيس. وهو شاعر جاهلي أدرك الإسلام وأسلم. ولد في اليمامة وقضى حياته متنقلًا في أنحاء الجزيرة العربية يمدح أصحاب الشأن. لقب الأعشى لضعف بصره، وبأبي بصير لقوة بصيرته، وبصناجة العرب. له ديوان شعر مطبوع. (المنجد).

(٣) السَّفر: أراد بالسفر الذين ماتوا. والمهل: البقاء. أراد القول إن الأموات خالدون.

(٤) المبرد: (٢١٠ ـ ٢٨٦ هـ = ٨٢٦ ـ ٨٩٩ م) هو محمد بن يزيد الأزدي، إمام العربية في بغداد وأحد أئمة الأدب والأخبار ولدي في البصرة وتوفي في بغداد. أهم كتبه «الكامل». (الزركلي، الأعلام).

(٥) حَجْل بن نضلة الباهلي: شاعر جاهلي، قالوا في خبره إنه أسر النوار بنت عمرو بن كلثوم، يوم طلح، وفر بها في الفلاة كي لا يلحق وله فيها شعر. (الأعلام، للزركلي).

أي: مجيئك هذا مُدِلّا بنفسك مجيءُ من يَعتقِد أنه ليس مع أحد رمحٌ غيرِه. وقد تجيء إذا وُجد أمر كان المتكلّم يظنّ أنه لا يُوجد، كقولك للشيء الذي يراه المخاطَب ويسمعه: إنه كان من الأمر ما تَرى، إنه كان مني إليه إحسان فقابلني بالسوء كأنك تردّ على نفسك ظنّك الذي ظننتَ، وعليه قوله عز وجل حكايةً عن أمّ مريمَ: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾ [آل عمران: الآية ٣٦]، وحكايةً عن نوح: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾﴾ [الشُعَرَاء: الآية ١١٧].

وأما إنما ـ فتارة تجيء للحصر بمعنى أنّ هذا الحكم لا يوجد في غير المذكور وهي بمنزلة ليس إلا، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ [الأنعَام: الآية ٣٦]، وقوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ﴾ [يٓس: الآية ١١]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾﴾ [النَّازعَات: الآية ٤٥].

وتارة تجيء لبيان أن هذا الأمرَ ظاهر عند كلّ حدّ، سواء كان كذلك أم في زعم المتكلّم، ومنه قول الشاعر(١): [من الخفيف]

إنما مُصْعَب شِهاب من اللّـ ... ـه تجلّت عن وجهه الظَّلماء

مدّعيًا أنّ ذلك مما لا يُنكِره أحد من الناس. قال: واْعلم أنه يُستعمل للتخصيص ثلاثُ عبارات:

الأولى: إنما جاء زيد؛

الثانية: جاءني زيد لا عمرو، والفرق أنّ في الأولى يُفهَم إيجابُ الفعل من زيد ونفيهُ عن غيره دَفعة واحدة، ومن الثانية دَفعتين، ثم إنهما كلتيهما يُستعمَلان لإثبات التخصيص لا لنفي التشريك؛ وفيه نظر.

الثالثة: ما جاءني إلا زيد، وهي بأصل الوضع تفيد نفيَ التشريك، ولهذا لا يصحّ ما زيد إلّا قائمٌ لا قاعد، لأنك بقولك: إلا قائم نَفيتَ عنه كلّ صفة تنافي القيامَ، فيندرج فيه نفيُ القعود، فإذا قلتَ بعده: لا قاعد كان تَكرارًا لأن لفظةَ «لا» موضوعةٌ لأن يُنفَى بها ما أَوجب الأوّلُ لا لأن يعاد بها نفيُ ما نُفِيَ أوّلا،

(١) الشاعر هو عبيد الله بن قيس الرقيات (٨٥ هـ = ٧١٤ م). شاعر قريش في العصر الأموي، أقام في المدينة، وخرج مع عبد الله بن الزبير على عبد الملك بن مروان؛ وانتقل إلى الكوفة بعد مقتل ابني الزبير ثم قصد الشام وبقي فيها حتى وفاته غلب على شعره الغزل وسمي بالرقيات لتشبيهه بثلاث نساء اسمهن رقية. (الأعلام، للزركلي).

ويصح إنما زيد قاعد لا قائم، لأن صيغةَ «إنما» بأصل وضعها تَدُلّ على تخصيص الحكم بالمذكور، وأما نفي الشِّرْكة فهو لازمٌ من لوازمها، فليس له من القوّة مَا لَما يدلّ عليه بوضعه، ولهذا يصحّ: زيد هو الجائي لا عمرو، فثبت أنّ دَلالة الأوّليَّين على التخصيص أقوى، ودلالة الثالثة على نفي الشريك أقوى، لكن الثالثةُ قد تقام مُقامَ الأوّليَّين في إفادة التخصيص، كما إذا ٱدعى واحد أنك قلتَ قولًا ثم قلتَ بخلافه، فقلتَ له: ما قلتُ الآن إلا ما قلتُه قبلُ، وعليه قولُه تعالى حكايةً عن عيسى عليه السلام: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ﴾ [المَائدة: الآية ١١٧] ليس المعنى أني لم أَزِدْ على ما أمرتَني به شيئًا، ولكن المعنى أنّي لم أَدَعْ مما أمرتَني به أن أقولَه شيئًا.

قال: وحكم «غير» حكم «إلّا» فإذا قلتَ: ما جاءني غيرُ زيد ٱحتمل أن يكون المرادُ نفيَ أن يكون جاء معه إنسان آخرُ، وأن يكون المراد تخصيصَ الحكم بالمذكور لا نفيَه عما عداه.

فصـــل

إذا دخل ما وإلّا على الجملة المشتمِلة على المنصوب كان المقصود بالذكر ما ٱتصل بإلّا متأخّرًا عنها، فإذا قلتَ: ما ضرب عمرًا إلا زيد، فالمقصود المرفوع، وإذا قلتَ: ما ضرب زيد إلا عمرًا، فالمقصود المنصوب، وإذا قلتَ: ما ضرب إلا زيد عمرًا، فالاختصاص للضارب، وإذا قلتَ: ما ضرب إلا زيدًا عمرو، فالاختصاص للمضروب، فإذا قلتَ: لم أَكْسُ إلا زيدًا جبّةً، فالمعنى تخصيصُ زيد من بين الناس بكِسوة الجبّة، وإن قلتَ: لم أَكْسُ إلا جبّةً زيدًا، فالمعنى تختصّ كِسوةُ الجبّةِ من بين الناس بزيد؛ وكذلك الحكم حيث يكون بدلَ أحد المفعولين جارٌّ ومجرورٌ، كقول السيد الحِمْيَرِيّ: [من السريع]

لـو خـيَّـرَ الـمِـنـبَـر فُـرسـانَـه ما ٱخـتـار إلّا مـنـكُـم فـارسـا

وكذلك حكم المبتدأ والخبر والفعل والفاعل، كقولك: ما زيد إلا قائم، وما قام إلا زيد.

وأما إنما فالاختصاص فيها يقع مع المتأخر، فإذا قلتَ: إنما ضرب زيدًا عمرو فالاختصاص في الضارب، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فَاطِر: الآية ٢٨] فالغرض بيانُ المرفوع وهو أن الخاشِين هم العلماءُ، ولو قُدّم المرفوعُ لصار المقصود بيانَ المخشيّ منه، والأوّل أتمّ، ومنه قول الفرزدق:

[من الطويل]

أنا الذائد الحامي الذِّمارَ وإنما يدافِع عن أحسابكم أنا أو مِثلي

فإن غرضه أن يحصر المدافِعَ بأنه هو لا المدافَعَ عنه، ولو قال: إنما أنا أدافع عن أحسابكم، تَوجّه التخصيص إلى المدافَع عنه؛ وحكم المبتدأ والخبر إذا أدخلتَ عليهما إنما، فإن قدّمت الخبر فالاختصاص للمبتدإ، وإن لم تقدّمه فللخبر، فإذا قلتَ: إنما هذا لك فالاختصاص في «لك»، بدليل أنك بعده تقول: لا لغيرك، فإذا قلتَ إنما لك هذا فالاختصاص في «هذا»، بدليل أنك بعده تقول: لا ذاك، وعليه قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ [الرّعد: الآية ٤٠]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ﴾ [التوبَة: الآية ٩٣] فالاختصاص في الآية الأولى للبلاغة والحساب، وفي الثانية في الخبر الذي هو على الذين دون المبتدأ الذي هو السبيل.

وإذا وقع بعدها الفعل فالمعنى أن ذلك الفعلَ لا يصح إلا من المذكور، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزُمَر: الآية ٩]؛ ثم قد يجتمع معه حرف النفي، إما متأخرًا عنه كقولك، إنما يجيء زيد لا عمرو: قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الغَاشِيَة: الآيتان ٢١، ٢٢] وقال لَبيد[1]: [من الرّمل]

فـإذا جـوزيـت قـرضًـا فـأجـزه إنما يَجزي الفتى ليس الجَمَل[2]

وإما مقدَّمًا عليه، كقولك: ما جاءني زيد وإنما جاءني عمرو، فهٰهنا لو لم تقل: إنما، وقلت: ما جاءني زيد وجاءني عمرو لكان الكلام مع من ظَنّ أنهما جاءاك جميعًا، وإذا أدخلْتَها فإن الكلام مع من غلِط في الجائي أنه زيد لا عمرو.

قال: واعلم أنّ أقوى ما تكون «إنّما» إذا كان لا يراد بالكلام الذي بعدها نفسُ معناه، ولكن التعريضُ بأمر هو مقتضاه، فإنا نعلم أنه ليس الغرض من قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الرّعد: الآية ١٩] أن يعلم السامعون ظاهر معناه، ولكن أن يذُمّ الكفّار ويقالَ لهم: إنهم من فرط العناد في حكم من ليس بذي عقل، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾﴾ [النازعات: الآية ٤٥] و﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ

(١) هو لبيد بن ربيعة، شاعر جاهلي أدرك الإسلام وحسن إسلامه، فترك الشعر وسكن الكوفة وعمر طويلًا وهو أحد أصحاب المعلقات. عرف بكرمه وسمو أخلاقه. وله ديوان شعر مطبوع. توفي حوالي سنة (٤١ هـ = ٦٦١ م). (الأعلام، للزركلي).

(٢) أراد القول إن عرفان الجميل والمكافأة من عمل الإنسان وليس البهيم.

﴿رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ [فاطر: الآية ١٨] والتقدير إنّ من لم تكن له هذه الخشيةُ، فهو كمن لم تكن له أذنٌ تَسمع وقلبٌ يَعقِل، فالإنذار معه كلا إنذار، وهذا الغرض لا يحصل دون «إنما» لأن من شأنها تضمينُ الكلام معنى النفي بعد الإثبات، فإذا أُسقطتْ لم يبق إلا إثبات الحكم للمذكورين، فلا يدلّ على نفيه عن غيرهم إلا أن يُذكَرَ في مَعرِض مدح الإنسان بالتيقّظ والكرم وأمثالهما، كما يقال: كذلك يفعل العاقل، هكذا يفعل الكريم.

تنبيه ـ قال: كاد تقرّب الفعل من الوقوع، فنفيُها يَنفِي القُربَ، فإن لم يكن في الكلام دليل على الوقوع فيفيد نفيَ الوقوع ونفيَ القرب منه، كقوله تعالى: ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ [النُور: الآية ٤٠] أي: لم يَرَهَا ولم يقارب رؤيتها، وكقول ذي الرمّة: [من الطويل]

إذا غَيّر النأيُ المحبِّين لم يَكَدْ رَسيسُ الهوى من حب ميّة يَبْرَحُ[١]

المعنى أن بَراح حبّها لم يقارب الكَونَ فضلًا عن أن يكون.

وأما النظم[٢] ـ فهو عبارة عن توخي معاني النحو فيما بين الكَلِم، وذلك أن تضَعَ كلامك الوضعَ الذي يقتضيه علم النحو بأن تنظر في كل باب إلى قوانينه والفروقِ التي بين معاني ٱختلاف صِيَغِه، وتضعَ الحروف مواضعَها وتراعَى شرائط التقديم والتأخير، ومواضعَ الفصل والوصل، ومواضعَ حروف العطف على ٱختلاف معانيها، وتعتبَر الإصابة في طريق التشبيه والتمثيل.

وقد أَطبق العلماء على تعظيم شأن النظْم، وأن لا فضل مع عدمه ولو بلغ الكلام في غرابة معناه إلى ما بلغ، وأنّ سبَب فساده تركُ العمل بقوانين النحو وٱستعمالُ الشيء في غير موضعه.

ثم قال: الجُمَلُ الكثيرة إذا نُظِمت نظمًا واحدًا فهي على قسمين:

الأوّل: أن لا يتعلّقَ البعض بالبعض ولا يحتاج واضعه إلى فكر ورويّة في ٱستخراجه، بل هو كمن عَمَد إلى اللآلىء ينظمها في سلك، ومثاله قول الجاحظ في مصنّفاته: جَنّبك الله الشُّبهةَ، وعصمك من الحيْرةِ، وجَعل بينك وبين المعروف نَسَبًا،

(١) الرسيس: الأثر والبقية، أو الثابت الذي لا يبرح مكانه.
(٢) سبق كل من الجاحظ وعبد القاهر الجرجاني إلى الكلام على نظم الكلام. وما أتى به النويري دون ما أجادا فيه.

وبين الصدق سببًا، وحَبَّب إليك التثبُّت، وزَيّن في عينك الإنصاف وأذاقك حلاوةَ التقوى، وأَشعَر قلبَك عِزّ الحقّ، وأَودَع صدرك بَردَ اليقين، وطَرد عنك ذلَّ الطمع، وعرّفك ما في الباطل من الذِّلّة، وما في الجهل من القِلّة. وكقول النابغة للنُّعمان وتفضيلِه إياه على ذي فائش يزيدَ[1] بنِ أبي جَفْنَةَ، وكقول حسّان بن ثابت للحارث الجَفْنيّ يفضّله على النعمان بن المنذر، وكقول ضِرارِ بنِ ضَمْرةَ لمعاوية في وصف عليّ؛ وقد تقدّم شرح أقوالهم في الباب الأوّل من القسم الثالث من هذا الفن في المدح، وهو في السفْر الثالث فلا حاجة بنا إلى إعادته. وهذا النظْم لا يستحق الفضل إلا بسلامة معناه وسلامة ألفاظه، إذ ليس فيه معنًى دقيقٌ لا يُدرَك إلا بثاقب الفكر.

قال: وربما ظُنّ بالكلام أنه من هذا الجنس ولا يكون منه، كقول الشاعر: [من البسيط]

سالت عليه شِعابُ الحيّ حين دعا ... أنصارَه بوجوه كالدنانير

فإن الحسن فيه ليس مُجرّدَ الاستعارة، بل لما في الكلام من التقديم والتأخير، ولهذا لو أزلْتَ ذلك وقلتَ: سالت شِعابُ الحيّ بوجوه كالدنانير عليه حين دعا أنصاره، فإنه يذهب بالحسن والحلاوة.

الثاني: أن تكون الجمل المذكورة يتعلّق بعضها ببعض، وهناك تَظْهَر قوّةُ الطبع، وجَودةُ القريحة، واستقامةُ الذِّهن.

ثم ليس لهذا الباب قانون يُحفَظ، فإنه يجيء على وجوه شتّى:

منها الإيجاز، وهو العبارة عن الغرض بأقلّ ما يمكن من الحروف، وهو على ضربين: إيجاز قَصر، وإيجاز حَذف، وقد تقدّم الكلام على ذلك وذكرُ أمثلته عند ذكر الفصاحة.

ومنها التأكيد ـ وهو تَقوِيَة المعنى وتقريرُهُ، إما بإظهار البرهان، كقول قابوس[2]: [من البسيط]

يا ذا الذي بصُروف الدهر عيَّرنا ... هل عاند الدهرُ إلا من له خَطَرَ

(١) فائش: واد في أرض اليمن، كان يسيطر عليها سلامة بن يزيد بن عريب بن تريم بن مرثد، ولذا لقب بذي فائش. وكان النابغة قد اتصل به قبل النعمان أبي قابوس ملك الحيرة. (ياقوت، معجم البلدان، ج ٣).

(٢) قابوس: هو قابوس بن وشمكير (٤٠٣ هـ = ١٠١٢ م). الملقب بشمس المعالي، أمير جرجان وطبرستان، نبغ في الأدب والإنشاء والشعر. له كتاب اسمه كمال البلاغة. (الزركلي، الأعلام).

أما ترى البحر تعلو فوقه جيَف وتَستقِرُّ بأقصى قعره الدّرر
وفي السماء نجوم ما لها عَدد وليس يُخسَف إلا الشمس والقمر

وإما بالعزِيمة(١)، كقوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ [الذاريات: الآية ٢٣]، وقوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾ [الواقعة: الآيات ٧٥ - ٧٧] وكقول الأشتَر النَّخعيّ(٢): [من الكامل]

بَقَّيتُ وَفْرِي وٱنحرفتُ عن العلا ولقيتُ أضيافي بوجهِ عَبوس
إن لم أشُنّ على ٱبن حَرب غارةً لم تَخْل يومًا من نهاب نفوس

يريد معاويةَ بنَ أبي سُفيانَ، وكقول أبي نُواس: [من البسيط]

لا فرّج الله عنّي إن مَددت يدي إليه أسألُه من حبّك الفرجا

وكقول أبي تمّام: [من الطويل]

حُرِمتُ مُناي منك إن كان ذا الذي تقوّله الواشون حقًّا كما قالوا

أو بالتَّكرار، كقولهم: الله الله، والأسَد الأسد، وكقول الحادِرة(٣): [من الطويل]

أظاعنةٌ وما تودِّعنا هندُ وهند أتى من دونها النأيُ والبعد

وهذا في التنزيل كثير، والعَلَم فيه سورة الرحمٰن(٤).

وأما التجنيس ـ فهو يتشعّب منه شُعب كثيرة:

فمنه المستوفِي التامّ ـ وهو أن يجيء المتكلّم بكلمتين متفقتين لفظًا، مختلفتين معنى، لا تفاوتَ في تركيبهما، ولا ٱختلافَ في حركاتهما، كقول

(١) العزيمة: القسم.
(٢) الأشتر النخعي: شاعر وفارس إسلامي، كان من أشد أنصار عليّ بن أبي طالب عداوة لمعاوية بن أبي سفيان. وفي هذين البيتين يقسم أنه سيحاربه ويزهق النفوس وإلا كان منحرفًا عن الكرم والعلا.
(٣) الحادرة: لقب الشاعر قطبة بن أوس التغلبي شاعر جاهلي مقل جمع ديوان محمد بن العباس اليزيدي، وطبع مؤخرًا. (الأعلام، للزركلي).
(٤) «العلم فيه سورة الرحمٰن» يعني أن أشهر شواهد على التكرار ما جاء في سورة الرحمٰن. حيث تتكرر الآية: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾ [الرحمٰن: الآية ١٣] بعد كل آية.

الغَزّيّ[(١)]: [من البسيط]

لـم يَبـقَ غـيـرُك إنسـان يـلاذُ بـه فلا بَرِحـتَ لـعـيـن الـدهـر إنسـانا

وقولِ عبد الله بن طاهر[(٢)]: [من الطويل]

وإنّـي لـلثَّـغـر الـمَـخـوف لـكـالـئٌ ولـلـثغـر يَـجـري ظَـلـمُـه لَـرشـوف

وكقول البُسْتيّ[(٣)]: [من الوافر]

سـمـا وحَـمـى بـنـي سـامٍ وحـامٍ فـلـيـس كـمـثـله سـام وحـامـي

وذكر التِّبريزيّ[(٤)] أن التجنيس المستوفي كقول أبي تمّام: [من الكامل]

مـا مـات مـن كـرم الـزمـان فـإنـه يـحـيـا لـدى يـحـيـىٰ بـن عـبـد الله

وقال: وإنما عُدّ من هذا الباب لاختلاف المعنيين، لأن أحدَهما فعل، والآخر ٱسم.

ومنه المختلف ـ ويسمّى التجنيسَ الناقصَ ـ وهو مِثل الأوّل في ٱتفاق حروف الكلمتين إلا أنه يخالفه: إما في هيئة الحركة، كقوله ﷺ: «اللَّهمّ كما حسّنت خَلْقي فحسّن خُلُقي»؛ وكقول مُعاذ رضي الله عنه: الدَّين يهدم الدِّين؛ وكقولهم: جُبَّة البُرد جُنّة البَرد؛ وكقولهم: الصديق الصدوق أوّل العَقْد وواسطة العِقْد؛ وكقول المعرّي: [من الطويل]

لغيري زكاة من جِمال فإن تكن زكـاةُ جَـمـال فـاذكـري ٱبـنَ سـبـيـل

---

(١) الغزّيّ: (٤٤١ ـ ٥٢٤ هـ = ١٠٤٩ ـ ١١٣٠ م)، هو إبراهيم بن عثمان الكلبي، من أهل غزة. ولد بها وقام برحلة طويلة إلى العراق وخراسان ومدح آل بويه وغيرهم وتوفي بخراسان. له ديوان شعر مخطوط. (الأعلام، للزركلي).

(٢) عبد الله بن طاهر: (١٨٢ ـ ٢٣٠ هـ = ٧٩٨ ـ ٨٤٤ م)، ولي إمرة الشام مدة ونقل إلى مصر ثم ولاه المأمون خراسان وطبرستان والري وبقي حتى وفاته في نيسابور. (الأعلام، للزركلي).

(٣) البستي: (٤٠٠ هـ = ١٠١٠ م)، علي بن محمد، أبو الفتح، ولد في بست قرب سجستان وإليها انتسب. كتب للأمير سبكتكين. وهو شاعر عصره وكاتبه. له ديوان شعر مطبوع (الزركلي، الأعلام).

(٤) التبريزي: (٤٢١ ـ ٥٠٢ هـ = ١٠٣٠ ـ ١١٠٩ م) هو يحيىٰ بن علي بن محمد الشيباني، أصله من تبريز وإليها ينسب، نشأ في بغداد وقام على خزانة كتب المدرسة النظامية فيها حتى وفاته. له شرح الحماسة لأبي تمام، والمفضليات للضبي، والملخص في إعراب القرآن، وشرح ديوان المتنبي الخ. (الزركلي، الأعلام).

أو بالحركة والسكون، كقولهم: البِدعة شَرَك الشِّرك. أو بالتخفيف والتشديد كقولهم: الجاهل إما مفرِط وإما مفرِّط.

ومنه المذيَّل ـ ويقال له: التجنيس الزائد والناقص أيضًا ـ وهو أن تجيء بكلمتين متجانستَي اللفظ متّفقتَي الحركات، غيرَ أنهما يختلفان بحرف، إما في آخرهما كقولك: فلان حامٍ حاملٌ لأعباء الأمور، كافٍ كافلٌ لمصالح الجمهور؛ وقولهم: أنا من زماني في زَمانه، ومن إخواني في خيانه؛ وقولهم: فلان سالٍ عن إخوانه، سالم من زمانه؛ ومن النظم قول أبي تمّام: [من الطويل]

يَمُدُّون من أيدٍ عواصٍ عواصمٍ ... تصول بأسياف قواضٍ قواضبِ

وقولُ البحتريّ: [من الطويل]

لئن صَدفتْ عنّا فَرُبَّتَ أنفس ... صَواد إلى تلك النفوس الصوادف

وإما من أوّلهما، كقوله تعالى: ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾﴾ [القِيَامَة: الآيتان ٢٩، ٣٠] ومن النظم ما أنشده عبد القاهر: [من الطويل]

وكم سَبقتْ منه إليّ عوارفٌ ... ثنائيَ من تلك العوارف وارفُ

وكم غُررٍ من بِرّه ولطائفٍ ... لَشكري على تلك اللطائف طائف

ومنه المركب وهو على ضربين:

الأوّل: ما هو متشابه لفظًا وخطًا، كقولهم: هِمّتك الهِمّة الفاترة، وفي صميم قلبك ألفاترة، ومن النظم قول البُسْتيّ: [من المتقارب]

إذا ملِك لم يكن ذاهِبَهْ ... فدعه فدولته ذاهبه

وقولُ الآخر: [من مجزوء الرمل]

عضّنا الدهر بنابه ... ليا ما حلّ بنابه

وقولُ طاهر البَصري: [من الخفيف]

ناظِراه فيما جنى ناظِراه ... أودَعاني رهنًا بما أودَعاني

الثاني: ما هو متشابه لفظًا لا خطًا ويسمّى التجنيسَ المفروق، كقوله: كنت أطمع في تجريبك، ومطايا الجهل تجري بك.

ومن النظم قول الشاعر: [من الكامل]

لا تَعرِضنّ على الرواة قصيدة ما لم تكن بالغتَ في تهذيبها

فإذا عرضتَ القَوْلَ غيرَ مهذَّب عَدُّوه منك وساوسًا تهذِي بها

وأمثالُ ذلك كثيرة.

ومن أنواع المركّب المرفُوّ، وهو أن تجمع بين كلمتين إحداهما أقصر من الأخرى، فتضمّ إلى القصيرة حرفًا من حروف المعاني أو من حروف الكلمة المجاورة لها حتى يعتدلَ ركنا التجنيس، كقولهم:

يا مغرور أمسِك، وقِس يومك بأمسك.

ويقرُب منه قول الهمذانيّ(١):

إن لم يكن لنا حَظٌّ في دَرَك دَرّك، فخلِّصنا من شَرَك شرّك.

وقول الحرِيريّ:

إن أخلَيتَ منّا مَبارِكَ مَبارّك، فخلِّصنا من مَعارِكِ مَعارّك.

ومن النظم قول البُستيّ: [من المتقارب]

فـهِـمـتُ كـتـابـك يـا سيّـدي فـهِـمـتُ ولا عَـجَـبٌ أن أهـيـمـا

ومنه قول الآخر: [من الكامل]

ذو راحة وكَفَتْ ندًى وكَفتْ ردًى وقـضـت بِـهُـلْك عُـداته وعِـداتـه

كـالـغـيـث فـي إروائـه ورُوائـه والـلـيـث فـي وثـبـاتـه وثـبـاتـه

ومنه المزدوِج ـ ويقال له التجنيس المردَّد والمكرر أيضًا ـ وهو أن يأتي في أواخر الأسجاع وقوافي الأبيات بلفظتين متجانستين إحداهما نمِيمة الأخرى وبعضُها، كقولهم: الشراب بغير النَّغَم غمّ، وبغير الدَّسم سمّ.

---

(١) هو بديع الزمان الهمذاني: (٣٩٨ هـ = ١٠٠٧ م)، أبو الفضل أحمد بن الحسين. ولد في همذان بإيران سنة (٣٥٨ هـ = ٩٦٩ م). وتتلمذ لأحمد بن فارس العالم اللغوي الكبير. ويعتبر مبتكر في المقامات في الأدب العربي، وخلف منها نحو إحدى وخمسين مقامة، طبعت مرارًا، أحدثها طبعة دار ومكتبة الهلال في بيروت، سنة ١٩٩٣، تقديم د. علي بو ملحم. (الزركلي، الأعلام).

وقول البستيّ: [من الوافر]

أبا العباس لا تَحسَب لشَيني بأنّي من حُلَى الأشعار عاري(١)
فلي طبع كسَلسال مَعين زُلال من ذُرَى الأحجار جاري
إذا ما أكبت الأدوار زَندا فلي زَند على الأدوار واري

ومن أجناس التجنيس المصحَّف ـ ويقال له تجنيس الخط أيضًا وهو أن تأتيَ بكلمتين متشابهتين خطًّا لا لفظًا، كقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ﴾ [الكهف: الآية ١٠٤]، وقولِه تعالى: ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾ [الشعراء: الآيتان ٧٩، ٨٠]، وقوله ﷺ: «عليكم بالأبكار فإنهنّ أشدُّ حُبًّا وأقلّ خِبًّا»(٢) وقولِ النبيّ ﷺ لعليّ رضي الله عنه: قَصِّر من ثيابك فإنه أبقى وأنقى وأتقى.

وكقول أبي فراس: [من مجزوء الكامل]

من بحر شعرك أغترِف وبفضل عِلمك أعترِف

ومنه المضارع ـ ويسمَّى المطمِّعَ ـ وهو أن يُجاء بالكلمة ويُبدأَ بأختها على مِثل أكثر حروفها، فتطمع في أنها مِثلُها، فتخالفها بحرف؛ ويسمى المُطرَّفَ وهو أن تجمع بين كلمتين متجانستين لا تَفاوتَ بينهما إلا بحرف واحد من الحروف المتقارِبة، سواء وقع آخرًا أو حشوًا، كقوله ﷺ: «الخيل معقود بنَواصيها الخير» ومنه قول الحطيئة: [من الطويل]

مَطاعِينُ في الهَيجا مَطاعيمُ في الدّجى بنى لهُم آباؤهم وبنَى الجَدّ

وقولُ البحتريّ: [من المتقارب]

ظلِلتُ أرجّم فيك الظنون أحاجِمُه أنت أم حاجِبُه؟

وإن كان التفاوت بغير المتقاربة سمّيَ التجنيسَ اللاحقَ، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ﴾ [النّساء: الآية ٨٣]، وقولِه تعالى: ﴿وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾﴾ [العاديات: الآيتان ٧، ٨] وقولِ البحتريّ: [من الخفيف]

هل لما فات من تَلاقٍ تَلافِي أم لشاك من الصبابة شافِي

---

(١) الشين: العيب.
(٢) الخِب: الخداع.

ومنه المشوَّش ـ وهو كل تجنيس يتجاذبه طرَفان من الصنعة فلا يمكن إطلاق أسم أحدهما عليه، كقولهم: فلان مليح البلاغة، صحيح البراعة.

ومنه تجنيس الاشتقاق ـ ويسمّى الاقتضابَ أيضًا، ومنهم من عدّه أصلًا برأسه، ومنهم من عدّه أصلًا في التجنيس ـ وهو أن يجيء بألفاظ يجمعها أصل واحد في اللغة، كقوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ﴾ [الروم: الآية ٤٣]، وقوله تعالى: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَوٰا وَيُرْبِي الصَّدَقَـٰتِ﴾ [البقرة: الآية ٢٧٦]، وقوله تعالى: ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ﴾ [الواقعة: الآية ٨٩]، وقولِ النبي ﷺ: «ذو الوجهين لا يكون عند الله وجيهًا» وقولِه: «الظلم ظُلُمات يوم القيامة» ومن النظم قول أبي تمّام: [من الوافر]

عَمَمْتَ الخلق بالنَّعماء حتى غدا الثقلان منها مُثْقَلَين

وقولُ المُطرِّزي[1]: [من الطويل]

وإني لأستحيي من المجد أن أُرَى حَليفَ غَوانٍ أو أليفَ أغاني

وقولُ الصاحب بنِ عبّاد: [من المتقارب]

وقائلةٍ لِمْ عَرَتْكَ الهمومُ وأمرك ممتثل في الأمم
فقلت ذريتي على غُصّتي فإن الهموم بقدْر الهمم

وقولُ آخرَ: [من مجزوء الرّمل]

إن ترى الدنيا أغارت ونجومَ السعد غارت
فصُروف الدهر شتّى كلّما جارت أجارت

ومما يشبِه المشتقّ ـ ويسمّيه بعضهم المشابِه، وبعضهم المغايِرَ ـ قولُه تعالى: ﴿وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ [الرحمٰن: الآية ٥٤]، وقوله تعالى: ﴿لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾ [المائدة: الآية ٣١]، وقولُه تعالى: ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ [يونس: الآية ١٠٧]، وقولُه تعالى: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَـٰنَ﴾ [النمل: الآية ٤٤]، ومن النظم قول البحتريّ: [من الخفيف]

وإذا ما رياح جُودك هبت صار قول العذّال فيها هباءَ

(١) المطرزي: ناصر بن أبي المكارم عبد السيد بن علي، الفقيه الحنفي، النحوي، الأديب، الخوارزمي. كان معتزلي الاعتقاد، زار بغداد وتباحث مع الفقهاء. توفي سنة ٦١٠ هـ. (ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٥، ص ٦).

ومن أجناس التجنيس تجنيس التصريف ـ وهو ما كان كالمصحَّف إلا في ٱتحاد الكتابة، ثم لا يخلو من أن تتقاربَ فيه الحروب بٱعتبار المخارج أو لا تتقارب فإن تقاربت سُمّيَ مضارعًا، وإن لم تتقارب سُمّيَ لاحقًا.

مثال الأوّل قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾ [الأنعام: الآية ٢٦]، وقولُه تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ [غافر: الآية ٧٥]، وقولُ قُسّ بنِ ساعدةَ الإياديّ(١): «من مات فات».

وقولُ الشاعر: [من الطويل]

فيا لك من حزم وعزم طواهما جديدُ البِلى تحت الصفا والصفائح

وهذا البيت يشتمل على المضارع والمتمَّم.

ومثال الثاني قول علي رضي الله عنه: الدنيا دار مَمرّ، والآخرة دار مَقرّ، وقولُ عبد الله بنِ صالح وقد وصف اليمنَ: ليس فيه إلا ناسج بُرد، أو سائس قرد.

ومنها التجنيس المخالِف ـ وهو أن تشتملَ كلُّ واحدة من الكلمتين على حروف الأخرى دون ترتيبها، كقول أبي تمّام: [من البسيط]

بِيضُ الصفائح لا سُودُ الصحائف في متونهنّ جَلاء الشك والريَب(٢)

وقولِ البحتريّ: [من الطويل]

شَواجِرُ أرماح تُقطِّع بينهم شواجِرَ أرحام مَلُومٍ قَطوعُها

وقولِ المتنبيّ: [من الوافر]

ممنَّعةٌ منعَّمةٌ رَداحٌ يكلِّف لفظُها الطيرَ الوُقوعا

فإن ٱشتملت كل كلمة على حروف الأخرى، وكان بعض هذه قلْبَ حروف هذه خُصّ باسم جناس العكس، كقول النبي ﷺ: «يقال لصاحب القرآن يوم القيامة ٱقرأ

(١) قس بن ساعدة الأيادي: (٢٣ هـ = ٦٠٠ م)، أحد حكماء الجاهلية، كان أسقف نجران، يقال إنه أول عربي خطب متوكئًا على عصا أو سيف، وأول من قال في كلامه: أما بعد. وقد وفد على قيصر الروم زائرًا فأكرمه. طالت حياته وأدركه النبي قبل النبوة ورآه في عكاظ. (الزركلي، الأعلام).

(٢) البيت من قصيدة يمدح فيها أبو تمام الخليفة العباسي المعتصم بمناسبة فتحه عمورية على تخوم الروم. ومطلعها:

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب

وأرقَ» وقولِ عبد الله بنِ رَواحةَ(١) يمدح النبي ﷺ: [من البسيط]

تَحمِله الناقة الأَدْماءُ معتجِرًا بالبُرد كالبدر جلّى نُورُه الظُّلَمَا

ومنها تجنيس المعنى - وهو أن تكون إحْدى الكلمتين دالّةً على الجناس بمعناها دون لفظها، وسبب آستعمال هذا النوع أن يقصد الشاعر المجانَسةَ لفظًا ولا يوافقه الوزن على الإتيان باللفظ المجانِس فيعدل إلى مُرادِفه، كقول الشاعر يمدح المهلّب ويذكر فعله بقَطَرِيّ بن الفُجاءة(٢)، وكان قَطَرِيّ يُكنَى أبا نَعامةَ: [من الطويل]

حدا بأبي أم الرِّئال فأجفلتْ نَعامتُه من عارض متهلب

أراد أن يقول: حدا بأبي نَعامَة فأَجفلتْ نعامته أي روحه، فلم يستقم له فقال: بأبي أمّ الرِّئال، وأمّ الرِّئال هي النعامة، وكقول الشّماخ(٣): [من الوافر]

وما أَروَى وإن كَرُمتْ علينا بأدنى من موقَّفة حَرون(٤)

أَرْوَى: آسم امرأة. والموقَّفة الحرون من الوحش: أَرْوَى، وبها سميت المرأة فلم يمكنه أن يأتيَ باسمها فأتَى بصفتها، وقد صرح بذلك المَعري في قوله: [من البسيط]

أَرْوَى النِّياق كأَرْوَى النِّيق يَعصِمها ضرب يظلّ له السِّرحان مبهوتا(٥)

وبعضهم لا يُدخل هذا في باب التجنيس. قال: وإنما يحسُن التجنيس إذا قلّ، وأتَى في الكلام عفوًا من غير كَدّ ولا آستكراه، ولا بُعد ولا مَيل إلى جانب الرِّكّة ولا

---

(١) عبد الله بن رواحة: (٨ هـ = ٦٢٩ م)، عبد الله بن رواحة بن ثعلبة الأنصاري الخزرجي. صحابي يعد من الأمراء والشعراء الراجزين. شهد بدرًا وأحدًا والخندق والحديبية. استشهد في مؤتة. (الزركلي، الأعلام).

(٢) قطري بن الفجاءة: (٧٨ هـ = ٦٩٧ م)، أبو نعامة، جعونة بن مازن بن يزيد الكناني التميمي. من رؤساء الأزارقة وأبطالهم. من أهل قطر. كان خطيبًا فارسًا شجاعًا شاعرًا. استفحل أمره زمن مصعب بن الزبير والحجاج بن يوسف، وسيرت إليه الدولة الجيوش مدة ١٣ سنة وهو ردها.

(٣) الشماخ: (٢٢ هـ = ٦٤٣ م) هو الشماخ بن ضرار بن حرملة المازني الذبياني الغطفاني: شاعر مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام. كان أرجز الناس على البديهة، له ديوان شعر مطبوع. قيل إن اسمه معقل بن ضرار، والشماخ لقبه. (الزركلي، الأعلام).

(٤) موقفة: من الوقف، وهو الخلخال أو السوار من العاج وغيره، وأراد به هنا الأروى التي في رجليها أو يديها بياض تشبيهًا لها بلابسة الخلخال أو السوار.

(٥) النيق: جمعه نياق وأنياق ونيوق. أرفع موضع في الجبل.

يكون كقول الأعشى: [من البسيط]

وقد غدوت إلى الحانوت يَتبَعُني شاوٍ مِشَلٌّ شَلُولٌ شُلْشُلٌ شَوِلُ[١]

ولا كقول مسلم بن الوليد[٢]: [من الكامل]

سُلَّت وسُلَّت ثم سُلَّ سليلُها فأتى سليل سليلِها مسلولا

ولا كقول المتنبّي: [من الطويل]

فقَلْقَلْتُ بالهمّ الذي قَلقل الحشا قَلاقلَ عيس كلّهن قَلاقلُ

وأما الطِّباق ـ قال: المطابقة أن تجمع بين ضدّين مختلفَين، كالإيراد والإصدار والليل والنهار، والسواد والبياض؛ قال الأخفش وقد سئل عنه: أجد قومًا يختلفون فيه، فطائفة ـ وهم الأكثر ـ يزعمون أنه الشيءُ وضدُّه، وطائفة تزعم أنه اشتراك المعنيين في لفظ واحد، كقول زِياد الأعجم: [من الطويل]

ونُبِّئْتُهُمْ يَستنصِرون بكاهل ولَلُّؤمُ فيهم كاهلٌ وسَنام

الطباق

ثم قال: وهذا هو التجنيس بعينه، ومن ادعى أنه طباق فقد خالف الأصمعيّ والخليل، فقيل له: أوَ كانا يعرفان ذلك؟ فقال: سبحان الله! وهل أعلم منهما بالشعر وتمييز خبيثه من طَيّبه؟. ويسمونه المطابَقة والطِّباقَ والتضادَّ والتكافؤَ وهو أن تَجمَع بين المتضادَّين مع مراعاة التقابل، فلا تجيء باسم مع فعل ولا بفعل مع اسم، مثاله قوله تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا﴾ [التوبَة: الآية ٨٢]، وقوله تعالى: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ [الكهف: الآية ١٨]، وقوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾﴾ [الرّعد: الآية ١٠]، وقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾ إلى قوله: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: الآيتان ٢٦، ٢٧]، وقوله ﷺ للأنصار: «إنكم لتكثرون عند الفزع وتَقِلّون عند الطمع» ومن النظم قولُ

---

(١) المشل: المطر والحركات، الشلول: الخفيف الحركات، الشلشل: الخفيف القليل، الشول: الخفيف أيضًا.

(٢) مسلم بن الوليد: (٢٠٨ م = ٨٢٣ م) هو مسلم بن الوليد الأنصاري بالولاء، المعروف بصريع الغواني. شاعر غزل، أكثر من البديع في شعره فكان رائدًا في ذلك. كوفي المنشأ، نزل بغداد ومدح الرشيد وولاه المأمون مظالم جرجان حيث توفي ودفن. (الزركلي، الأعلام).

جرير: [من المنسرح]

وباسط خير فيكُم بيمينه … وقابض شرّ عنكُم بشِماليا

وقولُ البحتريّ: [من البسيط]

وأمّة كان قبح الجَور يُسخِطها … حِينًا فأصبح حسن العدل يرضيها

وقولُه أيضًا: [من البسيط]

تبسّمٌ وقُطوبٌ في ندًى ووغًى … كالبرق والرعد وَسْطَ العارض البرِد

وقولُ دِعبِل[1]: [من الكامل]

لا تَعجبي يا سَلْم من رجل … ضَحكَ المَشِيب برأسه فبكى

وقول ٱبن المعتز: [من الطويل]

مَها الوحشِ إلا أنّ هاتا أوانس … قَنا الخَطّ إلا أنّ تلك ذوابل

فإنّ هاتا للحاضر، وتلك للغائب، فكانتا متقابلتين؛ وقد تجيء المطابقة بالنفي والإثبات كقول البحتريّ: [من الطويل]

تُقيِّض لي من حيث لا أعلم النوى … ويَسري إليّ الشوق من حيث أعلم

وقال الزكيّ بنُ أبي الإصبَع المصريّ[2] في الطباق: وهو على ضربين: ضرب يأتي بألفاظ الحقيقة، وضرب يأتي بألفاظ المجاز، فما كان بلفظ الحقيقة سمّيَ طباقًا وما كان بلفظ المجاز سمّيَ تكافؤًا، فمثال التكافؤ قول أبي الأشعث العبسيّ من إنشادات قُدامةَ: [من الكامل]

حلو الشمائل وهو مرّ باسل … يحمي الذِّمارَ صبيحة الإرهاق

---

(١) دعبل: (١٤٨ ـ ٢٤٦ هـ = ٧٦٥ ـ ٨٦٠ م)، دعبل بن علي بن رزين الخزاعي، شاعر هجاء كوفي الأصل، أقام ببغداد. هجا الخلفاء الرشيد والمأمون والمعتصم والواثق. كان طوالًا ضخمًا أطروشًا. (الزركلي، الأعلام).

(٢) الزكي بن أبي الإصبع المصري: (٥٩٥ ـ ٦٥٤ هـ = ١١٩٨ ـ ١٢٥٦ م)، هو عبد العظيم بن عبد الواحد بن ظافر بن أبي الإصبع العدواني البغدادي ثم المصري. شاعر، وعالم بالأدب. مولده ووفاته في مصر. له تصانيف حسنة أهمها بديع القرآن، وتحرير التحبير. (الزركلي، الأعلام).

لأن قوله: حلو ومرّ خارج مَخرجَ الاستعارة، إذ ليس الإنسانُ ولا شمائلُه مما يذاق بحاسّة الذوق.

ومن أمثلة التكافؤ قول ٱبن رَشِيق: [من الطويل]

وقد أطفأوا شمس النهار وأوقدوا نجومَ العوالي في سماء عَجاج

وقد جَمع دِعبِل في بيته المتقدّم بين الطباق والتكافؤ، وهو: [من الكامل]

لا تَعجَبي يا سَلْم من رجل ضَحكَ المشيب برأسه فبكى

لأن ضحكَ المشيب مجاز، وبكاءَ الشاعر حقيقة.

قال: هكذا قال ابن أبي الإصبَع، وفيه نظر، لأنه إذا كان الطباق عنده هو التضادّ من حقيقتين، والتكافؤ التضادّ من مجازين، فليس في البيت ما شرَطه.

قال: ومما جَمع بين طباقَي السلب والإيجاب قولُ الفرزدق من إنشادات ٱبن المعتزّ: [من الكامل]

لعن الإلـه بني كُليب إنّهم لا يَغدِرون ولا يفون لجار
يستيقظون إلى نهيق حميرهم وتنام أعينهم عن الأوتار

وذَكر في آخر الباب طباقَ الترديد، وهو أن يردّ آخر الكلام المطابَق إلى أوّله فإن لم يكن الكلام مطابَقًا فهو ردّ الإعجاز على الصدور، ومثاله قول الأعشى: [من البسيط]

لا يَرقع الناس ما أَوهَوا وإن جَهَدوا طُول الحياة ولا يُوهون ما رَقعوا

وأما المقابلة ـ وهي أعم من الطباق، وذكر بعضهم أنها أخص، وذلك أن تضع معانيَ تريد الموافقة بينها وبين غيرها أو المخالفة، فتأتي في الموافِق بما وافق، وفي المخالِف بما خالف أو تشرُط شروطًا وتعُدَّ أحوالًا في أحد المعنيين فيجب أن تأتيَ في الثاني بمثل ما شرطتَ وعددتَ في الأوّل، كقوله عزّ وجلّ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾ [الليل: الآيات ٥ - ١٠]، وقوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ﴾ [الأنعام: الآية ١٢٥]، ومثاله من النظم قولُ الشاعر: [من الطويل]

فيا عَجبًا كيف ٱتفقنا فناصح وفيٌّ ومطويٌّ على الغِلّ غادر!

وقولُ آخرَ: [من الطويل]

تَقَاصَرن وٱحْلَوْلَين لي ثم إنه أتت بعدُ أيامٌ طِوالٌ أمرّتِ

وقولُ زهير بنِ أبي سُلْمى: [من الخفيف]

حُلَماءُ في النادي إذا ما جئتَهم جُهلاءُ يومَ عَجاجةٍ ولقاء

ومن فساد ذلك أن يقابَل الشيءُ بما لا يوافقه ولا يخالفه، كقول أبي عديّ القرشيّ: [الخفيف]

يا ٱبن خير الأخيار من عبد شمس أنت زين الدنيا وغيثٌ لجُود

فليس قوله: غيث لجود موافقًا لقوله: زين الدنيا ولا مخالفًا له.

وكقول الكُميت(١): [من البسيط]

وقد رأينا بها حورًا منعّمةً بِيضًا تَكامَل فيها الدَّلّ والشَّنَب(٢)

فالشنب لا يشاكل الدَّلّ.

وقولِ آخَر: [من الخفيف]

رُحَماءٌ بذي الصلاح وضرّ ابون قِدمًا لهامة الصِّنديد

قال: وقد ذكر بعض أئمة هذا الفن تفضيلًا في المقابلة فقال:

فمن مقابلة ٱثنين بٱثنين قوله تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا﴾ [التوبَة: الآية ٨٢]؛ وقولُ النابغة: [من الطويل]

فتًى تمّ فيه ما يَسُرّ صديقه على أنّ فيه ما يسوء الأعاديا؛

ومن مقابلة ثلاثة بثلاثة قول الشاعر: [من البسيط]

ما أحسن الدينَ والدنيا إذا اجتَمعا وأقبحَ الكفرَ والإفلاسَ بالرجل

---

(١) الكميت: هناك ثلاث شعراء يحملون هذا الاسم هم الكميت الأكبر ابن ثعلبة، شاعر مخضرم. والكميت الأوسط ابن معروف بن الكميت بن ثعلبة (٦٠ هـ - ٦٨٠ م) مخضرم أيضًا. والكميت الأصغر ابن زيد الأسدي (٦٠ - ١٢٠ هـ) شاعر الهاشميين. (الزركلي، الأعلام).

(٢) الشنب: بياض الأسنان.

وقولُ أبي نُواس: [من الوافر]

أنا ٱستدعَيت عفوك من قريب كما ٱستعفَيت سُخطَك من بعيد؛

ومن مقابلة أربعة بأربعة قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾ [الليل: الآيات ٥ - ١٠] المقابلَ بقوله تعالى: «ٱسْتَغْنَىٰ» قوله تعالى: «وَٱتَّقَىٰ» لأن معناه: زهِد فيما عند الله وٱستغنى بشهوات الدنيا عن نعم الآخرة، وذلك يتضمّن عدَمَ التقوى، ومنه قول النابغة: [من الطويل]

إذا وَطئا سهلًا أثارا عَجاجةً وإن وَطئا حَزْنًا تَشَظَّى الجنادلُ(١)

ومن مقابلة خمسة بخمسة قول المتنبّي: [من البسيط]

أزورهم وسواد ٱلليل يَشفَع لي وأنثني وبياض الصبح يُغرِي بي(٢)

قابَل أزور بأنثني، وسواد ببياض، والليل بالصبح، ويَشفع بيُغْرِي، ولي بقوله: بي.

السجع

وأما السجع ـ فهو أن كلماتِ الأسجاع موضوعةٌ على أن تكون ساكنة الأعجاز موقوفًا عليها، لأن الغرض أن يجانِس بين قرائنَ، ويزاوِج بينها، ولا يتمّ ذلك إلا بالوقف، ألا ترى إلى قولهم: «ما أبعد ما فات، وما أقربَ ما هو آت» فلو ذهبتَ تصل لم يكن بُدّ من إعطاء أواخر القرائن ما يقتضيه حكم الإعراب، فتختلف أواخرُ القرائن، ويفوت الساجعَ غرضُه، وإذا رأيناهم يخرجون الكلمة عن أوضاعها للازدواج فيقولون: أتيتك بالغدايا والعشايا، وهنأني الطعام ومَرَأني، وأخذَه ما قدُم وما حدُث، «وٱنصرِفن مأزوراتٍ غيرَ مأجورات»، يريد الغَدَوات، وأمرأني وحدَث، وموزورات، مع أن فيه ٱرتكابًا لمخالفة اللّغة فما الظن بأواخر الكلَم المشبّهة بالقوافي.

قال: والسجع أربعة أنواع: وهي الترصيع والمتوازي والمطرَّف والمتوازن.

(١) وطئا: داسا. العجاجة: الغبار. الحزن: الجبل. الجنادل: الصخور. تشظى: تفتت.

(٢) يريد المتنبي أن يقول: إن زيارته في الليل تخفي أمره فلا يراه أحد. ولكن أوبته عند الصباح تفضح أمره وتدفع الناس إلى التساؤل عن سبب زيارته.

أما الترصيع ـ فهو أن تكون الألفاظ مستويةَ الأوزان متّفقةَ الأعجاز، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ [الغاشية: الآيتان ٢٥، ٢٦]، وقولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾ [الانفطار: الآيتان ١٣، ١٤]، وقولِ النبي ﷺ: «اللّهمّ اَقبل توبتي، واَغسل حَوبتي» وقولهم: فلان يَفتخر بالهِمَم العالية، لا بالرمم البالية[١]؛ وقولِهم: عاد تعريضك تصريحًا، وتمريضك تصحيحًا.

ومن النظم قولُ الخنساء: [من البسيط]

حامِي الحقيقة محمودُ الخليقة مهـ ـدي الطريقة نفّاعٌ وضرّار
جوّاب قاصية جزّاز ناصية عقّاد ألوية للخيل جرّار[٢]

وقد يجيء مع التجنيس، كقولهم:

إذا قلّت الأنصار، كَلّت الأبصار؛ وما وراءَ الخَلْق الدّميم، إلا الخُلُق الذميم.

ومن النظم قولُ المطرّزي: [من الوافر]

وزَنْدُ نَدى فواضلِه ورِيٌّ ورَنْد رُبَا فضائلِه نَضير
وذُرّ جلاله أبدًا ثمينٌ ودَرّ نواله أبدًا غزير

وأما المتوازي ـ فهو أن يراعى في الكلمتين الأخيرتين من القرينتين الوزنُ مع اتّفاق الحرف الأخِير منهما، كقوله عزّ وجلّ: ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾﴾ [الغَاشِيَة: الآيتان ١٣، ١٤].

وقولِ الحريريّ: ألجأني حكمُ دهر قاسط، إلى أن أنتجعَ أرضَ واسط[٣].

وقوله: وأودَى الناطق والصامت، ورثى لنا الحاسد والشامت.

وأما المطرّف ـ فهو أن يراعَى الحرفُ الأخِيرُ في كلمتي قرينتيه من غير مراعاة الوزن، كقوله تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾ [نوح: الآيتان ١٣، ١٤] وقولِهم: جنابه مَحطّ الرحال، ومُخيَّم الآمال.

---

(١) يعني أنه يفخر بنفسه لا بجدوده.
(٢) الحقيقة: ج حقائق، ما يجب على الإنسان أن يحميه.
(٣) واسط: بلدة في العراق متوسطة بين البصرة والكوفة بناها الحجاج بن يوسف الثقفي بين سنتي (٨٤ ـ ٨٦ هـ). (ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٤، ص ٨٨١).

وأما المتوازن ـ فهو أن يراعَى في الكلمتين الأخيرتين من القرينتين الوزنُ مع ٱختلاف الحرف الأخير منهما، كقوله تعالى: ﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ۝١٥ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ۝١٦﴾ [الغاشية الآيتان: ١٥، ١٦]، وقولِهم: اصبر على حَرّ القتال، ومَضَض النِّزال، وشدّةِ المِصاع، ومداوَمةِ المِراس؛ فإن راعى الوزنَ في جميع كلمات القرائن أو أكثرِها، وقابَل الكلمة منها بما يعادِلها وزنا كان أحسنَ، كقوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ۝١١٧ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝١١٨﴾ [الصافات: الآيتان ١١٧، ١١٨]، وقولِ الحريريّ: اسودّ يومي الأبيض، وٱبيضّ فَوْدي[١] الأسوَد؛ ويسمَّى هذا في الشعر الموازَنَة، كقول البحتريّ: [من الطويل]

فقف مُسعِدًا فيهنّ إن كنت عاذرًا وسِر مُبعِدًا عنهنّ إن كنت عاذلا

قال: ومما هو شرطُ الحسْن في هذا المحافظةُ على التشابه، وهو ٱسم جامع للملاءمة والتناسب.

فالملاءمة: تأليف الألفاظ الموافيةِ بعضُها لبعض على ضرب من الاعتدال كقول لَبِيد: [من الطويل]

وما المرء إلا كالشهاب وضَوئِه يعود رَمادًا بَعْدُ إذ هو ساطع

وما ٱلمال والأهلون إلا وديعةٌ ولا بدّ يومًا أن تُرَدّ الودائع

وبعضهم يَعُدُّ التلفيق من باب الملاءمة، وهو أن تضمّ إلى ذكر الشيء ما يليق به ويجرى مَجراه، أي تَجمع الأمورَ المناسِبة، ويقال له: مُراعاة النظير أيضًا، كقول ٱبنِ سَمعُون[٢] للمهلّبيّ[٣]:

أنت أيها الوزير إبراهيميّ الجُود، إسماعيليّ الوعد، شعَيبيّ التوفيق، يوسفيّ العفو، محمديّ الخلُق.

---

(١) الفود: جانب الرأس مما يلي الأذنين إلى الأمام، والشعر الذي عليه.

(٢) ابن سمعون: هو أبو الحسن محمد بن أحمد بن إسماعيل (ـ ٣٧٨ هـ). اشتهر بوعظه في بغداد.

(٣) المهلبي: هو الحسن بن محمد بن هارون، يتصل بنسبه إلى المهلب بن أبي صفرة. وزر لمعز الدولة البويهي، وتوفي سنة ٣٥٢ هـ. كان كاتبًا مجيدًا وشاعرًا. (ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ١، ص ١٧٠).

وكقول أبي الفوارس الحَمْدانيّ(١): [من الكامل]

أأخا الفوارس لو رأيتَ مواقفي والخيلُ من تَحت الفوارس تَنحِط(٢)
لقرأتَ منها ما تخُطّ يد الوغى والبيض تَشكُل والأسِنّة تَنقُط

وكقول آخَر: [من الطويل]

وكم سائلٍ بالغيب عنك أجبتُه هناك الأيادي الشَّفْعُ والسُّودَدُ الوِتر
عطاءٌ ولا منٌّ وحُكم ولا هوًى وحِلم ولا عجز وعزٌّ ولا كِبْرْ

وقولِ ابن حَيُّوس(٣): [من الطويل]

يقينُك والتقوى وجُودُك والغنى ولفظُك والمعنى وسيفُك والنصر

والتناسب: هو ترتيب المعاني المتآخيةُ التي تتلاءم ولا تتنافر، كقول النابغة: [من الكامل]

والرفق يُمْن والأناةُ سعادة فاستأنِ في رزق تنال نجاحا
واليأس عمّا فات يُعقِب راحةً ولَربّ مَطمَعة تعود ذُباحا

ويسمّى التشابه أيضًا، وقيل: التشابه أن تكون الألفاظ غيرَ متباينة بل متقاربة في الجَزالة والرِّقّة والسَّلاسة، وتكونَ المعاني مناسِبة لألفاظها من غير أن يكسُوَ اللفظَ الشريفَ المعنى السخيفَ، أو على الضدّ، بل يصاغان معًا صياغةً تناسِب وتلائم.

فصل في الفِقَر المسجوعة ومقاديرها

قال: قِصَر الفقَرات يدلّ على قوّة التمكّن وإحكام الصناعة، وأقلّ ما تكون كلمتان، كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾

(١) نسب هذان البيتان لأبي العشائر الحمداني ابن عم سيف الدولة الحمداني أمير حلب. كان أميرًا على أنطاكية، وقد اتصل به المتنبي فقدمه لسيف الدولة ولكنه غضب عليه بعد ذلك وعاداه ودبر لاغتياله فنجا من تلك المحاولة.
(٢) تنحط: من النحط وهو صوت الخيل من الإعياء.
(٣) ابن حيوس: هو محمد بن سلطان بن محمد بن حيوس وكنيته أبو الفتيان، ولقبه مصطفى الدولة. شاعر الشام في عصره. ولد ونشأ في دمشق وتوفي في حلب (٣٩٤ ـ ٤٧٣ هـ = ١٠٠٣ ـ ١٠٨١ م). له ديوان شعر مطبوع يتضمن مدائح في ولاة الفاطميين. (الزركلي، الأعلام).

[المدَّثِّر: الآيات ١ - ٤] وأمثالُ ذلك في الكتاب العزيز كثيرة، لكن الزائد على ذلك هو الأكثر، وكان بديع الزمان يُكثِر من ذلك في رسائله، كقوله: كُمَيْتٌ نَهْد[1]، كأنّ راكبَه في مَهْد؛ يَلطِم الأرض بزُبَر[2] وينزل من السماء بخبَر. قالوا: لكن التذاذُ السامع بما زاد على ذلك أكثرُ، لتشوّقه إلى ما يَرِد متزايدًا على سمعه.

فأما الفقَر المختلفة فالأحسن أن تكون الثانية أزيَدَ من الأولى ولكن لا بقدر كثير لئلا يبعد على السامع وجودُ القافية فيقلّ الالتذاذُ بسماعها، فإن زادت القرائن على اثنتين فلا يضرّ تساوي القرينتين الأُولَيَيْن وزيادةُ الثالثة عليهما وإن زادت الثانية عن الأولى يسيرًا، والثالثةُ على الثانية فلا بأسَ، لكن لا يكون أكثرَ من المِثل، ولا بدّ من الزيادة في آخر القرائن، مثاله في القرينتين: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾﴾ [مريم: الآيات ٨٨ - ٩١]، ومثاله في الثالثة قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾﴾ [الفرقان: الآيات ١١ - ١٣]، وأقصرُ الطِّوال ما كان من إحدى عشرةَ لفظةً وأكثرُها غيرُ مضبوط، مثاله من إحدى عشرةَ لفظةً: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾﴾ [هُود: الآية ٩] والتي بعدها من ثلاثَ عشرةَ كلمةً؛ ومثاله من عشرين لفظةً قوله تعالى: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾﴾ [الأنفال: الآية ٤٣].

وأما ردّ العَجُز على الصدْر ـ فهو كل كلام منثور أو منظوم يلاقي آخرُه أوّلَه بوجه من الوجوه، كقوله تعالى: ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب: الآية ٣٧]، وقوله تعالى: ﴿لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ [طٰه: الآية ٦١] وقولِهم: «القتل أنفى للقتل» و «الحيلة تركُ الحيلة» وقولِهم: طَلب مُلكَهم فسَلب ما طَلب، ونَهب ما لَهم فوهب ما نَهب.

(١) الكميت من الخيل: ما لونه الكمتة، وهي سواد مشرب حمرة. والنهد من الخيل: الحسن الجسم.

(٢) الزُبَر: مفردها زبرة، وهي قطعة الحديد الضخمة.

وهو في النَّظم على أربعة أنواع:

الأوّل: أن يَقَعا طَرَفين، إما متفقين صورة ومعنى، كقوله: [من الطويل]

سريع إلى ٱبن العم يشتِم عِرضه   وليس إلى داعي الندى بسريع

وقولِه: [من الكامل]

سُكْران سُكرُ هوًى وسُكرُ مُدامة   أنّى يُفيق فتًى به سُكران

أو متفقين صورةً لا معنًى، وهو أحسن من الأوّل، كقول السَّرِيّ: [من الوافر]

يَسارٌ من سجيّتها المنايا   ويُمْنى من عطيّتها اليسار

وقولِ الآخَرِ: [من الطويل]

ذَوائبُ سُودٌ كالعناقيد أُرسلت   فمن أجلها منّا النفوسُ ذَوائبُ

أو معنًى لا صورة، كقول عمرَ بنِ أبي ربيعةَ: [من الرّمل]

واستَبَدّت مرّة واحدة   إنما العاجز من لا يَسْتَبِد

وقولِ السَّرِيّ: [من الوافر]

ضرائبُ أَبْدَعْتَها في السَّماح   فلسنا نرى لك فيها ضريبا

وقولِ الآخَر: [من السريع]

ثلْبُك أهلَ الفضل قد دلّني   أنك منقوص ومثلوب

أو لا صورةً ولا معنًى ولكن بينهما مشابَهة ٱشتقاق، كقول الحرِيري: [من البسيط]

ولاحَ يَلحَى على جَرْيِ العِنان إلى   مَلهًا فسُحقًا له من لائح لاحِي

الثاني: أن يقعا في حَشو المِصراع الأوّل وعَجُز الثاني، إما متفقين صورةً ومعنًى كقول أبي تمّام: [من الوافر]

ولم يَحفظ مُضاعَ المجد شيءٌ   من الأشياء كالمال المُضَاع

وقولُ آخَرَ: [من الكامل]

أمّا القبور فإنهن أوانس   بِجوار قبرك والديارُ قبور

أو صورةً لا معنًى، كقول الثعالبيّ: [من الكامل]

وإذا البلابل أفصحت بلُغاتها فأنفِ البلابل باحتساءِ بلابِل

فالأوّل جمعُ بُلبُل، والثاني جمعُ بَلبَلة وهي الهمّ والثالث جمعُ بُلبُلَة الإبريق

وقولِ الزمخشريّ[1]: [من الطويل]

وأخّرني دَهري وقدّم معشرًا لأنهم لا يعلمون وأعلم
فمذ أفلح الجُهّال أعلم أنني أنا الميم والأيام أَفلحُ أعلمُ[2]

أو معنًى لا صورةً، كقول امرىء القيس: [من الطويل]

إذا المرء لم يَخزُن عليه لسانَه فليس على شيء سواه بخزّان

وقولِ أبي تمّام: [من الكامل]

دِمَن أَلّم بها فقال سلام كم حَلّ عُقدةَ صبره الإلمام

وقولُ أبي فِراس: [من الوافر]

وما إن شبتُ من كِبَرٍ ولكن لقِيتُ من الأحبّة ما أشابا

أو في الاشتقاق فقط، كقول أبي فِراس: [من الوافر]

مَنحناها الحَرائبَ غيرَ أنّا إذا جُرنا مَنحناها الحِرابا[3]

الثالث: أن يقعا في آخر المِصراع الأوّل وعَجُزِ الثاني، إما متّفقَين صورةً ومعنًى كقول أبي تمّام: [من الطويل]

ومن كان بالبِيض الكواعب مغرمًا فما زِلتَ بالبِيض القواضب مُغرما

---

(١) هو محمود بن عمر الزمخشري، نسبة إلى مسقط رأسه زمخشر حيث ولد سنة (٤٦٧ هـ = ١٠٧٥ م). وحج إلى مكة حيث جاور مدة من الزمن فلقب بجار الله. وكان معتزلي المعتقد، وألف عددًا من الكتب أهم أسرار البلاغة، والكشاف، والمفصل في صنعة الإعراب، توفي سنة ٥٣٨ هـ. (ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٥، ص ١٦٨ ـ ١٧٤).

(٢) الأفلح: المشقوق الشفة السفلى. الأعلم: المشقوق الشفة العليا. يشبه الأيام التي تجهل قدره بالأفلح الأعلم الذي لا يستطيع لفظ الميم.

(٣) الحرائب: جمع حريبة. وهي المال الذي يعاش منه أو المال المسلوب. يريد القول إنه رد عليها المال الذي سلب منها لأنه عادل كريم، ولكنه إذا جار استطاع أن يسدد إليها الحراب أو الأسنة.

أو صورةً لا معنًى، كقول الحرِيريّ: [من الوافر]

فـمـشـغـوف بـآيـات الـمـثـانـي ومـفـتـون بـرنّـات الـمـثـانـي

أو معنًى لا صورةً، كقول البحتريّ: [من الوافر]

ففعلُك إن سُئلتَ لنا مطيع وقولُك إن سألتَ لنا مطاع

الرابع: أن يقعا في أوّل المِصراع الثاني والعَجُز، إما متّفقَين صورةً ومعنًى كقول الحَماسيّ: [من الطويل]

فإلّا يكُن إلا مُعَلَّلَ ساعةٍ قليلًا فإني نافعٌ لي قليلُها

أو صورةً لا معنًى، كقول أبي دؤاد: [من المتقارب]

عهِدتُ لها مَنزِلًا داثرًا وآلًا على الماء يَحملن آلا

فالأوّل الأتباع، والثاني أعمدة الخِيام، وكقول آخرَ: [من الطويل]

رماكَ زمان السُّوء من حيث لا تَرى فرامَى ولم يَظفَر بما هو راما

أو معنًى لا صورةً، كقول أبي تمّام: [من الطويل]

ثَوَى في الثرى من كان يحيا به الثرى ويغمُر صَرفَ الدهر نائلُه الغَمْر
وقد كانت البِيضُ البَوَاترُ في الوغى بَوَاترَ فهي الآن من بَعده بُتْر(١)

قال: ومن نوادر هذا الباب بيتًا الحرِيريّ اللذان سمّاهما المطرَّفَين، وهما: [من السريع]

سِمْ سِمَةً تحسُن آثارُها وأشكر لمن أعطى ولو سِمسِمه
والمَكرُ مهما أسطعتَ لا تأته لتبتغي السُّودَد والمَكرُمَه

قال: فإن لم يقع في العَجُز فليس من هذا الباب، كقوله: [من السريع]

ونُبِّئتُهُمْ يَستنصِرون بكاهل ولِلُؤمُ فيهم كاهلٌ وسَنام

وكقول الأَفوَه الأَوْديّ: [من السريع]

وأَقطَع الهَوْجل مستأنِسًا بِهَوْجل عَيْرانةٍ عَنترِيس

---

(١) يعني بالبواتر: السيوف. ويعني ببواتر: قواطع. ويعني بتر: لا أصل لها ولا نسل.

فالهَوْجَل الأوّل: الفَلاة، والثاني: الناقة السريعة.

وأما الإعنات ـ ويقال له التضييقُ والتشديدُ ولزومُ ما لا يلزم ـ فهو أن يُعْنِت نفسه في ٱلتزام رِدْفٍ أو دَخيل أو حرف مخصوص قَبْلَ حرف الرويّ، أو حركةٍ مخصوصة، كقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠﴾ [الضحى: الآيتان ٩، ١٠]، وقولِ النبي ﷺ: «اللّهمّ بك أحاول، وبك أُصاوِل»، وقولِه عليه الصلاة والسلام: «شرّ ما في المرء شُحٌّ هالع، أو جُبنٌ خالع»، وقولِه عليه الصلاة والسلام: «زُرْ غِبًّا تزدد حُبًّا»، وقولِ عمرَ رضي الله عنه: لا يكن حبُّك كَلَفًا، ولا بُغضُك تَلَفا؛ وقولِ المَعرّي[1]: [من الطويل]

ضحكنا وكان الضِّحك منا سفاهةً ... وحَقَّ لسُكّان البسيطة أن يَبْكوا
يُحطِّمنا صَرف الزمان كأننا ... زُجاج ولكن لا يعادُ لَهُ السَّبك

وقولِ آخرَ: [من الطويل]

يقولون في البستان للعَين لذّة ... وفي الخمر والماء الذي غيرُ آسن
إذا شئتَ أن تلقَى المحاسن كلَّها ... ففي وجه من تهوَى جميعُ المحاسن

وقد ٱلتزم ٱبن الروميّ الفتحَ قَبْلَ حرف الرويّ ـ وكان أَولعَ الناس بذلك ـ فقال: [من الطويل]

لِمَا تؤذِن الدنيا به من صُروفها ... يكون بُكاءُ الطفل ساعةَ يولد
وإلا فما يُبكيه فيها وإنّها ... لأَوْسَعُ ممّا كان فيه وأرغد
إذا أبصر الدنيا ٱستهَلّ كأنه ... بما سيلاقِي من أذاها يُهَدَّد

وأمثالُ ذلك في الشعر كثيرة.

[المذهب الكلامي]

وأما المذهب الكلاميّ ـ فهو إيراد حُجّةٍ للمطلوب على طريقة أهل الكلام نحو قوله عز وجل: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: الآية ٢٢] ومنه قولُ النابغةِ يعتذر إلى النُّعمان: [من الطويل]

حلفتُ فلم أترك لنفسك رِيبةً ... وليس وراءَ الله للمرء مَذهَب

(١) أكثر أبو العلاء المعري من هذا الضرب في ديوانه «اللزوميات» وقد سمي بهذا الاسم لأنه ألزم نفسه ما لا يلزم من الإعنات والجناس والطباق وسائر الزخارف البديعية.

لئن كنتَ قد بُلِّغتَ عنّي جناية ... لَمبلغُك الواشي أغَشّ وأكذَب
ولكنّني كنت امرءًا ليَ جانب ... من الأرض فيه مُستَراد ومذهب
ملوك وإخوان إذا ما مدحتُهم ... أحكَّم في أموالهم وأقرَّب
كفعلك في قوم أراك أصطنعتَهم ... فلم ترَهُمْ في مدحهم لك أذنبوا

يقول: أنت أحسنت إلى قوم فمدحوك، وأنا أَحسن إليّ قوم فمدحتُهم، فكما أنّ مدح من أحسنتَ إليه لا يُعَدّ ذنبًا فكذا مدحي لمن أَحسن إليّ لا يُعَدّ ذنبًا. قال ٱبن أبي الإصبع، ومن شواهد هذا الباب قولُ الفرزدق: [من الطويل]

لكلّ ٱمرىء نفسان نفْسٌ كريمةٌ ... ونفْس يعاصيها الفتى ويطيعها
ونفسُك من نفسَيْك تَشفَع للنّدى ... إذا قلّ من أحرارهنّ شفيعها

يقول: لكلّ إنسان نفْسان: نفس مطمئنّة تأمره بالخير، ونفس أمّارة تأمره بالشرّ، والإنسان يعاصي الأمّارة مرّة ويطيعها أخرى، وأنت إذا أمرتْك الأمّارة بترك النّدى شفعت المطمئنّة إليها في النّدى في الحالة التي يَقلّ فيها الشفيع في النّدى من النفوس، فأنت أكرم الناس.

[حسن التعليل]

وأما حسن التعليل ـ فهو أن يُدَّعَى لوصفٍ عِلّةٌ مناسِبةٌ له بٱعتبارٍ لطيف وهو أربعة أضرب: لأنّ الصفة إمّا ثابتةٌ قُصِد بيانُ عِلّتها، أو غيرُ ثابتةٍ أريد إثباتُها.

فالأُولى: إمّا لا يَظهر لها في العادة علّة، كقوله: [من الكامل]

لم يَحكِ نائلَك السحابُ وإنّما ... حُمّتْ به فصبيبُها الرُّحَضَاء[1]

أو يَظهَر لها علّة، كقوله: [من الرمل]

ما به قَتلُ أَعاديه ولكن ... يَتّقي إخلافَ ما ترجو الذئاب[2]

فإنّ قتلَ الأعداء في العادة لدفع مضرّتهم لا لما ذَكره.

---

(١) الرحضاء: العرق المتصبب من المصاب بالحمى.

(٢) هذا البيت من قصيدة لأبي الطيب المتنبي. يريد القول إن سبب قتل أعاديه ليس حب القتل أو الفتك، بل عدم إخلاف رجاء الذئاب التي تأمل أن يقدم لها الغذاء، وهو جثث الأعداء.

والثانية: إما مُمْكنةٌ، كقوله: [من البسيط]

يا واشيًا حسُنت فينا إساءتُه نَجّى حِذارُك إنساني من الغرق

فإن ٱستحسان إساءةِ الواشي ممكن، لكن لمّا خالف الناس فيه عقّبه بما ذكر.

أو غيرُ مُمْكِنة، كقوله: [من البسيط]

لو لم تكن نيّةُ الجوزاء خدمتَه لما أتت وعليها عَقد منتَطِق

قال: وأُلحِقَ به ما بُنِيَ على الشكّ، كقول أبي تمّام: [من الطويل]

رُبّا شَفعت ريح الصَّبا لرياضها إلى المُزْن حتى جادها وهو هامع(١)
كأنّ السحابَ الغُرَّ غَيَّبن تحتها حبيبًا فما تَرقأ لهنّ مدامع(٢)

وقد أحسن ٱبن رشيق في قوله: [من الوافر]

سألتُ الأرض لِمْ كانت مصلًى ولِمْ كانت لنا طُهرًا وطِيبا
فقالت غيرَ ناطقةٍ لأنّي حوَيتُ لكلّ إنسان حبيبا

وأما الالتفات ـ فقد فسّره قدامة بأن قال: هو أن يكون المتكلّم آخذًا في معنى فيعترضه إما شكٌّ فيه وإما ظنٌّ أنّ رادًا يردّه عليه، أو سائلًا له عن سببه فيَلتفت إليه بعد فراغه منه، فإما أن يُجلِّيَ الشكّ، أو يؤكّدَه، أو يَذكرَ سببه، كقول الرمّاح بن مَيّادة: [من الطويل]

فلا صَرمُه يبدو ففي اليأس راحة ولا وصلُه يصفو لنا فنكارمُه

كأنه توهّم أن فلانًا يقول: ما تصنع بصَرمه؟ فقال: لأن في اليأس راحة. وأما ٱبن المعتزّ فقال: الالتفات ٱنصراف المتكلّم عن الإخبار إلى المخاطَبة، ومثاله في القرآن العزيز الإخبار بأنّ الحمدَ لله رب العالمين، ثم قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾ [الفَاتِحَة: الآية ٥]، ومثاله في الشعر قول جرير: [من الوافر]

متى كان الخيامُ بذي طُلوح سُقيتِ الغيث أيّتها الخيام(٣)

---

(١) هامع: سائل.
(٢) ترقأ: تكف عن البكاء. طلب ريح الصبا من السحاب أن يسقي رياض الربا فاستجابت لشفاعته وسقتها المطر الذي لم يتوقف عن الهطول، وكأنها فقدت حبيبها فبكته.
(٣) ذو طُلُوح: موضع في جبل بني يربع بين الكوفة ومَنْد. (ياقوت، معجم البلدان، ج ٤، ٣٩).

أو ٱنصراف المتكلّم عن المخاطبة إلى الإخبار، كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِى ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ [يُونس: الآية ٢٢] ومثال ذلك في الشعر قول عنترةَ: [من الكامل]

ولقد نزلتِ فلا تظنّي غيرَه ... منّي بمنزلة المُحَبّ المكرَم

ثم قال مخبِرًا عنها: [من الكامل]

كيف المَزَار وقد تربّع أهلها ... بعُنَيزتين وأهلنا بالغَيلم[1]

أو ٱنصراف المتكلّم من الإخبار إلى التكلّم، كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقۡنَٰهُ﴾ [فاطِر: الآية ٩].

أو ٱنصراف المتكلّم من التكلّم إلى الإخبار، كقوله تعالى: ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ[2] وَيَأۡتِ بِخَلۡقٍ جَدِيدٍ ۝١٩ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ۝٢٠﴾ [إبراهيم: الآيتان ١٩، ٢٠]، وقد جمع ٱمرؤ القيس الالتفاتات الثلاثة في ثلاثة أبيات متواليات، وهي قوله: [من المتقارب]

تَطاوَل ليلُكَ بالإثمِد ... ونام الخليّ ولم ترقد[3]

وبات وباتت له ليلة ... كليلة ذي العائر الأرمد[4]

وذلك من نبأ جاءني ... وخُبِّرْتُه عن أبي الأَسوَد

يخاطِب في البيت الأوّل، وٱنصرف إلى الإخبار في البيت الثاني، وٱنصرف عن الإخبار إلى التكلّم في البيت الثالث على الترتيب.

وأما التمام ـ وهو الذي سماه الحاتميّ[5] التتميم، وسماه ٱبن المعتز ٱعتراض كلام في كلام لم يتم معناه، ثم يعود المتكلّم فيتمّمه، وشَرَحَ حدَّه بأنه الكلمة التي إذا طُرحت من الكلام نقَص حُسنُ معناه ومبالغتُه، مع أن لفظه يوهم بأنه تامّ؛ وهو على ضربين: ضرب في المعاني وضرب في الألفاظ، فالذي في المعاني هو تتميم المعنى

(١) عنيزتين والغيلم: اسما مكانين في الجزيرة العربية. (ياقوت، معجم البلدان، ج ٤، ص ١٦٤).
(٢) في القرآن الكريم: إن يشأ يذهبكم.
(٣) الإثمد: اسم مكان. (ياقوت، معجم البلدان، ج ١، ص ٩٢).
(٤) العائر: ما أعل العين، هو بثر في الجفن الأسفل منها.
(٥) الحاتمي: (٣٨٨ هـ = ٩٩٨ م) هو محمد بن الحسن بن المظفَّر، أبو علي أديب نقاد، من أهل بغداد. له الرسالة الحاتمية في نقد المتنبي، وسر الصناعة، (الزركلي، الأعلام).

والذي في الألفاظ هو تتميم الأوزان، والأوّل هو الذي قُدّم حدُّه، ومثاله قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: الآية ٩٧]، فقوله تعالى: ﴿مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ [النحل: الآية ٩٧] تتميم، وقوله: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ [النحل: الآية ٩٧] تتميم ثان في غاية البلاغة، ومن هذا القسم قول النبي ﷺ: «ما من عبد مسلم يصلي لله كل يوم ٱثنتي عشرة ركعة من غير الفريضة إلا ٱبتنى الله له بيتًا في الجنة» فوقع التتميم في هذا الحديث في ثلاثة مواضعَ: قوله عليه السلام: مسلم، ولله، ومن غير الفريضة، ومن أناشيد قدامة على هذا القسم قولُ الشاعر[1]: [من الطويل]

أناسٌ إذا لم يُقبَل الحق منهمُ ويعطَوْه عادوا بالسيوف القواضب

وأما الذي في الألفاظ فهو الذي يُؤتى به لإقامة الوزن بحيث لو طُرحت الكلمة ٱستقلّ معنى البيت بدونها؛ وهو على ضربين: أحدهما مجيء الكلمة لا تفيد غير إقامة الوزن فقط، والثاني: مجيئها تفيد مع إقامة الوزن نوعًا من الحسن، فالأوّل من العيوب والثاني من المحاسن؛ قال: والكلام هنا في الثاني، ومثاله قول المتنبيّ: [من الكامل]

وخُفوق قلبٍ لو رأيتِ لهيبه يا جَنّتي لظننتِ فيه جهنّما

فإنه جاء بقوله يا جنتي لإقامة الوزن، وقصَدَ بها دون غيرها مما يسدّ مسدّها أن يكون بينها وبين قافية البيت مطابقةٌ لا تحصل بغيرها.

وأما الاستطراد ـ وهذه التسمية ذكر الحاتمي في حلية المحاضرة أنه نقلها عن البحتري، وقيل: إن البحتري نقلها عن أبي تمّام، وسماه ٱبن المعتز: الخروج من معنى إلى معنى، وفسّره بأن قال: هو أن يكون المتكلّم في معنى فيخرج منه بطريق التشبيه أو الشرط أو الإخبار أو غير ذلك إلى معنى آخَرَ يتضمّن مدحًا أو قدحًا أو وصفًا ما، وغالب وقوعه في الهجاء، ولا بد من ذكر المستطرَد به بٱسمه بشرط أن لا يكون تَقدّم له ذكر.

فمن أوّل ما ورد في ذلك من النظم قولُ السمَوأل بن عادياء[2]: [من الطويل]

وإنّا لَقوم ما نرى القتل سُبّةً إذا ما رأته عامر وسَلول

(١) هو الشاعر نافع بن خليفة الغنوي.

(٢) السموأل بن عادياء: شاعر جاهلي كان يملك الحصن المعروف بالأبلق. ضرب به المثل في الوفاء لأنه فضل قتل ابنه على تسليم أمانة أودعها لديه امرؤ القيس. (المنجد).

ومنه قول حسّان: [من الكامل]

إن كنتَ كاذبةَ الذي حدّثتِني فنجوتِ مَنجا الحارث بن هشام
تركَ الأحبّةَ لم يقاتل دونهم ونجا برأس طِمِرّة ولجام[١]

وقولُ أبي تمّام في وصف حافر الفرس بالصلابة: [من البسيط]

أيقنتَ إن لم تَثبَّت أنّ حافرَه من صخر تَدْمُرَ أو من وجه عثمانِ[٢]

ومن أحسن ما قيل في ذلك قولُ ابنُ الزَّمَكْدَمِ أربعةَ ٱستطرادات متوالية: [من الطويل]

وليلٍ كوجه البَرْقَعِيديِّ[٣] ظُلمةً وبَردِ أغانيه وطولِ قرونه
سرَيت ونومي فيه نومٌ مشرَّدٌ كعقل سليمانَ بن فَهد ودِينه
على أولَق فيه ٱلتفاتٌ كأنه أبو صالح في خبطه وجنونه[٤]
إلى أن بدا ضوء الصباح كأنه سنا وجهِ قِرْواش وضوءُ جبينه[٥]

وقولُ البحتريّ في الفَرَس أيضًا: [من الكامل]

ما إن يَعَاف قذًى ولو أوردته يومًا خلائقَ حَمدوَيهِ الأحول

ومما جمع المدح والهجاء قول بَكر بن النَّطّاح[٦]: [من الطويل]

فتًى شَقيَتْ أمواله بنواله كما شَقيَتْ بَكر بأرماح تَغلِب

ومما جاء به على وجه المجون قولُ بعضهم:

اكشفي وجهك الذي أوحلَتني فيه من قَبل كشفه عيناك
غلطي في هواكِ يشبه عندي غلطي في أبي عليّ بن زاكي

---

(١) الطمرة من الأفراس: المستعدة للعدوِ. يشير حسان بن ثابت إلى فرار الحارث بن هشام بن المغيرة يوم بدر.

(٢) تدمر: مدينة قديمة في بلاد الشام بينها وبين حلب خمسة أيام. عثمان: هو عثمان بن إدريس السامي. (ياقوت، البلدان).

(٣) البرقعيدي: نسبة إلى برقعيد، وهي بلدة بين الموصل ونصيبين.

(٤) الأولق: الجنون، يريد: على فرس ذات جنون.

(٥) قرواش: هو قرواش بن مقلد أمير بني عقيل.

(٦) بكر بن النطاح: (١٩٢ هـ - ٨٠٨ م) الحنفي، أبو وائل، شاعر غزل، فارس، من أهل اليمامة. انتقل إلى بغداد زمن الرشيد (الأعلام، للزركلي).

ومما جاء في النسيب على وجه التشبيه قولُ أمرىء القيس: [من الكامل]

عُوجا على الطلل المُحِيل لعلّنا نبكي الديار كما بكى ٱبن حمام

وأما تأكيد المدح بما يشبه الذمّ ـ فهو ضربان: أفضلهما أن يستثنى من صفة ذمّ منفيّة عن الشيء صفة مدح بتقدير دخولها فيها، نحو قوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾﴾ [الواقعة: الآيتان ٢٥، ٢٦] فالتأكيد فيه من جهة أنه كدعوى الشيء ببيّنة، وأن الأصل في الاستثناء الاتصال، فذكرُ أداته قَبل ذكرِ ما بعدها يوهم إخراجَ الشيء ممّا قبلها، فإذا وليَها صفةُ مدحٍ جاء التأكيد.

والثاني: أن يُثبت لشيء صفة مدح ويعقّبَ بأداة ٱستثناء تليها صفةُ مدح أخرى له، كقوله ﷺ: «أنَا أفصح العرب بَيْدَ أنّي من قريش» وأصل الاستثناء في هذا الضرب أيضًا أن يكون منقطعًا، لكنه باق على حاله لم يقدَّر متصلًا فلا يفيد التأكيد إلا من الوجه الثاني من الوجهين المذكورين، ولهذا كان الأوّل أفضل.

ومن أمثلة الأوّل قولُ النابغة الذُّبياني: [من الطويل]

ولا عيبَ فيهم غير أنّ سيوفَهم بهنّ فُلول من قِراع الكتائب[(١)]

ومن أحسن ما قيل في ذلك قولُ حاتم الطائيّ[(٢)]: [من الطويل]

ولا تشتكيني جارتي غيرَ أنني إذا غاب عنها بعلها لا أزورها

ومن الثاني قولُ النابغة الجَعْديّ[(٣)]: [من الطويل]

فتًى كَمُلت أخلاقه غيرَ أنه جواد فما يُبقِي من المال باقيا

ومن أحسن ما ورد في هذا الباب قولُ بعضهم: [من الطويل]

ولا عيب فينا غير أنّ سماحَنا أضرَّ بنا والبأسَ من كلّ جانب

فأفنى الردى أعمارنا غيرَ ظالم وأَفنى الندى أموالَنا غيرَ عاتب

---

(١) هذا البيت من قصيدة يمدح فيها النابغة الذبياني ملوك الغساسنة في الشام. إنهم فرسان تثلمت سيوفهم من المعارك التي يخوضونها.

(٢) عرف حاتم الطائي بكرمه وعفته كما عرف بشجاعته وهي أهم القيم الخلقية التي كان يتغنى بها الشعراء الجاهليون. وفي هذا البيت يفخر حاتم بعفته، فهو لا يشتهي امرأة جاره.

(٣) النابغة الجعدي: (٥٠ هـ ـ ٦٧٠ م) هو قيس بن عبد الله بن عدس الجعدي العامري، أبو ليلى، شاعر مغلق صحابي من المعمرين اشتهر في الجاهلية وأدرك الإسلام ووفد على النبي وأسلم وأدرك صفين مع علي، ثم سكن الكوفة. له ديوان شعر مطبوع (الزركلي، الأعلام).

وأما تأكيد الذمّ بما يشبه المدح - فهو ضربان:

أحدهما: أن يُستثنَى من صفة مدح منفيّةٍ عن الشيء صفة ذمّ بتقدير دخولها فيها كقولك: فلان لا خير فيه إلّا أنه يسيء إلى من أحسن إليه.

والثاني: أن تُثبت للشيء صفة ذمّ وتعقّب بأداة ٱستثناء تليه صفة ذمّ له أخرى كقولك: فلان فاسق إلّا أنه جاهل، وتحقيق القول فيها على قياس ما تَقدّم.

وأما تجاهل العارف - فهو سؤال المتكلّم عما يعلمه حقيقة تجاهلًا منه ليُخرج كلامه مُخْرَجَ المدح أو الذمّ، أو ليدُلّ على شدّة التدلّه في الحبّ، أو لقصد التعجّب أو التوبيخ أو التقرير؛ وقال السكاكيّ[1]: هو سَوق المعلوم مَساقَ غيره لنكتة كالتوبيخ، كما في قول الخارجيّة وهي ليلى بنت طَرِيف[2]: [من الطويل]

أيا شجر الخابور مالك مُورقا كأنك لم تَجزَع على ٱبن طَرِيف[3]

والمبالغة في المدح، كقول البحتريّ: [من البسيط]

ألمعُ برق سرى أم ضوءُ مصباح أم ٱبتسامتُها بالمَنظَر الضاحي

أو الذمّ، كما قال زُهير: [من الوافر]

وما أدرِي ولست إخال أدرِي أقومٌ آلُ حِصن أم نساء

أو التدلّه في الحبّ، كقوله: [من البسيط]

بالله يا ظبَياتِ القاع قلن لنا ليلاي منكنّ أم ليلَى من البشر

وقولِ البحتريّ: [من البسيط]

بدا فراع فؤادي حسنُ صُورتِه فقلت هل ملِكٌ ذا الشخصُ أم ملَك

---

(١) يبدو أن النويري ينقل عن السكاكي ولا يبتعد عنه كثيرًا لا في الأحكام ولا في الأمثلة التي يسوقها كشواهد.

(٢) ليلى بنت طريف: (٢٠٠ هـ - ٨١٥ م)، هي القارعة أو فاطمة بنت طريف بن الصلت التغلبية الشيبانية، شاعرة فارسية من الخوارج. (الأعلام، للزركلي).

(٣) الخابور: نهر كبير بين رأس العين والفرات من أرض الجزيرة ومن روافده فاضل الهرماس، ومد أو نهر نصيبين. (ياقوت الحموي، معجم البلدان).

وأما الهزل الذي يراد به الجِدّ ـ فهو أن يقصد المتكلّم ذمَّ إنسان أو مدحَه فيُخرجَ ذلك مُخرَج المجُون، كقول الشاعر(١): [من الطويل]

إذا ما تميميٌّ أتاك مُفاخرًا فقُل عدِّ عن ذا كيف أكلُك للضبّ

وأما الكنايات ـ فهي أن يُعبِّر المتكلّم عن المعنى القبيح باللفظ الحسَن وعن الفاحش بالطاهر، وقد تَقدّم الكلام على ذلك في باب الكناية والتعريض وهو الباب الرابع من القسم الثاني من هذا الفنّ، وهو في السِّفر الثالث من كتابنا هذا.

وأما المبالغة ـ وتسمَّى التبليغَ والإفراطَ في الصفة ـ فقد حدّها قُدامةُ بأن قال: هي أن يذكر المتكلّم حالًا من الأحوال لو وَقف عندها لأجزأَت فلا يقف حتى يزيد في معنى ما ذَكره ما يكون أبلغَ في معنى قصْدِه، كقول عُمَيْر بن كرِيم التغلبيّ(٢): [من الوافر]

ونُكرِم جارنا ما دام فينا ونُتبِعه الكرامة حيث مالا

ومن أمثلة المبالَغة المقبولة قولُ امرىء القيس يصف فَرَسًا: [من الطويل]

فعادَى عِداءً بين ثور ونعجة دِراكًا ولم يُنضح بماء فيُغسَلِ

يقول: إنه أدرك ثورًا وبقرة في مِضْمار واحد ولم يَعرَق.

وقولُ المتنبي: [من الطويل]

وأَصرَع أيَّ الوحش قفَّيتُه به وأَنزِل عنه مِثلَه حين أركَب

ولا يعاب في المبالَغة إلا ما خرج عن حدّ الإمكان، كقوله(٣): [من الكامل]

وأَخَفْتَ أهلَ الشرك حتى إنه لتَخافك النُّطَف التي لم تُخلَق

وأما إذا كان كقول قيس بن الخطيم(٤): [من الطويل]

طعنتُ ٱبنَ عبد القيس طعنةَ ثائر لها نَفَذٌ لولا الشُّعاعُ أضاءها
ملكتُ بها كَفِّي فأَنهرتُ فَتقَها يُرَى قائمًا من دونها ما وراءها

(١) الشاعر هو أبو نواس، والبيت من قصيدة يهجو بها تميمًا وأسدًا ويفخر بقحطان.
(٢) هو عمير بن كريم التغلبي «عمير بن الأهتم».
(٣) البيت للشاعر العباسي أبي نواس، وهو من قصيدة يمدح فيها هارون الرشيد.
(٤) قيس بن الخطيم: (٢ ق هـ ـ ٦٢٠ م)، هو قيس بن عدي الأوسي، شاعر الأوس وأحد فرسانها في الجاهلية. له ديوان مطبوع. (الأعلام، للزركلي).

فإنّ ذلك من جيّد المبالَغة إذ لم يكن قد خرج مَخرج الاستحالة مع كونه قد بلغ النهاية في وصف الطعنة، ومن أحسنِ ذلك وأبلغه قولُ أحد شعراء الحماسة: [من الطويل]

رَهنتُ يدي بالعجز عن شكر بِرّه   وما بَعد شكري للشكور مَزيد
ولو كان مما يستطاع أستطعتُه   ولكنّ ما لا يستطاع شديد

وأما عتاب المرء نفسَه ـ فهو من أفراد ٱبن المعتزّ، ولم يُنشِد عليه سوى بيتين ذكر أن الآمديّ أنشدهما عن الجاحظ وهما: [من الطويل]

عصانيَ قومي في الرشاد الذي به   أَمرتُ ومن يعصِ المجرِّب يندم
فصبرًا بني بَكر على الموت إنني   أرى عارضًا ينهلّ بالموت والدم

قال: ولا يصلح أن يكون شاهدًا لهذا الباب إلا قولُ أحد شعراء الحماسة: [من الطويل]

أقول لنفسي في الخلاء ألومها   لكِ الويلُ ما هذا التجلّد والصبر

وقولُ الآخَرِ: [من الطويل]

فَقدتُكِ من نفس شَعاعٍ فإنني   نَهيتُكِ عن هذا وأنتِ جميع(١)

وما ناسب ذلك من الأمثلة.

وأما حُسن التضمين ـ فهو أن يضمِّن المتكلّم كلامَه كلمةً من آية أو حديث أو مَثلٍ سائر أو بيت شعر؛

ومن إنشادات ٱبن المعتزّ عليه: [من السريع]

عَوَّذَ لما بتّ ضيفًا له   أقراصَه منّي بياسينِ
فبِتُّ والأرض فراشي وقد   غَنّت قِفا نَبْكِ مَصارِيني

فضَمّن بيتَه الأوّلَ كلمةً من السورة بتوطئة حسَنة، وبيتَه الثانيَ مَطلعَ قصيدة امرىء القيس.

(١) النفس الشَّعَاع: التي تفرقت همومها. جميع: مجتمعة.

ومما ضُمِّن معنى حديث النبيّ ﷺ قولُ الآخرَ: [من الخفيف]

وأخٍ مسّه نزولي بقَرْحِ مِثلَما مسّني من الجوع قَرْح[١]
بتُّ ضيفًا له كما حكم الدهـ ـر وفي حكمه على الحرّ قبح
قال لي مذ نزلتُ وهو من السكـ ـر بالهمّ طافح ليس يصحو
لِمْ تغرّبتَ؟ قلت: قال رسول اللّـ ـه والقولُ منه نُصحٌ ونُجْح
«سافروا تغنموا» فقال: وقد قـ ـال تمامَ الحديث: «صوموا تصِحّوا»

ومن تضمين الشعر قولُ بعضهم: [من الطويل]

وقفنا بأنضاء حكّتنا لَواغبِ «على مِثلها من أربُعٍ ومَلاعبِ»

وهو مطلع قصيدة لأبي تمام.

ومنه قولُ الغزّي: [من السريع]

طُولُ حياة ما لها طائل نَغّص عندي كُلَّ ما يُشتهى
أصبحتُ مثلَ الطفل في ضعفه تَشابَه المبدأ والمنتهى
فلا تلم سمعي إذا خانني «إنّ الثمانين وبُلِّغتَها»

المراد من التضمين هٰهنا تمامُ البيت:

* قد أحوجَتْ سمعي إلى تُرْجُمان *

وإنما تركَه لأن أوّل البيت يدُلّ عليه لاشتهاره، وهذا قد أكثر المتأخرون من استعماله في أشعارهم، وضمّنوا البيت الكامل بعد التوطئة له.

وأما التلميح ـ وهو من التضمين، وإنما بعضهم أفرده ـ فهو أن يشير في فحوى الكلام إلى مَثَلٍ سائر، أو بيت مشهور، أو قضية معروفة من غير أن يذكُره، كقول الشاعر: [من البسيط]

المستغيثُ بعمرو عند كُربته كالمستغيث من الرمضاء بالنار

(١) قرح: اسم بلدة. وقرح الثاني نفس الجرح. وقرح البلدة في وادي القرى، كانت من أسواق العرب في الجاهلية. (ياقوت، معجم البلدان).

أشار إلى قضيّة كُليب حين ٱستغاث بعمرو بن الحارث[(١)]؛ ومنهم من يسمّي ذلك ٱقتباسًا، وإيرادَ المثل كما هو تضمينًا.

وأما إرسال المثَلِ - فهو كقول أبي فِراس: [من الطويل]

تهُون علينا في المعالي نفوسُنا ومن يخطب العلياء لم يُغلِه المهر

وكقول المتنبيّ: [من الطويل]

تُبكّي عليهنّ البطاريقُ في الدجى وهنّ لدينا مُلقَيات كَواسد
بذا قضت الأيام ما بين أهلِها مصائبُ قوم عند قوم فوائد

وأما إرسال مَثَلين - فهو الجمع بين مَثَلين، كقول لَبيد: [من الطويل]

ألا كلُّ شيء ما خلا الله باطل وكلُّ نعيم لا مَحالةَ زائل

وأبيات زهير بن أبي سُلمى التي فيها ومَن ومَن، وقد تقدّم ذكر ذلك مستوفًى في باب الأمثال، وهو الباب الأوّل من القسم الثاني من هذا الفنّ، وهو في السِّفر الثالث.

وأما الكلام الجامع - فهو أن يكون البيت كلُّه جاريًا مَجرى مَثل واحد كقول زهير: [من الطويل]

ومن يك ذا فَضْلٍ ويبخَلْ بفضله على قومه يُستغنَ عنه ويُذمَم
ومن لا يصانِع في أمور كثيرة يُضرَّس بأنياب ويُوطأ بمَنْسِمِ[(٢)]
ومهما تكن عند ٱمرىء من خَليقة وإن خالها تَخفى على الناس تُعلَم

وكقول أبي فراس: [من الطويل]

إذا كان غيرُ الله في عُدّة الفتى أتته الرزايا من وجوه الفوائد

---

(١) «قضية كليب حين استغاث بعمرو بن الحارث» يعني بها مقتل كليب وائل على يد جساس بن مرة بسبب رعي ناقة البسوس (خالة جساس) حمى كليب. لقد قتل كليب ناقة البسوس لأنها انتهكت حماه فاستغاثت البسوس بابن أخيها جساس فذهب ورمى كليبًا بسهم فسقط على الأرض ينزف دمًا، وشعر بالعطش، فطلب منه شربة ماء فرماه بسهم آخر، فقال هذا البيت الذي ذهب مثلًا. (الزركلي، الأعلام، مادة بسوس).

(٢) المنسم: الخف. يريد زهير أن يقول في هذا البيت الذي ورد في معلقته: من لا يكن لينًا في معاملة الناس ينهش ويداس بالأقدام.

وكقول المتنبيّ: [من الوافر]

وكم من عائب قولًا صحيحًا وآفتُه مِن الفهم السقيم

وقولِه: [من الطويل]

ومن نَكَد الدنيا على الحرّ أن يَرَى عدوًّا له ما من صداقته بدّ

وقوله: [من الكامل]

ومن البليّة عَذلُ من لا يرعوي عن جهله وخطابُ من لا يَفهمُ

وقولِه: [من البسيط]

إنا لفي زمن تركُ القبيح به مِن أكثرِ الناس إحسانٌ وإجمال

وأما اللّفّ والنشر ـ فهو أن يذكُر ٱثنين فصاعدًا ثم يأتي بتفسير ذلك جملة مع رعاية الترتيب ثقةً بأن السامع يردّ إلى كل واحد منها ما له، كقوله تعالى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [القَصَص: الآية ٧٣].

ومن النظم قولُ الشاعر: [من البسيط]

ألستَ أنت الذي من وَرْد نعمته ووِرْد راحته أَجنِي وأغترِف

وقد لا يراعَى فيه الترتيبُ ثقةً بأن السامع يردّ كل شيء إلى موضعه سواء تقدّم أو تأخر، كقول الشاعر: [من الخفيف]

كيف أسلو وأنتَ حِقْف وغصن وغزال لحظًا وقَدًّا ورِدفا[1]

وأما التفسير ـ وهو قريب منه ـ فهو أن يذكُر لفظًا ويَتوهّمَ أنه يحتاج إلى بيانه فيعيده مع التفسير، كقول أبي مُسْهِر[2]: [من البسيط]

غيثٌ وليثٌ فغيث حين تسأله عُرفًا وليثٌ لدى الهيجاء ضِرغام

ومنه قول الشاعر: [من البسيط]

يُحيِي ويُردِي بجَدواه وصارِمه يُحيي العُفاةَ ويُردِي كلَّ من حَسدا

---

(١) الحقف: كثيب الرمل، يعني بها ردفها.

(٢) أبو مسهر: (١٤٠ ـ ٢١٨ هـ = ٧٥٧ ـ ٨٣٣ م)، هو عبد الأعلى بن مسهر الغساني الدمشقي. كان شيخ الشام وعالمها بالحديث والمغازي والأيام والأنساب. امتحنه الخليفة المأمون بالرقة فامتنع فحبسه ومات في السجن. (الأعلام، للزركلي).

ومن ذلك أن يذكر معانيَ ويأتيَ بأحوالها من غير أن يزيد أو ينقُصَ كقول الفرزدق: [من الطويل]

لقد جئتَ قومًا لو لجأتَ إليهمو طريدَ دم أو حاملًا ثِقْل مَغْرَم
لأَلفَيتَ فيهم معطيًا ومُطاعنا وراءك شَزْرًا بالوشِيج المقوَّم(١)

لكنه لم يراع شرط اللّفّ والنشر.

وقولِ آخر: [من الطويل]

فواحسرتا حتى متى القلبُ مُوجَعٌ بفقد حبيب أو تعذّرِ إفضال
فراقُ حبيب مِثلُه يورث الأَسى وخَلّة حرّ لا يقوم بها مالي

ومنه قول ابن شَرَف: [من البسيط]

سل عنه وانطق به وانظر إليه تَجِدْ مِلءَ المسَامع والأفواه والمُقَل

ومن أحسن ما في هذا الباب قول ابن الروميّ: [من الكامل]

آراؤكم ووجوهكم وسيوفكم في الحادثات إذا دَجَون نجوم
منها مَعالمُ للهدى ومصابح تجلو الدجى والأخرَياتُ رُجوم

وفسادُ ذلك أن يأتي بإزاء الشيء بما لا يكون مقابِلًا له، كقول الشاعر: [من الطويل]

فيا أيها الحيران في ظُلَم الدجى ومن خاف أن يلقاه بغيٌ من العدا
تعالَ إليه تلَق من نور وجهه ضياءً ومن كفّيْه بحرًا من الندى

فأتى بالندى بإزاء بَغي العدا، وكان يجب أن يأتيَ بإزائه بالنصر أو العصمة أو الوَزَرِ وما جانسه، أو يذكُرَ في موضع البغي الفقْرَ والعُدْمَ وما جانس ذلك.

وأما التعديد ـ ويسمّى سياقةَ الأعداد ـ فهو إيقاع أسماء مفردة على سياق واحد، فإن روعي في ذلك ازدواج أو جناس أو تطبيق أو نحو ذلك كان غايةً في الحسْن، كقولهم: وضع في يده زمام الحَلّ والعَقْد، والقبولِ والردّ، والأمرِ والنهي، والبَسْطِ والقبض، والإبرامِ والنقض، والإعطاءِ والمنع؛ ومن النظم قول المتنبيّ: [من البسيط]

الخيلُ والليلُ والبَيْداءُ تعرفني والضرب والطعن والقرطاس والقلم

(١) الوشيج: الرمح.

وأما تنسيق الصفات ـ فهو أن يذكر الشيء بصفات متوالية، كقوله عزّ وجلّ: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ [الحشر: الآية ٢٣] الآية، وقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب: الآية ٤٥]، وقولِ النبي ﷺ: «ألا أخبركم بأحبِّكم إليّ وأقربِكم منّي مَجالسَ يوم القيامة؟ أحاسنُكم أخلاقًا، الموطَّئون أكنافًا، الذين يألفون ويؤلفون».

ومن النظم قولُ أبي طالب(١) في النبي ﷺ: [من الطويل]

وأبيضَ يُستَسقَى الغمامُ بوجهه ثِمال اليتامى عِصمةٌ للأرامل(٢)

وقولُ المتنبيّ: [من البسيط]

دانٍ بعيدٌ محِبٌّ مبغضٌ بَهِجٌ أغرُّ حُلوٌ مُمِرٌّ لَيِّنٌ شرِس

وأما الإيهام ـ ويقال له التورية والتخييل ـ فهو أن يذكر ألفاظًا لها معانٍ قريبة وبعيدة، فإذا سمعها الإنسان سبق إلى فهمه القريبُ، ومرادُ المتكلّم البعيدُ مثاله قول عمرَ بنِ أبي ربيعةَ: [من الخفيف]

أيها المنكِح الثريّا سُهيلًا عَمرَكَ الله كيف يلتقيان
هي شاميّة إذا ما ٱستقَلّت وسُهَيْلٌ إذا استقَلّ يماني

فذكَر الثريا وسهيلًا ليوهم السامعَ أنه يريد النجمين، ويقول: كيف يجتمعان والثّريا من منازل القمر الشاميّة، وسهيل من النجوم اليمانيّة؟ ومرادُه الثريّا التي كان يَتغزَّل بها لمّا زُوّجت بسهيل؛ ومن ذلك قولُ المعرّي: [من الطويل]

إذا صدق الجَدّ ٱفترى العَمّ للفتى مَكارمَ لا تَخفى وإن كَذب الخال

فإنّ وهم السامع يذهب إلى الأقارب، ومراده بالجَدّ: الحظُّ، وبالعَمّ: الجماعةُ من الناس، وبالخال: المَخيلةُ، ومن ذلك قولُ الحريريّ في وصف الإبرة والمِيلِ في المقامة الثامنة.

(١) أبو طالب: هو عبد مناف بن عبد المطلب عم النبي ووالد علي تولى أمر النبي وكفله بعد وفاة أمه آمنة وجده عبد المطلب. قيل إنه ولد قبل النبي بخمس وثلاثين سنة وتوفي الثمانين من عمره. كان من سادات قومه. (المنجد).

(٢) ثِمَالُ اليتامى: غياثهم الذي يقوم بأمرهم، فيطعمهم ويسقيهم الخ...

وقولُه أيضًا: [من السريع]

يا قوم كم من عاتق عانسٍ ممدوحةِ الأوصاف في الأنديه
قتلتُها لا أتقي وارثًا يَطلب منّي قَوَدا أو ديه[١]

يريد بالعاتق العانس: الخمر، وبقتلها: مَزْجها، كما قال حسّان: [من الكامل]

إن التي عاطَيتَنِي فرددتُها قُتلتْ قُتلتَ فهاتها لم تُقتَلِ[٢]

وأمثالُ ذلك كثيرة.

وعند علماء البيان: التخييل تصوير حقيقة الشيء للتعظيم، كقوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزُّمَر: الآية ٦٧] والغرض منه تصوير عَظَمته والتوقيفُ على كُنه جلاله من غير ذهاب بالقبضة ولا باليمين إلى جهةِ حقيقةٍ أو مجاز[٣]، وكذلك قوله ﷺ: «إنما نحن حَفْنةٌ من حَفَنات ربّنا» قال الزمخشري[٤] ولا يُرَى باب في علم البيان أدقّ ولا ألطفَ من هذا الباب.

وأما حُسن الابتداءات ـ قال: هذه تسمية ٱبن المعتزّ، وأراد بها ٱبتداءاتِ القصائد، وفرّع المتأخرون من هذه التسمية براعةَ الاستهلال، وهو أن يأتيَ الناظم أو الناثر في ٱبتداء كلامه ببيت أو قرينة تدلّ على مراده في القصيدة أو الرسالة أو مُعظَم مراده؛ والكاتب أشدّ ضرورةً إلى ذلك من غيره ليَبْتَني كلامه على نَسَق واحد دَلّ عليه من أوّل عِلْم بها مقصده، إما في خُطبة تقليد، أو دعاء كتاب، كما قيل لكاتب: ٱكتب إلى الأمير بأن بقرة ولدت حيوانًا على شكل الإنسان، فكتب: أما بعد حمد الله خالق الإنسان في بطون الأنعام.

وكقول أبي الطيّب في الصلح الذي وقع بين كافور وبين ابن مولاه: [من الخفيف]

حَسَم الصلحُ ما ٱشتهته الأعادي وأذاعته ألسُنُ الحسّاد

وأمثال ذلك.

---

(١) القَوَد: الثأر.
(٢) يقصد بها الخمر، وهو يريدها غير ممزوجة بالماء.
(٣) بل إنه مجاز وليس حقيقة، إذ ليس لله قبضة هي الأرض.
(٤) مرت بنا ترجمة الزمخشري. وقد قلنا إنه بحث هذا الموضوع في الكشاف، وأسرار البلاغة الخ.

قال: وينبغي أن لا يَبتدئَ بشيء يُتطيَّر منه، كقول ذي الرّمّة: [من البسيط]

* ما بال عينِك منه الماءَ ينسكب *

وقولِ البحتريّ: [من الطويل]

* لكَ الويل من ليل تَقاصَر آخِرُه *

وكقول المتنبيّ: [من الطويل]

كفى بك داءً أن تَرى الموت شافيًا وحسبُ المنايا أن يكنّ أمانيا

وكقوله: [من الوافر]

مُلِثَّ القَطْر أَعطشْها رُبوعا وإلّا فاسقها السّمّ النقيعا

قال: وينبغي أن يراعَى في الابتداءات ما يقرُب من المعنى إذا لم تتأتّ له براعةُ الاستهلال وتسهيلَ اللفظ وعذوبتَه وسلاسةَ ألفاظِه، وقيل: إن أحسن ابتداء ابتدأت به العرب قولُ النابغة: [من الطويل]

كِليني لهمّ يا أُمَيمة ناصب وليلٍ أقاسيه بطيء الكواكب

ومن أحسن ما ٱبتدأ به مولَّدٌ قول إسحٰقَ بنِ إبراهيم المَوْصِليّ[1]: [من الخفيف]

هل إلى أن تنام عيني سبيل إنّ عهدي بالنوم عهد طويل

ويحسن أن يبتدىء في المديح بمثل قول أَبزُون العُمانيّ: [من الطويل]

على مِنبر العلياء جَدُّك يَخطب ولِلبَلدة العذراء سَيفُك يَخطب

وقولِ المتنبيّ: [من الطويل]

عدوّك مذموم بكلّ لسان وإن كان من أعدائك القمَرَان

(١) إسحٰق بن إبراهيم الموصلي: (١٥ ـ ٢٣٥ هـ). كان من ندماء الخلفاء، وكان عالمًا باللغة والأشعار وأخبار الشعراء، وأيام الناس، وكان له يد في الفقه وعلم الكلام ولكنه اشتهر بالغناء. وكان الخلفاء يكرمونه ويقربونه منهم الرشيد والمأمون والمعتصم. (ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ١، ص ١٨٥).

وقولِ التِّيفاشي[١]: [من البسيط]

ما هَزَّ عِطفيه بين البِيض والأَسَل   مِثل الخليفة عبدِ المؤمن بنِ علي

وفي التشبيب كقول أبي تمّام: [من الطويل]

على مِثلِها من أربُعٍ وملاعبٍ   أُذيلت مصُوناتُ الدموع السواكب

وفي النسيب كقول المتنبيّ: [من الخفيف]

أتراها لكثرة العشّاق   تَحسَب الدمعَ خِلْقةً في المآقي

وفي المَرَاثي كقول أبي تمّام: [من الطويل]

كذا فَلْيجِلَّ الخطب ولْيَفدَح الأمر   وليس لعين لم يَفِض ماؤها عذر

وأما براعة التخليص - فهو أن يكون التشبيب أو النسيب ممزوجًا بما بعده من مدح وغيرِه غيرَ منفصل عنه، كقول مسلم بن الوليد: [من الطويل]

أجِدَّكِ هل تَدرِين أن ربّ ليلةٍ   كأنّ دجاها من قرونكِ تُنشَر

نَصبتُ لها حتى تجلّت بغُرّة   كغرّة يحيىٰ حين يُذكَر جعفر

وكقول المتنبّي: [من الطويل]

نودّعهم والبين فينا كأنه   قَنا ابنِ أبي الهيْجاء في قلب فَيلَق

وأما براعة الطلب - قال: وهو أن تكون ألفاظ الطلب مقترنة بتعظيم الممدوح، كقول أميّةَ بنِ أبي الصَّلت[٢]: [من الوافر]

أأذكر حاجتي أم قد كفاني   حياؤك إنّ شميتَك الحياء

إذا أثنى عليك المرء يومًا   كفاه مِن تعرّضِه الثناء

---

(١) التيفاشي: (٥٨٠ - ٦٥١ هـ = ١١٨٤ - ١٢٥٣) نسبة إلى تيفاش من قرى قفصة في إفريقيا. تعلم في مصر وولي القضاء في مسقط رأسه تتفاشة ثم عاد إلى القاهرة وتوفي فيها. كان عالمًا بالحجارة الكريمة والعلم والأدب. له نزهة الألباب. (الأعلام).

(٢) أمية بن أبي الصلت: (٥ هـ = ٦٢٦ م) هو أمية بن عبد الله أبي الصلت بن أبي ربيعة الثقفي. شاعر جاهلي حكيم من أهل الطائف متعبد يلبس المسوح ويحرم على نفسه الخمر والأوثان. شهد للنبي ولم يسلم. (الأعلام، للزركلي).

وكقول المتنبيّ: [من الطويل]

وفي النفس حاجاتٌ وفيكَ فَطانةٌ سكوتي بيانٌ عندها وخطاب

وأما براعة المقطع ـ فهو أن يكون آخرُ الكلام الذي يقف عليه المترسِّل أو الخطيب أو الشاعر مستعذَبًا حَسَنًا، لتَبقَى لذّته في الأسماع، كقول أبي تمّام: [من البسيط]

أبقت بني الأصفر المصفَّر كأسهمِ صُفرَ الوجوه وجَلّت أوجهَ العرب

وكقول المتنبيّ: [من الوافر]

وأُعطيتَ الذي لم يُعطَ خَلقٌ عليك صلاة ربّك والسلام

وكقول الغَزّي[1]: [من الطويل]

بقِيتَ بقاءَ الدهر يا كهفَ أهله وهذا دعاء للبريّة شامل

وأما السؤال والجواب ـ فهو كقول أبي فِراس: [من مجزوء الخفيف]

لك جسمي تُعِلّه فدمي لِمْ تَطُلُّه؟

قال إن كنتُ مالكًا فلي الأمر كلُّه

وأمثالِ ذلك. وقد أوردنا منه في باب الغزل ما فيه كفاية.

وأما صحة الأقسام ـ فهو عبارة عن استيفاء أقسام المعنى الذي هو آخذ فيه بحيث لا يغادر منه شيئًا.

ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [الرُّوم: الآية ٢٤]، وليس في رؤية البرق إلا الخوفُ من الصواعق، والطمعُ في المطر.

وقولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٩١]، فلم يُبقِ قسمًا من أقسام الهيئات حتى أتى به.

وقولُه تعالى: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَـٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَـٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ﴾ [الشورى: الآيتان ٤٩، ٥٠]، ومن ذلك قولُه ﷺ: «ليس لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبلَيت، أو تصدّقت فأمضَيت» ولا رابع لهذه الأقسام.

---

(١) الغزي: (مرت ترجمته).

ووقف أعرابيّ على حَلْقة الحسن البَصريّ فقال: رحم الله من تصدّق من فَضل، أو واسى من كَفاف، أو آثر من قوت؛ فقال الحسن: ما ترك الأعرابيّ منكم أحدًا حتى عمّه بالمسألة.

ومن أمثلة هذا الباب في الشعر قولُ بشّار: [من الطويل]

فراح فريق في الإسار ومِثلُه   قتيل ومِثلٌ لاذ بالبحر هارِبه

وأصله قول عمرو بن الأهتم: [من الخفيف]

اشربا ما شربتما فهُذَيلٌ   من قتيل وهارب وأسير

ومن جيد صحة الأقسام قولُ الحماسيّ: [من الطويل]

وهبْها كشيء لم يكن أو كنازح   به الدار أو من غَيّبته المقابر

فاستوفى جميع أقسام المعدوم.

وقولُ أبي تمّام في الأَفْشِين[1] لمّا احترق بالنار: [من الكامل]

صلّى لها حيًّا وكان وَقودَها   ميتًا ويَدخلها مع الفجّار

ومن قديم ما في ذلك من الشعر قولُ زهير: [من الطويل]

وأعلم ما في اليوم والأمس قَبله   ولكنني عن علم ما في غدٍ عَمِي

ومن النادر في صحة الأقسام قولُ عمرَ بنِ أبي ربيعة: [من الطويل]

تهيم إلى نُعْم فلا الشَّمل جامعٌ   ولا الحبل موصول ولا أنت مُقصِر

ولا قُربُ نُعم إن دنت لك نافعٌ   ولا بُعدها يُسلِي ولا أنت تصبر

وأما التوشيح - فهو أن يكون معنى الكلام يَدُلّ على لفظِ آخرِه، فيَتنزل المعنى منزلة الوِشاح، ويَتنزّل أوّلُ الكلام وآخرُه منزلة العاتق والكشح اللذين يجول عليهما الوشاح.

(١) الأفشين: قائد جيوش المعتصم في حروبه ضد الروم، رمي بالكفر، ومات في السجن جوعًا سنة ٨٤١ م. (المنجد).

وقال قُدامةُ: هو أن يكون في أوّل البيت معنى إذا عُلم عُلمتْ منه قافية البيت بشرط أن يكون المعنى المقدَّمُ بلفظه من جنس معنى القافية بلفظه، كقول الراعي النُّمَيْرِيّ[1]: [من الوافر]

فإن وُزِن الحصى فوزنت قومي وجدت خصي ضريبتهم رزِينا[2]

فإن السامع إذا فهم أن الشاعر أراد المفاخرة برزانة الحصى، وعَرف القافية والرويّ، عَلم آخر البيت؛ ومن أمثلته ما حُكِيَ عن عمَر بنِ أبي ربيعة أنه أنشد عبد الله ابنَ عباس رضي الله عنهما: [من المتقارب]

* تَـشُـطّ غـدا دار أحـبـابـنـا *

فقال له عبد الله:

* ولَـلـدارُ بـعـد غـد أبـعَـدُ *

فقال له عمر: هكذا والله قلتُ، فقال له عبد الله: وهكذا يكون.

وأما الإيغال ـ فمعناه أن المتكلّم أو الشاعر إذا انتهى إلى آخر القرينة أو البيت ٱستخرج سجعةً أو قافيةً تفيد معنى زائدًا على معنى الكلام، وأصله من أوغل في السير إذا بلغ غاية قصده بسرعة.

وفسّره قُدامةُ بأن قال: هو أن يَستكمل الشاعر معنى بيته بتمامه قبل أن يأتيَ بقافيته، فإذا أراد الإتيان بها أفاد معنى زائدًا على معنى البيت، كقول ذي الرُّمَّة: [من الطويل]

قِف العِيسَ في آثار ميّةَ واسألِ رسومًا كأخلاق الرداء المسلسَل[3]

فتَمّم كلامه قبل القافية، فلما ٱحتاج إليها أفاد بها معنى زائدًا، وكذلك صَنع في البيت الثاني فقال: [من الطويل]

أظُنّ الذي يُجدِي عليك سؤالُها دموعًا كتبذير الجمان المفصَّل

---

(١) الراعي النميري: (٩٠ هـ = ٧٠٩ م)، هو عبيد بن حصين بن معاوية بن جندل النميري من فحول الشعراء. لقب بالراعي لكثرة وصفه الإبل. فصل الفرزدق على جرير فهجاه هجاءً مرًا. (الأعلام، للزركلي).

(٢) ضريبتهم: سجيتهم وطبيعتهم. يصفهم برجاحة الأحلام.

(٣) الرداء المسلسل: الثوب الرديء النسج.

فإنه تَمّم كلامه بقوله: كتبذير الجمان، وٱحتاج إلى القافية، فأتى بها تفيد معنى زائدًا لو لم يؤتَ بها لم يحصل.

وحكي عن الأصمعيّ أنه سئل عن أشعر الناس فقال: الذي يأتي إلى المعنى الخسيس فيجعله بلفظه كثيراً، وينقضي كلامه قَبل القافية، فإن ٱحتاج إليها أفاد بها معنى، فقيل له: نحوُ من؟ فقال: نحوُ الفاتِح لأبواب المعاني ٱمرىء القيس حيث قال: [من الطويل]

كأنّ عيونَ الوحش حول خبائنا وأرحُلنا الجَزْعُ الذي لم يثقَّبِ[1]

ونحوُ زُهير حيث يقول: [من الطويل]

كأنّ فُتاتَ العِهن في كلّ منزل نزلن به حَبُّ الفَنا لم يحطَّمِ[2]

ومن أبلغ ما وقع في هذا الباب قولُ الخنساء: [من البسيط]

وإنّ صخرًا لتأتم العُفاة به كأنه عَلَمٌ في رأسه نار[3]

ومنه قول ٱبن المعتزّ لابن طَباطَبا العَلَوي: [من المتقارب]

فأنتم بنو بنته دوننا ونحن بنو عمّه المسلم

ومن أمثلة ذلك من شعر المتأخرين قولُ الباخَرْزي[4]: [من الكامل]

أنا في فؤادكَ فارم طرْفكَ نحوَه ترني فقلت لها وأين فؤادي

وقولُ آخَر: [من البسيط]

تعجّبتْ من ضنى جسمي فقلت لها على هواكِ فقالت عنديَ الخَبَر

وأما الإشارة ـ فهي أن يشتمل اللفظ القليل على معان كثيرة بإيماء إليها، وذكرِ لَمحة تدلّ عليها، كقوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠﴾ [النجم: الآية ١٠]، ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ [طه: الآية ٧٨].

---

(١) الجَزْعُ: الخرز اليماني. (٢) حب الفنا: حب العنب.

(٣) العُفاة: ج عاف، السائل، طالب الفضل أو الرزق.

(٤) الباخرزي: (٤٣٥ هـ ـ ١٠٤٤ م) أحمد بن الحسين، أديب وجيه، وهو من مفاخر باخرز. له شعر رقيق. (الأعلام، للزركلي).

وكقول امرىء القيس: [من الوافر]

فإن تَهلِك شَنُوءة أو تُبَدَّلْ فسِيري إنّ في غَسّان خالا[١]
بعزّهمو عَزَزتِ وإن يَذِلّوا فذلّهمو أنالك ما أنالا

وكقوله أيضًا: [من الطويل]

فظلّ لنا يوم لذيذ بنَعْمة فقل في نعيم نحسه متغيّب

وأما التذييل ـ وهو ضدّ الإشارة ـ فهو إعادة الألفاظ المترادفة على المعنى الواحد حتى يظهر لمن لم يفهمه، ويتوكّد عند مَن فهِمه، كقوله: [من المتقارب]

إذا ما عقدنا له ذمّةً شددنا العِناج وعقد الكَرَب[٢]

وقول آخرَ: [من الكامل]

ودَعَوا نَزالِ فكنتُ أوّل نازل وعلام أركبه إذا لم أنزِلِ

ويقرب منه التكرار، كقول عَبيد: [من مجزوء الكامل]

* هلاّ سألت جمع كِندةَ يوم ولّوا أين أينا؟ *

وكقول آخر: [من المتقارب]

وكانت فزارةُ تَصلى بنا فأَولى فَزَارةُ أولى فزارا

وأما الترديد ـ فهو أن تعلّق لفظة في البيت بمعنى، ثم تردّها فيه بعينها وتعلّقَها بمعنى آخر، كما قال زهير: [من البسيط]

من يَلقَ يومًا على عِلّاته هَرِما يلقى السماحة منه والندى خُلُقا[٣]

وكقول آخر: [من الطويل]

وأحفظ ما لي في الحقوق وإنه لَجَمٌّ وإنّ الدهر جَمٌّ عجائبه

---

(١) شَنُوءة: يريد أزد شنوءة. وشنوءة. كما يقول ياقوت في معجم البلدان مخلاف باليمن بينها وبين صنعاء اثنان وأربعون فرسخًا، تنسب إليها قبائل في الأزد يقال لهم أزد شنوءة. والنسبة إليهم شنائي وشنوي.
(٢) العِنَاج: حبل يشد في أسفل الدلو ثم يشد في العراقي.
(٣) هو هرم بن سنان، مدحه زهير لأنه سعى في الصلح بين قبيلتي عبس وذبيان.

وكقول أبي نواس: [من البسيط]

صفراء لا تَنزل الأحزان ساحتَها   لـو مسّـهـا حَـجَـر مـسّـتـه سـرّاء

وأما التفويف ـ فهو مشتقّ من الثوب المفوَّف، وهو الذي فيه خطوط بيض، وهو في الصناعة عبارة عن إتيان المتكلم بمعانٍ شتّى من المدح أو الغزل أو غير ذلك من الأغراض، كلُّ فنّ في سجعة منفصلة عن أختها مع تساوي الجمل في الوزنيّة، وتكون في الجمل الطويلة والمتوسّطة والقصيرة.

فمثال ما جاء منه في الجمل الطويلة قولُ النابغة الذُّبيانيّ: [من الطويل]

فـللّه عـيـنَـا مـن رأى أهـلَ قُـبّـةٍ   أضـرَّ لـمـن عـادى وأكـثـرَ نـافـعـا
وأعـظَـم أحـلامًـا وأكـبـرَ سـيّـدا   وأفـضَـلَ مشـفـوعًـا إليـه وشـافـعـا

ومثال ما جاء منه بالجمل المتوسطة قولُ أبي الوليد بن زيدون[1]: [من البسيط]

تِـهْ أَحـتـمـلْ، واْسـتـطـلْ أصـبِـرْ. وعِـزَّ أَهُـنْ
ووِلّ أُقـبِـلْ، وقُـلْ اْسـمَـعْ، ومُـرْ أُطِـعِ

ومثال ما جاء منه بالجمل القصيرة قولُ المتنبيّ: [من البسيط]

أَقِـلْ أَنِـلْ أَقْـطِـع أَحْـمِـلْ عَـلِّ سَـلِّ أَعِـدْ
زِدْ هَـشَّ بَـشَّ تَـفَـضَّـلْ أَدنِ سُـرّ صِـلِ

وأما التسهيم ـ فهو مأخوذ من البُرد المسهَّم، وهو المخطَّط الذي لا يتفاوت ولا يختلف، ومنهم من يجعل التسهيم والتوشيح شيئًا واحدًا، ويُشرك بينهما بالتسوية، والفرق بينهما أنّ التوشيح لا يدلّك أوّله إلا على القافية فحَسْب، والتسهيم تارة يدلّ على عَجز البيت، وتارة على ما دون العجز.

وتعريفه أن يتقدّم من الكلام ما يدلّ على ما يتأخر، تارة بالمعنى، وتارة باللفظ، كأبيات جَنوب أختِ عمرو ذي الكلْب[2]، فإن الحذّاق بمعنى الشعر وتأليفه يعلمون

(١) ابن زيدون: (٣٩٤ ـ ٤٦٣ هـ = ١٠٠٤ ـ ١٠٧١ م)، هو أحمد بن عبد الله بن أحمد بن غالب بن زيدون المخزومي الأندلسي وزير وكاتب وشاعر من أهل قرطبة. اتصل بالمعتضد صاحب اشبيلية ووزر له وتغزل بولادة بنت المستكفي. (الأعلام، للزركلي).
(٢) جنوب أخت عمرو ذي الكَلْب.

أن معنى قولها: [من المتقارب]

* فـأقـسـم يـا عـمـرو لـو نـبّـهـاك *

يقتضي أن يكون تمامه:

* إذن نَـبّـهـا مـنـكَ داءً عُـضـالا *

دون غيره من القوافي، كما لو قالت مكانَ «داء عضالا»: ليثا غَضوبا، أو أفعَى قَتولا، أو سمّا وَحِيّا، أو ما يناسب ذلك، لأن الداء العضال أبلغُ من جميع هذه الأشياء وأشد، إذ كلٌّ منها يمكن مغالبته أو التوقّي منه، والداء العُضال لا دواء له، فهذا مما يُعرَف بالمعنى.

وأما ما يدلّ فيه الأوّل على الثاني دِلالة لفظيّة فهو قولها بعد: [من المتقارب]

إذن نَـبّـهـا لـيـثَ عِـرّيـسـة مُـفِـيـتـا مُـفـيـدًا نـفـوسًـا ومـالا[1]

فإن الحاذق بصناعة الكلام إذا سمع قولها: «مفيتًا مفيدًا» تَحقّق أن هذا اللفظ يقتضي أن يكون تمامه: «نفوسًا ومالًا»؛ وكذلك قولها: [من المتقارب]

* فـكـنـتَ الـنـهـار بـه شـمـسـه *

يقتضي أن يكون بعده:

* وكـنـتَ دجى اللّيـل فيه الـهلالا *

ومن ذلك قولُ البحتريّ: [من الوافر]

* وإذا حـاربـوا أذلّـوا عـزيـزا *

يحكُم السامع بأن تمامه:

* وإذا سـالـمـوا أعـزّوا ذلـيـلا *

وكذلك قوله: [من الطويل]

أَحلّت دمي من غير جرم وحَرّمت بـلا سـبـب يـوم الـلقـاء كـلامـي

* فـلـيـس الـذي حـلّـلـتِه بـمـحـلَّـل *

---

(١) يعني مفيتًا نفوسًا ومفيدًا مالًا.

يعرف السامع أن تمامه:

* وليس الذي حَرّمتِه بحرام *

وأما الاستخدام - فهو أن يأتيَ المتكلّم بلفظة لها معنيان، ثم يأتي بلفظتين يستخدم كلّ لفظة منهما في معنى من معنيي تلك اللفظة المتقدّمة، وربما ٱلتبس الاستخدام بالتورية من كون كل واحد من البابين مفتقرًا إلى لفظة لها معنيان، والفرق بينهما أن التورية ٱستعمالُ أحد المعنَيين من اللفظة، وإهمالُ الآخَر، والاستخدام ٱستعمالهما معًا، ومن أمثلته قولُ البحتريّ: [من الكامل]

فَسقَى الغَضى والسَّاكنِيه وإن همو شَبّوه بين جوانح وقلوب

فإن لفظة الغضى محتملةٌ للموضع والشجر، والسُّقيا صالحة لهما، فلمّا قال: «والساكنيه» ٱستعمل أحد معنيي اللفظ، وهو دلالته بالقرينة على الموضع، ولمّا قال: «شَبُّوه» ٱستَعمل المعنى الآخَر، وهو دلالته بالقرينة على الشجر؛ ومن ذلك قولُ الشاعر[1]: [من الوافر]

إذا نزل السماء بأرض قوم رَعَيناه وإن كانوا غِضابا

أراد بالسماء الغَيثَ، وبضميره النَّبتَ.

وأما العكس والتبديل - فهو أن يقدِّم في الكلام أحدُ جزئيه ثم يؤخَّر؛ ويَقعُ على وجوه:

منها أن يقع بين طرَفَي الجملة، كقول بعضهم: عادات السادات، ساداتُ العادات.

ومنها أن يَقع بين متعلَّقي فعلين في جملتين، كقوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ [الرُّوم: الآية ١٩] ومنه بيت الحماسة: [من الوافر]

فرَدّ شعورَهن السود بِيضا وردّ وجوهَهن البِيض سُودا

ومنها أن يَقع بين كلمتين في طرَفَي جملتين، كقوله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٨٧]، وقوله تعالى: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ [الممتحنة: الآية ١٠].

(١) الشاعر هو جرير بن عطية الخطفي. أحد أركان المثلث الأموي أي الأخطل والفرزدق وجرير.

وقولِ أبي الطيّب: [من الطويل]

ولا مجدَ في الدنيا لمن قَلّ ماله ولا مالَ في الدنيا لمن قَلّ مجده

وأما الرجوع - فهو أن يعود المتكلّم على كلامه السابق بالنقض لنكتة كقول زهير: [من البسيط]

قف بالديار التي لم يَعفُها القِدَم بَلى وغيّرها الأرواحُ والدِّيَم(١)

كأنه لمّا وقف على الديار عَرته رَوعة ذَهَل بها عن رؤية ما حصل لها من التغيّر فقال: «لم يَعفُها القِدم» ثم ثاب إليه عقله وتحقّق ما هي عليه من الدروس، فقال: بل عَفَتْ وغيّرها الأرواح والدِّيَمُ.

ومنه بيت الحماسة: [من الطويل]

أليس قليلاً نظرةٌ إن نظرتُها إليكِ وكَلّا ليس منكِ قليل(٢)

وأما التغاير - فهو أن يغاير المتكلّم الناسَ فيما عادتهم أن يمدحوه فيذمَّه أو يذمّوه فيمدحَه.

فمن ذلك قولُ أبي تمّام يغاير جميع الناس في تفضيل التكرّم على الكرم: [من الخفيف]

قد بلَونا أبا سَعيدٍ حديثا وبلَونا أبا سَعيدٍ قديما

فوردناه سائحًا وقَليبًا ورَعيناه بارِضًا وجَميما(٣)

فعلمنا أن ليس إلا بشِقّ النـ ـفس صار الكريم يدعى كريما

وهو مغاير لقوله على العادة المألوفة: [من البسيط]

لا يُتعِب النائل المبذول هِمّتَه وكيف يُتعِب عينَ الناظر النظر

---

(١) الأرواح: مفرده ريح؛ الديم: مفردة ديمة، أي الغيمة الممطرة. عفت الديار: درست وامّحت معالمها.

(٢) هذا البيت ليزيد بن الطثرية (١٢٦ هـ - ٧٤٤ م) وهو يزيد بن سلمة بن سمرة. شاعر مطبوع من شعراء بني أمية مقدم عندهم نسب إلى أمه من بني طثر. صاحب غزل وظرف وشجاعة. (الأعلام).

(٣) البارض: أول ما يظهر في النبات؛ والجميم: النبات الكثير، أو النبات المنتشر والناهض منه.

ومنه قول ابن الروميّ في تفضيل القلم على السيف: [من البسيط]

إن يخدُم القلَم السيفُ الذي خَضَعت ... له الرقابُ ودانت خوفَه الأمم
فالموتُ والموتُ لا شيءٌ يعادِله ... ما زال يَتبَع ما يَجري به القلم
كذا قضى الله للأقلام مذ بُرِيَت ... أنّ السيوف لها مذ أُرهِفت خَدَم

وغايره المتنبيّ على الطريق المألوف فقال: [من البسيط]

حتى رجعتُ وأقلامي قوائلُ لي ... المجد للسيف ليس المجد للقلم
اكتب بها أبدا قبل الكِتاب بنا ... فإنما نحن للأسياف كالخَدَم

وأما الطاعة والعصيان ـ فإنه قال: هذا النوع أستنبطه أبو العلاء المَعرّي عند نظره في شعر أبي الطيّب، وسمّاه بهذه التسمية، وقال: هو أن يريد المتكلّم معنى من المعاني التي للبديع فيَستعصِي عليه لتعذّر دخوله في الوزن الذي هو آخذ فيه فيأتي موضعَه بكلامِ غيرِه يتضمّن معنى كلامه، ويقوم به وزنُه، ويحصل به معنى من البديع غير الذي قصَده، كقول المتنبيّ: [من الطويل]

يرُدّ يدًا عن ثوبها وهو قادر ... ويَعصِي الهوى في طَيفها وهو راقد

فإنه أراد أن يقول: يردّ يدًا عن ثوبها وهو مستيقظ، حتى إذا قال: [من الطويل]

* ويَعصِي الهوى في طَيفها وهو راقد *

يكون في البيت مطابقة، فلم يطعه الوزن، فأَتى بقادر في مَوضع مستيقظ لتضمّنه معناه، فإن القادر لا يكون إلا مستيقظًا وزيادة، فقد عصاه في البيت الطباق وأطاعه الجناس بين قادر وراقد، وهو جناس العكس.

وأنكر أبن الإصبع أن يكون هذا الشاهد من باب الطاعة والعصيان، لأنه كان يمكنه أن يقول عوض قادر: ساهر، وإنما المتنبّي قصد أن يكون في بيته طباقٌ معنويّ، لأن القادر ساهر وزيادة، إذ ليس كلّ ساهر قادرًا، وأن يكون فيه جناس العكس.

وقال: إن شاهد الطاعة والعصيان عنده أن تعصيَه إقامةُ الوزن مع إظهار مراده، فتطيعه لفظة من البديع يتمّم بها المعنى وتزيده حسنًا، كقول عوف بن مُحلِّم[1]:

---

(١) عوف بن محلم: (٤٥ هـ = ٥٨٠ م)، هو عوف بن محلم بن ذهل بن شيبان. كان مطاعًا في قومه قويًا في عصبته. أجار رجلًا يطلبه عمرو بن هند، وضربت له قبة في عكاظ. =

[من السّريع]

إن الـثـمـانـيـن وبُـلِّـغـتَـهـا قد أَحوجَت سمعي إلى تَرجُمان

فإنه أراد أن يقول: إن الثمانين قد أحوجت سمعي إلى تَرجمان، فعصاه الوزن وأطاعه لفظة من البديع وهي التتميم، فزادته حُسنًا وكَمَّلَتْ مرادَه، وكلّ التتميم من هذا النوع.

وأما التسميط ـ فهو أن يجعل المتكلّم مقاطيعَ أجزاء البيت أو القرينة على سجع يخالِفُ قافيةَ البيت أو آخِرَ القرينة، كقول مروانَ بنِ أبي حفصة: [من الطويل]

هم القوم إن قالوا أصابوا وإن دُعوا أجابوا وإن أَعطَوا أطابوا وأَجزلوا

فإن أجزاء البيت مسجَّعة على خلاف قافيته فتكون القافية بمنزلة السمط، والأجزاء المسجَّعة بمنزلة حبّ العقد.

وأما التشطير ـ فهو أن يَقسِم الشاعر بيته شَطرين، ثم يُصرِّع كلّ شَطر من الشطرين، ولكنه يأتي بكلّ شَطر من بيته مخالفًا لقافية الآخر، كقول مسلم بن الوَليد: [من البسيط]

مُوفٍ على مُهَجٍ في يومِ ذي رَهَجٍ كـأنّـه أَجَـلٌ يَـسـعـى إلـى أمـل

وكقول أبي تمّام: [من البسيط]

تـدبـيـرُ مـعـتـصِـمٍ بـالله مـنـتـقِـمٍ لله مـرتـقِـبٍ فـي الله مـرتـغِـب

وأما التطريز ـ فهو أن يبتدىء الشاعر بذكر جُمَل من الذوات غيرِ مفصَّلة ثم يُخبِر عنها بصفة واحدة من الصفات مكررةٍ بحسب تَعدادِ جُمَل تلك الذوات تَعدادَ تَكرار واتحاد، لا تَعدادَ تغاير، كقول ابن الروميّ: [من الوافر]

أمـوركـمـو بـنـي خـاقـانَ عـنـدي عُـجابٌ في عُـجابٍ في عُـجابِ
قُـرونٌ فـي رؤوس فـي وجـوه صِـلابٌ في صِـلابٍ في صِـلابِ

وكقوله: [من الوافر]

وتَـسـقـيـنـي وتـشـرب مـن رَحـيـقٍ خَـلـيـقٍ أن يُـشـبَّـهَ بـالـخَـلُوق
كـأنّ الـكـأسَ فـي يـدهـا وفـيـهـا عَـقِـيـقٌ فـي عـقِـيـقٍ فـي عـقـيـق

= (الأعلام، للزركلي).

وأما التوشيع ـ فهو مشتقّ من الوَشِيعة، وهي الطريقة في البُرْد، وكأنّ الشاعر أَهمل البيت كلّه إلا آخره، فأتَى فيه بطريقة تُعدُّ من المحاسن؛ وهو عند أهل هذه الصناعة أن يأتي المتكلّم أو الشاعر بآسم مثنًى في حَشو العَجُز، ثم يَأتي بعده باسمين مفردين هما عينُ ذلك المثنى، يكون الآخِرُ منهما قافيةَ بيته، أو سجعَة كلامه كأنهما تفسيرٌ لما ثنّاه، كقول النبي ﷺ: «يَشيب ابن آدم وتشِبّ فيه خَصلتان: الحرصُ وطُولُ الأمل».

ومن أمثلة ذلك في النظم قولُ الشاعر: [من البسيط]

أُمسِي وأُصبح من تَذكاركم وصِبًا ... يَرثِي ليَ المُشفِقان الأهلُ والولد
قد خَدّد الدمعُ خدّي مِن تذكُّركم ... واعتادني المُضنِيان الوجدُ والكَمَد
وغاب عن مقلتِي نومِي لغَيبتكم ... وخانني المُسعِدان الصبرُ والجَلَد
لم يَبقَ غيرُ خفيِّ الرُّوح في جسدي ... فِدًى لك الباقيان الرُّوحُ والجَسَد

قال آبن أبي الإصبع: وما بما قلتُه في هذا الباب من بأس، وهو: [من البسيط]

بي مِحنتان مُلامٌ في هَوًى بهما ... رَثى ليَ القاسيان الحُبُّ والحَجَر
لولا الشفيقان من أمنيّة وأُسًا ... أَودَى بيَ المُردِيان الشوقُ والفِكَر(١)

قال: ويحسن أن يسمّيَ ما في بيتيه مطرَّفَ التوشيع، إذ وقع المثنّى في أوّل كلّ بيت وآخرِه.

وأما الإغراق ـ وهو فوق المبالَغة ودون الغُلوّ، ومن أمثلته قولُ آبن المعتزّ: [من الطويل]

صَبَبنا عليها ظالمين سِياطَنا ... فطارت بها أيدٍ سِراعٌ وأرجُل

فموضع الإغراق من البيت قولُه: ظالمين، يعني أنها آستَفرَغتْ جُهدَها في العَدْو فما ضربناها إلا ظلمًا، فمن أجل ذلك خرجت من الوَحشيّة إلى الطَّيريّة؛ ولو لم يقل: «ظالمين» لما حسُن قوله: «فطارت» ولكنه بذكر الظلم صارت الاستعارة كأنها حقيقةٌ، وقد عُدّ من الإغراق لَا المبالَغة قولُ آمرىء القيس: [من الطويل]

تنوّرتُها من أذرِعاتٍ وأهلُها ... بيثربَ أدنى دارِها نظرٌ عالي(٢)

---

(١) الأس: جمع أسوة، أي القدوة.
(٢) أذرعات: بلد بأرض الشام يجاور البلقاء وعمان في شرقي الأردن، ينسب إليه الخمر.

وأما الغُلوّ ـ فمنهم من يجعلُه هو والإغراقَ شيئًا واحدًا، ومن شواهده قولُ مُهلهِل: [من الوافر]

فلولا الريحُ أسمَعَ من بَحَجْر صَليلُ البَيض تُقرَع بالذُّكور[(١)]

ومِثلُه قولُ المتنبّي في وصف الأَسَد: [من الكامل]

وَرْدٌ إذا وَرَد البُحَيرة شاربا بَلغ الفراتَ زئيرهُ والنِّيلا[(٢)]

قالوا: ومن أمثلة الغُلوّ قولُ النَّمِر بن تَولَب[(٣)] في صفة السيف: [من البسيط]

تَظَلّ تَحفِر عنه إن ضَربتَ به بُعدَ الذِّراعَيْن والساقَيْن والهادي

وأما القسَم ـ فهو أن يريد الشاعر الحِلف على شيء فيأتي في الحلِف بما يكون مدحًا له وما يُكسِبه فخرًا، أو يكون هجاءً لغيره، أو وعيدًا، أو جاريًا مَجرى التغزلّ والترقّق: [من الكامل]

فمثال الأوّل قولُ مالك بن الأَشتر النَّخعيّ

بقَّيتُ وَفْرِي وانحرفتُ عن العُلا

وقد تَقدّم الاستشهاد بهما في النظْم، فإنها تَضمّنت فخرًا له، ووعيدًا لغيره؛ وكقول أبي عليّ البصير يعرّض بعليّ بن الجَهْم[(٤)]: [من الكامل]

أَكذبتُ أَحسنَ ما يَظنّ مؤمّلي وعَدمتُ ما شادته لي أسلافي
وعَدمتُ عاداتي التي عَوّدتُها قِدْمًا من الإخلاف والإتلاف
وغَضضتُ من ناري ليَخفَى ضوءها وقَرَيتُ عذرًا كاذبًا أضيافي
إن لم أَشُنّ على عليٍّ غارةً تُضحِي قذًى في أعين الأشراف

---

(١) حَجْر: مدينة اليمامة. (ياقوت، معجم البلدان). البيض: الخوذ. سميت بذلك لأنها تشبه بيض النعامة. الذكور: السيوف. والذكر من الحديد أشده وأقساه.

(٢) الورد: الأسد الذي يشبه لونه لون الورد.

(٣) النمر بن تولب: (١٤ هـ = ٦٣٥ م)، هو النمر بن تولب بن زهير بن أقيش العكلي. شاعر مخضرم معمرًا. لم يمدح ولم يهج أحدًا. قابل النبي وحمل كتابًا منه لقومه. له ديوان مطبوع. (الأعلام، للزركلي).

(٤) علي بن الجهم (٢٤٩ هـ = ٨٦٣ م). أبو الحسن علي بن الجهم بن بدر، شاعر رقيق الشعر أديب من أهل بغداد عاصر أبا تمام وخص بالمتوكل العباسي ثم نفاه إلى خراسان، ثم انتقل إلى حلب، وغزا فجرح ومات. له ديوان مطبوع (الزركلي، الأعلام).

وقد يُقسم الشاعر بما يزيد الممدوح مدحًا، كقول القائل: [من الكامل]

إن كـان لـي أمـلٌ سـواك أَعُـدّه فكفرتُ نعمتك التي لا تُكفَر

ومما جاء من القسَم في النسيب قولُ الشاعر: [من الطويل]

فإن لم تكن عندي كعيني ومسمَعي فلا نَظرَتْ عيني ولا سَمِعتْ أُذْني

ومما جاء في الغزل قولُ الآخَر: [من البسيط]

لا والذي سَلّ من جفنيه سيفَ ردًى قُـدّت لـه مـن عـذارَيـه حـمـائـلُه
ما صارمَت مقلتي دمعًا ولا وَصلَت غَـمـضًـا ولا سـالَمـتْ قـلـبـي بـلابـلُه

وأما الاستدراك ـ فهو على قسمين: قِسم يتقدّم الاستدراكَ فيه تقريرٌ لما أَخبر به المتكلّمُ وتوكيدٌ، وقِسمٌ لا يتقدّمه ذلك؛ فمن أمثلة الأوّل قولُ القائل: [من الوافر]

وإخـوانٍ تـخَـذتُـهـمـو دروعـا فـكـانـوهـا ولـكـن لـلأعـادي
وخِـلتـهـمـو سـهـامًـا صـائـبـاتٍ فـكـانـوهـا ولـكـن فـي فـؤادي
وقـالـوا قـد صـفـت مـنّـا قـلـوبٌ لـقـد صـدقـوا ولـكـن مـن ودادي

وقولُ الأَرَّجانيّ: [من الرّمل]

غالطتني إذ كست جسمِي ضَنًى كُسوةً أعرت من الجلد العظاما
ثم قالت أنت عندي في الهوى مِثلَ عيني صدقتْ لكن سَقاما

وأما القسم الثاني الذي لا يتقدّم الاستدراكَ فيه تقرير ولا توكيد فكقول زهير: [من الطويل]

أخو ثِقة لا يُهلِكُ الخمرُ مالَه ولـكـنه قـد يُـهـلك الـمـالَ نـائـلُه

وأما المؤتلِفة والمختلفة ـ فهو أن يريد الشاهر التسويةَ بين ممدوحَين فيأتي بمعان مؤتلِفة في مدحهما، ويروم بعد ذلك ترجيحَ أحدهما على الآخر بزيادة لا يَنقُص بها الآخر، فيأتي لأجل الترجيح بمعان تخالف التسوية، كقول الخنساء في أخيها وأبيها ـ وراعت حقّ الوالد بما لم ينقص الولدَ: [من الكامل]

جـارَى أبـاه فـأقـبَـلا وهـمـا يـتـعـاقـبـان مُـلاءةَ الـحَـضْـرِ[1]

---

(١) الحضر: العدو.

وهُما وقد بَرزا كأنهما صَقران قد حَطّا إلى وَكر
حتى إذا نَزت القلوب وقد لُزّت هناك العُذرُ بالعذر(١)
وعَلا هتافُ الناس: أيُّهما قال المجيب هناك: لا أدري
بَرَقت صحيفة وجهِ والده ومضى على غُلَوائه يجري
أَولى فأَولى أن يساويَه لولا جلالُ السنّ والكبر

وأوّل من سبق إلى هذا المعنى زهير حيث قال: [من البسيط]

هو الجواد فإن يَلحَق بشأوهما على تكاليفه فمِثلُه لَحِقا
أو يسبِقاه على ما كان من مَهَل فمِثلُ ما قَدّما من صالح سَبقا

وتداوله الناس، فقال أبو نواس: [من المنسرح]

ثم جرى الفضلُ فانثنَى قَدَمًا دون مَداه بغير ترهيق
فقيل راشًا سهما تُراد به الـ غايةُ والنَّصْلُ سابقُ الفُوق(٢)

وأما التفريق المفرد ـ فهو كقول الشاعر: [من الخفيف]

ما نَوال الغمام يوم ربيع كنوال الأمير يوم سخاء
فَنوال الأمير بَدرةُ عَين ونَوالُ الغمام قَطرةُ ماء

وأما الجمع مع التفريق ـ فهو أن يشبِّه شيئين بشيء ثم يفرِّق بين وجهَيْ الاشتباه، كقول الشاعر: [من المتقارب]

فوجهُك كالنار في ضوئها وقلبيَ كالنار في حرّها

وأما التقسيم المفرد ـ فهو أن يَذكُرَ قسمة ذات جزأين أو أكثر، ثم يَضمّ إلى كّل واحد من الأقسام ما يليق به، كقول رَبيعة الرَّقيّ(٣): [من الطويل]

يَزيدُ سُلَيم سالمُ المال والفتى فتى الأَزْد للأموال غيرُ مسالِم

---

(١) العذر: جمع عذار، وهو المفرق أو الشعر الذي يحاذي الأذن، ما سال من اللجام على خد الفرس.
(٢) الفُوق: جمعه أفواق، موضع الوتر من السهم.
(٣) ربيعة الرقي: (١٩٨ هـ = ٨١٣ م)، هو ربيعة بن ثابت الأسدي. شاعر غزل مقدم، رغم أنه كان ضريرًا مدح خلفاء بني العباس المهدي والرشيد. ولد ونشأ في الرقة على الفرات وإليها انتسب. (الزركلي، الأعلام).

لَشتّان ما بين اليزيدَين في الندى يَـزيـد سُلَيـم والأغَـرّ بـنِ حـاتـم
فـهـمُّ الـفتـى الأزديّ إتـلافُ مـالـه وهمُّ الفتى القيسيّ جمعُ الدراهـم
فلا يَحسَب التمتام أنّي هجوته ولـكـنـني فَـضَّـلت أهـل الـمـكـارم

وكقول ابن حَيُّوس: [من الطويل]

ثـمـانـيـة لـم تـفـتـرق إذ جـمـعـتَـهـا فلا اُفترقَت ما ذَبّ عن ناظر شَفْر
يقينُك والتقوى، وَجُودك والغنى ولفظك والمعنى، وسيفك والنصر

وقولِ آخَر: [من الطويل]

لـمـلـتـمِسـي الـحـاجـات جـمـعٌ ببـابـه فــهــذا لــه فــنٌّ وهــذا لــه فــنّ
فللخامل العَليا، ولـلمعدِمِ الغنـى ولِلمذنب الرُّحمى، ولِلخائف الأمن

ويجوز أن يُعَدَّ هذا من الجمع مع التقسيم.

وأما الجمع مع التقسيم ـ فهو أن يَجمع أمورًا كثيرة تحت حُكم، ثم يقسِّم بعد ذلك، أو يقسِّمَ ثم يَجمع، مثال الأوّل قولُ المتنبيّ: [من البسيط]

حتـى أَقـام عـلـى أَربـاض خَـرْشَـنـة تَشقَى به الروم والصُّلبانُ والبِيَعُ
لِلسَّبْيِ ما نَكحوا، والقتلِ ما وَلَدوا والنهبِ ما جمعوا، والنارِ ما زَرعوا

فجمَع في البيت الأوّل أرض العدوّ وما فيها من معنى الشقاوة، وذكر التقسيم في البيت الثاني.

ومثال الثاني قولُ حسّان: [من البسيط]

قـوم إذا حـاربـوا ضَـرّوا عـدوّهـمـو أو حاولوا النفْعَ في أشياعهم نَفَعوا
سجيّةٌ تـلك مـنـهـم غـيـرُ مُـحـدَثـة إنّ الـحـوادث فـاعـلـم شرُّها الـبِدَع

وأما التزاوج ـ فهو أن يزاوِج بين معنيَيْن في الشرط والجزاء، كقول البُحتُريّ: [من الطويل]

إذا ما نَهَى الناهي ولَجَّ بيَ الهوى أصاخت إلى الواشي فلَجّ بها الهجر

وأما السلب والإيجاب ـ فهو أن يُوقِع الكلام على نفي شيء وإثباته في بيت واحد، كقوله: [من الطويل]

ونُنكِر إن شئنا على الناس قولَهم ولا يُـنكِـرون الـقـولَ حـيـن نـقـول

وكقول الشّمّاخ[١]: [من الطويل]

هَضيم الحشى لا يَملأ الكفَّ خَصرُها ويُمْلأ منها كلُّ حِجْلٍ ودُمْلُج[٢]

وأما الاطّراد ـ فهو أن يَطرُد الشاعر أسماءَ متتالية يَزيد الممدوحَ بها تعريفًا، لأنها لا تكون إلا أسماءَ آبائه تأتي منسُوقةً غيرَ منقطعة من غير ظهور كُلْفة على النَّظْم كاطّراد الماء وانسجامه، وذلك كقول الأعشى: [من الطويل]

أقيسُ بنَ مسعودِ بنِ قيس بنِ خالدٍ وأنت الذي ترجو حِباءَك وائلُ

وكقول دُرَيد[٣]: [من الطويل]

قَتلنا بعبد الله خيرَ لِداتِه ذؤابَ بنَ أسماءِ بنِ زيدِ بنِ قارِب

وهذا أحسنُ من الأوّل، لاطّراد الأسماء في عَجُز البيت.

وقال ابن أبي الإصبع: وقد أربَى على هؤلاء بعض القائلين حيث قال: [من الخفيف]

من يكن رام حاجة بعُدت عنـ ـه وأعيتْ عليه كلَّ العياء

فلها أحمدُ المُرجّى ابنُ يحيىٰ بـ ـنِ مُعاذِ بنِ مُسلِم بنِ رَجاء

لو لم يقعْ فيه الفصلُ بين الأسماء بلفظة المرجَّى.

ومنه ما كتب الشيخ مجدُ الدين بنُ الظَّهِير الحنفيّ على إجازة: [من مجزوء الرّجز]

أجاز ما قد سألوا بشرط أهل السَّنَد

محمد بن أحمدَ بـ ـنِ عمرَ بنِ أحمد

فلم يفصل بين الأسماء في البيت بلفظة أجنبيّة.

وأما التجريد ـ فهو أن يَنتزع الشاعر أو المتكلّم من أمر ذي صفة أمرًا آخَرَ مِثلَه في تلك الصفة مبالَغةً في كمالها فيه؛ وهو أقسام: منها نحوُ قولهم: لي مِن

(١) الشماخ: (مرت ترجمته).
(٢) الحِجْلُ: الخلخال. الدُمْلج: المعضد من الحلي.
(٣) دريد بن الصمة: (٨ هـ = ٦٣٠ م) دريد بن الصمة الجشمي البكري من هوازن. فارس شجاع وشاعر معمر جاهلي. وأدرك الإسلام ولم يسلم قتل في غزوة حنين. والصمة لقب والده. (الزركلي، الأعلام).

فلان صديقٌ حميم، أي: بَلَغ من الصداقة حدًّا صحّ معه أن يُستخلَص منه صديقٌ آخَرَ.

ومنها نحو قولهم: لئن سألتَ لتَسألَنّ به البحرَ، ومنه قولُ الشاعر: [من الطويل]

وشَوهاءَ تعدو بي إلى صارخ الوغى بمستلئم مِثلِ الفَنِيق المُرحَّل(١)

أي: تعدو بي ومعي من ٱستعدادي للحرب لابِسُ لأمة.

ومنها نحوُ قوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ﴾ [فُصّلَت: الآية ٢٨] لأن جهنم ـ أعاذنا الله منها ـ هي دار الخلد، لكن ٱنتزع منها مثلها وجعل فيها مُعَدًّا للكفار تهويلًا لأمرها؛ ومنها نحو قولِ الحماسيّ: [من الكامل]

فلئن بقِيتُ لأرحلنّ بغَزوة نحوَ الغنائم أو يموتَ كريم

وعليه قراءة من قرأ: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةٌ كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾﴾ [الرَّحمٰن: الآية ٣٧] بالرفع، بمعنى فحصَلتْ سماءٌ وَردةٌ، وقيل: تقدير الأوّل أو يموتَ منّي كريم، والثاني: فكانت منها وَردةٌ كالدِّهان، وفيه نظر.

ومنها نحوُ قولِه: [من المنسرح]

يا خيرَ مَن يَركَب المطِيّ ولا يَشرب كأسًا بكفّ مَن بخِلا

ونحوُ قولِ الآخَر: [من البسيط]

إن تَلقَني ـ لا تَرَى غيري يناظره ـ تَنسَ السلاحَ وتَعرِفْ جَبهة الأسَد

ومنها مخاطَبة الإنسان غيرَه وهو يريد نفسه، كقول الأعشى: [من البسيط]

ودِّع هُرَيرةَ إنّ الرَّكْب مرتحِل وهل تُطيق وَداعًا أيها الرجل

وقولِ المتنبّي: [من البسيط]

لا خيلَ عندك تُهديها ولا مالُ فليُسعِد النُّطقُ إن لم تسعد الحالُ

---

(١) الفنيق: الفحل المكرم لا يؤذي ولا يركب لكرامته. مستلئم: لابس اللأمة أي الدرع.

ومنه قول الحَيْصَ بَيْصَ[1]: [من الطويل]

إلام يراكَ المجد في زِيّ شاعر وقد نَحَلَت شوقًا فروع المنابر
كَتَمْتَ بِصيت الشِّعر علمًا وحكمة ببعضها ينقاد صعبُ المَفاخر
أما وأبيك الخير إنك فارس الـ ـكلام ومُحيي الدّارسات الغوابر

وأما التكميل - فهو أن يأتيَ المتكلّم أو الشاعر بمعنًى من مدح أو غيرِه من فنون الكَلِم وأغراضه، ثم يَرَى مدحَه بالاقتصار على ذلك المعنى فقط غيرَ كامل، كمن أراد مدح إنسان بالشجاعة، ثم رأى الاقتصار عليها دون مدحه بالكرم مثلًا غيرَ كامل أو بالبأس دون الحِلم، ومثال ذلك قولُ كعب بن سعد الغَنَويّ[2]: [من الطويل]

حَليمٌ إذا ما الحلم زَيّن أهلَه مع الحِلم في عين العدوّ مَهِيب

قوله: «إذا ما الحِلم زَيّن أهلَه» احتراس لولاه لكان المدح مدخولًا، إذ بعضُ التغاضي قد يكون عن عَجْزٍ، وإنما يزين الحِلمُ أهلَه إذا كان عن قدرة، ثم رأى أن يكون مدحه بالحلم وحدَه غير كامل، لأنه إذا لم يُعرَف منه إلا الحِلمُ طَمِع فيه عدوّه فقال: «في عين العدوّ مَهِيب»؛ ومنه قول السَّموءل بنِ عادياء: [من الطويل]

وما مات منّا سيّد في فراشه ولا طُلّ منّا حيث كان قتيل

لأنّ صدر البيت وإن تَضمّن وصفَهم بالإقدام والصبر ربّما أَوهم العَجْزَ لأن قتلَ الجميع يدلّ على الوَهن والقِلّة فكمله بأخذهم للثأر، وكَمَّلَ حسنَه بقوله: «حيث كان» فإنه أَبلغُ في الشجاعة؛ ومن ذلك في النسيب قولُ كُثَيِّر: [من الكامل]

لو أن عَزّة حاكمت شمسَ الضحى في الحسن عند مُوَفَّق لقَضَى لها

لأن قوله: «عند موفَّق» تكميل للمعنى، إذ ليس كلّ من يحاكَم إليه موفَّقًا؛ ومنه قولُ المتنبّي: [من الوافر]

أشَدُّ من الرياح الهُوج بطشا وأَسرَعُ في الندى منها هُبوبا

---

(١) الحَيْصُ بَيْصُ: (٥٧٤ هـ = ١١٧٩ م)، هو سعد بن محمد بن سعد بن الصيفي التميمي. شاعر بغدادي نشأ فقيهًا وغلب عليه الأدب والشعر، وكان يلبس زي أمراء البادية ويتقلد سيفًا فلقب بأبي الفوارس. له ديوان مطبوع. (الزركلي، الأعلام).

(٢) كعب بن سعد الغنوي: هو كعب بن ربيعة بن عمرو الغنوي (١٠ ق.هـ = ٦١٢ م) شاعر جاهلي حلو الديباجة أشهر ما له قصيدته في رثاء أخيه الذي قتل بذي قار. مطلعها:

تقول ابنة العبسي قد شبت بعدنا وكل امرىء بعد الشباب يشيب

وأما المناسَبة ـ فهي على ضربين: مناسَبةٍ في المعنى، ومناسَبةٍ في الألفاظ.

فالمعنويّة أن يَبتدىء المتكلّم بمعنًى، ثم يتمِّمَ كلامه بما يناسبه معنًى دون لفظ، كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [السَّجدَة: الآيتان ٢٦، ٢٧]، فقال تعالى في صدر الآية التي الموعظةُ فيها سمعيّةٌ ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ [السَّجدَة: الآية ٢٦]، وقال بعد ذكر الموعظة: ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ [السَّجدَة: الآية ٢٦]، وقال في صدر الآية التي موعظتُها مَرئيَّةٌ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ [الرّعد: الآية ٤١] وقال بعد الموعظة: ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ [السجدة: الآية ٢٧].

ومن أمثلة المناسَبة المعنويّة قولُ المتنبي: [من الطويل]

على سابحٍ مَوْجُ المنايا بنحره غَداةَ كأنّ النَّبْلَ في صدره وَبْل

فإنّ بين لفظة السِّباحة ولفظتَي المَوْجِ والوَبْل تناسبًا صار البيت به متلاحمًا؛ وقولُ ابنِ رَشِيق: [من الطويل]

أَصَحُّ وأَقوَى ما رويناه في الندى من الخَبَرِ المأثور منذ قديم
أحاديثُ تَرويها السيولُ عن الحيا عن البحر عن جُود الأمير تَميم

فإنه وَفّى المناسَبَة حقّها في صحة العَنعَنة برواية السيول عن الحيا عن البحر، وجَعَلَ الغاية فيها جُودَ الممدوح.

والمناسَبة اللفظيّة: تَوخّي الإتيان بكلمات متّزِنات، وهي على ضربين: تامّة وغير تامّة.

فالتّامة: أن تكون الكلمات مع الاتّزان مقفّاة، فمن شواهد التامّة قوله تعالى: ﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾﴾ [القلم: الآيات١ - ٣] ومن الحديث النبويّ ـ صلاة الله وسلامه على قائله ـ قولُ النبي ﷺ للحسن والحسين ـ رضي الله عنهما ـ: «أعيذُكما بكلمات الله التامّة، من كل شيطان وهامّة، ومن كل عين لامّة» ولم يقل: «ملمّه» وهي القياس لمكان المناسَبة اللفظيّة التامّةِ.

ومن شواهد الناقصة قولُه ﷺ: «ألا أُخْبِركم بأحبّكم إليّ وأَقربِكم منّي مَجالسَ يوم القيامة؟ أَحاسنكم أخلاقًا، الموطّؤون أكنافًا».

ومما جَمع بين المناسَبتين قولُه ﷺ: «اللَّهم إني أسألك رحمة تَهدِي بها قلبي، وتَجمع بها أمري، وتَلُمّ بها شَعَثي، وتُصلِح بها غائبي، وتَرفَع بها شاهدي، وتزكِّي بها عملي، وتُلهمني بها رُشدي، وتَردُّ بها أُلفتي، وتَعصِمني بها من كلّ سوء، اللَّهمّ إني أسألك العَونَ في القضاء، ونُزُلَ الشهداء، وعَيشَ السعداء، والنصرَ على الأعداء» فناسب ﷺ بين قلبي وأمري، وغايتي وشاهدي مناسبَة غير تامّة، لأنها في الزِّنة دون التقفِيَة، وناسب بين القضاء والشهداء والسعداء والأعداء مناسَبة تامّة في الزِّنة والتقفية.

ومن أمثلة المناسَبتين قولُ أبي تمّام: [من الطويل]

مَهَا الوَحشِ إلّا أنّ هاتا أَوانسٌ ... قَنا الخَطّ إلا أنّ تلك ذوابل(١)

فناسب بين مَهَا وقَنا مناسَبة تامّة، وناسب بين الوحش والخطّ، وأوانس وذوابل مناسَبة غيرَ تامّة.

وأما التفريع ـ فهو أن يُصدِّر المتكلّمُ أو الشاعر كلامَه باسم مَنفيٍّ بـ «ما» خاصّة، ثم يصف الاسمَ المنفيّ بمُعظَم أوصافه اللائقةِ به في الحسن أو القبح، ثم يجعله أصلًا يُفرِّع منه جملةً من جارٍ ومجرورٍ متعلّقةً به تعلّقَ مدحٍ أو هجاء أو فخرٍ أو نسيب أو غيرِ ذلك، يُفهِم من ذلك مساواةَ المذكور بالاسم المنفيّ الموصوف كقول الأعشى: [من البسيط]

ما روضةٌ من رياض الحَزْن مُعشِبةٌ ... خضراءُ جادَ عليها مُسبِلٌ هطِل(٢)
يضاحِك الشمس منها كَوكب شَرِقٌ ... مؤزَّرٌ بعَميم النبت مكتهِل(٣)
يومًا بأطْيَبَ منها طِيبَ رائحةٍ ... ولا بأحسَنَ منها إذ دنا الأُصُل

وقول عاتِكة المرّيّة(٤): [من الطويل]

وما طعم ماء أيِّ ماء تقوله ... تَحدَّرَ من غُرٍّ طِوال الذوائب
بمنعرَج مِن بطن وادٍ تقابلت ... عليه رياحُ الصيف من كل جانب

---

(١) الخط: يريد به خط عمان، وهو الذي تنسب إليه الرماح الخطية.
(٢) الحَزْن: المرتفع، الجبل. (٣) الكوكب: النَّور، لأنه يشبه كوكب السماء.
(٤) عاتكة المرية: عاتكة بنت مرة بن هلال بن فالج بن ذكوان أم هاشم بن عبد مناف. أو عاتكة بنت الأوقص بن مرة بن هلال بن فالج أم وهب بن عبد مناف ابن زهرة إلى آمنة أم النبي. هناك عدة جدات للنبي يحملن هذا الاسم. (الأعلام، للزركلي).

نَفتْ جِرْيَةُ الماء القذى عن مُتونه فليس به عيب تراه لعائب
بأَطْيَبَ ممن يَقصِر الطرفَ دونه تقى الله وٱستحياءُ بعض العواقب

وقد وقع الأصل والفرع لأبي تمّام في بيت واحد، وهو: [من البسيط]

ما رَبع ميّةَ معمورًا يُطيف به غَيْلانُ أبهى ربًا من رَبعها الخَرِب
ولا الخدودُ وإن أُدمِين مِن خَجَل أَشهى إلى ناظري من خدّها التَرِب

ومما ورد في النثر رسالةُ ٱبنِ القُمّيّ التي كتبها إلى سبإ بن أحمد صاحبِ صنعاءَ:

وأمّا حال عبده بعد فراقه في الجَلَد، فما أمّ تسعة من الولد؛ ذكور، كأنهم عِقبانُ وُكور؛ ٱختُرِم منهم ثمانية، فهي على التاسع حانية، فنادى النذير في البادية، يا لَلعادية يا لَلعادية؛ فلما سَمعتْ الداعي، ورأت الخيل سَواعي؛ أقبلت تنادي ولدها: الأَناة الأَناة، وهو يناديها: القَناة القَناة: [من الكامل]

بَطَلٌ كأنّ ثيابه في سَرْحةٍ يُحذَى نعالَ السِّبت ليس بتَوأم[1]

فلما رَمَقتْه يختال في غُضون الزَّرَد المَوْضون[2] أنشأت تقول: [من مجزوء الرّمل]

أَسَد أَضْبَطُ يمشي بين طَرْفاءَ وغِيل[3]
لِبسُه من نسج داو دَ كضَحْضاح المَسِيل[4]

عَرَضَ له في البادية أَسَدٌ هَصُور، كأنّ ذراعه مَسَدٌ معصور: [من الكامل]

فتَطاعَنا وتواقفتْ خَيْلاهما وكلاهما بَطلُ اللقاء مقنَّع

---

(١) السرحة: واحدة السرح، وهو الشجر العظيم الطويل. يريد عنترة صاحب البيت، إنه ضخم الجسم طويل القامة. نعال السبت: النعال المدبوغة.
(٢) الموضون: المنسوج حلقتين حلقتين، أو المتقارب النسج.
(٣) الطرفاء: نوع من النبات ذو ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢﴾ [الرحمٰن: ١-٢]أهداب وليس له خشب. الغيل: الشجر الكثيف الملتف؛ أو القصب والحلفاء المجتمعة.
(٤) الضحضاح: الماء الذي لا غرق فيه، ونسج داود يريد به: الدّروع، فقد جاء في القرآن الكريم: ﴿وَعَلَّمۡنَٰهُ صَنۡعَةَ لَبُوسٖ لَّكُمۡ لِتُحۡصِنَكُم مِّنۢ بَأۡسِكُمۡ﴾ [الأنبياء: الآية ٨٠].

فلما سمعَت الرَّعِيل، بَرزتْ من الصِّرْم[١] بصبر قد عِيل؛ فسألت عن الواحد فقيل: لَحَدَه اللّاحد: [من الوافر]

فَكَّـرتْ تـبـتـغـيـه فـصـادفَـتْـهُ   عـلى دمِـه ومَـصـرَعِـه الـسـبـاعـا
عـبَـثْـن بـه فـلـم يَـتـرُكـن إلا   أَدِيـمـا قـد تـمـزق أو كُـراعـا

بأشدّ من عبده تأسّفًا، ولا أعظم كمدًا وتلهفا.

قال: وذكر ٱبن أبي الإصبع في التفريع قسمًا ذَكَره في صدر الباب، وقال: إنه هو الذي ٱستخرجه، وهو أن يبتدىء الشاعر بلفظة هي إما ٱسم أو صفة، ثم يكرّرُها في البيت مضافة إلى أسماء وصفات تتفرع عليها جملةٌ من المعاني في المدح وغيره، كقول المتنبّي: [من المتقارب]

أنـا ٱبـن الـلقـاء أنـا ٱبـن الـسـخـاء   أنـا ٱبـن الـضِّـراب أنـا ٱبـن الـطِّـعـان
أنـا ٱبـن الـفـيـافي أنـا ٱبـن الـقـوافي   أنـا ٱبـن الـسُّـروج أنـا ٱبـن الـرِّعـان[٢]
طَـويـلُ الـنِّـجـاد طَـويـلُ الـعـمـاد   طَـويـلُ الـقـنـاة طـويـل الـسِّـنـان
حَـديـدُ الـلِّـحـاظ حـديـد الـحِـفـاظ   حَـديـدُ الـحـسـام حـديـد الـجَـنـان

وأما نفي الشيء بإيجابه ـ فهو أن يُثبِت المتكلّم شيئًا في ظاهر كلامه ويَنفيَ ما هو من سببه مَجازًا، والمنفيّ في باطن الكلام حقيقة هو الذي أَثبته كقول ٱمرىء القيس: [من الطويل]

عـلى لاحـب لا يُـهـتـدَى بـمَـنـاره   إذا سافَهُ العَودُ النَّباطيّ جَرجَرا[٣]

فظاهر هذا الكلام يَقتضِي إثبات مَنار لهذه الطريق، ونفيَ الهدايةِ به مجازًا وباطنه في الحقيقة يقتضِي نَفيَ المَنار جملة، والمعنى أن هذه الطريقَ لو كان لها منار ما ٱهتُدِيَ به، فكيف ولا مَنارَ لها، كما تقول لمن تريد أن تَسلبَه الخير: ما أَقَلّ خيرك! فظاهر كلامك يدلّ على إثبات خير قليل، وباطنه نَفيُ الخير كثيرِه وقليلِه. وقول الزبير بن عبد المطلب يمدح عُمَيلة بنَ عبد الدار ـ وكان نديمًا له ـ:

---

(١) الصِّرم: الجماعة.
(٢) الرعان: رؤوس الجبال أو أنوفها المتقدمة منها.
(٣) سافه: شمّه. العود: الجمل المسن. جرجر: رغا.

[من الطويل]

صَحِبتُ بهم طَلْقا يَراح إلى الندى إذا ما ٱنتشى لم تَحتضِره مَفاقرُه
ضعيف بحَثّ الكأس قَبضُ بنانِه كَليل على وجه النديم أظافِره

فظاهر هذا أنّ للممدوح مَفاقرَ لم تحتضره إذا انتشى، وأنّ له أظافرَ يَخمِشُ بها وجه نديمه خَمْشًا ضعيفًا، وباطن الكلام في الحقيقة نفيُ المفاقر جملة، والأظافرِ بَتّة.

وأما الإيداع ـ قال: وأكثرُ الناس يجعلونه من باب التضمين، وهو منه إلّا أنه مخصوص بالنثر، وبأن يكون المُودَع نصفَ بيت، إما صدرًا أو عَجُزًا.

فمنه قول عليّ رضي الله عنه في جواب كتاب لمعاوية:

ثم زَعمتَ أنّي لكلّ الخلفاء حَسَدت، وعلى كلّهم بَغَيت، فإن يكن ذلك كذلك فلم تكن الجناية عليك، حتى تكون المعذِرة إليك، وتلك شَكاةٌ ظاهرٌ عنكَ عارُها.

وأما الإدماج ـ فهو أن يُدمِج المتكلم غرضًا له في جملةِ معنًى من المعاني قد نحاه ليُوهِم السامعَ أنه لم يقصده، وإنما عَرض في كلامه لتتمّة معناه الذي قصده، كقول عبيد الله بن عبد الله[1] لعبيد الله بن سليمانَ بنِ وهب حين وَزَرَ للمعتضد ـ وكان عُبَيد الله قد ٱختَلّت حاله ـ فكتب إلى ٱبن سليمان: [من الطويل]

أَبَى دهرُنا إسعافَنا في نفوسنا وأَسعفنا فيمن نُحِبُّ ونكرِم
فقلتُ له نُعماك فيهم أَتِمَّها ودع أمرَنا إن المهمّ المقدَّم

فأَدمَج شكوى الزمان في ضمن التهنئة، وتَلطّفَ في المسألة مع صيانة نفسه عن التصريح بالسؤال.

وأما سلامة الاختراع ـ فهو أن يَخترِع الشاعر معنًى لم يُسبَق إليه ولم يَتبعه أحد فيه، كقول عنترة في الذباب: [من الكامل]

هَزِجا يَحُكُّ ذراعَه بذراعه قَدْحَ المُكِبّ على الزناد الأجذمِ

(١) عبيد الله بن عبد الله بن طاهر: ولي الشرطة في بغداد، وكان إلى ذلك مترسلًا وشاعرًا لطيفًا جيد السبك. له كتاب البراعة والفصاحة، وكتاب السياسة الملوكية. توفي سنة ٣٠٠ هـ. (ابن خلكان، الوفيات، ج ٢، ص ٣٠٤).

وكقول عديّ بن الرِّقاع[1] في تشبيه ولد الظبية: [من الكامل]

تُـزجِـي أَغَـنَّ كـأن إبـرة رَوْقِـه قـلمٌ أصـاب مـن الـدواة مـدادَهـا

وكقول النابغة في وصف النسور: [من الطويل]

تَراهنّ خلف القوم زُورًا عيونها جلوسَ الشيوخ في مُسوك الأرانب[2]

وكقول أبي تمّام: [من الكامل]

لا تنكري عَطَل الكريم من الغِنى فالسَّيل حربٌ للمكان العالي

وقولِه: [من البسيط]

ليس الحجاب بمُقْصٍ عنكَ لي أملا إنّ السماء تُرجَّى حين تَحتجِب

وقولِ ابن حجّاج[3]: [من الطويل]

وإنّيَ والمولى الذي أنا عبده طَـرِيـفـان فـي أمـر لـه طَـرَفـان
بعيدًا تراني منه أَقربَ ما تَرَى كـأنـيَ يـومُ الـعـيـد فـي رمـضـان

وأما حُسن الاتّباع - فهو أن يأتيَ المتكلّم إلى معنًى قد اخترعه غيره فيتَّبعه فيه اتباعًا يوجب له استحقاقه، إما باختصار لفظِه، أو قِصَر وزنِه أو عذوبة نَظْمِه، أو سهولة سَبكه، أو إيضاح معناه، أو تتميم نقصِه، أو تحليتِه بما توجبه الصناعة، أو بغير ذلك من وجوه الاستحقاقات؛ كقول شاعر جاهليّ في صفة جَمَل: [من الطويل]

وعَوْدٍ قليلِ الذنْب عاودتُ ضربه إذا هاج شوقي من مَعاهدها ذكر[4]
وقـلت لـه ذلـفـاءُ ويـحـكَ سَبَّـبْتْ لك الضربَ فاصبر إنّ عادتك الصبر

---

(١) عدي بن الرقاع: (٩٥ هـ = ٧١٤ م)، هو عدي بن زيد بن مالك بن عدي بن الرقاع، من عاملة شاعر كبير من أهل دمشق، كنيته أبو داود. عاصر جريرًا وهاجاه، ومدح بني أمية. مات في دمشق. (الزركلي، الأعلام).

(٢) الزور: جمع أزور، وهو الناظر بمؤخرة عينه. المسوك: الجلود.

(٣) ابن حجاج: (٣٩١ هـ = ١٠٠١ م) هو حسين بن أحمد بن محمد بن جعفر بن محمد بن الحجاج البغدادي. شاعر فحل غلب عليه الهزل والفحش، واتسم شعره بالعذوبة والسلامة من التكلف نسب إلى قرية النيل على الفرات بين بغداد والكوفة وتوفي فيها ودفن في بغداد. (الأعلام، للزركلي).

(٤) العود: المسنّ من الجمال.

فأحسن ابن المعتز اتّباعه حيث قال يصف خيلَه: [من الطويل]

وخيلٍ طواها القَوْدُ حتى كأنها أنابيبُ سمرٌ من قنا الخَطّ ذُبَّلُ
صَبَبنا عليها ظالِمين سِياطَنا فطارت بها أيدٍ سِراعٌ وأرجل

واتّبع أبو نُواس جريرًا في قوله: [من الوافر]

إذا غضِبت عليك بنو تميم حسبتَ الناس كلَّهمُو غضابا

فقال أبو نواس ـ ونَقَل المعنى من الفخر إلى المدح ـ: [من السّريع]

ليس على الله بمستنكَرٍ أن يَجمعَ العالَم في واحد

وقول النُّمَيريّ في أخت الحجّاج: [من الطويل]

فهنّ اللواتي إن بَرزن قتلنني وإن غِبن قَطّعن الحشى حَسَرات

فاتّبعه ابن الروميّ فقال: [من الكامل]

ويلاه إن نَظَرتْ وإن هي أَعرضتْ وَقْعُ السهام ونزعُهنّ أليم

وأما الذمّ في معرِض المدح ـ فهو أن يقصِد المتكلّم ذمّ إنسان فيأتيَ بألفاظ موجَّهة، ظاهرُها المدح، وباطنها القَدح، فيُوهِم أنه يمدحه وهو يهجوه كقول بعضهم في الشريف بن الشَّجَريّ: [من المنسرح]

يا سيّدي والذي يعيذك من نَظْمِ قريض يَصْدأ به الفكْر
ما فيك من جِدّك النبيِّ سوى أنك لا ينبغي لك الشعر

وأما العُنوان ـ فهو أن يأخذ المتكلّم في غرض له من وصف أو فخر أو مدح أو هجاء أو غير ذلك، ثم يأتي لقصد تكميله بألفاظ تَكُون عُنوانًا لأخبار متقدِّمة، وقِصص سالفة؛ كقول أبي نُواس: [من البسيط]

يا هاشم بنَ حُدَيجٍ ليس فخركمو بقتلِ صِهر رسول الله بالسَّدَد
أَدرجتمو في إهاب العَير جُثّتَه لبئس ما قدّمت أيديكمو لغد
إن تقتلوا ابنَ أبي بكر فقد قَتلتْ حُجْرًا بدارة مَلْحُوب بنو أَسَد[1]

---

(١) دارة ملحوب: اسم ماء لأسد بن خزيمة، فيها قتل بنو أسد حجرًا الكندي والد الشاعر الجاهلي امرىء القيس، وكان ملكًا على نجد. (ياقوت، معجم البلدان).

ويوم قلتم لعمرو وهو يقتلكم قتل الكلاب لقد أبرَحتَ من ولَد[١]
وربّ كِندِيّة قالت لجارتها والدمع ينهلّ من مَثْنى ومن وَحَد
أَلهَى أمرأ القيس تشبيبٌ بغانية عن ثأره وصفاتُ النُّؤي والوَتَد[٢]

فقد أتى أبو نواس في هذه الأبيات بعِدّة عُنوانات: منها قصة قتلِ محمد بن أبي بكر، وقتل حُجْرٍ أبي أمرىء القيس، وقتلِ عمرو بن هندٍ كِنْدَةَ في ضمن هجو من أراد هجوَه، وغَير المهجوّ بما أشار إليه من الأخبار الدالّة على هجاء قبيلته.

ومثل ذلك قولُ أبي تمام في أستعطاف مالك بن طَوق على قومه: [من الكامل]

رفَدوك في يوم الكُلاب وشَقّقوا فيه المَزاد بجَحفل غَلّاب[٣]
وهمو بعَين أُباغَ راشوا للعِدا سَهمَيك عند الحارث الحَرّاب[٤]
وليالِيَ الثَّرثار والحَشّاك قد جَلبوا الجياد لواحقَ الأقراب[٥]
فمضت كُهُولهمو ودَبّر أمرَهم أحداثُهم تدبيرَ غيرِ صواب

وقال بعد ذلك:

لك في رسول الله أَعظمُ أُسوة وأَجلُّها في سُنّة وكتاب
أَعطى المؤلَّفة القلوبِ رضاهمو كَمَلًا وردَّ أَخائذَ الأحزاب
والجعفريُّون أستَقلّت ظُعْنُهم عن قومهم وهمو نجومُ كلاب
حتى إذا أَخذ الفراقُ بقسطه منهم وشَطَّ بهم عن الأحباب
ورأوا بلاد الله قد لَفَظتهمو أكنافُها رَجعوا إلى جَوّاب
فأتَوا كريمَ الخِيم مِثلَك صافحًا عن ذكر أحقاد وذكر ضِباب[٦]

(١) يشير إلى فتك ملك الحيرة عمرو بن هند ببني كندة.
(٢) يشير إلى عجز امرىء القيس الكندي عن الثأر من أبي أسد الذين قتلوا والده. ويعزو ذلك لانصرافه إلى الملذات واللهو بالنساء وقرض الشعر.
(٣) يوم الكلاب كلاب الأول وكلاب الثاني: يومان كانا بين ملوك كندة وبني تميم.
(٤) عين أُبَاغ: واد وراء الأنبار على طريق الفرات إلى الشام. يشير إلى معركة وقعت هناك بين الغساسنة واللخمين، قتل فيها المنذر بن المنذر بن امرىء القيس اللخمي ملك الحيرة. (ياقوت، معجم البلدان).
(٥) الثرثار: واد بالجزيرة بين سنجار وتكريت. كانت بكر وائل وتغلب وائل تنزله (ياقوت، معجم البلدان). الحشاك: تل عبدة، جرت فيه وقعة تغلب وقيس. لواحق الأقراب: ضمر الخصور.
(٦) الضِّباب: واحدة ضِب وهو الحقد.

فانظر إلى ما أتى به أبو تمّام في هذه الأبيات من العُنوانات من السيرة النبوية وأيام العرب، وأخبار بني جعفر بن كلاب، ورجوعهم إلى ٱبن عمهم جَوّاب؛ وكقوله أيضًا لأحمد بن أبي دؤاد: [من الوافر]

تَـثـبَّـتْ إنّ قـولًا كـان زُورا أتـى الـنـعـمـانَ قَـبـلَك عـن زيـاد

وأرَّث بـيـن حـيّ بـنـي جُـلاح لـظـى حـرب وحـيّ بـنـي مَـصـاد

وغـادَرَ فـي صـدور الـدهـر قـتـلى بـنـي بـدر عـلى ذات الإصـاد[1]

فأتى بِعُنوان يشير به إلى قصة النابغة حين وُشيَ به إلى النعمان، فجرّ ذلك من الحروب ما تَضمّنتْ أبياته.

وأما الإيضاح ـ وهو أن يذكر المتكلّم كلامًا في ظاهره لَبْسٌ، ثم يوضحه في بقيّة كلامه، كقول الشاعر: [من الطويل]

يـذكّـرنـيـك الـخـيـرُ والـشـرُّ كـلُّه وقِيلُ الخنا والعلمُ والحلمُ والجهلُ

فإن الشاعر لو ٱقتصر على هذا البيت لأشكل مراده على السامع بجمعه بين ألفاظ المدح والهجاء، فلما قال بعد: [من الطويل]

فـألـقـاكَ عـن مـكـروهـهـا مـتـنـزِّهًـا وألقاكَ في محبوبها ولكَ الفضل

أَوضح المعنى المرادَ، وأزال اللَّبس، ورَفع الإشكالَ والشك.

وأما التشكيك ـ فهو أن يأتيَ المتكلّم في كلامه بلفظةٍ تشكّك المخاطَب هل هي فَضلةٌ أو أصليّة لا غِنى للكلام عنها؟ مِثلُ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٨٢] فإن لفظة بِدَينٍ تشكّك السامعَ هل هي فَضلةٌ أو أصليّة؟ فالضعيف النظر يظنّها فَضلةً لأن لفظةَ تداينتم تغنِي عنها، والناظر في علم البيان يعلم أنها أصليّة لأن لفظة الدَّين لها مَحامل، تقول: داينتُ فلانًا المودّةَ، يعني جازيتُه، ومنه: «كما تَدِين تُدان» ومنه قولُ رُؤبة[2]: [من الرّجز]

دايـنـتُ أَروَى والـدُّيـون تُـقـضَـى فـمـطَـلَـتْ بـعـضًـا وأدّت بـعـضـا

---

(١) الإصاد: اسم مكان في ديار بني عبس وسط هضاب القليب. (ياقوت، معجم البلدان).

(٢) هو رؤبة بن العجاج: (١٤٥ هـ = ٧٦٢ م)، هو رؤبة بن عبد الله بن العجاج التميمي السعدي. راجز من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية. أكثر مقامه في البصرة. وعنه أخذ أعيان اللغة واحتجوا بشعره. مات في البادية بعد أن أسن. (الزركلي، الأعلام).

وكلّ هذا هو الدَّين المجازيّ الذي لا يُكتَب ولا يُشهَد عليه، ولمّا كان المراد من الآية تمييزَ الدَّين الماليّ الذي يُكتَب ويُشهَد عليه، وتيسيرَ أحكامه، أَوجبت البلاغة أن يقول: «بدَين» ليُعلَم حُكمُه.

وأما القول بالموجِب ـ فهو ضربان:

أحدهما: أن تقَع صفةٌ في كلام مدّعٍ شيئًا يَعنِي به نفسَه، فتَبتت تلك الصفة لغيره من غير تصريح بثبوتها له، ولا نفيها عنه، كقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: الآية ٨] فإنهم كنوا بالأعزّ عن فريقهم، وبالأذلّ عن فريق المؤمنين، فأثبت الله عزّ وجلّ صفةَ العِزّةِ لله ولرسوله وللمؤمنين من غير تعرّضٍ لثبوت حُكم الإخراج بصفة العزّة ولا لنفيه.

والثاني: حَمْلُ كلام المتكلّم مع تقريره على خلاف مراده مما يَحتملُه بذكر متعلَّقِه كقول الشاعر: [من الخفيف]

قلتُ: ثَقَّلتُ إذ أَتيتُ مِرارًا ... قال: ثَقَّلتَ كاهِلِي بالأيادي
قلتُ: طَوَّلتُ قال: لي بل تَطوّلتَ ... وأَبرَمتُ قال: حبلَ الوداد

ومنه قولُ الأَرَّجانيّ:

* غالطَتْني إذ كست جسمي ضنًى *

البيتين، وقد تَقدّم الاستشهاد بهما في الاستدراك.

وللمولى شهاب الدين محمود الحلبيّ الكاتبِ[1] في ذلك: [من المتقارب]

رَأتني وقد نال منّي النُّحول ... وفاضت دموعي على الخدّ فَيضا
فقالت: بعينيّ هذا السَّقام ... فقلتُ: صدقتِ، وبالخصر أيضا

وقولُ مَحاسن الشَّوّاء[2]: [من الطويل]

ولَمّا أتاني العاذلون عدمتُهم ... وما فيهمو إلا لِلحِمَى قارِض
وقد بُهِتوا لَمّا رأوني شاحبًا ... وقالوا: به عَينٌ فقلتُ: وعارِض

---

(١) هو محمود بن سليمان، شهاب الدين، كاتب الإنشاء في دمشق ومصر، لم يكن بعد القاضي الفاضل مثله، له ديوان شعر مات سنة ٧٢٥ هـ. (الأعلام ٧/ ١٧٢).

(٢) محاسن الشَّواء: (١١٦٧ ـ ١٢٣٨ م) كوفي الأصل، ولد وتوفي في حلب، وقبره عند باب أنطاكية غربي المدينة شاعر أتقن علم العروض، وله ديوان شعر. (المنجد).

وأما القلب ـ فهو أن يكون الكلام أو البيتُ كيفما انقلبَتْ حروفه كان بحاله لا يَتغيّر، ومنه في التنزيل قوله تعالى: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ﴾ [الأنبياء: الآية ٣٣]، ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣﴾ [المدّثّر: الآية ٣] وقولهم: ساكِبُ كاس.

ومنه قولُ العِماد الأَصْفهانيّ للقاضي الفاضل: سِرْ فلا كَبا بك الفَرَس، وجوابُ القاضي الفاضل له: دام عُلا العماد، وهي أوّل قصيدة للأَرَّجانيّ، مَطلَعها: «دام عُلا العماد»، ومن ذلك قولُ الأَرَّجانيّ: [من الوافر]

مَــودّتُــه تــدوم لــكــلّ هَــول وهــل كــلٌّ مَــودّتُــه تــدوم

وأما التندير ـ فهو أن يأتيَ المتكلّم بنادرة حلوة، أو نكتة مستطرَفة يُعرّض فيها بمن يريد ذمّه بأمر، وغالب ما يقع في الهَزْل، فمنه قول أبي تمام فيمن[1] سَرق له شِعرًا: [من الخفيف]

مَن بنُو بَحْدَلٍ، مَن ابْنُ الحُباب مَـن بـنُـو تَـغـلِب غَـداة الـكُـلاب
مَن طُفَيلٌ، مَن عامرٌ، أم مَن الحا رثُ، أم مَـن عُـتَـيـبـةُ بـن شِـهـاب
إنما الـضَّـيـغـم الـهَـصُـور أبو الأشـ ـبـال هَـتّـاكُ كـلّ خِـيـس وغـاب
مَن عدت خيلُه على سَرْح شِعري وهـو لِلحَـيـن راتـعٌ فـي كـتـاب
يا عَذارى الكلام صرتنّ من بَعـ ـدي سـبـايـا تُـبَـعـن فـي الأعـراب
لـو تَـرى مـنـطِـقـي أسـيـرا لأصـبـحـتَ أسـيـرا ذا عَـبْـرة واكـتـئـاب
طـال رَغْـبـي إلـيـك مـمـا أقـاسـيـ ـه ورُهبي يا ربّ فاحفظ ثيابي

ومن ذلك ما قاله شهاب الدين ابنُ الخِيَميّ يُعرِّض بنجم الدين بنِ اسرائيلَ لمّا تنازعا في القصيدة المعروفةِ لابن الخِيمي التي أوّلها: [من البسيط]

* يا مطلَبا ليس لي من غيره أَرَب *

فقال من قطعة منها:

هُمُ العُرَيْبُ بنجد مذ عرَفتُهمو لم يَبقَ لي معهم مالٌ ولا نَشَب[2]

---

(١) أراد به محمد بن يزيد القرشي بالولاء (١٠١ هـ = ٧٢٠ م). ولاه عبد الملك بن مروان افريقيا وتبعت له الأندلس، وعزله الخليفة عمر بن عبد العزيز، ثم أعيد ثانية إلى منصبه. (الزركلي، الأعلام).

(٢) النشب: المال الأصيل من نقود وماشية.

فـمـا أَلـمُّـوا بـحـيٍّ أو أَلـمّ بـهـم إلا أغاروا على الأبيات وٱنتَهَبوا
لـم يُبقِ مَنطِقه قـولًا يـروق لـنـا لقد شكت ظلمه الأشعار والخطب

وأما الإسجال بعد المغالَطة - فهو أن يقصِد الشاعر غرضًا من ممدوح فيَشترِط لحصوله شرطًا، ثم يقدِّر وقوعَ ذلك الشرط مغالَطة ليُسجِّل به ٱستحقاقَ مقصوده، كقول بعضهم: [من البسيط]

جاء الـشـتـاء ومـا عـنـدي لـقِـرّتـه إلا ٱرتعادي وتصفيقي بأسناني
فـإن هَـلَـكـتُ فـمـولانـا يـكـفّـنـنـي هَبني هَلَكتُ فهَبني بعض أكفاني

وأما الافتنان - فهو أن يأتيَ الشاعر بفنَّين متضادَّين من فنون الشعر في بيت واحد، مِثلِ التشبيب والحماسة، والمديح والهجاء، والهناء والعزاء.

فأما ما جُمِع فيه بين التشبيب والحماسة فكقول عنترة: [من الكامل]

إن تُـغْـدِفـي دونـي الـقِـنـاع فـإنـنـي طَـبٌّ بـأخـذ الـفـارس الـمـسـتـلـئـم

وكقول أبي دُلَف - ويُروَى لعبد الله بن طاهر -: [من الوافر]

أُحـبّـكِ يـا جُـنـان وأنـتِ مـنّـي مَـحلّ الـرُّوح مـن جـسـد الـجـبـان
ولـو أنـي أقـول مَـحـلّ روحـي لـخِـفـتُ عـلـيـكِ بـادرةَ الـطِّـعـان

وأما ما جُمِع فيه بين تهنئةٍ وتعزيةٍ فقد تقدّم ذكر ذلك في بابَي التهاني والتعازي ومنها فيما لم نورده هناك ما كتب به المولى شهاب الدين محمود الكاتبُ تهنئة وتعزية لمن رزق ولدًا ذكرًا في يوم ماتت له فيه بنت:

ولا عَتْب على الدهر فيما ٱقتَرَف، فقد أَحسن الخَلَف؛ واعتَذرَ بما وَهَب عما سَلب، فعفا الله عمّا سلف.

وأما الإبهام - بباء موحّدة فهو أن يقول المتكلّم كلامًا مبهَمًا يَحتمِل معنيين متضادَّين، كقول بعضهم في الحسن بن سَهل لما تزوّج المأمون ببنته بُوران: [من مجزوء الخفيف]

بـــارك الله لـــلـحـــسَـــن ولـبُـوران فـي الـخَـتَـن[1]
يـــا إمـــام الـــهـــدى ظَـفِـر تَ ولـكـــن بـبـنـــت مَـن

(١) الختن: الصهر.

فلم يُعرَف مرادُه «ببنت من» هل أراد به الرفعة أو الضعة؟

ومنه قولُ بشّار في خياط أعورَ اسمه عمرو: [من مجزوء الرّمل]

خـاط عـمـرو لـي قَـبـاء   لـيـت عـيـنـيـه سـواء

فأبهم المعنى في الدعاء له بالدعاء عليه.

وأما حصر الجزئيّ وإلحاقه بالكليّ ـ فهو كقول السَّلاميّ[١]: [من الطويل]

إليك طوى عَرضَ البسِيطة جاعلٌ   قُصارى المطايا أن يلوح لها القَصر
فكنتُ وعزمي في الظلام وصارمي   ثلاثةَ أشباه كما ٱجتَمَع النَّسر
وبَشّرتُ آمالي بمَلْك هو الورى   ودارٍ هي الدنيا، ويومٍ هو الدهر

فأما حَصرُ أقسام الجزئيّ فإن العالَم عبارةٌ عن أجسامٍ وظروفِ زمانٍ وظروفِ مكانٍ، وقد حَصَر ذلك.

وأما جعلُه الجزئيّ كلّيًا فإن الممدوح جزء من الورى، والدار جزء من الدنيا، واليوم جزء من الدهر.

وأما المقارنَة ـ فهي أن يَقرِن الشاعر الاستعارَة بالتشبيه أو المبالَغةِ أو غير ذلك بوَصل يَخفَى أثره إلّا على مُدْمِن النظر في هذه الصناعة، وأكثرُ ما يقع ذلك بالجُمَل الشرطيّة، كقول بعض[٢] شعراء المَغرِب: [من الطويل]

وكنتَ إذا ٱستُنزِلتَ من جانب الرضى   نزلتَ نزولَ الغيث في البلد المَحْل
وإن هَـيّـج الأعـداء مـنـك حَـفِـيـظـةً   وقعتَ وُقوعَ النار في الحطب الجَزل

فإنه لاءم بين الاستعارة والتشبيه المنزوعِ الأداةِ في صدرَيْ بيتَيه وعَجُزيهما.

وأما ما قُرنتْ به الاستعارةُ من المبالَغة فمثاله قولُ النابغة الذُّبيانيّ: [من الطويل]

وأنـتَ رَبِـيع يُـنعِـش الـنـاسَ سَـيـبُـه   وسـيـف أُعِـيـرتْـه الـمـنـيّـة قـاطِـع

---

(١) السلامي: (٣٣٦ ـ ٣٩٣ هـ = ٩٤٨ ـ ١٠٠٣ م)، هو محمد بن عبد الله بن محمد المخزومي القرشي، أبو الحسن السلامي، شاعر عراقي ولد في كرخ بغداد ونسب إلى مدينة السلام، اتصل بالصاحب بن عباد وعضد الدولة البويهي. له ديوان شعر مطبوع. (الزركلي، الأعلام).

(٢) هو إدريس بن اليمان كما جاء في «تحرير التحبير» لابن أبي الأصبغ.

فإن في كلٍّ من صدر البيت وعجزه ٱستعارة ومبالغة، وإنما التي في العجز أبلغ.

ومما ٱقتَرَن فيه الإرداف بالاستعارة قولُ تَمِيم بن مُقْبِل(١): [من الطويل]

لــدن غُــدْوة حــتــى نَــزَعــنـا عــشــيّــة
وقد ماتَ شطر الشمس والشَّطرُ مُدْنَفِ(٢)

فإنه عَبّر بموت شَطر الشمس عن الغروب، وٱستعار الدَّنَف للشطر الثاني.

وأما الإبداع ـ فهو أن يأتي في البيت الواحد من الشِّعر، أو القرينةِ الواحدةِ من النثر بعِدّة ضروب من البديع بحسب عدد كلماته أو جُمَله، وربما كان في الكلمة الواحدة المفردة ضربان من البديع، ومتى لم تكن كلّ كلمة بهذه المثابة فليس بإبداع.

قال ٱبن أبي الإصبَع: وما رأيتُ فيما ٱستقرَيتُ من الكلام كآية ٱستخرجْتُ منها أحدًا وعشرين ضربًا من المَحاسن، وهي قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [هُود: الآية ٤٤]: وهي المناسبة التامّة في «ٱبْلَعِي» و«أَقْلِعِي»؛ والمطابَقة بذكر الأرض والسماء؛ والمَجاز في قوله: «يَا سَمَاءُ»، فإن المراد ـ والله أعلم ـ يا مطر السماء؛ والاستعارة في قوله تعالى: «أَقْلِعِي»؛ والإشارة في قوله تعالى: «وَغِيضَ الْمَاءُ» فإنه عَبّر بهاتين اللفظتين عن معان كثيرة؛ والتمثيل في قوله تعالى: «وَقُضِيَ ٱلأَمْرُ» فإنه عَبّر عن هلاك الهالِكين ونجاة الناجين بغير لفظ المعنى الموضوع له؛ والإرداف في قوله: «وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ» فإنه عَبّر عن ٱستقرارها بهذا المكان ٱستقرارًا متمكّنًا بلفظ قريب من لفظ المعنى؛ والتعليل، لأن غَيض الماء علّة الاستواء؛ وصحة التقسيم إذا استوعب الله تعالى أقسامَ أحوال الماء حالةَ نقْصِه، إذ ليس إلا ٱحتباسَ ماء السماء، وٱحتقانَ الماء الذي يَنبَعُ من الأرض، وغَيضَ الماء الحاصل على ظهرها؛ والاحتراسُ في قوله تعالى: «وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ» إذ الدعاء عليهم يُشعِر أنهم مستحقّو الهلاك ٱحتراسًا من ضعيف العقل يَتوهّم أن العذاب شَمَل من يَستحقّ ومن لا يَستحقّ،

(١) تميم بن مقبل: (بعد ٣٧ هـ = بعد ٦٥٧ م) هو تميم بن أبي بن مقبل، من بني العجلان، أبو كعب، شاعر جاهلي أدرك الإسلام وأسلم، عمر طويلًا وهاجى النجاشي الشاعر. له ديوان مطبوع. (الأعلام، للزركلي).

(٢) مدنف: دانٍ من الغروب.

فتأكّدَ بالدعاء كونُهم مستحقّين؛ والإيضاح في قوله: «لِلْقَوْمِ» ليبيّن أن القوم الذين سبق ذكرهم في الآية المتقدّمة حيث قال: ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُۚ﴾ [هُود: الآية ٣٨] هم الذين وصَفَهم بالظلم ليُعلَم أن لفظة القوم ليست فضلة وأنه يحصل بسقوطها لَبسٌ في الكلام؛ والمساواة لأن لفظ الآية لا يزيد على معناها؛ وحُسنُ النّسق، لأنه تعالى عطف القضايا بعضَها على بعض بحسن ترتيب؛ وائتلاف اللفظ مع المعنى، لأن كلّ لفظة لا يَصلُح موضعَها غيرُها؛ والإيجاز، لأنه سبحانه وتعالى اْقتصّ القصّة بلفظها مُستوعَبَة بحيث لم يُخِلّ منها بشيء في أقصر عبارة؛ والتسهيم، لأن أوّل الآية إلى قوله: «أَقْلِعِي» يقتضي آخرها؛ والتهذيب، لأنّ مفرداتِ الألفاظ موصوفةٌ بصفات الحسن، عليها رونق الفصاحة، سليمةٌ من التعقيد والتقديم والتأخير؛ والتمكّن، لأن الفاصلة مستقرّةٌ في قرارها، مطمئنّةٌ في مكانها؛ والانسجام، وهو تحدّر الكلام بسهولة كما ينسجم الماء؛ وما في مجموع الآية من الإبداع، وهو الذي سُمّيَ به هذا الباب. فهذه سبع عشرة لفظةً تَضمّنتْ أحدًا وعشرين ضربًا من البديع غيرَ ما تَكرر من أنواعه فيها.

وأما الانفصال ـ فهو أن يقول المتكلّم كلامًا يَتوجّه عليه فيه دَخَلٌ لو اْقتصَر عليه، فيأتي بما يفصله عن ذلك الدَّخَل، كقول أبي فِراس: [من مجزوء الرّمل]

ولـقــد نُـبِّـيـتُ إبـلـيـــ ... س إذا راكَ يَـــصُـــدّ
لـيـس مِـن تـقـوى ولـكـن ... ثِـقَــل فـيــك وبَــرْدُ

والفرقُ بين هذا وبين الاحتراس خلوُّ الاحتراس من الدَّخل عليه من كلّ وجه.

وأما التصرف ـ فهو أن يتصرّف المتكلّم في المعنى الذي يقصِده، فيُبرزه في عِدّة صور: تارة بلفظ الاستعارة، وطَورًا بلفظ التشبيه، وآونة بلفظ الإرداف وحِينًا بلفظ الحقيقة، كقول اْمرىء القيس يصف الليل: [من الطويل]

وليلٍ كموج البحر مُرخ سُدُوله ... عليّ بأنواع الهموم ليَبتلي
فقلتُ له لمّا تَمطّى بصُلبه ... وأردَف أعجازًا وناءَ بكَلكَلِ

فإنه أَبرز المعنى بلفظ الاستعارة، ثم تَصَرّف فيه فأتى بلفظ التشبيه فقال: [من الطويل]

فيا لك من ليل كأنّ نجومَه ... بكلّ مُغار الفتل شُدّت بيَذبُل(١)

(١) يذبل: جبل بنجد. كان لباهلة. وهو مضارع ذبل أي استرخى. (ياقوت، معجم البلدان).

ثم تَصَرّف فيه فأخرَجَه بلفظ الإرداف فقال:

ألا أيها الليل الطويل ألا أنجلِ بصبح وما الإصباح منك بأَمثَل

وأما الاشتراك ـ فمنه ما ليس بحَسَن ولا قبيح، وهو الاشتراك في الألفاظ مثل اشتراك الأُبيرِد[١] وأبي نواس في لفظة الاستعفاء، فإن الأُبَيْرِد قال في مَرثية أخيه: [من الطويل]

وقد كنتُ أَستعفي الإلهَ إذا اشتكى من الأجر لي فيه وإن عَظُم الأجر

وقال أبو نواس: [من الطويل]

ترى العين تستعفيك من لمعانها وتَحسِر حتى ما تُقِلّ جفونَها

ومنه الحسَن، وهو الاشتراك في المعنى، كقول امرىء القيس: [من الطويل]

كبِكْر المُقَاناة البياضَ بصُفرة غذاها نَمير الماء غيرُ المُحَلَّل[٢]

وقولِ ذي الرُّمّة: [من البسيط]

كَحلاءُ في برجٍ صفراء في دَعَجٍ كأنها فضّة قد مسّها ذهب[٣]

فَوَقَع الاشتراك بينهما في وصف المرأة بالصُّفرة، غير أنّ الأوّل شبّه الصفرة ببَيضة النعامة، والآخر وَصَفها بالفضّة المُمَوَّهة.

ومن الاشتراك المعنويّ ما ليس بحسَن ولا مَعِيب، كقول كُثير: [من الطويل]

وأنتِ التي حَبّبتِ كلّ قَصيرة إليّ وما تدري بذاكِ القصائر

عَنَيتُ قَصِيراتِ الحِجال ولم أُرِد قِصَارَ الخُطَا، شرُّ النساء البحاتر[٤]

فإن لفظة قصيرة مشتركة، فلو اقتَصَر على البيت الأوّل لكان الاشتراك مَعِيبًا لكنه لما أتى بالبيت الثاني زال العيب، ولم يَبلُغ رتبة الحسن لِما فيه من التضمين.

(١) الأبيرد: (٦٨ هـ = ٦٨٨ م)، هو الأبيرد بن المعذر بن عبد قيس الرياحي اليربوعي من تميم. شاعر فصيح بدوي لم يكن مكثرًا ولا مداحًا، أدرك بني أمية (الأعلام، للزركلي).

(٢) يقول إن محبوبته ذات لون أبيض ضارب إلى الصفرة كبيضة النعامة تغذت بالماء الصافي العذب الذي لم يكدره الواردون.

(٣) البَرَج: في العين، يعني نقاء بياضها وصفاء سوادها. والدعج يعني شدة سواد العين.

(٤) البحاتر: واحدتها بحترة، وهي المرأة القصيرة.

وأما التهكّم ـ فالفرق بينه وبين الهَزْل الذي يراد به الجِدُّ أن التهكّم ظاهره جِدٌّ وباطنه هَزْل، والهَزْل الذي يراد به الجِدُّ على العكس منه، فمن التهكّم قول الوَجِيه الذرْوي في ٱبن أبي حصينة من أبيات: [من الخفيف]

لا تَـظـنَّـنْ حَـدْبـة الـظَّـهـر عـيـبـا ... فهي في الحُسن من صفات الهلال
وكـذاكَ الـقِـسـيّ مُـحـدَودِبـاتٌ ... وهي أَنكَى من الظُّبا والعَوالي
وإذا مـا عـلا الـسَّـنام فـفـيـه ... لـقُـروم الـجِـمـال أيُّ جَـمـال
وأرَى الانـحـنـاء فـي مِـخلَب البا ... زي ولـم يَـعْـدُ مِـخـلَبَ الـرئـبـال
كَـوّن الله حَـدْبـة فـيـك إن شئـ ... ـتَ من الـفـضـل أو من الإفـضـال
فـأتــت رَبْــوَةً عــلـى طَـود عـلـم ... وأتــت مَـوْجـةً بـبـحـر نـوال
مـا رأتـهـا الـنـسـاء إلا تـمـنّـت ... أنـهـا حِـلـيـةٌ لـكـلّ الـرجـال

ثم ختمها بقوله:

وإذا لـم يـكـن مـن الـهـجـر بُـدٌّ ... فـعـسـى أن تـزورنـا فـي الـخـيـال

وكقول ٱبن الرومي: [من السّريع]

فـيـا لـه مِـن عـمـل صـالـح ... يـرفـعـه الله إلــى أسـفــل

وأما التدبيج ـ وهو أن يَذكر الشاعر أو الناثر ألوانًا يَقصِد بها الكنايةَ أو التوريَةَ بذكرها عن أشياءَ من وصف أو مدح أو هجاء أو نَسِيب أو غيرِ ذلك من الفنون، فمن ذلك قولُ الحرِيريّ في بعض مقاماته: فمذ ٱزوَرَّ المحبوبُ الأصفر وٱغبرّ العيش الأخضر، اسودّ يومي الأبيض، وٱبيضّ فَوْدِي الأسودَ، حتى رَثَى لي العدوّ الأزرق، فحبّذا الموتُ الأحمر.

وهذا التدبيج بطريق التورية. وقال بعض المتأخِّرين يصف موقف السلطان الملك الناصر بمَصاف شَقْحَب[1] الكائن بينه وبين التتار في شهر رمضان سنة اثنتين وسبعمائة:

وما زال بوجهه الأبيض، تحت عَلَمه الأصفر، يكابِد الموت الأحمر، تجاه العدوّ الأزرق، إلى أن حال بينهما الليل الأسود، وبَكّر في غُرّة نهار الأحد الأشعل

(١) شقحب: على وزن جعفر، مكان قرب دمشق. وهو يقع على طرف مرج الصفر (تاريخ أبي الفداء، ج ٤، ص ٥٠، طبعة القسطنطينية).

وٱمتطَى السبيل الأَحوَى إلى أن حَلّ بالأَبلَق. يريد بالأبلق: القصر الظاهريَّ الذي بالمَيْدان الأخضر بظاهر مدينة دِمَشق؛ ومن أمثلة هذا الباب قولُ ابن حَيُّوس الدِّمَشقي: [من الخفيف]

إن تُرد عِلْم حالهم عن يقين — فٱلْقَهم يوم نائل أو قتال
تَلقَ بِيضَ الوجوه سُودَ مُثار النـ — قع خُضَر الأكناف حُمَر النِّصال

وأما الموجّه ـ فهو الذي يَمدح بشيء يَقتضي المدح بشيء آخَرَ، كقول المتنبّي: [من الطويل]

نَهَبتَ من الأعمار ما لو حَويتَه — لهنّئت الدنيا بأنك خالد

وكقوله أيضًا: [من البسيط]

عُمْر العدوّ إذا لاقاه في رَهَج — أقلُّ مِن عُمْر ما يَحوي إذا وَهَبا

فأوّل البيتين وصفٌ بفرط الشجاعة، وآخر الأوّل بعلوّ الدرجة، وآخر الثاني بفرط الجود.

وأما تشابه الأطراف ـ فهو أن يَجعل الشاعر قافيةَ بيته الأوّلِ أوّلَ البيت الثاني، وقافيةَ الثاني أوّلَ الثالث، وهكذا إلى انتهاء كلامه، ومن أحسن ما قيل فيه قولُ ليلى الأَخْيَليّة تمدح الحجّاج: [من الطويل]

إذا نزل الحجّاج أرضًا مريضة — تَتَبَّعَ أقصى دائها فشَفاها
شَفاها مِن الداء العُضال الذي بها — غلام إذا هَزّ القناة سقاها
سقاها فروّاها بشُرب سِجالها — دماءَ رجال يَحلبُون صَراها[1]

هذا ما أَورده في حسن التوسّل من علوم المعاني والبيان والبديع، وقد أَتينا على أكثره بنَصّه لِمَا رأيناه من حسن تأليفه، وبديع ترصيفه، وأنّ اختصاره لا يمكن إلا عند الإخلال بفائدة لا يُستغنَى عنها فلم نحذِف منه إلا ما تَكرّر من الأمثلة والشواهد، لاستغنائنا بما أَوردناه عمّا حذفناه، فالنِّسبةُ فيه إلى فضائله وفضله والعُمدةُ على شواهده ونقله؛ فلقد أَحسن التأليف، وأجاد التعريف وٱحتَمَل التوقيف؛ وحَرّر الشواهد، وأَوضَح السبيل حتى صار الغائبُ عن هذه الصناعة إذا طالع كتابه كالشاهد؛ وأَبدَع في صناعة البديع، وبَيّن علم البيان بحسن الترصيف والترصيع؛ وٱعتَنَى بألفاظ

(١) الصرى: اللبن الفاسد المتغير الطعم.

المعاني فصرّفَ أعنّتَها ببَنانه، وأبان مُشكلَها فأحسَن في بيانه؛ وحَلّ في التعقيد عِقالها الذي عَجز غيرُه عن حَلّه، وسَهَّلَ للأفهام مقالها فأبرزته الألسنة من مُحرَّم اللفظ إلى حِلّه؛ فله المِنّةُ فيما أَلّف، والفضلُ بما صَنَّف.

وأما ما يتصل بذلك من خصائص الكتابة ـ فالاقتباس والاستشهاد والحل:

فالاقتباس هو أن يُضمّن الكلام شيئًا من القرآن أو الحديث، ولا يُنبّه عليه للعِلم به، كما في خُطَب ٱبن نُباتةَ[1]، كقوله: فيا أيها الغَفَلةُ المُطْرِقون، أما أنتم بهذا الحديث مصدِّقون؟ ما لكم لا تُشفقون؟ ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الذّاريات: الآية ٢٣]. وكقوله أيضًا: يوم يبعث الله العالمين خَلقًا جديدًا، ويَجعلُ الظالمين لجهنّم وَقُودًا، يوم تكونون ﴿شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البَقَرَة: الآية ١٤٣]، ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عِمرَان: الآية ٣٠].

ومن ذلك ما أَورد المولى شهابُ الدين محمود في تقليد عن الإمام الحاكم بأمر الله أبي العباس أحمد بالسلطنة، جاء منه: وجمع بك شمل الأمة بعد أن «كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ»، وعضّدك لإقامة إمامته بأولياء دَوْلتك الذين رَضِيَ الله عنهم؛ وخصّك بأنصار دينه الذين نَهَضوا بما أُمِروا به من طاعتك وهم فارهون، وأَظهَرك على الذين ﴿ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾ [التوبَة: الآية ٤٨] وأمثال ذلك.

وأما الاستشهاد بالآيات ـ فهو أن ينبّه عليها، كقول الحَرِيري: فقلتَ وأنت أصدق القائلين: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: الآية ١٠٧] ونحو ذلك.

وفي الأحاديث بالتنبيه عليها أيضًا، كقول المولى شهاب الدين محمود في خُطبة تقليدِ حاكميّ: ونصلي على سيدنا محمد الذي ٱستخرجه الله من عُنصُر أهله وذويه، وشَرَّف قدر جَدّه بقوله فيه: «إن عمّ الرجل صِنْوُ أبيه» وسَرَّه بما أَسَرَّ إليه من أنّ هذا الأمر فُتِح به ويُختَم ببنيه. وأمثالُ ذلك لا تُحصَر.

---

(١) ابن نُباتة: (٦٨٦ ـ ٧٦٨ هـ = ١٢٨٧ ـ ١٣٦٦ م)، هو محمد بن محمد بن محمد بن الحسن الجذامي الفارقي المصري، أبو بكر، جمال الدين، ابن نباتة. شاعر وكاتب وعالم بالأدب، ولد ومات في القاهرة، ووفد إلى الشام. له سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون» وديوان شعر. الخ. (الأعلام، للزركلي).

وأما الحَلّ ـ وهو باب مُتّسِع المجال، وَمِلاك أمر المتصدّى له أن يكون كثير الحفظ للأحاديث النَّبويّة والآثارِ والأمثالِ والأشعار ليُنفِقَ منها وقت الاحتياج إليها.

قال: وكيفيّة الحَلّ أن يَتوخّى هَدمَ البيت المنظوم، وحَلّ فرائِده من سِلكه، ثم يرتِّب تلك الفرائدَ وما شابهها ترتيبَ متمكِّن لَم يَحْصُرْه الوزن، ويُبرِزَها في أَحسنِ سلك، وأَجملِ قالِب، وأَصحّ سَبْك، ويكمّلَها بما يناسبها من أنواع البديع إن أمكن ذلك من غير كُلْفةٍ ويَتَخيَّرَ لها القرائن، وإذا تم معه المعنى المحلول في قرينة واحدة يَغْرَم له من حاصل فِكْره، أو من ذخيرة حفظِه ما يناسبه، وله أن يَنقُل المعنى إذا لم يُفسده إلى ما شاء، فإن كان نَسِيبًا وتأتَّى له أن يجعله مديحًا فليفعل، وكذلك غيرُه من الأنواع؛ وإذا أراد الحَلّ بالمعنى فلتكن ألفاظه مناسبةً لألفاظ البيت المحلول غيرَ قاصرة عنها، فمتى قَصُرت عنها ولو بلفظة واحدة فسد ذلك الحلّ وعُدّ مَعيبًا؛ وإذا حَلّ باللفظ فلا يَتصرّف بتقديم ولا تأخير ولا تبديل إلا مع مُراعاة نظام الفصاحة في ذلك، واجتنابِ ما يَنقُص المعنى ويَحطّ رتبته؛ وهذا الباب لا تنحصِر المقاصد فيه، ولا حَجْرَ على المتصرِّف فيه.

قال: ومما وقع التصرّف فيه بزيادة على المعنى قولُ ضياء الدين بنِ الأَثير الجَزَريّ في ذكر العصا التي يَتوكّأ عليها الشيخ الكبير: وهذه لمبتدأ ضَعفي خَبَر، ولِقَوس ظهري وَتَر، وإذا كان إلقاؤها دليلًا على الإقامة فإنّ حَمْلَها دليل على السَّفر. والمحلول في ذلك قولُ بعضهم: [من البسيط]

* كأنني قَوسُ رامٍ وهي لي وَتَرُ *

وقولُ الآخر: [من الطويل]

فألقت عصاها وٱستقَرّت بها النوَى كما قَرّ عَينًا بالإياب المسافرُ

وأما ما يحتاج فيه إلى مؤاخاة القرينة المحلولة بمثلِها أو ما يناسبها فكما قال المولى شهاب الدين محمود في تقليد:

فكم مَلّ ضَوءُ الصبح مما يُغيره، وظَلامُ النَّقْع مما يُثيره؛ وحَديد الهند مما يلاطمه والأجَلُ مما يسابقه إلى قَبْض الأرواح ويزاحمه.

والقَرينتان الأولَيان نِصْفا بيتين للمتنبّي، فأضاف إلى كل قرينة ما يناسبها، وهذا مِن أَكثر ما يستعمل في الكتابة، ولا يَنبغي للكاتب أن يعتمد في جميع كتابته على الحَلّ، فيتّكِل خاطره على ذلك، ويَذهب رَوْنَقُ الطبع السليم، وتَقلّ مادّة الانسجام بل

يكون ٱستعمال ذلك كاستعمال البديع إذا أتى عفوًا من غير تكلّف ليكون كالشاهد على صحة الكلام، والدالِّ على الاطّلاع، وكالرَّقم في الثوب، والشَّذْرة في القِلادة والواسطةِ في العِقد، إذ لا ينبغي للكاتب أن يُخْلِيَ كلامه من نوع من أنواع المحاسن.

ويقرُب من هذا النوع التلميح، وقد تقدّم ذِكره في بعض أبواب البديع، والذي يقع في بعض ٱستعماله في مِثل ذلك مِثلُ قول الحَريريّ: وإنّي والله لطالما لقِيت الشتاء بكافاته، وأعددتُ الأُهْبةَ له قَبْل مُوافاته. يشير إلى بيتَي ٱبنِ سُكّرة[1]: [من البسيط]

* جاء الشتاء وعندي من حوائجه *

وهي مشهورة.

فإذا عرف الكاتب هذه العلوم، وأتى الصناعة من هذه الأبواب تعيَّن عليه أمور أُخَرُ نذكرها الآن.

ذكر ما يتعيّن على الكاتب استعماله والمحافظة عليه والتمسّك به وما يجوز في الكتابة وما لا يجوز

قال إبراهيم بنُ محمد الشَّيْبَاني[2]: فإن ٱحتجتَ إلى مخاطَبة الملوكِ والوزراءِ والعلماءِ والكتابِ والأدباءِ والخطباءِ والشعراءِ وأوساطِ الناس وسُوقتهم، فخاطِبْ كلًّا على قدر أُبّهته وجلالته، وعلوّه وٱرتفاعه، وفطنته وٱنتباهه، ولِكلّ طبقة من هذه الطِّباق معانٍ ومذاهبُ يجب عليك أن ترعاها في مراسلتك إيّاهم في كتبك، وتزنَ كلامك في مخاطَبتهم بميزانه، وتعطيه قِسمته، وتُوفيَه نصيبه، فإنك متى أهملتَ ذلك وأضعتَه لم آمن عليك أن تعدِل بهم عن طريقهم، وتَسلُك بهم غير مَسلكهم، وتُجريَ شعاع بلاغتك في غير مُجراه، وتَنظِمَ جوهر كلامِك في غير سلكه، فلا تَعتدَّ بالمعنى الجَزْل ما لم تُلبِسه لفظًا لائقًا بمن كاتبتَه، وملامسًا لمن راسلتَه، فإن إلباسَك المعنى

---

(١) ابن سكرة: (٣٨٥ هـ = ٩٩٥ م)، هو محمد بن عبد الله بن محمد الهاشمي، أبو الحسن، المعروف بابن سكرة، شاعر طريف كبير من أهل بغداد. له ديوان شعر في أربعة مجلدات وهو صاحب البيتين: «جاء الشتاء وعندي من حوائجه...». (وفيات الأعيان، ج ٤، ص ٤٠، والأعلام، للزركلي).

(٢) إبراهيم بن محمد الشيباني: (٢٢٣ ـ ٢٩٨ هـ = ٨٣٨ ـ ٩١١ م)، أبو اليسر، ويعرف بالرياضي الكاتب: أديب، أصله من بغداد استقر في القيروان فترأس ديوان الإنشاء لبني الأغلب. له كتاب «سر الهدى» و«قطب الأدب». (الأعلام، للزركلي).

ـ وإن صح وشَرُف ـ لفظًا مختلِفًا عن قدر المكتوب إليه لم تَجرِ به عادته تهجينٌ للمعنى وإخلالٌ بقدْره، وظلم يلحق المكتوب إليه، ونقْصُ ما يجب له، كما أنّ في اتباع تعارُفِهم، وما انتَشرت به عادتهم، وجرت به سُنّتهم، قَطعًا لعذرهم، وخروجًا من حقوقهم، وبلوغًا إلى غاية مُرادهم، وإسقاطًا لحُجَة أدبهم.

وقال أحمد بنُ محمدِ بنِ عبد ربّه[1]: فامتثلْ هذه المذاهبَ، واجر على هذا القِوام، وتَحفّظْ في صدور كتبك وفصولها وافتتاحها وخواتمها، وضَع كل معنى في موضع يليق به، وتخيّرْ لكلّ لفظة معنى يشاكلها، وليكن ما تختم به فصولك في موضع ذكر البلوى مثل: «نسأل الله دَفْعَ المحذور، وصَرْفَ المكروه» وأشباهِ ذلك؛ وفي موضع ذكرِ المصيبة: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٥٦]؛ وفي موضع ذكر النعمة: «الحمد لله خالصًا، والشكر لله واجبًا» وما يشاكل ذلك، فإن هذه المواضع مما يَتعيّن على الكاتب أن يتفقده ويَتحفّظ منه، فإن الكاتب إنما يصير كاتبًا بأن يضع كل معنى في موضعه، ويعلّقَ كلّ لفظة على طَبَقتها في المعنى.

قال: واعلم أنه لا يجوز في الرسائل استعمال ما أتت به آيُ القرآن من الاختصار والحذف، ومخاطَبةِ الخاصّ بالعامّ والعامِّ بالخاصّ، لأن الله تعالى إنما خاطب بالقرآن قومًا فُصَحاء فَهِموا عنه ـ جلّ ثناؤه ـ أمرَه ونهيَه ومراده، والرسائل إنما يخاطَب بها قوم دُخَلاءُ على اللغة لا عِلم لهم بلسان العرب؛ وكذلك ينبغي للكاتب أن يتجنّب اللفظ المشترَك، والمعنى الملتبِس، فإنه إن ذهب ليكاتِب على معنى قول الله تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ [يُوسُف: الآية ٨٢] وكقوله تعالى: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [سَبَأ: الآية ٣٣] احتاج أن يبيِّن أن معناه: اسأل أهلَ القرية، وأهل العِير، وبل مكرُكم بالليل والنهار؛ قال: وكذلك لا يجوز أيضًا في الرسائل والبلاغات المنثورةِ ما يجوز في الأشعار الموزونة، لأن الشاعر مضطرّ، والشعر مقصور مقيَّد بالوزن والقوافي، فلذلك أجازوا لهم صرْفَ ما لا ينصرف من الأسماء، وحذْفَ ما لا يُحذف منها، واغتَفَروا فيه سوء النَّظم، وأجازوا فيه التقديم والتأخير، والإضمار في موضع الإظهار، وذلك كله غيرُ سائغ في الرسائل، ولا جائز في البلاغات.

---

(١) أحمد بن محمد بن عبد ربه: (٢٤٦ ـ ٣٢٨ هـ = ٨٦٠ ـ ٩٤٠ م)، من أهل قرطبة، شاعر عالم بالأدب. له قصائد ومقطعات في المواعظ والحكم نقض كل ما نظمه في صباه من الغزل. «وله العقد الفريد». (الأعلام، للزركلي).

فمما أجيز في الشعر من الحذف قولُ الشاعر: [من الرجز]

* قَواطِنا مكّةَ من وُرْقِ الحَمَا *

يريد الحَمَام، وكقول الآخَر: [من الرّجز]

* صِفْر الوِشاحَين صَمُوت الخَلْخَلِ *

يريد الخَلْخَال، وكقول الحُطَيئة: [من البسيط]

فيها الرماح وفيها كلُّ سابغة جَدْلاءَ مَسرودةٍ من فِعْلِ سلّامِ

يريد سليمان، وكقول الآخَر: [من الوافر]

وسائلةٍ بثَعلبةَ بنِ سَير وقد عَلِقَت بثعلبةَ العَلُوقُ[1]

يريد ثعلبة بن سَيَّار، وكقول الآخر: [من الطويل]

فلستُ بآتيه ولا أستطيعه وَلاكِ اَسقني إن كان ماؤكَ ذا فَضْلِ

أراد ولكن قال: وكذلك لا ينبغي في الرسائل أن يُصغَّر الاسمُ في موضع التعظيم وإن كان ذلك جائزًا، مِثلُ قولهم: دُوَيْهِيَةٌ تصغيرَ داهية، وجُذَيْلٌ وعُذَيْقٌ، تصغيرَ جِذْلٍ وعَذْقٍ[2]. قال لبيد: [من الطويل]

وكلُّ أُناس سوف تَدخُل بينهم دُوَيْهِيَّةٌ تصفرُّ منها الأنامُل

قال: فتَخيَّرْ من الألفاظ أرجحَها وزنًا، وأَجزلَها معنى وأَشرفَها جوهرًا وأَكرمَها حَسَبًا، وأَليَقَها في مكانها، وأَدِرِ الكلام في أماكنه، وقَلِّبْه على جميع وجوهه، ولا تجعل اللفظة قَلِقة في موضعها، نافرةً عن مكانها، فإنك متى فعلت ذلك هَجَّنتَ الموضع الذي حاولتَ تحسينه، وأَفسدتَ المكان الذي أردتَ إصلاحَه فإنّ وضعَ الألفاظ في غير أماكنها، والقصدَ بها إلى غير مَظانّها، إنما هو كترقيع الثوب الذي إن لم تتشابهْ رِقاعُه، ولم تتقارَبْ أجزاؤه، خرج عن حدّ الجِدّة، وتَغيَّر حسنه، كما

(١) العَلُوق: المنية.

(٢) الجذل: العود الذي تحك به الإبل الجربى لتشفى. أو هو ما عظم من أصول الشجر. العذق: النخلة بحملها. وفي ذلك إشارة إلى قول الحباب بن المنذر يوم السقيفة: «إن جذيلها المحكك، وعذيقها المرجب».

قال الشاعر: [من البسيط]

إنّ الجديدَ إذا ما زيد في خَلَقٍ   يَبِين للناس أنّ الثوب مرقوعُ

انتهى ما أورده ٱبنُ عبدِ ربّه.

وقال المولى الفاضل شهاب الدين محمود الحلبيّ: ومما يتعيّن على الكاتب ٱستعمالُه، والمحافَظةُ عليه، والتمسّكُ به، إعطاءُ كلٍّ مَقام حقَّه، فإذا كَتب في أوقات الحروب إلى نُوّاب المَلِك عنه، وإلى مقدَّمِي الجيوش والسَّرايا، فليتَوخَّ الإيجاز والألفاظ البليغة الدالّةَ على القصد من غير تطويل ولا بَسْط يضيِّع المَقصِد، ويَفصلُ الكلام بعضه من بعض، ولا تهويلٍ لأمر العدو يُضْعِف به القلوب، ولا تهوينٍ لِأمر يحصُل به الاغترار، وذكر لذلك أمثلة من إنشائه.

قال: فمن ذلك صُورةُ كِتاب أَنشأتُه إلى مقدَّم سَريّةِ كَشْفٍ ـ ولم أَكتُب به ـ وهو:

لا زال أَخَفَّ في مقاصده من وَطْأَة ضيف، وأَخفَى في مطالبه من زَوْرة طَيف، وأسرعَ في تنقُّله من سحابة صيف، وأَرْوَعَ للعدا في تَطلُّعه من سَلّة سيف، حتى يَعجَب عدوّ الدِّين في الاطّلاع على عوراته مِن أين دُهِيَ وكَيف؟ ويَعلم أنّ مَن أَوّلُ قِسمتِه اللّقاءُ حصل عليه في مقاصده الحَيْف؛ أصدرناها إليه نَحُثُّه على الركوب بطائفة أعجلَ من السَّيل، وأَهوَلَ من الليل، وأَيمنَ من نواصي الخيل؛ وأَقدمَ من النَّمِر، وأَوْقَعَ على المقاصد من الغيث المُنهمِر، وأَرْوَغَ في مُخاتَلة العِدا من الذئب الحَذِر؛ على خيل تَجرى ما وَجدتْ فَلاه، وتطيع راكبها مهما أراد منها سرعةً أَو أناه؛ تَتَسَنَّم الجبالَ الصُّمَّ كالوَعِل، وإذا جارتها البُروق غدت وراءها : [من البسيط]

* تمشي الهُوَينا كما يمشي الوَجِي الوَجِل[1] *

وليكن كالنجم في سُراه، وبُعدِ ذُراه؛ إن جرى فَكَسَهْم، وإن خَطَر فكوَهْم؛ وإن طَلَب فكالليل الذي هو مُدرِك، وإن طُلِب فكالجنّة التي لا يجد رِيحَها مُشرِك؛ حتى يأتي على عدوّ الدّين من كل شَرَف، ويَرى جَمْعَه من كل طَرَف، ولا يُسرِف في الإقامة عليه إلا إذا عَلم أن الخير في السَّرَف؛ وليُحرِز جَمْعَهم، ويَسبِقْ إلى التحرّز منهم بَصرَهم وسَمعَهم؛ ويَنظرْهم بعين منعها الحَزْم أن تَرى العَدد الكثير قليلًا، وصَدَّها العزم أن تَرى العدوَّ الحقيرَ جليلًا؛ بل تَرى الأمر على فَصّه، وتَروِي الخبرَ

(١) الوجِي الوجل: الحافي الخائف.

على نَصّه؛ وإن وَجد مغرِّرًا فليأخذ خَبَره، إن قَدَر على الإتيان بعَينه وإلّا فليذهب أَثَرَه؛ ولا يَهِيج فيما لديه نارَ حرب إلا بعد الثقة بإطفائها، ولا يُوقظ عليه عينَ عدوّ مهما ظهر له أن المصلحة في إغفائها؛ وليَكشِف من أمورهم ما يُبدِي عند المُلتقى عَورتَهم، ويُخمِدُ في حالة الزَّحْف فَورتَهم؛ وليجعل قلبه في ذلك رَبيئةَ طَرْفه، وطَلِيعةَ طِرْفه، وسَرِيّةَ كَشْفِه والله تعالى يُمِدّه بلطفه، ويحفظه بمعقِّبات مِن بين يديه ومِن خَلْفه.

وإذا كَتَبَ عن المَلِك في أوقات حركات العدوّ إلى أهل الثغور يُعلمهم بالحركة للقاء العدوّ، فليبسُط القول في وصف العزائم، وقوّةِ الهِمم، وشدّةِ الحَميّة للدين، وكثرةِ العساكر والجيوش، وسرعة الحركة، وطيّ المَراحل، ومعالجةِ العدوّ، وتخييلِ أسباب النصر، والوُثوقِ بعوائد الله في الظَّفَر، وتقويةِ القلوب منهم، وبَسْطِ آمالهم، وحَثِّهم على التيقظ، وحَضِّهم على حفظ ما بأيديهم، وما أشبه ذلك، ويُبرِزه في أمتن كلام وأجلّه وأَمكَنِه، وأَقربِه من القوّة والبَسالة، وأَبعدِه من اللِّين والرقّة، ويبالغ في وصف الإنابة إلى الله تعالى، وٱستنزالِ نصره وتأييده، والرجوعِ إليه في تثبيت الأقدام، والاعتصامِ به في الصبر، والاستعانةِ به على العدوّ، والرغبةِ إليه في خِذلانهم، وزلزلة أقدامهم، وجعلِ الدائرة عليهم، دون التصريح بسؤال بُطلان حركتهم، ورجاءِ تأخُّرهم، وٱنتظار العَرَضيّات في خُلْفهم، لما في ذلك من إيهام الضَّعف عن لقائهم وٱستشعارِ الوَهْن والخوف منهم، وليسلُك في مثل ذلك كما سَلك المولى شهاب الدين محمود في نحو ما كتب في صدر كتاب سلطانيّ إلى بعض نُوّاب الثغور عند حركة العدوّ، فإنه قال:

أصدرناها ومنادي النَّفِير قد أَعلن: يا خيل ٱلله ٱركبي، ويا ملائكة ٱلرحمن ٱصحَبي ويا وفود الظَّفَر والتأييد ٱقرُبي؛ والعزائم قد رَكَضت على سوابق الرُّعب إلى العِدا والهِممُ قد نَهضت إلى عدوّ الإسلام فلو كان في مَطلَع الشمس لاستَقربتْ ما بينها وبينه من المدى؛ والسيوفُ قد أَنِفت من الغُمود فكان تنفِر من قُربها، والأسنّةُ قد ظَمئت إلى مَوارد القلوب فتشوقت إلى الارتواء من قُلْبها[1]؛ والكُماةُ قد زَأرت كالليوث إذا دنت من فرائسها، والجياد قد مَرِحت لِما عودتْها من الانتعال بجماجم الأبطال فوارسُها؛ والجيوشُ قد كاثرت النجومَ أعدادُها، وسايرتْها للهجوم على أعداء الله من ملائكته الكرام أمدادُها؛ والنفوس قد أَضرمت الحَميّةُ نارَ غضبها،

(١) القلب: بضم القاف: الآبار واحدها القليب.

وعداها حَرُّ الإشفاق على ثغور ٱلمسلمين عن بَرْد الثغور وطِيب شَنَبِها؛ والنصرُ قد أشرقت في الوجود دلائلُه، والتأييدُ قد ظهرت على الوجوه مَخايلُه، وحُسْنُ اليقين بالله في إعزاز دينه قد أنبأت بحسن ٱلمآل أوائلُه؛ والألسنُ باستنزال نصر الله لَهِجه والأرجاءُ بأرواح القبول أَرِجه، والقلوبُ بعوائد لطف ٱلله بهذه الأمّة مبتهِجه والحُماةُ وما منهم إلا من ٱستَظهَر بإمكان قوّته وقوّة إمكانه، والأبطالُ وليس فيهم من يسأل عن عَدَد عدوٍّ بل عن مكانه؛ والنيّات على طلب عدوّ ٱلله حيث كان مجتمعه والخواطرُ مطمئنّةٌ بكونها مع الله بصدقها، ومن كان مع ٱلله كان ٱلله معه؛ وما بقيَ، إلا طيُّ المَراحل، والنزولُ على أطراف الثغور نزولَ الغيث على البلَد ٱلماحل؛ والإحاطةُ بعدوّ الله من كل جانب، وإنزالُ نفوسهم على حكم الأمْرَين الأمَرَّين: مِن عذاب واصب، وهمٍّ ناصب؛ وإحالةُ وُجودهم إلى العَدَم، وإجالةُ السيوف التي إن أنكرتْها أعناقُهم فما بالعهد من قِدَم؛ وٱصطلامُهم على أيدي العصابة المؤيَّدة بنصر الله في حربها، وٱبتلاؤهم من حَمَلاتها بريح عادٍ التي تدمِّر كل شيء بأمر ربها؛ فليكن مرتقِبًا لطُلوع طلائعها عليه، متيقِّنًا من كرم الله ٱستئصالَ عدوِّه الذي إن فرّ أَدركتْه مِن ورائه، وإن ثَبت أخذتْه مِن بين يديه؛ وليجتهد في حفظ ما قِبَله من الأطراف وضَمِّها، وجَمعِ سَوام الرعايا من الأماكن المتخوَّفة ولَمِّهَا، وإصلاحِ ما يُحتاج إلى إصلاحه من مسالك الأرباض المتطرِّفة ورَمِّها، فإنّ الاحتياط على كل حال مِن آكَدِ المصالح الإسلاميّة وأَهمِّها؛ فكأنه بالعدوّ وقد زال طمَعُه، وزاد ظَلَعُه؛ وذَمَّ عقبى مَسِيرِه، وتحقق سُوءَ منقلَبه ومصيرِه، وتَبرَّأَ منه الشيطان الذي دلّاه بغُروره، وأصبح لحمهُ موزَّعًا بين ذئاب الفلا وضباعها، وبين عِقْبانِ الجوّ ونُسورِه؛ ثِقةً من وعد الله الذي تَمسَّكْنا منه باليقين، وتَحقَّقنا أن الله ينصر من ينصره وأن العاقبة للمتقين.

قال: وزيادةُ البسط في ذلك ونقْصُها بحسب المكتوب إليه.

وإذا كَتب في التهاني بالفُتوح، فليس إلّا بَسْطُ الكلام، والإطنابُ في شكر نِعَم الله، والتبرُّؤ من الحَول والقُوّة إلّا به، ووصْفُ ما أَعْطَى من النصر، وذِكرُ ما مَنَح من الثَّبات، وتعظيمُ ما يَسَّر من الفتح؛ ثم ما وَصَف بعد ذلك مِن عزمٍ وإقدام وصبرٍ وجَلَد عن المَلِك وعن جيشه حَسُن وصفُه، ولاقَ ذِكرُه، وراقَ التوسيعُ منه، وعَذُب بَسْط الكلام فيه؛ ثم كلّما ٱتسَع مجال الكلام في ذكر الواقعة ووصفِها كان أَحسَنَ وأَدَلَّ على البلاغة، وأَدعَى لسرور المكتوب إليه، وأَحسن لموقع المِنّة عنده، وأَشهَى إلى سمعه، وأَشفَى لغَليل تَشوُّقِه إلى معرفة الحال على جَليّته، ولا بأس بتهويل أمرِ

العدوّ، ووصفِ جَمْعِه وإقدامه، فإن تصغير أمره تحقيرٌ للظَّفَرَ به؛ وقد ذَكرنا في باب التهاني من ذلك ما تَقدَّم شرحُه، فلنذكر في هذا الموضع من كلامه فيه ما لم نُورده في باب التهاني.

قال: وإن كان المكتوب إليه مَلِكًا صاحبَ مَمْلَكة منفردة تَعيَّن أن يكون البَسْط أكثرَ، والإطنابُ أمدَّ، والتهويلُ أبلَغ، والشرحُ أتمَّ؛ فمن ذلك فصلٌ كتبته في جواب ابن الأحمرِ صاحبِ غَرْناطَةَ من جزيرة الأَندلُس، قال:

أما بعد حمد الله الذي أيَّدنا بجنودِهِ، وأنجَزَ لنا مِن نصرِ الأمّة صادقَ وُعودِهِ وخَصّنا من ٱستدامة الفُتوح بمزايا مَزِيدِه، وأيَّدنا بنصره، ونَصرَنا بتأييدِه، والصّلاة والسلام على سيدنا محمد أشرف رسله، وخاتَم أنبيائه، وأكرمِ عبيدِه، وأعزِّ من دَعا الأمم وقد أَنكرت خالقها إلى الإقرار بتوحيده، وعلى آله وصحبه الذين أَشرَق أُفُق الدين منهم بكواكب سُعودِه؛ فإنا أصدرناها ونِعَمُ الله تعالى بنا مُطِيفه، ومَواقعُ نصره عندنا لطيفه، وجنودُ تأييده لممالك الأعداء إلى مَمَالكنا الشريفة مُضيفه، وثغورُ الإسلام بذَبنا عن دين الله منيره، وبإعلائنا مَنارَ الهدى مُنِيفه؛ ونحن نحمَد الله على ذلك حمدًا نستَدِرّ به أخلافَ الظَّفَر، ونستدِيم به مَوادَّ التأييد على مَن كفر؛ ونَستَمِدّ به عوائد النصر التي كم أَقدَمها علينا إقدام، وأسفَر لنا عنها وجهُ سَفَر؛ ونُهدِي إليه ثناءً تَعبَق بنَشْر الرياض خَمائلُه، وتَنطِق بمَحض الوداد مَخايلُه، وتُشرِق على أُفق مَفاخره غَدواتُه وأَصائلُه؛ يُشافَه مجدُه بمَصُونه، ويُصارَح فخرُه بمكنونه، ويجلو على حضرته العليّة عقائلَ الشَّرَف من أبكار الهَناء وعُونِه؛ ونُبدِي لعلمه الكريم ورودَ كتابه الجليل مُسفرًا عن لوامع صفائه، منبئًا بجوامع وُدّه ووفائه؛ مُشرِقًا بلآلىء فَرائِده، مُحدِقًا برَوض كرمه الذي سَعِد رأيُ رائِده؛ محتويًا على سروره بما بَلَغه من أنباء النُّصْرة التي سارت بها إليه سُرْعانُ الرُّكبان، وذَلّت بعِزّ ما تُلِيَ منها عليه عُبّاد الصلبان؛ وطَبّق ذِكرُها المشارقَ والمغارب، ومَزَّقتْ مَواكبَ أعداء الله التّتارِ وهم في رأيِ العين أعداد الكواكب، وخَلطَت التراب بدمائهم حتى لم يُبَح بها التيمُّم، ومَزَجتْ بها الفُراتَ حتى ما تَحِلّ لشارب؛ وهي النُّصْرة التي لا يُدرِك الوصف كُنْهَهَا، ولا تعرف لها البلاغة مُشبِهًا فتذكُر شِبهَها؛ ولا يَتَّسع نِطاق النطق لِذكرِها، ولا تَنهَض الألسنة على طول الأبَدِ بشكرها؛ فإنّ التّتار المخذولين أقبلوا كالرّمال، وٱصطَفُّوا كالجبال؛ وتَدفَّقوا كالبحار الزَّواخر، وتوالَوا كالأمواج التي لا يُعرَف لها الأوّلُ من الآخِر؛ فصدَمتْهم جيوشنا المنصورةُ صدْمةً بَدّدتْ شَملهم، وعَلّمت الطيرَ أَكْلَهم؛ وحَصَرتْهم في

الفضاء، وطالبتْ أرواحَهم الكافرةَ بدَين دِينها وأَسرفتْ في الاقتضاء؛ وحَصَدتْ منهم سيوفنا المنصورةُ ما يخرج عن وصفِ الواصف، ومَزَّقتْ بقيّتهم في الفلوات فكانوا كرَماد اشتَدّت به الرّيحُ في يوم عاصف؛ وأحاطت بهم كتائبنا المنصورة فلم يَنجُ إلا من لا يُؤبَه له من فريقِهم، وقسمتهم جيوشنا المؤيَّدة من الفَلَوات إلى الفُرات بين القتل والأسر، فلم يخرج عن تلك القسمة غيرُ غريقِهم؛ وأَعقبتهم تلك الكسرةُ أن هَلَك طاغيتُهم أسفًا وحسرة، وحزنًا على من قُتِل من تلك المُقاتِلة، وأُسِر من تلك الأَسْرة، وأماته الرُّعبُ من جيوشنا المنصورةِ فُجاءه، واستَولَى عليه الوَجَل فجاءه مِن أمر الله ما جاءه؛ وقعد أخوه بعده مكانَه، والخوفُ من عساكرنا يضعضِع أركانَه، والفَرَقُ من جيوشنا يُفرِّق أعوانَه، ويُمزِّق إخوانَه، ويُوهِي سلطانَه ويُبرِّىءُ منه شيطانَه؛ فلاذ بالالتجاء إلى سِلْمنا، وعاذ بأسناد الرجاء من كَفِّنا عنه وَحِلمنا؛ فكرّرَ رُسُلَه ورسائلَه مستعطِفًا، ووالى كُتبَه ووسائلَه مستعفِيًا من حربنا ومستسعِفًا؛ وها هو الآن وجنوده يَتوسّلون بالخضوع إلى مَراحمنا؛ ويَتوصّلون ببَذل الطاعة إلى مَكارمنا؛ ويسألون صَفْح الصِّفاحِ الإسلاميّة عن رقابهم، ويُبدون ما أظهره الله عليهم من الذلّ الذي جعلته تلك النُّصْرة خالدًا في أعقابهم؛ وسيوفُنا تأبَى قَبولَ وسائِلهم، وتُصِرُّ على نَهْر سائِلهم، وتمنع من الكفّ عن مَقاتِلِهم، وتأنَف أن تُغمَد إلّا في قِمَمم مُحارِبِهم ومُقاتِلِهم؛ ونحن على ما نحن من الأُهْبَة لغزوِهم في عُقْر دارِهم، وانتزاعِ مَواطن الخلافة وغيرها من ممالك الإسلام من بين نُيوبهم وأظفارِهم؛ مستنصرين بالله على من بقِيَ في خُطّ المَشرِق منهم؛ قائمِين فيهم بفَرض الجهاد الذي لولا دِفاعُ الله به لم يَمتنع خُطّ المَغرِب عنهم؛ ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ [الحج: الآية ٤٠]، ولو عَددنا نعمَ الله علينا حاولنا عَدَّ ما لا نُحصِيه ولا نحصُره.

وإن اضطُرّ أن يكتُب بِمثل ذلك إلى مَلِك غيرِ مسلم لكنّه غيرُ مُحارب، فالحُكْم في ذلك أن يَذكُر من أسباب المودّة ما يَقتضِي المشارَكة في المَسارّ، وأنّ أمر هذا العَدد مع كثرته أُخذ بأطراف الأنامل، وآلَ أمرُه إلى ما آل، ويُعظِّم ذِكرَ ما جرَى عليه من القتل والأسر، وتلك عوائدُ نصر الله، وانتقامِه ممّن عادانا؛

فمن ذلك ما أنشأه المُشار إليه لبعض ملوك البحر ـ ولم يكتب به ـ وهو:

صَدرتْ هذه المكاتَبةُ مبشِّرةً له بما منحنا الله من نُصْرة أَجزَل الصفاءُ منها سهمَه، وأَكْمَل الوفاءُ من التهنئة بها قِسْمَه؛ وخصّه الوِدادُ بأجلّ أجزائها، وأَجلسه الاتحادُ على أسِرّة مَسَرّتها إذا أجلس العنادُ غيرَه على بِساط عَزائها؛ عِلمًا بأنه الصديق

الذي تُبهِجه مَسارُ صديقه، والصاحبُ الذي يَرى مساهَمَة صاحبه في بشرى الظَّفَر بأعدائه أدنى حقوقه؛ وذلك أنه قد عَلم ما كان من أمر هؤلاء التَّتار في حركاتهم الذميمة، وعَزَماتِهم التي ما ٱحتَفَلوا لها إلا وكان أحَدّ سلاحِهم فيها الهَزِيمة، وغاراتِهم التي ما حَشَدوا لها إلّا وقَنِعوا فيها بالإياب من الغَنِيمة؛ وأنهم ما أقدموا علينا إلا وعُدِموا، ولا سَلكوا إلينا إلّا وهَلَكوا؛ حتى إنّ الأرض إلى الآن لم تَجِفَّ من دمائهم، وإنّ الفُرات يكاد يَشِفّ للمتأمّل عن أشلائهم؛ وأن الشيطان بعد ذلك جدّد طَمَعَهم، وسَكّن هَلَعهم؛ وأنساهم مَصارع إخوانهم، وأسلاهم بما زَيّن لهم من بلوغ أوطارهم عن أوطانهم؛ وقال لهم: لا غالب لكم اليوم من الناس، وتلك الوقائعُ التي أُصِبتم فيها قد لا يَجرِي الأمر فيها على القياس؛ وحَسَّن لهم المُحال وغَرّهم وجرّأهم على قصد البلاد المحروسة، وفي الحقيقة ٱستَجرّهم؛ فحَشدوا جموعهم وجَمعوا حُشودَهم، وٱستَفرَغوا في الاستنفار والاستظهار طاقتهم ومجهودَهم؛ ومالأهم على ذلك من المجاورين من أبطَن شِقاقَه، وكَتم نفاقَه، وأنساه الشيطان ما سلف من تنفيسنا عنه وقد لازم الحَتْفُ خِناقَه؛ ونحن في ذلك نُوسعهم إمهالًا، ونَبسُط لهم في التَّوغُّل آمالًا، ونَأْخذ أمرهم بالأَناة ٱستدراجًا لهم لا إهمالًا؛ إلى أن بَعُدوا عن مَواطن الهرَب، وحَصَل من ٱستدراجهم الأَرَب؛ فوثبنا عليهم وُثوبَ الليث إذا ظَفِر بصَيده، ونهَضنا نحوهم نُهوضَ الحازم إذا وقع عدوه في أُحبولة كَيده؛ وصدمتهم جيوشنا المنصورةُ صَدمةً فَلَّت غَرْبَهم، وأبطلتْ طَعْنهم وضرْبَهم، وصَبَغت بدمائهم تُرْبَهم؛ وحَكَّمت السيوفَ في مقَاتِلِهم، ومَكّنت الحُتُوف من صاحب رأيهم ومُقاتِلِهم؛ وسَلَّطت العَدَم على وجودِهم، وحطَّتهم عن سُروجهم إلى مَصارعهم أو قُيُودِهم؛ ﴿فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [الأعراف: الآية ١١٩]، وعادُوا على عادتهم خاسئين، ورَجَعُوا على أعقابهم خاسرين؛ وما أغنَى عنهم جمعُهم، وما أفادهم بصرُهم فيما شاهدوه من قبل ولا سمْعُهم؛ فركَن من بَقِي منهم إلى الفِرار، وعاذ ببَرْد الهرَب مِن لَهب تلك السيوف الحِرار وظَنّ من ٱنهزم منهم أنه فات الرماح، فتناولتْه بأرماح من العطش القِفار؛ فولّوا والرعبُ يزلزِل أقدامهم، والذُّعْرُ يقلّل إقدامَهم؛ والصِّفاحُ تَتخطَّفهم من ورائهم والجِراحُ تُطمِع الطَّير في أكلهم حتى تقع على أحيائهم؛ حتى أَصبحوا هَشيمًا تلعب بهم الصَّبا والدَّبور، أو أحياءً ييْئس منهم أهلهم: ﴿كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾ [المُمتَحنَة: الآية ١٣] وصَفَحنا عمّن نافقنا ووافقَهم ولولا ذلك لَما نجا، ورجا عواطفَنا في الإبقاء على نفسه، فأجابه حِلْمُنا ـ وعِلْمُنا أنه في القَبضة ـ

إلى ما رَجا؛ فليأخذ المَلِك حظّه من هذه البشرى التي تَسُرُّ قلبَ الوليِّ المُحِبّ بوادرُها، وتَشرح صدر الحَفيِّ المُحِقّ مواردُها ومَصادرُها؛ والله تعالى يُبهِجه عنا بسماع أمثالها، ويديمُ سروره بما جلوناه عليه من مثالها.

قال: فإن كان المكتوب إليه متّهَمًا بمُمالأة العدوّ كتب إليه بما يَدُلّ على التقريع والتهكُّم، وإبراز التهديد في مَعرِض الإخبار، كما كتب المشار إليه عن السلطان إلى متملّك سِيس[1] ـ وكان قد شَهِد الوقعة مع العدوّ ـ قال منه:

بصَّره الله برشده، وأراه مَواقع غَيّه في الإصرار على مخالَفته ونقض عهدِه وأسلاه بسلامة نفْسه عمّن روَّعَته السيوف الإسلاميّة بفقدِه؛ صدرتْ تُعرِّفه أنه قد تَحقّق ما كان من أمر العدوّ الذي دلّاه بغُروره، وحَمَلَه التمسّك بخداعه على مجانبة الصواب في أموره؛ وأنهم آستَنجَدوا بكلّ طائفة، وأقدموا على البلاد الإسلاميّة بنفوس طامعة وقلوب خائفة؛ وذلك بعد أن أقاموا مدّة يشترون المُخادَعة بالموادَعة، ويُسِرّون المصارَمة في المسالَمة؛ ويُظهرون في الظاهر أمورًا، ويدبّرون في الباطن أمورًا، ويَعِدون كل طائفة من أعداء الدين مِثلَه ويُمَنُّونهم ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النّساء: الآية ١٢٠]؛ وكنّا بمَكْرهم عالمِين، وعلى معالَجتهم عاملِين؛ وحين تَبيَّن مرادُهم وتَكمَّل آحتشادُهم؛ استدرجناهم إلى مَصارعهم، واستجررناهم ليَقرُبوا في القتل مِن مَضاجِعهم، ويَبعُدوا في الهرَب عن مواضعهم؛ وصدمناهم بقوّة أشد صدمة لم يكن لهم بها قِبَل، وحَملْنا عليهم حَمْلةً ألجأهم طُوفانُها إلى ذلك الجبل، وهل تَعصِم من أمْر الله حِيَل؟ فحصرناهم في ذلك الفضاء المتّسِع، وضايقناهم كما قد رأى ومزَّقناهم كما قد سَمِع، وأنزلناهم على حُكم السيف الذي نَهِل من دمائهم حتى رَوِيَ وأَكَل من لُحومهم حتى شَبِع، وتَبِعتهم جيوشنا المنصورةُ تَتخطَّفُهم رماحُها، وتَتلَقفُهم صِفاحُها، ويبدِّدهم في الفَلَوات رُعبُها، ويفرِّقهم في القِفار طَعنُها المتدارِكُ وضربُها؛ ويَقتُل من فات السيوفَ منهم العطشُ والجوع، ويُخيَّل للحيّ منهم أنّ وطنه كالدنيا التي ليس للميت إليها رجوع؛ ولعله قد رأى ذلك فوق ما وُصِف عِيانًا، وتَحقّق من كل ما لا يحتاج أن نَزيدَه به علمًا ولا نُقيمَ له عليه برهانًا؛ وقد عَلِم أنّ أمر هذا العدوّ المخذول ما زال معنا على هذه الوَتِيرة، وأنهم ما أقدموا إلا ونَصَرَ الله عليهم في مَواطنَ كثيرة؛ وما ساقتهم الأطماع في وقتٍ إلا إلى حُتوفهم، ولا عادَ منهم قَطُّ في

---

(١) سيس: أو سيسية، ثغر في بلاد الشام يقع بين أنطاكية وطرطوس على عين زربة. (ياقوت معجم البلدان، ج ٣، ص ٢١٧).

وقعة إلا آحادٌ تُخبِر عن مَصارع ألوفهم؛ ولقد أضاع الحَزْمَ من حيث لم يَستدِم نِعَمَ الله عليه بطاعتنا التي كان في مِهادِ أَمْنِها، ووِهادِ يُمْنها؛ وحِمايةِ عفوها، وبَرْد رأفتها التي كدَّرها بالمخالَفة بَعْدَ صفوها؛ يصون رعاياه بالطاعة عن القتل والإسار، ويحمِي أهل مِلّته بالحَذَر من الحركات التي ما نَهَضوا إليها إلا وجرّوا ذيول الخَسار؛ ولقد عرَّض نفسه وأصحابَه لسيوفنا التي كان من سَطَواتِها في أمان، ووَثِق بما ضَمِن له التّتار مِن نصره وقد رأى ما آل إليه أمرُ ذلك الضّمان؛ وجَرّ لنفسه بموالاة التتار عَناءً كان عنه في غِنى، وأَوقع رُوحه بمضافرة المغول في حَومة السيوف التي تخطَّفت أولياءَه مِن هنا ومِن هنا؛ واقتَحم بنفسه مَواردَ هلاكٍ سَلبت رداء الأمن عن مَنكِبَيه واْغترّ هو وقومُه بما زَيّن لهم الشيطان من غُروره ﴿فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [الأنفال: الآية ٤٨]، وما هو والوقوفَ في هذه المَواطن التي تتزلزل فيها أقدام الملوك الأكاسرة وأنّى لِضعاف النّقاد قدرةٌ على الثّبات لوَثَبات الأُسود الضارية واللُّيوث الكاسرة؛ لقد اْعتَرض بين السهم والهَدَف بنَحره، وتَعرّض للوقوف بين ناب الأَسَد وظُفرِه؛ وهو يعلم أننا مع ذلك نرعى له حقوق أسلافه التي ماتوا عليها، ونحفظ له خدمة آبائه التي بذلوا نفوسهم ونفائسهم في الوصول إليها؛ ونُجْريه وأهلَ بلاده مُجرَى أهلِ ذمّتنا الذين لا نُؤيسهم من عفونا مهما اْستقاموا، ونَسلُك بهم حُكمَ من في أطراف البلاد من رعايانا الذين هم في قَبضتنا نَزَحوا أو أقاموا؛ ونحن نتحقّق أنه ما بقِيَ يَنسى ملازَمَةَ رِبْقةِ الحتف خِناقَه، ولا يَرجِع يُهوِّر نفسه في مَوارد الهلاك، وهل يَرجِع إلى الموت من ذاقه؟ فيَستدرِك بابَ الإنابة قَبل أن يُغلَق دونَه، ويصون نفسه وأهله قَبل أن تَبذُل السيوفُ الإسلاميّة مَصُونَه، ويبادِر إلى الطاعة قبل أن يَبذُلها فلا تُقبَل، ويَتمسَّك بأذيال العفو قبل أن تُرفَع دونه فلا تُسبَل؛ ويُعجِّل بحَمْل أموال القَطِيعة وإلّا كان أهلُه وأولادُه في جملة ما يُحْمَل منها إلينا، ويُسلِّم مَفاتح ما عدا عليه من فُتوحنا، وإلّا فهو يعلم أنها وجميعَ ما تأخّر في بلاده بين يدَينا؛ ويكونُ هو السببَ في تَمزُّق شَمْلِه، وتَفرُّقِ أهلِه، وقَلْع بيته من أصله؛ وهَدم كَنائِسِه، واْبتذالِ نفسِه ونفائسه؛ واسترقاق حَرَمِه، واْستخدام أولاده قَبْلَ خَدَمِه؛ واْقتلاع قِلاعِه، وإحراقِ رُبوعه ورِباعِهِ[1]، وتعجيلِ رؤية ما أُوعِدَ به قبل سماعِه، ومن لقازان بأن يجابَ إلى مثل ذلك، أو يُسمَحَ له مع الأمن من سيوفنا ببعض ما في يده من الممالك؛ ليَقْنع بما أبقت جيوشنا المؤيَّدةُ في يده من الخيل والخَول، ويَعيشَ في الأمن ببعض ما نَسمح له به، ومن للعُور بالحَوَل؛ والسيوفُ

---

(١) الرِباع: جمع رُبَع، وهو الفصيل في أول النتاج، والمراد الماشية.

الآن مُصغيَةٌ إلى جوابه لتُكفَّ إن أبصر سُبل الرشاد، أو تَتعوَّضَ برؤوس حُماتِه وكُماته عن الأغماد إن أصرّ على العناد، والخير يكون.

وأما التقاليد والمناشير والتواقيع وما يتعلّق بذلك ـ فالأحسن فيها بَسطُ الكلام، وتُعتبَر كثرتُه وقلّتُه بحَسَب الرتَب، ويجب أن يراعَى فيها أمور:

منها بَراعة الاستهلال بذكر الرتبة أو المال، أو قدْرِ النعمة، أو لقبِ صاحب التقليد أو اسمِه بحيث لا يكون المَطْلَع أجنبيًا من هذه الأحوال، ولا بعيدًا منها، ولا مباينًا لها، ثم يَستصحِب ما يناسب الغرض ويوافق المقصد من أوّل الخطبة إلى آخرها؛ قال: ويَحسُن أن يكون الكلام في التقليد منقسمًا إلى أربعة أقسام متقارِبةِ المقادير، فالرُّبعُ الأوّلُ الخُطبة، والثاني ذِكرُ مَوقع الإنعام في حقّ المقلَّد، وذِكرُ الرتبةِ وتفخيمُ أمرها، والثالث في أوصاف المقلَّد وذِكرِ ما يناسب تلك الرتبةَ ويناسب حاله من عدل وسياسة ومَهابةٍ وبُعدِ صِيت، وسُمْعَةٍ وشجاعةٍ إن كان نائبًا، ووَصفِ العدل والرأي وحسنِ التدبير، والمعرفةِ بوجوه الأموال، وعمارةِ البلاد، وصلاحِ الأحوال، وما يناسب ذلك إن كان وزيرًا؛ وكذلك في كلّ رتبة بحسبها، والرابع في الوصايا؛

ومنها أن يُرَاعِيَ المناسَبة وما تقتضيه الحال، فلا يُعطِي أحدًا فوق حقِّه، ولا يصفه بأكثر مما يراد مِن مِثله، ويراعي أيضًا مقدار النعمة والرتبة، فيكون وصفُ المِنّة على مقدار ذلك.

ومنها أن لا يصف المتولِّيَ بما يكون فيه تعريضٌ بالمعزول وتنقُّصٌ له، فإنّ ذلك مما يُوغر الصدور، ويؤرِّث الضغائن في القلوب، ويدُلّ على ضعف الآراء في اختيار الأوّل، وله أن يصف الثانيَ بما يحصل به المقصود من غير تعريض بالأوّل؛

ومنها أن يَتخيّر الكلام والمعاني، فإنه مما يَشِيع ويَذِيع، ولا يُعذَر المقصِّرُ في ذلك بعجلة ولا ضيق وقت، فإنّ مَجال الكلام عليه متّسِع، والبلاغة تَظهَر في القليل والكثير، والأمر الجاري في ذلك على العادة معروف، لكن تقع أشياءُ خارجةٌ عن العادة، نادرةُ الوُقوع، فيَحتاج الكاتب فيها إلى حسن التصرّف على ما تقتضيه الحال؛ فمن ذلك تقليدٌ من إنشاء المولى الفاضل شهاب الدين محمود الحلبيّ كتبه لمتملّك سِيس بإقراره على ما قاطع النهر من بلاده، وهو:

الحمد لله الذي خَصّ أيامنا الزاهرةَ باصطناع ملوك الملل، وفضّل دولتنا القاهرةَ بإجابة من سأل بعضَ ما أَحرزتْه لها البِيضُ والأَسَل، وجعل من خصائص

ملكنا إطلاقَ الممالك وإعطاءَ الدُّوَل، والمَنَّ بالنفوس التي جعلها النصر لنا من جملة الخَوَل، وأغرى عواطفنا بتحقيق رجاء من مَدّ إلى عوارفنا كفَّ الأمل، وأفاض بمَواهب نعمائنا على من أناب إلى الطاعة حُلَل الأمن بَعد الوَجَل، وٱنتَزع بآلائنا لمن تمسّك بولائنا أرواحَ رعاياه من قَبضة الأجل، وجعل بَرْد العفو عنه وعنهم بالطاعة نتيجة ما أذاقهم العصيان من حرارة الغضب، إذ ربما صَحّت الأجسام بالعِلل؛ نحمَده على نعمه التي جعلت عفوَنا ممن رجاه قريبًا وكرمَنا لمن دعاه بإخلاص الطاعة مُجيبًا، وبِرّنا لمن أَقبل إليه منيبًا بوجه الأمل مُثيبًا، وبأسَنا مصيبًا لمن لم يجعل الله له في التمسّك بمَراحمنا نصيبًا؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة تَعصِم دم من تَمسَّك بذمامها، وتَحسِم مَوادَّ من عاندها بانتقام حسامها، وتَفصِم عُرى الأعناق ممن أَطمعه الغُرور في ٱنفصال أحكامها وٱنفصامها، وتَقصِم مَن قصد إطفاءَ ما أظهره الله من نورها، وانقطاعَ ما قضاه من دوامها، وتَجعل كلمة حَملَتِها هي العليا، فلا تَزال أعناقُ جاحِدِيها في قبضة أوليائها وتحت أقدامها؛ ونشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله المبعوثُ بالهدى ودين الحق إلى كلّ أمّة، المنعوتُ في الكتب المنزّلة بالرأفة والرحمة، المخصوصُ مع عموم المعجزات بخَمس منهنّ الرعبُ الذي كان يتقدّمه إلى مَن قصَده، ويسبِقه مَسِيرةَ شهر إلى من أَمّه، المنصوصُ في الصحف المحكَمة على جهاد أمته، الذي لا حياة لمن لم يَتمسّك من طاعته بذمته؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين فتحوا بدعوته الممالك، وأَوضحوا بشِرْعته إلى الله المسالك، وجلَوا بنور سُنّته عن وجه الزمن كلَّ حال حالك، وأَوردوا من كفر بربهم ورسلِه مَوارد المهالك، ووثِقوا بما وعد الله نَبيَّه حين زَوى له مَشارقَ الأرض ومَغاربَها من أنّ مُلكهم سيبلغ ما زوى الله له من ذلك؛ صلاةً لا تزال الأرض لها مسجدًا، ولا يَبرَح ذكرُها مغِيرًا في الآفاق ومنجِدًا؛ ما ٱستفتحتْ ألسنةُ الأسِنّة النصر بإقامتها، وأبادت أعداءها باستدامتها، وسلم تسليمًا كثيرًا.

وبعد، فإنه لمّا آتانا الله مُلكَ البَسِيطة، وجَعَل دعوتنا بأعنّة ممالك الأقطار محيطة؛ ومَكّنَ لنا في الآفاق، وأنهَضنا من الجهاد في سبيله بالسنّة والفرض، وجَعلَ كلَّ يوم تُعرَض فيه جيوشُنا من أمثلة يوم العَرْض؛ وأظلّتنا بوادرُ الفتوح، وأَطَلّت على الأعداء سيوفُنا التي هي على من كفر بالله وكَفر النعمةَ دعوةُ نوح وأيَّدنا بالملائكة والرُّوح، على من جعل الواحدَ سبحانه ثلاثةً فانتَصَر بالأب والابن والرُّوح؛ وألقت إلينا ملوكُ الأقطار السَّلَم، وبَذلتْ كرائمَ بلادها رغبة في الالتجاء من عفونا إلى ظل

أعلى من علم؛ وتَوسّل من كان منهم يُظهِر الغِلظة بالذلّة والخضوع وتَوصّل من كان منهم يُبدي القوّةَ بالإخلاص الذي رأوه لهم أَقوَى الجُنَن وأَوقَى الدروع؛ عاهَدْنا الله تعالى ألّا نردّ منهم آمِلًا، ولا نصُدّ عن مَشارع كرمنا ناهلًا؛ ولا نخيِّب من إحساننا راجيًا، ولا نُجْلِي عن ظلّ برّنا لاجيًا؛ عِلمًا أنّ ذلك شكرٌ للقدرة التي جعلها الله لنا على ذلك الآمل، ووُثوقًا بأنه حيث كان في قبضتنا كما نشاء نجمع عليه الأنامل؛ اللهمّ إلّا أن يكون ذلك اللّاجىءُ للغِلّ مُسِرًا، وعلى عداوة الإسلام مُصِرًّا؛ فيكون هو الجاني على نفسه، والجاثي[١] على موضع رَمْسه[٢]؛ ولمّا كان من تَقدّم بالمملكة الفلانية قد زَيّن له الشيطان أعماله، وعَقَد بحبال الغرور آمالَه؛ وحَسَّن له التمسُّكَ بالتّتار الذين هم بمَهابتنا محصورون في ديارهم، مأسورون في حَبائل إدبارهم؛ عاجزون عن حفظ ما لديهم، قاصرون عن ضبط ما استَلبتْه سَرايانا المنصورةُ من يديهم؛ ليس منهم إلا من له عند سيوفنا ثار، ومن يَعلم أنه لا بدّ له عندنا من خُطّتَي خَسف: إما القتلِ أو الإسار؛ وحين تمادى المذكور في غَيّه، وحمله الغُرور على ركوب جواد بغيه؛ أَمرْنا جيوشَنا المنصورةَ فجاست خِلالَ تلك الممالك وداست حوافرُ خيلِها ما هنالك، وساوت في عموم القتلِ والأسر بين العبدِ والحرّ والمملوكِ والمالك؛ وأَلحقت رَواسيَ جبالهم بالصَّعيد، وجَعلتْ حُماتَهم كزُروع فَلاتِهم منها قائمٌ وحَصيد؛ فأسلَمَهم الشيطان ومَرّ، وتَركهم وفرّ، وماكَرَهم وما كَرّ[٣] وأعلَمَهم أن الساعة موعدهم ﴿وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ [القَمَر: الآية ٤٦] وأَخلَفَهم ما ضَمِن لهم من العَوْن وقال لهم: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾ [الأنفال: الآية ٤٨]؛ وكان المَلِكُ فلان ممّن يريد طُرُقَ النجاة فلم ير إليها بسوى الطاعة سبيلًا، ويأمُلُ أسبابَ النجاح فلم يجد عليها غيرَ صدق الانتماء دليلًا؛ فأَبصرَ بالحذق موضعَ رُشده، وأَدرَكَ بسعيه نافرَ سعده؛ وأراه الإقبالُ كيف تثبُت قدمُه في الملك الذي زَلّت عنه قَدمُ مَن سَلَف، وأَظهَر له الإشفاقُ على رعاياه مَصارعَ من أَورَده سوءُ تدبير أخيه مَوارد التَّلَف، وعرَّفه التمسّكُ بإحساننا كيف أَحتوت يدُه على ما لم يُبْقِ غضبُنا في يد أخيه منه إلا الأسى والأسف؛ وحَسّنت له الثقةُ بكرمنا كيف يَجملُ الطلب، وعَلّمتْه الطاعةُ كيف تُستنزَل عوارفُنا عن بعض ما غَلبتْ عليه سيوفُنا وإنما الدنيا لمن غَلَب؛ وأنتَمى إلينا فصار مِن خَدَم أيّامنا، وصنائع إنعامنا، وقَطَع علائقَه مِن غيرنا؛ فلجأ منا إلى ركن شديد، وظلٍّ مَديد،

(١) الجاثي: الراكع.
(٢) الرمس: القبر.
(٣) ماكرهم: خادعهم. ما كرّ: لم يهجم.

ونصرٍ عَتيد؛ وحَرَمٍ يأوِي آمِلُه إليه، وكرمٍ تُقِرّ نضارتُه ناظريه، وإحسانٍ يُمتّعه بما أَقَرّه عطاؤنا في يديه، وٱمتنانٍ يَضَع عنه إصْرَه والأغلالَ التي كانت عليه؛ اقتضى إحسانُنا أن نُغْضِيَ له عن بعض ما حَلّت جيوشُنا ذراه وحَلّت سَطَواتُ عساكرنا عُراه؛ وأَضعفتْ عَزَماتُ سَرايانا قواه، ونَشرتْ طلائعُ جنودنا ما كان سَتَره صَفحُنا عنهم من عَورات بلادهم وطواه؛ وأن نخوّله بعضَ ما وردت خيولُنا مَناهلَه، ووَطِئتْ جيادُنا غاربَه وكاهلَه؛ وسَلَكْت كُماتُنا فملَكتْ دارسَه وآهلَه؛ وأن نُبقِيَ مملكة البيت الذي مضى سَلَفُه في الطاعة عليه، ويستمرّ مُلْكُ الأرمن الذي أُهْملَ السعيُ في مصالحه بيديه؛ ليَتيمَّن رعاياه به، ويَعلموا أنهم أَمِنوا على أرواحهم وأولادهم بسببه؛ ويَتحقّقوا أنّ أثقالهم بحُسن توصُّله إلى طاعتنا قد خَفّت، وأنّ بوادرَ الأمن بلطف تَوسُّله إلى مَراضينا قد أطافت بهم وحَفّت وأنّ سيوفَنا التي كانت مجرّدة على مَقاتِلهم بجميلِ ٱستعطافِه قد كفتهم بأسَنا وكَفّت وأنّ سَطَواتِنا ٱلحاكمةَ على أرواحهم قد عَفَت[1] عنهم بملاطفته وعَفّت[2]؛ فرسم أن يُقلّد كيت وكيت من المملكة الفلانية، ويَستقِرَّ بيده ٱستقرارًا لا ينازَع في ٱستحقاقه ولا يُعارَض فيما سَبق من إعطائه وإطلاقِه؛ ولا يطالَب عنه بقَطِيعة[3]، ولا يُطلَب منه بسببه غيرُ طَوِيّة مخلِصةٍ ونفسٍ مطيعة؛ ولا يَخشى عليه يدًا جائرة، ولا سَرِيّةً في طلب الغِرّة سائرة؛ ولا يَطرُق كِناسَه[4] أُسْدُ جيوش مفترِسة، ولا سباعُ نِهابٍ مختلِسة؛ بل تستمرّ بلادُه المذكورةُ في ذمام رعايتنا، وحَصانةِ عنايتنا؛ وكَنَفِ إحسانِنا، ووديعةِ بِرّنا وٱمتنانِنا؛ لا تَطمَح إليها عينُ معانِد، ولا يَمتدّ إليها إلّا ساعدُ مساعِد، وعضدُ مُعاضِد؛ فليقابِل هذه النعمةَ بشكر الله ٱلذي هداه إلى الطاعة وصان بإخلاص وَلائه نفسَه ونفائسَ بلاده من الإضاعة؛ وليَقرن ذلك بإصفاء مَوارد المَودّة، وإضفاءِ مَلابس الطاعة التي لا تَزداد بحُسن الوفاء إلا جِدّه؛ وٱستمرارِ المُناصَحة في السِّرّ والعَلَن، وٱجتنابِ المخادَعة ما ظهر منها وما بَطَن، وأداءِ الأمانةِ فيما ٱستقرّ معه ٱلحِلْف[5] عليه، ومبايَنةِ ما يخشى أن يَتوجّه بسببه وجهُ عَتْب إليه؛ وٱستدامةِ هذه النعمة بحفظ أسبابِها، وٱستقامةِ أحوال هذه المِنّة برَفْضِ مُوجِبات الكَدَر وٱجتنابها، وإخلاصِ النيّة التي لا تُعتبرَ ظواهرُ الأحوال الصالحة إلّا بها.

---

(١) عفت: أعطت العفو، أي صفحت.
(٢) عفّت: زالت.
(٣) القطيعة: الضريبة.
(٤) الكناس: بيت الأسد.
(٥) الحلف: العهد.

ومن تقليدِ كتبه المُشارُ إليه أيضًا لسَلامش بمملكة الروم حين ورد كتابُه يَسأل ذلك قَبَل حضوره، أوّله:

الحمد لله الذي أيّدنا بنصرِه، وأَمدّنا من جنود الظّفَر بما لم يُؤتَ مَلِك في عصره، وجعلَ مهابتنا قائمة في جهاد عدوّ الدين، إن قَرُب مَقامُ كَسْرِه، وإن بَعُد مَقامُ حَصْرِه، ونَشَر دعوة مَلِكنا في الأقطار كلِّها إذا ٱقتصرت دعوةُ غيرِنا من ملوك الأمصار على مصرِه، وأَنْجَدَ من نادانا بلسان الإخلاص من جنود الله وجنودنا بالجيش الذي لم تزل أرواحُ العدا بأَسْرِها في أَسْرِه، وعَضَدَ من تَمسَّك بطاعة الله وطاعتنا من إجابة عساكرنا بما هو أَقربُ إلى مَقاتل عدوه من بيضه المرْهَفةِ وسُمْرِه، وأعاد بنا من حقوق الدِّين كلّ ضالّة مُلْكٍ ظَنّ العدوُّ أَنّ أمره غالبٌ عليها واللهُ غالبٌ على أَمرِه؛ فجنودنا إلى نُصْرةِ من دعاها بالإيمان أقربُ مِن رَجْع نَفَسِه إليه، وأَسرعُ مِن رَدِّ الصدى جوابَه عليه؛ وأَسبَقُ إلى عدوّ الدين من مَواقع عِيانِه، وأَقدَرُ على التصرّف في أرواح أهل الشِّرْك مِن تصرّف الكَمِيّ في عِنانِه؛ وأَذَبُّ عن حمى الدين من الجفون عن نواظرها، وأَضْرَى على نفوس المعتدين من أُسُود عَنَت الفَرَائسُ لكواسرها؛ قد عَوّدها النصرُ الإلهيُّ أَلّا تَسُلّ ظُباها فتُغْمَد حتى تُستَباحَ مَمالك، وضَمِن لها الوعدُ المحمّديُّ أنها الطائفةُ الذين لا يزالون ظاهرين إلى يوم القيامة حتى يأتيَ أمر الله وهم على ذلك؛ نحمده على نعمه التي لم نزل نصون بها حمى الدين ونصول، ونقلّد بيمنها من لجأ إلينا سيفَ نصر يَصدعَ به ليلَ العِدا ولو أن النجوم نُصول، ونُورِد بأسمها من ٱنتصر بنا مَورِدَ عزّ يُحرّمه لمعُ الأسنّة فوقه، فليس لظمآنَ من العِدا إليه وُصول؛ وبعد، فإن أَولى من أَصْغت عزائمُنا الشريفة إلى نداء إخلاصِه، وأجابت مكارمُنا العَميمةُ دعاءَ تَميُّزه بالوَلاء واختصاصِه، وقابلتْ مَراسمُنا ٱنتصارَه في الدين بالنَّفير لإعانته على ما ظَفِر باقتلاعه من يد الكفر واقتناصِه، وتكفلت له مَهابتُنا بالأمن على مُلك مذ وسمه باسمنا الشريفِ يئس العدوُّ من ٱستخلاصه؛ وأجيبت كُتبُه في الاستنجاد بسَرَعان الكتائب، ولَمَعان القواضب، وتَتابُع أمداد جيوشِنا التي تنوء بحَملها كواهلُ المشارق والمغارب، وتَدفّقِ أمواج عساكرنا التي تُنشِد طلائعُها ملوكَ العِدا: [من الكامل]

* «أيـن الـفـرار ولا مَـفـرَّ لـهـارب» *

وتَأَلّقِ بُروقِ النصر مِن خفق ألويتنا الشاهدة بأن قبيلنا: [من الطويل]

* «إذا ما التقى الجمعان أوّلُ غالب» *

ومنــه:

وفَوّضتْ إليه مَراسمُنا الحُكمَ في الرعايا بالعدل والإحسان، وقَلّدتْه أوامرُنا من عُقود النظر في تلك الممالك ما تَوَدّ جِباهُ الملوك لو حَلّت بدُرّها مَعاقدَ التيجان، وعَلّقتْ به من الأوامر ما بنا تَنفُذ مَواقعُه، وكذا الأمور المعتبَرةُ لا تَنفُذ إلا بسلطان؛ من أَلقى اللهُ الإيمانَ في قلبه، وهداه إلى دين الإسلام فأصبح فيه على بيّنة من ربّه، وأراد به خيرًا فنقَله من حِزْب الشيطان إلى حِزْبه، وأَنقَذه بطاعته من مَوارد الهلاك بعد أن كان قد أَذِن بحَرْب من الله ورسوله، ولقد خَسِر الدين والدنيا والآخرةَ من أَذِن من الله بحربه؛ وأَيقَظَه من طاعتنا التي أوجبها على الأمم لما أَبصر به رَشْدَه، ورأى قصدَه، وعَلِم به أن الذي كان فيه كسرابٍ بقِيعة[1] لم يجده شيئًا، وأنّ الذين أَنتَقل إليه وجد اللهَ عنده؛ وأنهَضه من مُوالاتنا بما حتَّم به النُهوض على كل من كان مسلمًا، وأخرجه بنور الهُدى من عِداد أعدائه الذين تَرَكهم خوفُنا: ﴿كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ﴾ [يونس: الآية ٢٧]؛ وأراه الرشدُ ما عَلِم به أن الله تعالى أَورثنا مُلْك الإسلام فبطاعتنا يتمّ الانتماءُ إليه، وأعطانا مَقاليدَ البسيطة فمن أَغتَصبَ منها شيئًا أَنتزعه الله لنا بجنوده المسوَّمةِ من يديه؛ فَلَجأ من أبوابنا العالية إلى الظلّ الذي يلجأ إليه كلُّ مِنبَر وسرير، ورجا من كَرمنا الاعتصامَ بجيوشنا التي ما رَمَينا بها عدوًّا إلا ظَنّ أن الرمالَ تَسِيل والجبالَ تَسير؛ وتَحيّزَ منّا إلى فئة الإسلام، وأَنتَصر بسيوفنا التي هو يعلم كيف تسُلّها على العِدا الأحلام؛ ومَتَّ إلينا بذمّة الإسلام وهي عندنا أبَرّ الذمم، وطَلبَ تقليدَه الحكم منا مَن عُرِف بإعاذتِه النظراتِ الصادقةَ أنه كان يَحسَب الشحم فيمن شحمُه وَرَم[2]؛ وعَقَد بنا بناءَ رجائه، وهل لمسلم عن مَلِك الإسلام من مَعْدِل؟ وأنزل بنا ركائبَ آماله، وهل بَعدَ رامةَ لمرَام من مَنزل؟ فتلقّت نِعمُنا كرائمَ قصده بالترحيب، وأَحلّت وِفادةَ أَنتمائه بالحَرَم الذي شأوُه بعيد ونصرُه قريب؛ وتسارعتْ إلى نُصْرته جنودُنا التي أيّامُها مشهورةٌ في

---

(١) البقيعة: الأرض المستوية. إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا﴾ [النور: الآية ٣٩].

(٢) هذا حل لبيت المتنبي الوارد في قصيدته الميمية التي يعاتب فيها سيف الدولة ومطلعها:

واحـر قـلـبـاه مـمـن قـلـبـه شـبـم ومن بجسمي وحالي عنده سقم

أما البيت الذي حله هنا فهو التالي:

أعـيـذهـا نـظـرات مـنـك صـادقـة أن تحسب الشحم في من شحمه ورم

عدوّها، وآثارُها مشكورةٌ في رَواحها وغُدوِّها، وأعلامُها منصورةٌ في ٱنتزاحها ودنوِّها؛ وتتابعتْ يتلو بعضُها بعضًا تَتابُعَ الغمام المتراكم، والموجِ المتلاطم؛ تَقْدَم عليه بالنصر القريب من الأَمَد البعيد، وتُعْلم بوادرُها أنّ طلائعَها عنده وساقتها بالصعِيد؛ ولما كان فلان هو الذي أراد الله به من الخير ما أراد، ووَطَّد له بعنايته أركان الرشاد؛ وجعَل له بعد الجهل به عِلْمًا، وتَدارَكه برحمته، فما أمسَى للإسلام عدوًّا حتى أصبح هو ومن معه له سِلْما؛ ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ﴾ [يُونس: الآية ٥٨]، وبكرمه العَميم فليَفْسحوا صدورهم ويشْرحوا، وبإرشاده الجليِّ وهدايتِه فليَدّعوا قومهم إلى ذلك ويَنصحوا؛ وحين وَضَحت له هذه الطرقُ أرشدتْه من خدمتنا الشريفة إلى الطاعة، ودلّته على مُوالاةِ مَلِك الإسلام التي من لم يَتمسّك بها فقد فارق الجماعة؛ فإن الله تعالى قَرَن طاعته وطاعة رسوله ﷺ بطاعة أُولي الأمر، وحَثّ على ملازَمة الجماعة في وقت يكون المتمسّك فيه بدِينه كالقابض على الجمر؛ وهذا فِعلُ من أراد الله به خيرًا، وسعيُ من يُحْسِن في دين الله سِيرةً وسَيْرًا؛ ولذلك ٱقتضت آراؤنا الشريفةُ إمضاءَ عزمه على الجهاد بالإيجاد، وإنفاذَ سهمِه في أهل العناد بالإسعاف والإسعاد؛ وأرسلنا الجيوشَ الإسلاميّة كما تَقدّم شرحُه يَطؤون الصَّحاصِح[(١)]، ويَستقرِبون المَدى النازح[(٢)]، ويَأخذون كلَّ كَمِيٍّ فلو ٱستطاع السِّماكَ لم يتسمّ بالرامح، ويَحتسبون الشُّقّةَ[(٣)] في طلب عدوِّ الإسلام عِلمًا أنهم لا يُنفِقون نفقةً صغيرةً ولا كبيرةً ولا يقطعون واديًا إلا كُتِب لهم به عملٌ صالح؛ فرُسِم بالأمر الشريف ـ لا زال يَهَبُ الدِّوَل، ويقلِّد أجيادَ العظماء ما تَوَدّ لو تَحلّت ببعض فرائِده تيجانُ الملوك الأُوَل ـ أن تُفوَّض إليه نيابةُ الممالك الفلانيّة تفويضًا يصون به قِلاعَها، ويصُول بمَهابته على من حاول ٱنتزاعَها من يده وٱقتلاعَها؛ ويُجريها على ما أَلِفت ممالكُنا مِن أَمْنٍ لا يُروَّع سِرْبُه، ولا يكدَّر شِرْبُه؛ ولا يُوجَد فيه باغ تُخاف السبيلُ بسببه، ولا من يجرِّد سيفَ بغيٍّ وإن جَرَّده قُتِل به؛ وليَحْفظْ من الأطراف ما ٱستودعه الله وهذا التقليدُ الشريفُ حِفظَه، وليَعمَل في قتال مُحاربيه من العِدا بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبَة: الآية ١٢٣].

---

(١) الصحاصح: مفرده الصحصح، وهو ما استوى من الأرض وكان أجرد.
(٢) المدى النازح: المسافة البعيدة. من نزح أي بعد.
(٣) الشقة: التعب، يحتسبون الشقة: يقدمون المشقة ينوون بها وجه الله.

ومنه: وليَعلم أن جيوشَنا في المَسير إليه متى قَصدتْ عدوًّا سابقت خيولُها خَيالَها، وجارت جِيادُها ظلالَها، وأنِفت سَنابكُها أن تجعل غيرَ جماجم الأعداء نعالَها؛ وها هي قد تقدّمت ونَهضت لإنجاده، فلو سامها أن تخُوض البحار في سبيل الله لخاضت؛ أو تَصْدِم الجبالَ لصَدَمت.

ومنه: والشرعُ الشريفُ مُهِمُّه المقدَّم، وأمرُه السابقُ على كلّ ما تَقدَّم فليُعْلِ مَنارَه، ويَستشِفَّ من أموره أنوارَه؛ ويُنفِّذْ أحكامَه، ويعاضِدْ حكّامَه؛ ومن عَدل عن حُكمِه معاندًا، أو تَرَكَ شيئًا من أحكامه جاحدًا؛ فقد بَرِئت ٱلذمّة من دمِه حتى يَفِيءَ إلى أمر ٱلله، ويَرجِعَ عن عناده ويُنيبَ إلى الله؛ فإن الله يَهدي إليه من أناب قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ [الشورى: الآية ٢٥].

وأما الرسائل التي تَتضمّن أوصافَ السلاح وآلاتِ الحرب وأوصافَ الخيل والجوارحِ وأنواع الرياضات وما أَشبه ذلك، فالكاتبُ فيه مطلَقُ العِنان، مُخَلًّى بينه وبين فصاحته، موكولٌ إلى ٱطّلاعه وبلاغته؛ وقد تَقدَّم من أوصاف السلاح ما فيه كفايةٌ لمن يريد ذلك.

وأما الخيل والجوارح وما يَلتحِق بذلك من الفهود والضواري فلا غُنْيَةَ للكاتب عن معرفته جِيادَها، والأماراتِ الدالّةَ على فَراهتها، وكلَّ طير من الجارح وأفعالَه وٱستطالَته، وكيفيّةَ فِعلِه، وتمكّنه من الطير والوحش؛ وسنُورد إن شاء الله تعالى فنّ ٱلحيوان الصامتِ ـ وهو ٱلفنّ الثالثُ من هذا ٱلكتاب ـ ما يَقتدِي ٱلكاتب بمقاله، ويَنْسِجُ على منواله.

وأما الرسائل التي تُعمَل رياضةً للخواطر وتَجرِبةً للقرائح، كالمفاخَرات بين الفواكِه والأزهار، ووصفِ الرياحينِ والأنهارِ والغدرانِ والسَّواقي والجداولِ والبحارِ والمراكبِ وأمثالِ ذلك، فقد تَقدَّم منها في الفنّ الأوّل من هذا الكتاب ما وقفتَ أو تقِف عليه، وسنُورد منها إن شاء ٱلله تعالى في ٱلفن ٱلرابع في النبات ما تجدُه هناك.

وأما الرسائل الإخوانيّةُ وما يَتجدّد من الأمور ويَطرَأُ من الحوادث وغير ذلك، فسنُورد إن شاء الله تعالى منها في هذا الباب ما ٱنتخبناه من رسائل الكُتّاب والبُلَغاء المَشارِقةِ والمَغارِبةِ على ما تقف عليه؛ ولنبدأ من ذلك بذكر شيء من كلام الصحابة والصدر الأوّل.

ذكر شيء من الرسائل المنسوبة إلى الصحابة رضي الله عنه والتابعين وشيء من كلام الصدر الأوّل وبلاغتهم

قَدَّمْنا أنّ الكاتب يَحتاج في صناعته إلى حفظ مخاطَبات ٱلصحابة رضي الله عنهم، ومحاوَراتهم ومراجَعاتهم، فأحببنا أن نُورد من ذلك في هذا الموضع ما ستقف إن شاء الله عليه.

فمن ذلك الرسالة المنسوبةُ إلى أبي بكر الصّدّيق إلى عليّ، وما يَتّصِل بها من كلامِ عمرَ بن الخطاب وجوابِ عليٍّ رضي الله عنهم، وهذه ٱلرسالة قد ٱعتنى الناس بها وأوردوها في المجاميع[١]، ومنهم من أفردها في جزء، وقطع بأنها من كلامهم رضي الله عنهم، ومنهم من أنكرها ونفاها عنهم، وقال: إنها موضوعةٌ[٢]، وٱختلف ٱلقائلون بوضعها، فمنهم من زعم أنّ فُضَلاء الشِّيعة وضعوها، وأرادوا بذلك الاستنادَ إلى أن عليًّا بنَ أبي طالب رضي الله عنه إنما بايع أبا بكر الصِّدّيقَ بسبب ما تضمّنته؛ وهذا الاستنادُ ضعيفٌ، وحجّةٌ واهيةٌ، والصحيح أن عليًّا بن أبي طالب رضي الله عنه بايع بَيْعةً رضيَ باطنُه فيها كظاهره، والدليل على ذلك أنه وطِيءَ من السَّبْيِ الذي سُبِيَ في خلافة أبي بكر، وٱستَولد منه محمدَ ابنَ ٱلحنفيّة، ولا جواب لهم عن هذا؛ ومنهم من زعم أن فضلاء السنّة وضعوها، والله أعلم؛ وعلى ٱلجملة فهذه الرسالة لَم نُوردها في هذا الكتاب إثباتًا لها أنها من كلامهم رضي الله عنهم ولا نفيًا، وإنما أَوردناها لما فيها من البلاغة، وٱتّساقِ الكلام، وجُودةِ الألفاظ، وها نحن نُوردها على نص ما وقفنا عليه.

قال أبو حَيّانَ عليّ بنُ محمد التوحيديُّ البغداديُّ[٣]:

سَمَرنا ليلة عند القاضي أبي حامد بن بشر الْمَرْوَرُّوذيّ ببغداد، فتَصرّف في الحديث كلَّ متصرَّف ـ وكان غزيرَ الرواية، لطيفَ الدراية ـ فجرى حديث السَّقِيفة، فركب كلَّ مَركَبًا، وقال قولًا، وعَرَّض بشيء، ونَزَع إلى فنّ؛ فقال: هل فيكم من يحفظ رسالة لأبي بكر الصِّدّيق إلى عليّ بن أبي طالب رضي الله عنهما وجوابَ عليّ

(١) المجاميع: مفرده المجموع، كل مؤلف جمعت فيه أشياء متفرقة من شعر أو رسائل الخ.
(٢) موضوعة: منحولة، نسبت خطأ إلى غير أصحابها.
(٣) أبو حيان التوحيدي: (٩٢٢ ـ ١٠٢٣ م)، أديب ومفكر متفلسف. عاش الجزء الأكبر من حياته في بغداد وكان منبوذًا لم تقدر قيمته، فغير الحال. أهم كتبه «الإمتاع والمؤانسة» و «الهوامل والشوامل» والحج العقلي (المنجد).

عنها، ومبايعتَه إياه عقب تلك المناظرة؟ فقال الجماعة: لا والله، فقال: هي والله من بنات الحقاق، ومخبّآتِ الصناديق، ومنه حفظتُها ما رويتُها إلا لأبي محمد المهلّبيّ في وِزارته، فكتبها عنّي بيده، وقال: لا أعرف رسالة أعقلَ منها ولا أَبْيَن، وإنها لتدُلّ على عِلم وحِلم وفصاحة ونباهة، وبُعدِ غَور، وشدّةِ غَوص؛ فقال له العَبّادانيُّ[١]: أيها القاضي، لو أتممتَ المِنّة علينا بروايتها سمعناها، فنحن أوعى لها عنك من المهلّبيّ، وأوجبُ ذمامًا عليك؛ فاندفع وقال: حدّثنا الخُزاعيُّ بمكّةَ، عن أبي مَيسَرَة قال: حدّثنا محمد بن فُلَيح عن عيسى بن دأب نبّأ صالحُ بنُ كَيْسان ويزيدُ بنُ رُومان، قالا: حدَّثنا هِشام بن عُروةَ، نبّأ أبو النفّاح قال: سمعت مولاي أبا عُبَيدةَ يقول: لما استقامت الخلافة لأبي بكر رضي الله عنه بين المهاجرين والأنصار بعد فتنة كاد الشيطانُ بها، فدفع الله شرَّها، ويَسَّر خيرَها؛ بَلَغ أبا بكر عن عليٍّ تلكّؤٌ وشِماس، وتَهَمُّمٌ[٢] ونفاس[٣]، فكَرِه أن يتمادى ٱلحالُ فتبدوَ العَورةُ، وتَشتعلَ ٱلجمرة، وتُفرِّقَ ذاتُ البين، فدعاني، فحضرته في خَلوَة، وكان عنده عمرُ بنُ ٱلخطّاب رضي الله عنه وحدَه، فقال: يا أبا عُبيدة، ما أَيمَنَ ناصيتَك، وأَبْيَن ٱلخيرَ بين عينيك، وطَالَما أَعَزّ ٱللهُ بك الإسلام، وأَصلَح شأنَه على يديك، ولقد كنتَ من رسول الله ﷺ بالمكان المَحُوط، وٱلمَحلّ المغبوط، ولقد قال فيك في يومٍ مشهود: «لكلّ أمة أمين، وأمين هذه الأمّة أبو عُبَيدة» ولَم تَزل للدِّين مُلْتَجا، وللمؤمنين مُرْتَجَى، ولِأهلِك ركنًا، ولإخوانِك رِدْءًا؛ قد أردتك لأمر له خطر مَخُوف، وإصلاحُه من أعظم المعروف؛ ولئن لم يَندمِل جُرحُه بمسبارك[٤] ورِفقِك، ولم تُجبَّ حَيّتُه برُقْيتك، فقد وقع ٱليأس، وأَعضلَ البأس؛ وٱحتيج بعد ذلك إلى ما هو أَمرُّ منه وأَعلَق، وأَعسَرُ منه وأَغلَق؛ وٱللهَ أسأل تمامَه بك، ونظامَه على يديك، فتأتَّ له يا أبا عُبَيدة، وتَلطّفَ فيه، وٱنصَحْ لله عزّ وجلّ، ولرسوله ﷺ، ولهذه العِصابة غيرَ آلٍ جُهْدًا، ولا قالٍ[٥]، حَمْدًا؛ والله كالئك وناصرُك، وهاديك ومبصِّرُك، إن شاء الله؛ إمضِ إلى عليٍّ وٱخفِض له

(١) العباداني: نسبة إلى عبادان. وعبادان بلدة تقع إلى الشرق من مصب دجلة في البحر، في أرض سبخة فيها مشهد لعليّ بن أبي طالب. وعبادان نسبة إلى عباد بن حصين الحبطي لأنه أول من رابط ثمة، بزيادة الألف والنون على طريقة أهل البصرة. (ياقوت، معجم البلدان، ج ٣، ص ٥٩٨، ط جوتنجن).

(٢) تهمم: طلب. من تهمم فلان الشيء: طلبه؛ والمراد هنا طلب الخلافة.

(٣) نفاس: منافسة.

(٤) المسبار: فتيل يدخل في الجرح ليعرف عمقه، وليداوى به.

(٥) قالٍ: من قلى الشيء: أبغضه.

جَناحَك، وٱغْضُضْ عنده صوتك، وٱعلم أنه سُلالةُ أبي طالب، ومكانُه ممّن فقَدناه بالأمس ﷺ مكانُه، وقل له: البحرُ مَغرقُه، والبَرُّ مَفرَقه؛ والجوُّ أَكْلَف(١)، وٱلليلُ أَغْدَف(٢)، والسماءُ جَلْواء، والأرضُ صَلْعاء؛ والصُّعُودُ متعذِّر، والهبوطُ متعسِّر؛ والحقُّ عَطوفٌ رؤوف، والباطلُ عنوف عسوف، والعُجْبُ قَدّاحةُ الشرّ، والضِّغنُ رائد البَوار، والتعريضُ سِجالُ(٣) الفتنة، والقِحَةُ ثَقوبُ(٤) العداوة، وهذا الشيطانُ متّكِيءٌ على شِماله، مُتحبِّل(٥) بيمينه، نافِخٌ حِضْنَيه(٦) لأهله، يَنتظر الشَّتاتَ والفُرقة، ويَدِبّ بين الأمّة بالشَّحناء والعداوة، عنادًا لله عز وجلّ أوّلًا، ولآدمَ ثانيًا، ولنبيّه ﷺ ودِينِه ثالثًا، يُوسوس بالفجور، ويُدْلي بالغُرور، ويُمنّي أهلَ الشرور، يُوحِي إلى أوليائه زُخرفَ القول غُرورًا بالباطل، دَأْبًا له منذ كان على عهد أبينا آدم صلّى ٱلله عليه، وعادةً له منذ أهانه الله تعالى في سالف الدهر، لا مَنجَى منه إلا بعِضّ الناجِذ على ٱلحقّ، وغَضّ الطرف عن الباطل، ووطْءِ هامَةِ عدوّ ٱلله بالأشدّ فالأشدّ، والآكَدِ فالآكَد، وإسلامِ النفس لله عزّ وجلّ في ٱبتغاء رضاه؛ ولا بدّ الآن من قول ينفع إذا ضرّ السكوتُ وخِيفَ غِبُّه، ولقد أَرشدك من أفاء ضالّتَك، وصافاك مَن أحيا مَودّتَه بعتابك، وأراد لك الخيرَ مَن آثر البقاء معك، ما هذا الذي تُسوِّل لك نفسُك، ويَدْوَى(٧) به قلبُك، ويَلتوي عليه رأيُك، ويَتخاوص(٨) دونه طَرْفُك، ويستشري فيه ضغنك، ويَترادف معه نَفَسُك، وتكثُر عنده صُعَداؤك، ولا يفيض به لسانُك؟ أعُجمةٌ بَعد إفصاح؟ أتلبيسٌ بَعد إيضاح؟ أدِينٌ غيرُ دينِ ٱلله؟ أخُلقٌ غيرُ خُلقِ القرآن؟ أهديٌ غيرُ هدي النبي ﷺ؟ أمِثلي تَمشي إليه الضَّراءَ وتَدِبّ له الخَمْر(٩)؟ أوَ مِثلُك يُغَصّ عليه الفضاءُ ويُكسَف في عينه القمر؟ ما هذه القَعْقَعَةُ بالشِّنان(١٠)؟ وما هذه الوَعوَعةُ باللسان؟ إنك وٱلله جِدُّ عارف باستجابتنا إلى الله عزّ وجلّ ولرسوله ﷺ، وبخروجنا عن أوطانِنا وأموالِنا وأولادِنا وأحبّتِنا لله عزّ وجلّ ولرسوله ونُصْرةً لدِينه، في زمان أنت

(١) الأكلف: من الكلف، وهو لون بين السواد والبياض.
(٢) أغدف: من أغدف الليل: أظلم وأرخى سدوله.
(٣) السجال: الدلو.
(٤) ثقوب: مفرده ثقاب، وهو عود الزند.
(٥) متحبل: متصيد بالحبالة.
(٦) نافخ حضنيه: كناية عن التكبر والخيلاء.
(٧) يدوى: يمرض، يصاب بالداء. والدوي مرض باطن في الصدر.
(٨) يتخاوص: من التخاوص، أي غض النظر مع تحديق كمن يقوم سهمًا.
(٩) تمشي إليه الضراء وتدب له الخمر: أي يخاتل ويمكر به. يقال للرجل إذا اختل صاحبه ومكر به. والضراء: الاستخفاء، والخمر: ما وراءك من شيء.
(١٠) القعقعة بالشنان: كناية عن الترويع والتهويل. وأصله تحريك الجلد اليابس للبعير ليفزع.

فيه في كِنَ الصِّبا، وخِدرِ الغَرارة، وعُنفُوانِ الشَّبِيبة غافلًا عما يُشِيب ويُريب، لا تَعِي ما يُراد ويُشاد، ولا تُحصِّل ما يساق ويقاد، سوى ما أنت جار عليه إلى غايتك التي إليها عُدِل بك، وعندها حُطَّ رَحلُك، غيرَ مجهولِ القدر، ولا مجحودِ الفضل، ونحن في أثناء ذلك نعاني أحوالًا تُزيل الرواسي، ونقاسي أهوالًا تُشِيبُ النَّواصي؛ خائِضين غِمارَها، راكِبين تَيّارَها؛ نتجرّع صابَها[١]، ونُشْرِج عِيابَها[٢]؛ ونُحكِم آساسَها، ونُبرِم أمراسَها؛ والعيونُ تحدِّج بالحسد، والأُنوفُ تَعطِسُ بالكِبْر، والصدورُ تَستعِر بالغَيظ، والأعناقُ تَتطاول بالفخر، والشِّفارُ تُشحَذ بالمكر، والأرضُ تَمِيد بالخَوف، لا نَنتظِر عند المَساء صباحًا، ولا عند الصباح مَساء، ولا نَدفع في نحر أمر إلّا بَعد أن نحسوَ الموت دونه، ولا نَبلُغ مُرادًا إلّا بعد جَرْع العذاب معه، ولا نُقيم مَنارًا إلا بعد الإياس من الحياة عنده، فادين في جميع ذلك رسولَ الله ﷺ بالأب والأمّ، والخالِ والعمّ، والمالِ والنَّشَب، والسَّبَد واللَّبَد[٣]، والهِلَّةِ والبِلّة[٤]، بطيب أنفُس، وقُرّةِ أعيُن، ورُحْبِ أعطان، وثَباتِ عزائم، وصِحّةِ عقول، وطَلاقةِ أوجُه، وذَلاقةِ أَلْسن؛ هذا مع خفيّاتِ أسرار، ومكنوناتِ أخبار كنتَ عنها غافلًا ولولا حداثة سِنِّك لم تكن عن شيء منها ناكلا؛ كيف وفؤادُك مَشهوم[٥]، وعُودُك معجوم! والآن قد بَلَغَ ٱللهُ بك، وأَرهص الخيرَ لك، وجَعَلَ مرادَك بين يديك، وعن عِلْم أقول ما تَسمع؛ فٱرتَقِبْ زمانَك، وقلِّص أرْدانَك[٦]؛ ودع التقعّسَ[٧] والتجسّسَ لمَن لا يَظلَع لك إذا خطا، ولا يتزحزح عنك إذا عَطا؛ فالأمرُ غَضّ، والنفوسُ فيها مَضّ[٨] وإنك أَدِيمُ هذه الأمّة فلا تَحلَم[٩] لَجاجا، وسيفُها العَضبُ فلا تَنبُ ٱعوجاجًا، وماؤها العَذبُ فلا تَحَلْ أُجاجًا؛ واللهِ لقد سألتُ رسول الله ﷺ عن هذا الأمر فقال لي: «يا أبا بكر، هو لِمن يَرغب عنه لا لِمن يجاحِش[١٠] عليه، ولِمن يَتضاءل عنه لا لمن يَنتفِجُ[١١]

---

(١) صابها: مرارتها. والصاب شجر مر أو عصارة ذلك الشجر وربما كان الصبر ذاته. (لسان العرب، مادة صوب).
(٢) اشرج العيبة أو شرجها: شد عراها.
(٣) السبد واللبد: كناية عن القليل والكثير. وأصل السبد: الوبر واللبد: الصوف المتلبد.
(٤) الهلة والبلة: كناية عن كل شيء. يقال: ما أصاب هلة ولا بلة: أي شيئًا. والهلة من الفرح والاستهلال، والبلة من البلل والخير.
(٥) مشهوم: ذكي كالشهم.
(٦) قلص أردانك: شمر ثوبك.
(٧) التقعس: التأخر.
(٨) المض: الألم والحزن.
(٩) حَلَم: أصيب بالحَلَم وهو تآكل الجلد.
(١٠) يجاحش: يدافع.
(١١) ينتفج: يثب.

إليه، هو لمن يقال: هو لك، لا لمن يقول: هو لي» ولقد شاورني رسول الله ﷺ في الصِّهر، فذَكر فِتيانًا من قريش، فقلتُ: أين أنت من عليّ؟ فقال ﷺ: «إني لأكره لفاطمة مَيْعةَ شَبابه، وحَداثَة سِنّه، فقلتُ له: متى كنَفتْه يدُك، ورعته عينُك، حَفّت بهما البركة، وأُسبِغَتْ عليهما النعمة، مع كلام كثير خاطبتُه به رغبةً فيك، وما كنتُ عَرَفتُ منك في ذلك حَوْجاءَ ولا لَوْجاء[١]، فقلتُ ما قلتُ وأنا أرى مكانَ غيرك، وأَجِد رائحةَ سواك، وكنتُ إذ ذاك خيرًا لك منك الآنَ لي؛ ولئن كان عَرَّضَ بك رسول الله ﷺ في هذا الأمر فلم يكن مُعْرِضًا عن غيرك، وإن كان قال فيك فما سَكت عن سواك، وإن تَلَجلَج في نَفْسك شيءٌ فهلُمَّ فالحكم مَرضيّ، والصوابُ مسموع، والحقُّ مُطاع؛ ولقد نُقل رسول الله ﷺ إلى ما عند الله عزّ وجلّ وهو عن هذه العِصابة راض، وعليها حَدِب، يَسُرّه ما يَسُرّها، ويسوؤه ما يسوؤها، ويكيده ما كادها، ويرضيه ما أرضاها، ويُسخطه ما أسخطها، أما تَعلم أنه لم يدَع أحدًا من أصحابه وأقاربه وسُجَرائه[٢] إلا أبانه بفضيلة، وخَصّه بمزيّة، وأَفرده بجلالة؟ أتظنه ﷺ ترك الأمة سدًى بَدَدًا، عَباهِلَ مَباهِل[٣]، طَلاحَى[٤]، مفتونةً بالباطل، مَعنُونةً[٥] عن ٱلحقّ، لا ذائد ولا رائدَ، ولا ضابطَ ولا حائطَ ولا رابط، ولا ساقيَ ولا واقيَ، ولا هاديَ ولا حاديَ؛ كلا، والله ما ٱشتاق إلى ربه تعالى، ولا سأله المَصيرَ إلى رضوانه وقُرْبه إلّا بعد أن ضَرَب المَدَى[٦]، وأَوضح الهدى، وأبان الصُّوى[٧]؛ وأَمَّن المسالكَ والمطارح، وسَهَّل المبارَكَ والمهَايع[٨]، وإلا بعد أن شَدخَ يافُوخَ الشِّرك بإذن الله تعالى، وشَرَم وجهَ النفاق لوجه الله سبحانه، وجَدَع أنف الفتنة في ذات الله، وتَفَل في عين الشيطان بعَون الله، وصَدَع بِملءِ فيه ويدِه بأمر الله عزّ وجلّ؛ وبعد، فهؤلاء المهاجرون والأنصارُ عندك ومعك في بقعة واحدة، ودارٍ جامعة، إن ٱستقالُوني لك، وأشاروا عندي بك، فأنا واضعٌ يدي في يدك، وصائرٌ إلى رأيهم فيك، وإن تكن الأخرى فٱدخل في صالح ما دخل فيه المسلمون، وكن العونَ على

---

(١) الحوجاء: الحاجة، واللوجاء: الحاجة أيضًا. (اللسان مادة لوج).

(٢) سجراء: واحده سجير وهو الصفي.

(٣) العباهل المباهل: المهمل من الإبل أو الناس.

(٤) الطلاحى: الإبل التي تشتكي بطونها من أكل الطلح. أراد هنا القوم الذين لا راعي لهم يصدهم عما يسوؤهم.

(٥) معنونة: من عنت الفرس أي حبستها بالعنان.

(٦) المدى: الغاية. يريد بلغ الغاية. (٧) الصوى: معالم الطريق.

(٨) المهايع: مفرده مهيع، أي الطريق الواسع البين، أو البلد الواسع.

مَصالحهم، والفاتحَ لمَغالقهم، والمرشدَ لضالّتهم، والرادعَ لغَوايتهم، فقد أمر الله تعالى بالتعاونِ على البرّ والتقوى، والتناصرِ على الحق، ودعنا نَقض هذه الحياة بصدور بريئةٍ من الغِلّ، سليمةٍ من الضغائن والحِقد، ونَلقَ الله تعالى بقلوب سليمةٍ من الضغْن؛ وبعد، فالناس ثُمامة(١) فارفُق بهم، وٱحْنُ عليهم، ولِنْ لهم، ولا تُشقِ نفسك بنا خاصّةً منهم، وٱترك ناجمَ الحقد حَصيدًا، وطائرَ الشرّ واقعًا، وبابَ الفتنة مُغلقًا، فلا قالَ ولا قِيل، ولا لَومَ ولا تعنيف، واللهُ على ما نقول شهيد، وبما نحن عليه بصير.

قال أبو عُبَيدة: فلما تأهّبتُ للنهوض قال عمرُ رضي الله عنه: كُنْ لدى الباب هُنَيْهَةً فلي معك ذرءٌ من القول، فوقفتُ وما أدري ما كان بعدي إلّا أنه لحِقني بوجه يندي تَهلّلا، وقال لي: قل لعليّ: الرُّقادُ مَحْلَمَه، والهوى مَقْحَمَه؛ ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾﴾ [الصّافات: الآية ١٦٤]، وحقٌّ مُشاعٌ أو مقسوم، ونَبَأٌ ظاهرٌ أو مكتوم؛ وإنّ أَكيَسَ الكَيْسَى مَن مَنح الشاردَ تَأَلُّفًا، وقارَبَ البعيدَ تلطُّفًا؛ ووزَنَ كلّ شيء بميزانه، ولَم يَخلِط خَبَره بعِيانه؛ ولم يجعل فِترَه مكانَ شِبره دِينًا كان أو دنيا، ضلالًا كان أو هُدى، ولا خير في عِلم مستعمَلٍ في جهل، ولا خير في معرفة مَشُوبةٍ بنُكر، ولسنا كجِلدة رُفْغ(٢) البعير بين العِجان والذَّنَب، وكلُّ صالٍ فبنارِه، وكلُّ سيلٍ فإلى قَرارِه؛ وما كان سكوتُ هذه العِصابة إلى هذه الغاية لِعيٍّ وشِيٍّ، ولا كلامُها اليوم لفَرَقٍ أو رفق، وقد جَدَع الله بمحمد ﷺ أنفَ كلّ ذي كِبْر، وقَصَم ظهرَ كلّ جبّار، وقَطَع لسانَ كلّ كذوب ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس: الآية ٣٢] ما هذه الخُنزوانةُ(٣) التي في فَراش(٤) رأسِك؟ ما هذا الشجا المعترِضُ في مدارج أنفاسك؟ ما هذه القَذاةُ التي تغشّت ناظرَك؟ وما هذه الوَحَرةُ(٥) التي أكلتْ شَراسِيفَك؟ وما هذا الذي لَبِستَ بسببه جلدَ النّمِر، واشتَملتَ عليه بالشّحناء والنُّكر، ولسنا في كِسرويّة كسرى، ولا في قَيصَريّة قَيصر، تأمّلْ لإخوان فارسَ وأبناء الأصفر؛ قد جعلهم الله جَزَرًا لسيوفنا، ودَريئةً لرماحنا، ومرعًى لطعاننا، وتَبعًا لسلطاننا؛ بل نحن نُور نبوّة، وضياءُ رسالة، وثمرةُ حِكْمة، وأُثْرةُ رَحْمة، وعِنوانُ نِعْمة، وظلُّ عِصْمة؛ بَيْن أمّة

(١) الثمامة: نبات هش ضعيف تسد به خصاص البيوت. كناية عن ضعف الناس.
(٢) الرُّفْغ: أصول الفخذين من باطن.
(٣) الخنزوانة: الكبر.
(٤) الفَراش: عظام دقاق تلي القحف.
(٥) الوحرة: نوع من الحشرات، صغيرة حمراء، إذا شمت طعامًا أو أكلت منه سمته، وربما هلك من أكل منه بعدها. وقد شبهوا العداوة بها لأنها تلزق بالصدر لزوق الوحرة بالأرض.

مَهديّةٍ بالحق والصدق، مأمونةٍ على الرَّتْق والفتق، لها من الله إباءُ أَبِيّ، وساعدٌ قَوِيّ؛ ويدٌ ناصرة، وعَينٌ ناظرة؛ أتظن ظنًّا يا عليّ أن أبا بكر وَثَب على هذا الأمر مُفْتاتًا على الأمّة، خادعًا لها، أو متسلّطًا عليها؟ أتراه حَلّ عُقودَها وأحال عقولَها؟ أتراه جَعَل نهارَها ليلًا، ووَزْنَها كَيلًا؛ ويَقَظتَها رُقادًا، وصلاحَها فسادًا؟ لا والله، سلا[١] عنها فوَلِهَتْ له، وتطامن[٢] لها فلَصِقتْ به، ومالَ عنها فمالت إليه، واشمأزّ دونها فاشتَملتْ عليه، حَبوةً حباه الله بها، وعاقبةً بلّغه الله إليها، ونعمةً سَربَلَه جَمالها، ويدًا أوجب عليه شكرَها وأمّةً نظر ٱللهُ به لها، والله تعالى أعلمُ بخَلقه، وأرأفُ بعباده، يَختار ما كان لهم الخِيرَة، وإنك بحيث لا يُجهَل موْضعُك من بيت النبوّة، ومعدِنِ الرسالة، ولا يُجحد حقُّك فيما آتاك الله، ولكن لك من يزاحمك بمَنْكِب أَضخَم من مَنْكِبك، وقُرْبٍ أَمَسَّ من قَرابتك، وسِنٍّ أعلى من سنّك، وشَيبةٍ أَرْوَعَ من شيبتك، وسيادةٍ لها أصلٌ في الجاهليّة وفرعٌ في الإسلام، ومواقف ليس لك فيها جملٌ ولا ناقة، ولا تُذكَر فيها في مقدِّمةٍ ولا ساقَة؛ ولا تَضرِب فيها بذراع ولا إصبَع، ولا تخرُج منها ببازلٍ ولا هُبَع[٣]؛ ولم يزل أبو بكر حَبّةَ قلب رسول الله ﷺ، وعَلاقةَ نفْسِه وعَيْبَةَ سرِّه، ومَفزَعَ رأيه، وراحةَ كفِّه، ومَرْمَقَ طَرْفِه؛ وذلك كلّه بمَحضَر الصادر والوارد من المهاجرين والأنصار شهرةً مغنيةً عن الدليل عليه، ولعمري إنك أَقْرَبُ إلى رسول الله ﷺ قَرَابة، ولكنه أقربُ منك قُربة[٤]، والقَرابةُ لحمٌ ودم، والقُرْبةُ نفْسٌ ورُوح، وهذا فرقٌ عَرَفه المؤمنون، ولذلك صاروا إليه أجمعون؛ ومهما شكَكتَ في ذلك فلا تشُكَّ أن يدَ الله مع ٱلجماعة، ورِضوانه لأهل الطاعة، فٱدخل فيما هو خيرٌ لك ٱليومَ وأنفعُ غدًا، وٱلفِظْ من فيك ما يعلَقَ بلَهاتك، وٱنفُثْ سَخيمةَ صدرِك عن تُقاتِك، فإن يك في الأمَل طُول، وفي الأجل فُسحة، فستأكله مَريئًا أو غيرَ مَريء، وستشربه هَنيئًا أو غيرَ هنيء، حينَ لا رادَّ لقولك إلا من كان منك، ولا تابعَ لك إلّا من كان طامعًا فيك، يَمُصّ إهابَك، ويَعرُك أَديمَك، ويَزري على هَدْيِك، هنالك تَقرَع ٱلسنَّ من نَدَم، وتَجْرَع الماءَ ممزوجًا بدم، وحينئذ تَأسَى على ما مضى من عمرك، ودارجِ قوّتِك، فتوَدُّ أن لو سُقيتَ بالكأس التي أَبَيتَها، ورُدِدْتَ إلى حالتك ٱلتي استبرأتَها، ولله تعالى فينا وفيك أمرٌ هو بالِغُه، وغَيبٌ هو شاهِدُه، وعاقبةٌ هو ٱلمرجوُّ لسَرّائها وضَرّائها، وهو الوليّ ٱلحميد، الغفورُ ٱلودود.

---

(١) سلا: نسي. (٢) تطامن: انخفض، ابتعد عنها.
(٣) البازل: الجمل في التاسع سنيه. الهُبَع: الفصيل في آخر التاج.
(٤) القربة: الوسيلة.

قال أبو عُبَيدة: فمشيت متزمّلًا[١] أَنُوءُ كأنما أَخطُو على رأسي فَرَقًا من الفُرقة، وشَفَقًا على الأمّة، حتى وصلت إلى عليّ رضي ٱلله عنه في خَلاء، فأبثثتُه بَثّي كلّه، وبَرِئتُ إليه منه، ورَفِقتُ به، فلمّا سمِعها ووعاها، وسَرتْ في مفاصله حُميّاها؛ قال: حَلّتْ مُعْلَوِّطة، وولّتْ مُخْرَوِّطة[٢]، وأنشأ يقول: [من الرّجز]

إحدى لياليكِ فهِيسِي هِيسِي لا تَنعَمي الليلةَ بالتعريسِ[٣]

نَعم يا أبا عُبَيدة، أكلُّ هذا في أنفُس القوم يُحِسّون به، ويَضطَبِعون[٤] عليه؟ قال أبو عُبَيدة: فقلت: لا جوابَ لك عندي، إنما أنا قاض حقَّ الدِّين، وراتقٌ فَتْقَ المسلمِين، وسادٌّ ثُلْمةَ الأمّة، يعلم الله ذلك من جُلْجلان[٥] قلبي، وقَرارةِ نَفْسي؛ فقال عليٌّ رضي الله عنه: والله ما كان قعودي في كِسْر هذا البيت قصدًا للخلاف، ولا إنكارًا للمعروف، ولا زرايةً على مُسلم، بل لما وقَذني[٦] به رسولُ الله ﷺ مِن فراقِه، وأودَعني من الحُزن لفقده، وذلك أنني لم أَشهد بَعده مَشهدًا إلا جدَّد عليّ حُزنًا، وذكّرني شجنًا، وإن الشوق إلى اللّحاق به كافٍ عن الطمع في غيره، وقد عَكَفتُ على عهد الله أنظر فيه، وأجمع ما تفرّق منه رجاءَ ثواب مُعَدّ لمن أخلص لله عَمَلَه، وسَلّم لعلمه ومشيئته، وأمرِه ونهيه؛ على أني ما علمت أن التظاهرَ عليّ واقع، ولي عن الحقّ الذي سَبق لي دافع، وإذ قد أُفعِم الوادي بِي، وحُشِد النادي من أجلي، فلا مَرحَبًا بما ساء أحدًا من المسلمين وسرّني، وفي النفس كلامٌ لولا سابقُ عَقْد، وسالفُ عهد، لَشَفَيتُ نفسي بخُنْصِري وبِنْصِري، وخُضتُ لُجّتَه بأَخْمَصي ومَفْرِقي، ولكني مُلْجَمٌ إلى أن ألقى ربّي، وعنده أحتسِب ما نزل بي، وإني غادٍ إلى جماعتكم، مبايعٌ لصاحبكم، صابرٌ على ما ساءني وسرّكم، ﴿لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال: الآية ٤٢].

قال أبو عُبَيدة: فعدت إلى أبي بكر رضي الله عنه، فقَصَصت القول على غَرّه[٧]، ولم أختزل شيئًا من حُلوه ومُرِّه، وبَكَّرتُ غُدْوةً إلى المسجد، فلما كان

(١) متزملًا: متلففًا بغطاء. يريد أنه خرج مستخفيًا.
(٢) معلوطة: من الاعلواط، وهو ركوب الرأس على الأمور من غير روية. مخروّطة: سريعة.
(٣) هيسي هيسي: مثل يضرب للرجل يأتي الأمر فيحتاج فيه إلى الجد والاجتهاد والهيس: السير.
(٤) يضطبعون به: ينطوون عليه. من الاضطباع أي جعل الشيء تحت الضبع، أي العضد.
(٥) جلجلان القلب: سويداؤه. (٦) وقذه: تركه عليلًا.
(٧) غره: الكسر المثني في جلد أو ثوب. يقال: اطو الثوب على غروره، أي على مكاسره. ويريد هنا بالغر الأصل.

صباحُ يومئذ إذا عليٌّ يَخترِق الجماعة إلى أبي بكر رضي الله عنهما، فبايَعه، وقال خيرًا، ووَصَف جميلًا، وجلس زِمِّيتًا[١]، واستأذن للقيام فمضى، وتبِعه عمر مكرِمًا له، مستثيرًا لما عنده، فقال عليٌّ رضي الله عنه: ما قعدت عن صاحبكم كارهًا له، ولا أتيته فَرَقًا، ولا أقول ما أقول تعلّة، وإني لأعرف منتهى طَرْفي، ومَحَطَّ قَدَمي، ومَنْزَع قوسي، ومَوقِعَ سهمي، ولكن قد أَزَمتُ على فأسي[٢] ثِقةً بربّي في الدنيا والآخرة.

فقال له عمر رضي الله عنهما: «كَفْكِفْ غَرْبَك[٣]، واْستوقِفْ سِرْبَك؛ ودع العصا بلِحائها، والدِّلاءَ على رِشائها[٤]، فإنّا مِن خَلْفِها وورائها؛ إن قَدَحْنا أورَينا، وإن مَتَحْنا أروَينا[٥]، وإن قَرَحْنا أدمَينا، ولقد سمعتُ أماثِيلَك التي لغَّزت فيها عن صدر أُكِل بالجوَى، ولو شئتُ لقلتُ على مقالتك ما إن سمعتَه ندمتَ على ما قلتَ؛ وزعمتَ أنك قعدتَ في كسر بيتك لِمَا وَقَذك به رسول الله ﷺ مِن فقدِه، فهو وَقَذك ولم يَقِذْ غيرَك؟ بل مُصابُه أعَمُّ وأعظمُ من ذلك، وإنّ مِن حقِّ مُصابه ألا تَصْدَعَ شَمْلَ الجماعة بفُرقة لا عِصام لها، ولا يؤمَن كيدُ الشيطان في بقائها، هذه العربُ حَولَنا، والله لو تداعت علينا في صبح نهار لَم نَلتقِ في مَسائه؛ وزعمتَ أن الشوق إلى اللَّحاق به كاف عن الطمع في غيره، فمن علامة الشوق إليه نُصرةُ دينه، ومؤازَرةُ أوليائه ومعاوَنتُهم؛ وزعمتَ أنك عكفت على عهد الله تجمع ما تفَرّق منه، فمِن العُكوفِ على عهد الله النصيحةُ لعباد الله، والرأفةُ على خلق الله، وبَذْلُ ما يَصلُحون به، ويَرْشُدون عليه؛ وزعمتَ أنك لم تعلم أن التظاهر وقع عليك، وأيُّ حَقّ لُطّ[٦] دونَك؟ قد سمعتَ وعلمتَ ما قالت الأنصار بالأمس سرًّا وجهرًا، وتقلّبت عليه بطنًا وظهرًا، فهل ذكرتْك، أو أشارت بك، أو وَجدتَ رضاهم عنك؟ هل قال أحد منهم بلسانه: إنك تصلُح لهذا الأمر، أو أومأ بعينه، أو هَمْهَم في نفسه؟ أتظنّ أن الناس ضَلّوا من أجلك، وعادوا كفّارًا زهدًا فيك، وباعوا الله تعالى تحامُلًا عليك؟ لا والله، لقد جاءني عَقِيل بن زيادِ الخزرَجيُّ في نَفَر من أصحابه ومعهم شُرَحْبِيلُ بن يعقوبَ الخَزرَجي وقالوا: إن عليًّا ينتظِر الإمامة، ويزعم أنه أولى بها من غيره، وينكر على

---

(١) زميتا: وقورًا.

(٢) أزمت على فأسي: كتمت ما في نفسي. وأصله أزم الفرس على فأس اللجام: أي عض وأمسك.

(٣) الغرب: الدموع. (٤) الرشاء: الحبال.

(٥) أن متحنا أروينا: أن استنبطنا الماء سقينا. (٦) لط: جحد، منع.

من يَعقِد الخلافة، فأنكَرتُ عليهم، ورددتُ القول في نحورهم حين قالوا: إنه يَنتظِر الوَحْيَ، ويَتوكَّف[١] مناجاةَ المَلَك، فقلت: ذلك أمرٌ طواه الله تعالى بعد نبيه محمد ﷺ، أكان الأمر معقودًا بأُنْشوطة[٢]، أو مشدودًا بأطراف لِيطة[٣]؟ كلّا والله، لا عَجْماءَ بحمد الله إلا وقد أفصَحَت، ولا شوكَاء إلّا وقد تفتّحَت؛ ومِن أعجبِ شأنِك قولُك: لولا سالفُ عهد، وسابقُ عَقْد، لشَفَيتُ غيظي، وهل تَرَك الدِّينُ لأهله أن يَشفُوا غيظَهم بيد أو لسان؟ تلك جاهليّةٌ قد استأصل الله شأفتَها، واقتَلَع جرثومَتها؛ وهَوَّر[٤] ليلَها، وغوَّر سَيلَها؛ وأبدَل منها الرَّوحَ والرَّيحان، والهدى والبرهان؛ وزعمتَ أنك مُلجَم، ولَعمري إنّ من اتقى الله، وآثَرَ رضاه، وطَلَب ما عنده، أمسك لسانَه، وأَطْبَقَ فاه، وجَعل سعيَه لما وراه.

فقال عليٌّ رضي الله عنه: مهلًا مهلًا: يا أبا حفص، والله ما بَذلتُ ما بَذلتُ وأنا أريد نَكْثَه، ولا أقررتُ ما أقررتُ وأنا أبتغي حِوَلًا عنه؛ وإن أخسرَ الناس صَفْقةً عند الله من آثَرَ النفاق، واحتَضن الشِّقاق؛ وفي الله سلوةٌ عن كل كارث، وعليه التوكّل في كلّ الحوادث؛ اِرجع يا أبا حفص إلى مجلسك ناقعَ القلب، مَبرودَ الغَليل، فَسيحَ اللَّبان[٥]، فَصيحَ اللسان، فليس وراء ما سَمعتَ وقلتُ إلا ما يَشُدُّ الأَزْر، ويَحُطّ الوِزْر، ويَضَع الإصر، ويجمع الأُلفة بمشيئة الله وتوفيقه.

قال أبو عُبَيدة رضي الله عنه: فانصرف عليٌّ وعمرُ رضي الله عنهما، وهذا أصعب ما مرّ عليّ بعد رسول الله ﷺ.

ومن كلام عائشةَ أمِّ المؤمنين بنتِ أبي بكر الصِّديق رضي الله عنهما، وهو مما اتصل إلينا بالرواية الصحيحة، والأسانيد الصريحة، عن محمد بنِ أحمدَ بنِ أبي المُثنَّى، عن جعفر بن عَون، عن هِشام بن عُروةَ، عن أبيه، عن عائشةَ رضي الله عنها: أنه بلغها أنّ أقوامًا يَتناولون أبا بكر رضي الله عنه، فأرسلَتْ إلى أَزْفَلَةٍ من الناس، فلَمّا حضروا أَسدَلتْ أستارَها، وعَلَت وِسادَها، ثم قالت: أَبِي وما أَبِيَه! أبي والله لا تَعْطوه الأيْدي، ذاك طَوْدٌ مُنِيف، وظلٌّ مَدِيد؛ هيهاتَ، كذبت الظُّنون، أَنْجَحَ إذ أَكْدَيتم، وسَبَقَ إذ ونيتم: [من البسيط]

* سَبْقَ الجَوادِ إذا استَوْلى على الأَمَدِ *

---

(١) يتوكف: ينتظر. يقال: توكف الخبر: انتظره.
(٢) الأنشوطة: عقدة تحل إذا جذب أحد طرفيها. (٣) الليطة: قشر القصب.
(٤) يقال: تهوّر الليلُ: ولّى أكثره وانكسر ظلامُه.
(٥) اللبان: الصدر.

فَتَى قريشٍ ناشئًا، وكَهْفُها كَهلًا، يَفُكّ عانيَها، ويَرِيش مُمْلِقَها، ويَرْأَب شَعْبَها، ويَلُمّ شَعَثَها، حتى حَلِيَته قلوبُها، ثم ٱستَشْرى في دين الله، فما بَرِحت شَكِيمتُه في ذات ٱلله عزّ وجلّ حتى ٱتّخذ بفِنائه مسجدًا يُحْيِي فيه ما أمات المبطلون، وكان رحمه الله غزيرَ الدَّمْعة، وَقِيذَ الجوانح، شجيَّ النَّشِيج[١]، فانعطفتْ إليه نسوانُ مكّة وولدانُها يسخرون منه، ويستهزئون به، ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝١٥﴾ [البَقَرَة: الآية ١٥] فأكبَرتْ ذلك رجالاتُ قريش، فحَنَت قِسيَّها، وفَوّقتْ[٢] سهامَها، وامتثلوه[٣] غَرَضًا فما فَلّوا له صَفاة[٤]، ولا قَصَفوا له قَناة، ومَرّ على سِيسائه[٥]، حتى إذا ضَرَب الدِّينُ بجِرانِه[٦]، وأَلقَى بَرْكَه، ورَسَت أوتادُه، ودخل الناسُ فيه أفواجًا، ومن كلّ فِرقة أرسالًا وأشتاتًا، اختار الله لنبيّه ما عنده، فلمّا قبض الله نبيَّه ﷺ نَصَب الشيطان رِواقَه، ومَدّ طُنُبَه، ونَصَب حبائلَه، وأَجلبَ بخَيلِه ورَجلِه، واضطرب حبلُ الإسلام، ومَرِج عهدُه، وماج أهلُه، وبُغِيَ الغوائلُ، وظَنّت رجال أن قد أَكْثَبَ نَهْزُها، ولات حين الذين يَرجُون، وأنّى والصِّدّيقُ بين أظهُرِهم؟ فقام حاسرًا مشمِّرًا، فجمع حاشيتيه، ورَفَع قُطريه، فرَدّ رَسَنَ الإسلام على غَرْبِه، ولَمّ شَعَثَه بطبِّه[٧]، وأقام أَوَدَه[٨] بثِقافه، فابذَعَرّ النفاقُ بوَطئه، وٱنتاش الدِّينَ فَنَعَشه، فلمّا أراح الحقَّ على أهله، وقَرَّر الرؤوسَ على كواهلها، وحَقَن الدماء في أُهُبها، أتته منيّته، فسَدّ ثُلْمتَه بنظيره في الرحمة، وشَقيقِه في السِّيرة والمَعدِلة، ذاك ٱبنُ الخطّاب، لله دَرّ أمٍّ حَفَلت له، ودَرّت عليه! لقد أَوحدتْ به، ففَنَّخ الكفرةَ ودَيَّخها، وشَرَّد الشِّركَ شَذَرَ مَذر[٩]، وبَعَج الأرضَ وبَخَعها[١٠]، فقاءت أُكُلَها، ولَفَظَت جَنِينها، تَرْأَمه ويَصدِف عنها، وتَصدَّى له ويأباها، ثم وَزَّعَ فيها فَيئَها، ووَدَّعها كما صحبها؛ فأَرُوني ما ترتابون؟ وأيَّ يومَيْ أَبِي تَنْقِمون؟ أيومَ إقامتِه إذ عَدَل فيكم، أم يومَ ظَعْنِه وقد نَظَر لكم؟ أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

ثم أقبلتْ على الناس بوجهها فقالت: أَنشُدكم اللهَ، هل أَنكرتم مما قلتُ شيئًا؟ قالوا: اللهمّ لا.

---

(١) النشيج: البكاء من غير انتحاب.
(٢) فوقت سهامها: جعلت لها فوقًا. والفوق: مشق رأس السهم حيث يقع الوتر. يعني صوبتها.
(٣) امتثلوه غرضًا: جعلوه هدفًا يرمى.
(٤) الصفاة: الصخرة.
(٥) السيساء: منتظم فقار الظهر.
(٦) الجران: باطن عنق الفرس.
(٧) طبّه: مداواته.
(٨) الأود: الاعوجاج.
(٩) شذر مذر: أي فرقوا في كل جهة.
(١٠) بخعها: أذلّها وأتعبها.

ذكر شرح غريب رسالتها رضي الله عنها

الأَزْفَلَة: الجماعةُ. وتَعْطُوه: تَناوَلُه. والطَّوْد: الجبلُ. والمُنِيف: المُشْرِفُ، وأَكْدَيْتم: خِبتم ويُئِسَ من خيركم. ووَنَيتم: فَتَرتم وضعفتم. والأَمَد: الغايةُ. ويَريش: يُعطِي ويُفْضِل. والمُمْلِق: الفقيرُ. ويَرأَب: يَجمَعُ. والشَّعْبُ: المتفرِّقِ. ويَلُمّ: يَضُمّ. واستَشرَى: جَدَّ وانكمش. والشَّكِيمةُ: الأَنفةُ والحَميّةُ. والوَقِيذُ: العَليلُ. والجوانح: الضلوع القِصارُ التي تقرُب من الفؤاد. والشجيُّ: الحَزينُ. والنَّشيجُ: صوتُ البكاء. وانعطفتْ: انثنت. وامتثلوه: مثلوه. والغرض: الذي يُقصَد للرّمْي. وفَلّوا: كَسَروا. والصَّفاةُ: الصخرة الملْساءُ. وقَصَفوا: كَسَروا. وسِيساؤه: شدّته، والسِّيساءُ: عَظْم الظهرِ، والعرب تضربه مَثَلًا لشِدّة الأمر، قال الشاعر[١]:

[من الطويل]

لقد حَمَلت قيسُ بنُ عَيْلانَ حربَنا ... على يابِسِ السِّيساءِ مُحْدَودِبِ الظَّهرِ

والجِرانُ: الصَّدْرُ. ورَسَتْ: ثبتت. ومَرِجَ: اختَلَط. وماجَ أهلُه: اضطربوا وتنازعوا. وبُغِيَ الغوائلُ، معناه وطُلِب البلايا. وأَكْثَبَ: قَرُبَ. والنَّهْزُ: اختلاسُ الشيء والظَّفَرُ به مبادَرةً. ولات حين الذي يطلبون، معناه: وليست الساعةُ حينَ ظَفرِهم. وقولها: فجَمَع حاشيتيه ورَفَع قُطْريه، معناه تحزّمَ للأمر وتأهّبَ له. والقُطْرُ: الناحيةُ. والطبُّ: الدواء. والأَوَدُ: العِوَجُ. والثِّقافُ: تقويمُ الرماح وغيرها. وابْذَعَرَّ: تَفرَّق. وانتاش الدِّينَ، أي أزال عنه ما يُخاف عليه. ونَعَشَه: رَفَعَه. وأراح الحقَّ على أهله، أي أعاد الزكاةَ التي مَنعتها العرب فقاتلَ عليها حتى رُدّت إلى حكم رسول الله ﷺ. وقَرَّرَ الرؤوسَ على كواهلها، معناه وقَى المسلمين القتلَ. والكاهلُ: أعلى الظهر وما يتصل به. وحَقَنَ الدماءَ في أُهُبها، معناه أنه حقن دماءَ المسلمين في أجسادهم. والأُهُب: جمعُ إهاب، وأصلُ الإهاب الجِلد، فكَنتْ به عن الجسد. وقولها: لله دَرّ أمٍّ حَفَلت له، أي جمعت له اللبن. وقولها: أَوحدتْ به، معناه جاءت به منفردًا لا نظير له. وقولها: ففَنَّخَ الكفرةَ، معناه أذلَّها. وديَّخَها: صغَّر بها. وبَعَج الأرضَ وبَخَعها، معناه شَقَّها واستقصى غلّتَها. وشَذَرَ مَذَر، معناه تفريقًا، يقال: شَذَرَ مَذَر، وشَغَرَ بغَر، بمعنى واحد. وقولها: حتى قاءت أُكُلَها، معناه أخرجت الخير. وتَرأَمُه: تعطف عليه. وتَصدّى له: تَعرَّضُ له.

(١) الشاعر هو الأخطل، الشاعر الأموي المشهور.

ومن كلام علي بن أبي طالب رضي الله عنه ما كَتَب به إلى معاويةَ بنِ أبي سُفيانَ جوابًا عن كتابه ـ وهو من محاسن الكتب ـ كتب رضي الله عنه:

أما بعد، فقد أتاني كتابك تذكُرُ فيه أصطفاءَ الله تعالى محمدًا ﷺ لدِينه، وتأييدَه إيّاه بمن أيّده به من أصحابه، فلقد خَبأ لنا الدهرُ منك عَجَبا، أفطَفِقت تُخبِرنا بآلاء الله عندنا؟ فكنتَ في ذلك كناقِلِ التمر إلى هَجَرَ، أو داعيَ مِدْرَهِ إلى النِّضال؛ وزعمتَ أنّ أفضلَ الناس في الإسلام فلانٌ وفلانٌ، فذَكَرتَ أمرًا إن تمّ أعتزلك كُلُّه، وإن نَقَص لم يَلحَقْك ثُلُّه؛ وما أنت والفاضلَ والمفضول، والسائلَ والمسؤول؟ وما الطُّلَقاءُ وأبناءُ الطُّلَقاءِ والتمييز بين المهاجرين الأوّلين، وترتيبَ درجاتِهم، وتعريفَ طبقاتِهم؟ هيهاتَ لقد «حَنَّ قِدْحٌ ليس منها»[(١)]، وطفِق يَحْكُم فيها من عليه الحُكم لها، ألا تَرْبَعَ على ظَلْعِك[(٢)]، وتَعرِف قُصورَ ذَرْعِك، وتتأخّر حيث أخّرك القدر، فما عليك غَلَبةُ المغلوب، ولا لك ظَفَرُ الظافر، وإنك لذَهابٌ في التِّيه، رَوّاغٌ عن الفضل، ألا ترى ـ غيرَ مُخْبِرٍ لك، ولكن بنعمة الله أُحدِّث ـ أن قومًا استُشهِدوا في سبيل الله مِن المهاجرين ـ ولِكلٍّ فضل ـ حتى إذا استُشهِد شَهِيدُنا (هو حمزة) قيل: سَيّد الشهداء، وخصّه رسول الله ﷺ بسبعين تكبيرةً عند صلاته عليه؛ ألا ترى أن قومًا قُطِّعتْ أيديهم في سبيل الله ـ ولِكلٍّ فضل ـ حتى إذا فُعِل بأحدنا ما فُعِل بواحدهم قيل: الطيّار في الجنة، وذو الجناحين (هو جعفر) ولولا ما نهى الله عنه مِن تزكيةِ المرء نفسَه لَذَكَر ذاكرٌ فضائلَ جَمّة تعرفها قلوب المؤمنين، ولا تمُجّها آذانُ السامعِين، فدع عنك مَن مالت به الدنيّةُ فإنا صنائع ربنا، والناسُ بَعدُ صنائعُ لنا، لَم يمنعنا قديمُ عزِّنا، وعادي طَوْلِنا على قومك أن خلَطناهم بأنفسنا، فنكحنا وأَنكحنا فِعْلَ الأكْفاء ولستم هناك، وأنّى يكون ذلك كذلك؟ ومنّا النبيُّ ومنكم المكذِّب[(٣)]، ومنّا أَسَدُ الله، ومنكم أَسَدُ الأحلاف، ومنا سيدا شباب أهل الجنة، ومنكم صِبْيَةُ النار، ومنا خيرُ نساء العالمين، ومنكم حَمّالةُ الحطب؛ فإسلامُنا قد سُمِع، وجاهليّتنا لا تُدْفَع، كتابُ الله يجمع لنا ما شذّ عنّا وهو قوله سبحانه: ﴿وَأُولُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفَال: الآية ٧٥] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَـٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ

(١) حن قِدْحٌ ليس منها: مثل يضرب لمن يفتخر بقبيلة ليس منها.

(٢) الظلع: العيب، والعرج.

(٣) المكذب: أبو جهل، وأسد الله: حمزة بن عبد المطلب. وأسد الأحلاف: أبو سُفيان. وسيدا شباب أهل الجنة: الحسن والحسين ولدا عليّ بن أبي طالب. وصبية النار: أولاد مروان بن الحكم. وخير نساء العالمين فاطمة بنت النبي. وحمالة الحطب: أم جميل بنت حرب عمة معاوية وزوجة أبي لهب.

﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٦٨﴾ [آل عمران: الآية ٦٨] فنحن مرّةً أَولَى بالقَرابة، وتارة أَولَى بالطاعة؛ ولما احتجّ المهاجرون على الأنصار يوم السَّقيفة برسول الله ﷺ فَلَجُوا[١] عليهم، فإن يكن الفُلْجُ به فالحقُّ لنا دونكم، وإن يكن بغيره فالأنصار على دعواهم؛ وزعمتَ أنّي لكلّ الخلفاء حَسَدتُ، وعلى كلِّهم بَغيتُ، فإن يكن ذلك كذلك فليست الجنايةُ عليك، فتكون المَعذِرةُ إليك: [من الطويل]

* وتلك شَكاةٌ ظاهرٌ عنك عارُها[٢] *

وقلتَ: إني كنت أُقادُ كما يقاد الجملُ المخشُوشُ[٣] حتى أبايعَ، ولعمر الله لقد أردتَ أن تذُمّ فحمِدتَ، وأن تَفضَح فافتضحت، وما على المسلم من غَضاضةٍ في أن يكون مظلومًا ما لم يكن شاكًّا في دِينه، ولا مرتابًا في يقينه، وهذه حُجّتي إلى غيرك قَصْدُها، ولكني أطلقتُ لك منها بقدر ما سنح من ذِكْرِها.

ثم ذَكرتَ ما كان من أمري وأمر عثمانَ، فلك أن تجاب عن هذه لِرَحِمِه منك، فأيُّنا كان أَعْدَى له، وأَهْدَى إلى مَقاتله؟ أمَن بَذَل له نُصرتَه فاستقعده واستكفّه، أمّن استنصره فتراخَى عنه، وبثَّ المَنُونَ إليه، حتى أَتى قَدَرُه عليه؟ كَلّا والله ﴿۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ۝١٨﴾ [الأحزاب: الآية ١٨] وما كنتُ أَعتذِر من أنّي كنتُ أَنقِم عليه أحداثًا، فإن كان الذنبُ إليه إرشادي وهدايتي له «فرُبّ مَلُوم لا ذنبَ له»: [من الطويل]

* وقد يستفيد الظِّنّةَ المتنصِّحُ[٤] *

وما أردتُ إلا الإصلاحَ ما استطعتُ: ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ [هود: الآية ٨٨]؛ وذكرتَ أنه ليس لي ولأصحابي إلا السيف، فلقد أَضحكتَ بَعْد استعبار، متى أَلفَيتَ بني عبد المطّلب عن الأعداء ناكِلين[٥]، وبالسيوف مخوَّفِين؟ «لَبِّثْ قليلًا

(١) فلج: فاز.

(٢) ظاهر عنك عارها: لم يعلق بك عارها. وقوله: «وتلك شكاة ظاهر عنك عارها» عجز بيت لأبي ذؤيب الهذلي وصوره: وعيرها الواشون أني أحبها. (ابن منظور، لسان العرب، مادة ظهر).

(٣) المخشوش: الذي أدخل الخشاش في أنفه. والخشاش بكسر الخاء: خشبة تدخل في أنفس الجمل.

(٤) الظنة: التهمة. وصدر هذا البيت: ولم سقت في آثارهم من نصيحة.

(٥) الناكل: المتراجع والمحجم.

يَلحق الهَيجا حَمَلْ[١] فسيطلُبك من تَطلُب، ويقرُب منك ما تَستبعِد، وأنا مُرْقِلٌ نحوَك في جَحفَل من المهاجرين والأنصار، والتابعين لهم بإحسان، شديدٍ زحامُهم، ساطع قَتامُهم، متسربِلِينَ سَرابِيلَ الموت، أحبُّ اللقاء إليهم لقاءُ ربِّهم، قد صَحِبتْهم ذرّيّةٌ بَدريّة، وسيوفٌ هاشميّة، قد عرفت مَواقعَ نِصالِها في أخيك وخالِك وجَدِّك وأهلِك»[٢] ﴿وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هُود: الآية ٨٣].

ومن كلام الأحنف بن قيس حين وَبّخه معاويةُ بن أبي سفيانَ بتخذيله عائشةَ رضي الله عنها، وأنه شَهِد صِفِّين، وقال له: فَعلتَ وفَعلتَ؛ فقال: يا أمير المؤمنين، لِمَ تَرُدُّ الأمورَ على أعقابِها؟ أما والله إنّ القلوبَ التي أَبغضناك بها لَبين جوانِحنا، والسيوفَ التي قاتلناك بها لَعلَى عواتِقِنا، ولئن مَدَدْتَ بشِبرٍ من غَدر، لَنَمُدّنّ باعًا من خَتْر[٣]، ولئن شئتَ لتَستصفِينّ كَدَرَ قلوبِنا بصفوِ حِلمك؛ قال معاوية: أَفعلُ.

وجلس معاويةُ يومًا وعنده وجوهُ الناس، وفيهم الأحنف، فدخل رجلٌ من أهل الشام، فقام خطيبًا، فكان آخِرَ كلامه أن لَعَن عليًا رضي الله عنه، فأَطرق الناس، وتكلّم الأحنفُ فقال: يا أمير المؤمنين، إن هذا القائل آنفًا ما قال لو عَلِم أن رضاك في لعن المرسلين لَلعَنهم، فاتّق الله، ودَع عليًا فقد لقِيَ الله، وأُفرد في حُفرتِه، وخلا بعمله، وكان والله ـ ما عَلِمنا ـ المبرِّزَ بسبْقِه، الطاهرَ في خُلقه؛ المَيمونَ النَّقيبه، العظيمَ المصيبه. قال معاويةُ: يا أحنفُ، لقد أَغضَيتَ العينَ على القَذى، وقلتَ بغير ما تَرى، وايْم الله لتَصْعَدَنّ المنبر فَلَتَلْعَننّه طائعًا أو كارهًا؛ فقال الأحنف: إن تُعْفِني فهو خير، وإن تجبُرني على ذلك فوالله لا تجري بشفتاي؛ فقال معاويةُ؛ قم فاصعَد؛ قال: أما والله لأُنصفنّك في القول والفعل؛ قال معاويةُ: وما أنت قائلٌ إن أنصفتني؟ قال: أَصْعَدُ فأَحمَدُ الله وأُثني عليه وأصلّي على نبيّه، ثم أقول: أيها الناس، إنّ معاويةَ أمرني أَن ألعن عليًا، ألا وإنّ عليًا ومعاويةَ اختَلفا واقتَتَلا، وادّعَى كلٌّ واحد منهما أنه مبغِيٌّ عليه وعلى فِئتِه، فإذا دعوتُ فأَمِّنوا رحمكم الله؛ ثم أقول: اللّهمّ العن أنت وملائكتُك وأنبياؤك ورسُلك وجميعُ خلقك الباغيَ منهما على صاحبه، والفِئةَ الباغية على المبغِيّ عليها، آمينَ يا رب العالمين؛ فقال معاويةُ: إذَنْ نُعْفيك يا أبا بَحر.

---

(١) لبث قليلًا يلحق الهيجا حمل: مثل يضرب للتهديد بالحرب وحمل هو ابن بدر. (انظر لسان العرب، مادة حمل).

(٢) أخوه: حنظلة. وخاله: الوليد بن عتبة. وجده: عتبة بن ربيعة.

(٣) الختر: القبح.

وأَتَى الأحنفُ مُصْعَبَ بنَ الزبير يكلّمه في قومٍ حبسهم فقال: أصلح الله الأميرَ، إن كانوا حُبِسوا في باطلٍ فالحقُّ يُخرِجهم، وإن كانوا حُبسوا في حقٍّ فالعفوُ يسَعُهم؛ فخلاهم.

ولما قَدِم وفدُ العراق على معاوية وفيهم الأحنفُ، خرج الآذنُ فقال: إنّ أمير المؤمنين يعزم عليكم ألّا يتكلّم أحدٌ إلّا لنفسه، فلما وَصَلوا إليه قال الأحنف: لولا عَزْمةُ أمير المؤمنين لأخبرتُه أن دافّةً (أي الجماعةُ) دَفَّت[1]، ونازلةً نَزَلتْ، ونائبةً نابت، وكلُّهم بهم الحاجةُ إلى معروف أمير المؤمنين وبِرِّه؛ فقال: حسبُك يا أبا بحر، فقد كَفَيتَ الغائبَ والشاهدَ.

ولما خطب زِيادُ ابنُ أَبِيه بالبَصْرة قام الأحنف فقال:

لله الأميرِ! قد قلتَ فأَسمَعتَ، ووَعَظتَ فأَبْلغتَ؛ أيها الأمير، إنما السّيفُ بحَدِّه، والقوسُ بشدِّه، والرجلُ بمجدِه؛ وإنما الثناءُ بعد البلاء، والحمدُ بعد العطاء؛ ولن نُثْنِيَ حتى نَبتلِي، ولا نَحمَد حتّى نُعطَى.

ولما حُكِّم أبو موسى الأشعريُّ أتاه الأحنف فقال له: يا أبا موسى، إنّ هذا مَسِيرٌ له ما بعده مِن عزّ الدنيا أو ذلّها آخِرَ الدهر، أُدعُ القوم إلى طاعة عليٍّ، فإن أَبَوْا فادعُهم أن يختار أهلُ الشام مِن قريشِ العراقِ مَن أحبّوا، ويختارَ أهلُ العراقِ مِن قريشِ الشامِ من أحبّوا، وإياك إذا لقِيتَ ٱبنَ العاص أن تصافحه بنيّة، وأن يُقْعدك على صدر المجلِس، فإنها خَديعةٌ، وأن يضُمَّك وإيّاه بيتٌ فيكمن لك فيه الرجال، ودعه فليتكلّم لتكون عليه بالخيار، فالبادىءُ مُستغلَقٌ، والمجيبُ ناطقٌ؛ فما عَمِل أبو موسى إلّا بخلاف ما قال الأحنفُ وأشارَ به، فكان من الأمر ما كان؛ فلقيه الأحنف بعد ذلك فقال له: أَدْخَلَ والله قدميك في خُفٍّ واحدةٍ.

وقال بخراسان: يا بني تَميم، تَحابّوا تَجتَمِعْ كلمتُكم وتَباذَلوا تَعتدلْ أمورُكم، وٱبدؤوا بجهادِ بطونِكم وفروجِكم يصلَح دِينُكم، ولا تَغُلّوا[2] يَسلَمْ لكم جهادُكم.

ولمّا قدِمت الوفود على عمر بن الخطّاب رضي الله عنه، قام هِلال بنُ بِشر فقال: يا أمير المؤمنين: إنا غُرّةُ[3] مَنْ خَلْفَنا مِن قومنا، وسادةُ مَن وراءنا مِن أهل مصرِنا؛ وإنك إن تَصرِفنا بالزيادة في أعطياتنا، والفرائِض لعيالاتنا، يَزْدَدْ بذلك

---

(١) دفت: نزلت أو أتت.
(٢) غلّ غلولًا: خان في المغنم.
(٣) غرّة القوم: أشرافهم.

الشريفُ تأميلًا، وتكن لهم أبا وَصُولا؛ وإن تكن مع ما نَمُتَ به من وسائلك، وندلِي به من أسبابك كالجدل(١) لا يَحُلّ ولا يَرتحِل، نَرجِعْ بأُنوفٍ مصلُومة(٢)، وجُدودٍ(٣) عاثِرة، فمِحْنا(٤) وأهالينا بسَجْلٍ مُتْرَعٍ(٥) (أي الدَّلْو الملآنة) من سِجالك المترَعة.

وقام زيد بنُ جَبَلَةَ فقال: يا أمير المؤمنين، سَوِّد الشريفَ، وأكرِم الحسِيبَ، وازرع عندنا من أياديك ما تسدّ به الخَصاصة، وتطرد به الفاقة؛ فإنا بِقُفٍّ(٦) من الأرض يابِس الأكناف، مقشعرّ الذُّرْوَة، لا مُتَجَرَ ولا زرع، وإنا من العرب اليوم إذ أتيناك بِمَرْأَى ومَسْمَع.

فقام الأحنف فقال: يا أمير المؤمنين، إن مفاتيحَ ٱلخير بيد الله، والحِرص قائدُ الحِرْمان، فٱتق الله فيما لا يغني عنك يوم القيامة قِيلًا ولا قالا، وٱجعل بينك وبين رعيّتك من العدل والإنصاف سببًا يكفيك وِفادةَ الوُفود، وٱستماحةَ الممتاح(٧)، فإنّ كلَّ ٱمرىء إنما يَجمع في وِعانه الأقلَّ ممن عسى أن تقتحِمَه الأعينُ فلا يُوفد إليك.

ومن كلام أمِّ الخير بنت الحَرِيش البارِقيَّةِ ـ وكانت من الفصحاء ـ

حُكِي أنها لما وَفَدت على معاوية قال لها كيف كان كلامُك يوم قُتِل عَمّار بنُ ياسِر؟ قالت: لم أكن والله زَوَّرتُه(٨) قَبْلُ ولا روَّيته بعد، وإنما كانت كلماتٌ نَفَثَهن لساني حين الصدمة، فإن شئتَ أن أُحْدِث لك مقالًا غيرَ ذلك فعلتُ، قال: لا أشاء ذلك، ثم ٱلتفت إلى أصحابه فقال: أيّكم حَفِظ كلام أمِّ الخير؟ فقال رجل من القوم: أنا أحفظه يا أمير المؤمنين كحفظي سورةَ الحمد، قال: هاته، قال: نَعم، كأنّي بها يا أمير المؤمنين عليها بُرْدٌ زَبيديّ، كَثيفُ الحاشية، وهي على جَمَل أَرْمَكَ(٩)، وقد أحيطَ حولَها وبيدها سوطٌ منتشرُ الضَّفر(١٠)، وهي كالفحلَ يهدُر في شِقْشِقَته تقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾﴾ [الحجّ: الآية ١] إن الله قد أوضح الحقّ، وأبان الدليل، ونَوَّر السبيل، ورَفَع العَلَم، فلم يَدَعْكم في عَمْياءَ

---

(١) الجَدْل: العضو.
(٢) مصلومة: مقطوعة، من صلم أي قطع.
(٣) جدود: جمع جد، أي حظ.
(٤) محنا: أعطنا، من المنْح أي العطاء.
(٥) سجل مترع: دلو ملآن.
(٦) القف: ما ارتفع من الأرض.
(٧) الممتاح: الطالب المستخرج، ومتح الماء: استخرجه.
(٨) زورته: هذبته وثقفته، من قولهم زوّر الحديث إذا أزال زوره أي اعوجاجه.
(٩) أرمك: من الرمكة، وهي لون التراب.
(١٠) الضَّفْر: الفتل.

مبهَمة، ولا سوداءَ مدلهِمّة؛ فأنّى تريدون رحمكم الله؟ أفِرارًا عن أمير المؤمنين، أم فِرارًا من الزَّحْف، أم رغبةً عن الإسلام، أم ارتدادًا عن الحق؟ أما سمعتم الله عزّ وجلّ يقول: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾ [محمّد: الآية ٣١] ثم رفعت رأسها إلى السماء وهي تقول: اللهمّ قد عِيلَ الصبر، وضَعُف اليقين، وانتَشرَت الرغبة، وبيدِك يا رب أزِمّةُ القلوب، فاجمع الكلمةَ على التقوى، وألّف القلوبَ على الهدى، وردّ الحقَّ إلى أهله؛ هلُمُّوا رحمكم الله إلى الإمام العادل والوَصِيِّ الوفيِّ، والصّديقِ الأكبر؛ إنها إحَنٌ بَدْريّة[1] وأحقادٌ جاهلية، وضغائنُ أُحديّة[2]، وَثَبَ بها معاويةُ حين الغَفلة ليُدرِك ثاراتِ بني عبد شمس؛ ثم قالت: ﴿فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾ [التوبة: الآية ١٢]، صبرًا معشرَ المهاجرين والأنصار، قاتِلوا على بصيرة من ربكم، وثبات من دِينكم، وكأنّي بك غدًا قد لقِيتم أهلَ الشام كحُمُرٍ مستنفِرة، فرّت من قسورة، لا تَدرِي أين يُسْلك بها من فِجاج الأرض، باعوا الآخرةَ بالدنيا، واشتروا الضَّلالَة بالهدى، وباعوا البصيرةَ بالعمى، و﴿عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ﴾ [المؤمنون: الآية ٤٠]، حين تَحُلّ بهم الندامة، فيَطلبُون الإقالة، إنه والله مَن ضَلّ عن الحقّ وقع في الباطل، ومن لم يَسكُن الجنّة نزل النار؛ أيها الناس، إنّ الأكياس استصغروا عمر الدنيا فرفضوها، واستبطؤوا مُدّةَ الآخرة فسعَوْا لها؛ والله أيها الناس، لولا أن تَبطُل الحقوقُ، وتعطَّل الحدودُ، ويَظهرَ الظالمون، وتَقوى كلمةُ الشيطان، لما اخترنا ورود المنايا على خَفض العيش وطِيبِه، فإلى أين تريدون ـ رحمكم الله ـ؟ عن ابن عمّ رسول الله ﷺ، وزوج ابنتِه، وأبِي ابنيه، خلق من طينته، وتفرّع عن نَبْعتِه، وخصّه بسِرّه، وجعلَه بابَ مدينته، وأعلَمَ بحبّه المسلِمين، وأبان ببغضه المنافقِين؛ فلم يزَل كذلك يؤيّده الله بمعُونتِه، ويَمضِي على سَنَن استنّه، لا يعرِّج لراحة اللذّات؛ وهو مفلِّقُ الهام، ومكسِّر الأصنام؛ إذ صلّى والناس مشركون، وأطاع والناس مرتابون؛ فلم يزل كذلك حتى قَتَل مبارِزِي بَدْر، وأفنى أهل أُحُد، وفَرّق جَمْعَ هَوازن، فيا لها وقائعَ زَرعَتْ في قلوب قوم نفاقًا، ورِدّةً وشِقاقًا! وقد اجتهدتُ في القول، وبالغتُ في النصيحة، وبالله التوفيق؛ وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

---

(١) إحَنٌ بدرية: مفرده إحنة، أي الحقد. بدرية نسبة إلى موقعة بدر التي نسبت بين المسلمين والمشركين وانتصر فيها النبي على المشركين.

(٢) ضغائن أحدية: نسبة إلى أحد المعركة التي جرت بين المسلمين والمشركين وانتصر فيها المشركون.

فقال معاويةُ: والله يا أمّ الخير[١] ما أردتِ بهذا إلا قتلِي، والله لو قتلتكِ ما حَرِجتُ في ذلك؛ قالت: والله ما يسُوؤني يا ٱبنَ هند أن يُجريَ الله ذلك على يدَيْ من يُسعِدُني الله بشقائه؛ قال: هيهات يا كثيرة الفُضول، ما تقولين في عثمان بن عفّان؟ قالت: وما عسَيتُ أن أقول فيه؟ استَخلفه الناس وهم كارهون، وقتلوه وهم راضون؛ فقال: إيهًا[٢] يا أمّ الخير، هذا والله أصلُكِ الذي تَبنِين عليه، قالت: لكن الله يشهد ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النّساء: الآية ٧٩] ما أردتُ بعثمانَ نقصًا، ولقد كان سَبّاقًا إلى الخيرات، وإنه لرفيعُ الدّرجات؛ قال: فما تقولين في طَلحةَ بنُ عُبَيد الله؟ قالت: وما عسى أن أقول في طَلحةَ؟ اِغتِيل مِن مأمنِه، وأُتِيَ من حي لم يَحذر، وقد وعده رسول الله ﷺ الجنّة؛ قال: فما تقولين في الزُّبير؟ قالت: يا هذا لا تدَعْني كَرجيع الضَّبع يُعرَكُ في المِرْكَن[٣]؛ قال: حقًا لتقولِنّ ذلك، وقد عَزَمتُ عليكِ؛ قالت: وما عسَيتُ أن أقول في الزُّبير ٱبنِ عمة رسول الله ﷺ وحَواريِّه، وقد شَهد له رسول الله ﷺ بالجنّة، ولقد كان سَبّاقًا إلى كلّ مَكْرُمةٍ في الإسلام؛ وإني أسألك بحق الله يا معاوية ـ فإن قريشًا تحدّث أنك مِن أحلمِها ـ أن تسَعَني بفضل حِلمك، وأن تُعفِيَني من هذه المسائل، وٱمض إلى ما شئتَ من غيرها؛ قال: نَعم وكرامة، قد أعفَيتُكِ، ورَدَّها مكرّمةً إلى بلدها.

وممن ٱشتَهَر بالفصاحة والبلاغة زِياد ٱبن أبِيه، والحجّاجُ بنُ يوسفَ الثَّقفيُّ، وسنذكر نُبْذةً من كلامها في التاريخ عند ذكرنا لأخبارهما لمّا وَلِيَ كلٌّ منهما العراقَ، وما خطب الناسَ به، ولنذكُرْ في هذا الموضع من كلام الحجّاج ما لم نُورِدْه هناك.

قيل: لما قَدِم الحجّاجُ البَصرةَ خطب فقال: أيها الناس، مَن أعياه داؤه، فعندي دواؤه؛ ومَن ٱستطال أجَلَه، فعليّ أن أعجّلَه، ومَن ثَقُل عليه رأسُه وَضعتُ عنه ثِقْلَه؛ ومَن استطالَ ماضي عمره قصّرتُ عليه باقيَه؛ إن للشّيطان طَيْفًا، وللسّلطانِ سيفًا؛ فمَن سَقُمت سَريرتُه، صحّت عقوبتُه؛ ومَن وضعه ذَنْبُه، رفعَه صَلْبُه، ومن لم تسعْه العافية، لَم تضقَ عنه الهَلَكة؛ ومن سبقته بادرةُ فمِه، سبق بدنه بسفك دمِه؛ إني أُنْذِر ثم لا أُنظِر، وأحذّر ثم لا أعذِر، وأتَوعّد ثم لا أعفو، إنما أفسَدكم ترنيقُ[٤] وُلاتكم،

---

(١) أم الخير بنت الحريش البارقية: (٢) إيهًا: حسبك.
(٣) المركن: الوهاب الذي يغسل فيه، ولعلّها تريد: لا تدعني أدنّس بالذمّ أهل الطهارة، وألصق العيوب بمن لا عيب فيه.
(٤) الترنيق: الضعف في الأمر.

ومن ٱستَرخَى لَبَبُه[١] ساء أدبُه، إنّ الحزمَ والعزمَ سلباني سَوطي، وأبدَلاني به سيفي، فقائمُه في يدي، ونِجَادُه في عنقي، وذُبابُه قلادةٌ لمن عصاني، والله لا آمر أحدَكم أن يخرج من باب من أبواب المسجد فيخرج من الباب الذي يليه إلا ضربت عنقه.

قال مالك بنُ دِينار[٢]: ربّما سمعتُ الحجّاج يذكر ما صنع فيه أهلُ العراق وما صَنَع بهم، فيقع في نفسي أنهم يظلمونه لبيانه وحسنِ تخليصِه للحجج.

وخطب الحجّاجُ بعد وقعة دَيْر الجماجِم[٣] فقال: يا أهل العراق، إنّ الشيطان قد ٱستبطنكم فخالَطَ اللحمَ والدّمَ والعَصَبَ والمسامعَ والأطراف والأعضاءَ والشَّغافَ، ثم أفضَى إلى المِخاخِ والأصماخ، ثم ٱرتفع فعَشَّش، ثم باض ففرّخ، فحاشكم نفاقًا وشقاقًا، وأشعَرَكم خلافًا، وٱتخذتموه دليلًا تتبعونه، وقائدًا تُطيعونه، ومؤامرًا تستشيرونه؛ فكيف تنفعكم تجربة، أو تعظكم وقعة؛ أو يَحجُزكم إسلام، أو ينفعكم بيان؟ ألستم أصحابي بالأهواز؟ حيث رُمتم المكر، وسَعيتم بالغدر، واستَجمعتم للكفر، وظننتم أنّ الله خَذَل دِينَه وخلافتَه، وأنا أرميكم بطَرْفي، تَتسلّلون لِواذًا، وتنهزمون سِراعًا ثم يوم الزاوية[٤] وما يوم الزاوية! بها كان فَشَلُكم وتَنازُعكم وتَخاذُلكم وبراءةُ الله منكم، ونُكوصُ وليّكم عنكم إذ ولَّيتم كالإبل الشواردِ إلى أوطانها النوازعِ إلى أعطانها؛ لا يَسأل المرءُ عن أخيه، ولا يَلوي الشيخ على بَنيه؛ حتى عَظّكم[٥] السلاح، وقصَمَتكم الرماح، ثم دَيرُ الجماجم، وما دَيرُ الجماجم! بها كانت المَعاركُ والمَلاحم؛ بضربٍ يُزيل الهامَ عن مَقيلِه، ويَصرف الخليلَ عن خليله؛ يا أهل العراق، والكَفَراتِ بعد الفَجرات، والغَدَراتِ بَعد الخَتَراتِ، والنَّوْرةِ بَعد

(١) اللبب: ما يشد الرحل أو السرج على صدر الدابة فيمنعه من الاستئخار. يعني أن اللين يفسد الرعية.

(٢) مالك بن دينار: (١٣١ هـ = ٧٤٨ م)، هو مالك بن دينار البصري، أبو يحيىٰ، من رواة الحديث، كان ورعًا، يأكل من كسبه ويكتب المصاحف بالآجرة، توفي في البصرة. (الأعلام، للزركلي).

(٣) دير الجماجم: بظاهر الكوفة على بعد سبعة فراسخ منها باتجاه البصرة. سمي بذلك لأنه كانت تصنع فيه الجماجم وهي أقداح من الخشب. ووقعة دير الجماجم نشبت بين الحجاج بن يوسف الثقفي وعبد الرحمٰن بن محمد بن الأشعث. وانهزم فيها ابن الأشعث.

(٤) يوم الزاوية: وقعة أخرى بين الحجاج وابن الأشعث جرت في مكان بالقرب من البصرة اسمه الزاوية.

(٥) عظكم السلاح: عضكم.

الثَّوراتِ؛ إن بعثتُكم إلى ثُغوركم غَللتم[١] وجبُنتم، وإن أَمِنتم أرجَفتم، وإن خِفتم نافقتم؛ لا تَذكُرون حسنةً، ولا تشكُرون نعمة؛ يا أهل العراق هل ٱستخفّكم ناكثٌ، أو ٱستغواكم غاوٍ، أو ٱستفزّكم عاصٍ، أو استنصركم ظالمٌ، أو ٱستعضدكم خالعٌ، إلا اتّبعتموه وآويتموه ونصرتموه وزكّيتموه؟ يا أهل العراق، قلّما شَغَب شاغب، أو نَعَب ناعب، أو زَفَر كاذب إلا كنتم أتباعَه وأنصاره؛ يا أهل العراق، ألَم تَنهَكم المواعظ، ولم تزجُركم الوقائع. ثم ٱلتفت إلى أهل الشام فقال: يا أهل الشام، أنا لكم كالظَّليم الرامح[٢] عن فراخه، يَنفِي عنها المدر، ويباعِدُ عنها الحجر، ويَكُنُّها من المطر؛ ويحميها من الضِّباب، ويحرُسها من الذئاب؛ يا أهل الشام، أنتم الجُنّةُ والرِّداء، وأنتم العُدّة والحِذاء.

ومن مكاتباته إلى المهلَّب بنِ أبي صُفْرةَ وأجوبة المهلَّب له

كتب الحجاج إليه وهو في وجه الخوارج: أما بعد، فإنه بلغني أنك قد أقبَلت على جباية الخَراج، وتَركتَ قتال العدوّ، وإني وَلَّيتك وأنا أرى مكانَ عبد الله بن حكيم المُجاشِعيِّ، وعَبّادِ بن حُصَين الحَبَطيّ، وٱخترتك وأنت رجل من الأَزْد، وأنا أُقسم إن لم تَلقَهم في يوم كذا أَشرعتُ إليك صدرَ الرمح. فأجابه المهلّب: ورد عليّ كتابُك تزعمُ أني أقبَلت على جباية الخَراج، وتركتُ قتال العدوّ لعجز؛ وزعمتَ أنك ولّيتني وأنت تَرَى مكانَ عبد الله بن حكيم وعَبّادِ بنِ حُصَين، ولو وَلَّيتَهما لكانا مستحقَّين لذلك في فضلهما وغَنائهما؛ وأنك ٱخترتني وأنا رجل من الأَزْد، ولَعمري إنّ شرّا من الأَزْد لَقبيلةٌ تَنازَعُها ثَلاثُ قبائلَ لم تَستقِرّ في واحدة منهنّ؛ وزعمتَ أنّي إن لم أَلقَهم في يوم كذا أشرَعتَ إليّ صدرَ الرمح، فلو فعلتَ لقَلبتُ إليك ظَهرَ المَجنّ[٣].

ووَجّه إليه الحجّاجُ يستبطئه في مناجَزة القوم، وكَتب إليه: أما بعد، فإنك جَبيت الخَراج بالعِلل، وتحصّنتَ بالخَنادق، وطاولتَ القوم وأنت أعزُّ ناصرًا وأكثرُ عددًا، وما أظنّ بك مع هذا معصيةً ولا جبنًا، ولكنك ٱتخذتهم أُكُلًا، ولإبقائهم أيسرُ عليك من قتالهم، فناجِزْهم وإلّا أنكرتني، والسلام.

(١) غللتم: من الغلول وهو الخيانة في الغنيمة.
(٢) الظليم الرامح: ذكر النعام الضارب برجله.
(٣) المجن: الترس. وقلب له ظهر المجن، أي عاداه وحاربه.

فقال المهلّب للجرّاح: يا أبا عُقْبة، والله ما تركتُ حِيلةً إلّا ٱحتلتُها، ولا مَكِيدةً إلّا عَمِلتُها، وليس العَجَبُ من إبطاء النصر، وتَراخِي الظَّفَر، ولكن العَجَب أن يكون الرأيُ لمن يَملِكه دون من يبصره؛ ثم ناهَضَهم ثلاثةَ أيّام يغاديهم، ولا يزالون كذلك إلى العصر حتى قال الجرّاح: قد ٱعتَذرتَ؛ وكَتَب إلى الحجّاج: أتاني كتابك يستبطىء لقاءَ القوم، على أنك لا تظنّ بي معصيةً ولا جبنًا، وقد عاتبتني معاتَبةَ الجبان، وأوعدتني وعيدَ العاصي، فسَل الجرّاحَ والسلام. فكَتب إليه الحجّاج: أما بعد، فإنك تَتراخى عن الحرب حتى تأتيك رُسلي ويرجعون بعذرك، وذاك أنك تُمسِك حتى تبرَأ الجِراحُ وتُنسَى القَتْلى، ويَجُمّ الناس، ثم تلقاهم فتَحمِل منهم مِثل ما يَحمِلون منك من وَحْشة القتل وألم الجِراح، ولو كنتَ تلقاهم بذلك الجِدّ لكان الداء قد حُسِم، والقِرْنُ قد قُصِم، ولَعمرِي ما أنت والقومُ سواءٌ، لأنّ من ورائك رجالًا، وأمامك أموالًا، وليس للقوم إلّا ما معهم، ولا يُدرَك الوجِيفُ بالدَّبيبِ[1]، ولا الظَّفَرُ بالتعذير[2].

فكتب إليه المهلَّب: أمّا بعد، فإني لم أُعطِ رسلَك على قول الحق أجرًا، ولم أَحتجْ منهم مع المشاهَدة إلى تلقين؛ وذكرتَ أنّي أُجِمّ[3] القوم، ولا بدّ من راحة يستريح فيها الغالبُ ويَحتالُ المغلوبُ؛ وذكرتَ أن في الإجمام ما يُنسِي القَتْلى، ويُبْرِىءُ الجِراحَ، وهيهات أن يُنسَى ما بيننا وبينهم، يأبى ذلك قتلُ مَن لَم يجن، وقُروحُ لَم تَتقرّف[4]؛ ونحن والقومَ على حالة، وهم يرقُبون حالات، إن طَمِعوا حارَبوا، وإن مَلُّوا وَقفوا، ونَطلُب إذا هَرَبوا، فإن تركْتَني فالداءُ بإذن الله محسوم، وإن أعجلتَني لم أُطِعْكَ ولم أعْصِ، وجعلتُ وجهي إلى بابك، وأنا أعوذ بالله مِن سَخَطِ الله ومَقْتِ الناس.

وقال المهلَّب[5] لبنِيه: يا بَنِيّ تَباذَلوا تَحابّوا، فإنّ بني الأمّ يختلفون، فكيف بَنِي العَلّاتِ[6]؛ إنّ البِرَّ يَنسأ في الأجَل، ويزيدُ في العَدد، وإنّ القطيعةَ تُورِث القِلّة،

---

(١) الوجيف: السرعة.
(٢) التعذير: التقصير في الأمر.
(٣) أجم الناس: أراحهم.
(٤) تتقرف: تبرأ.
(٥) المهلب بن أبي صفرة الأزدي البصري: من أشجع الناس، حمى البصرة من الخوارج، وله معهم وقائع مشهورة بالأهواز. وكان سيدًا جليلًا نبيلًا. ولم يُعَبْ بشيء إلا بالكذب. وآخر ما ولي خراسان من قبل الحجاج بن يوسف الثقفي وفيها توفي سنة ٨٣ هـ. (ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٤، ص ٤٣٢).
(٦) بنو العلّات: الأبناء من أمّهات شتى وأبٍ واحد.

وتعقب النارَ بعد الذِّلّة؛ واتقوا زَلّةَ اللسان، فإن الرجل تَزِلُّ رِجلُه فيَنتعش، ويَزِلُّ لسانُه فيَهلِك؛ وعليكم في الحرب بالمَكِيدة، فإنّها أبلغ من النَّجْدة.

ولمّا استَخلف ٱبنَه المغيرة على حرب الخوارج، وعاد هو إلى عند مُصعَب بن الزُّبير، جَمع الناسَ فقال لهم: إني قد استخلفت عليكم المُغِيرةَ، وهو أبو صغيرِكم رِقّةً ورحمة، وابنُ كبيرِكم طاعةً وتبجيلًا وبِرًّا، وأخو مِثلِه مواساةً ومناصَحة، فلتَحسُن له طاعتُكم، وليلِنْ له جانبُكم، فوالله ما أردتُ صوابًا قطّ إلا سبقني إليه.

وخطب عبد الملك بن مروان، فلما بَلَغ الغِلْظةَ قام إليه رجل من آل صُوحانَ فقال: مهلًا مهلًا يا بني مَرْوان، تَأمُرون ولا تأتمِرون، وتَنهَون ولا تُنهَون، وتَعِظون ولا تَتّعِظون؛ أفنقتدِي بسِيرتكم في أنفُسكم، أم نطيع أمرَكم بألسنتكم؟ فإن قلتم: اِقتدُوا بسيرتنا، فأنّى وَكَيفَ، وما الحُجّةُ، وما المَصيرُ من الله؟ أنَقتدِي بسِيرة الظَّلَمةِ الفَسَقةِ الجَوَرةِ الخَوَنةِ، الذين ٱتخذوا مالَ الله دُوَلًا، وعَبيدَه خَوَلًا؟ وإن قلتم: اسمعوا نصيحتنا، وأطيعوا أمرنا، فكيف يَنصَح لغيره من يَغُشّ نفْسَه؟ أم كيف تَجِب الطاعةُ لمن لم تَثبُت عند الله عدالتُه؟ وإن قلتم: خذوا الحكمة من حيث وجدتموها، وٱقبَلوا العِظةَ ممّن سمعتموها، فعلام ولّيناكم أمرَنا، وحكّمناكم في دمائنا وأموالنا؟ أما علمتم أنّ فينا من هو أنطَقُ منكم باللغات، وأفصَحُ بالعِظات؟ فَتَخَلّوا عنها، وأطلِقوا عِقالَها، وخَلُّوا سبيلَها، يَنتدِبْ إليها آلُ رسول الله ﷺ الذين شرّدتموهم في البلاد، ومزّقتموهم في كل واد، بل تَثبُت في أيديكم لانقضاء المدّة، وبلوغِ المُهْلة، وَعِظَم المِحْنَة؛ إنّ لكلِّ قائمٍ قَدرًا لا يَعدُوه، ويَومًا لا يَخطُوه، وكتابًا بَعدَه يتلوه، ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَاۚ﴾ [الكهف: الآية ٤٩]، ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ٢٢٧] ثم التُمِس الرجلُ فلم يوجَد.

ومن كلام قَطَرِيِّ بنِ الفُجاءةِ[1] - وكان من البلغاء الأبطال، فمن ذلك خطبته المشهورة التي قال فيها:

أما بعد، فإني أُحذّركم الدنيا فإنها حُلوةٌ خَضِرة، حُفّت بالشهوات، وراقت بالقليل، وتَحبّبَتْ بالعاجلة، وحَلِيَتْ بالآمال، وتزيَّنَتْ بالغُرور؛ لا تَقُوم نَضْرَتُها، ولا تُؤْمَن فجيعتُها؛ غرّارةٌ ضرّارة، وحائلةٌ زائلة، ونافذةٌ بائدة، أكّالةٌ غوّالة؛ لا تَعدو إذا

(١) قطري بن الفجاءة: هو جعونة بن مازن المازني الخارجي: خرج في دولة بني أمية وحارب ولاة الأمويين عشرين سنة بشجاعة حتى غلبه وقتله سفيان بن الأبرد الكلبي سنة ٧٨ هـ.

تناهت إلى أُمنيّة أهلِ الرغبة فيها والرضا عنها أن تكون كما قال الله تعالى: ﴿كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف: الآية ٤٥] مع أن امرءًا لم يكن معها في حَبْرة (أي السرور)، إلا أعقبته بَعدها حسرة، ولم يَلقَ من سَرّائها بطنًا إلا مَنحَتْه من ضَرّائها ظَهرًا، ولم تَصِلْه غَيثةُ رَخاء، إلّا هَطَلت عليه مُزنةُ بلاء؛ وحَرِيَّةٌ إذا أصبحتْ له منتصِرة، أن تُمسيَ له خاذلة متنكِّرة؛ وإنْ جانبٌ منها اعذَوْذَبَ واحلَوْلَى، أَمَرّ عليه منها جانب وأوبأ[1]، فإن أتت امرأ من غصونها وَرَقا أرهقَته من نوائبها تَعَبًا، ولم يُمسِ منها امرؤ في جَناح أمنٍ إلا أصبح منها في قَوادم خوف، غَرّارةٌ غُرورٌ ما فيها، فانيةٌ فانٍ مَن عليها؛ لا خير في شيء مِن زادِها إلا التقوى، مَن أَقَلَّ منها استَكثَر مما يؤمِّنه ومن استكثَر منها استكثر مما يُوبقه ويطيل حزنَه، ويُبكِي عينَه؛ كم واثقٍ بها قد فجَعَتْه، وذي حُلم تَنبّهَ إليها قد صَرَعَتْه، وذي احتيالٍ فيها قد خَدَعتْه؛ وكم ذي أبّهة فيها قد صيّرتْه حقيرًا، وذي نخوة قد ردّته ذليلًا، ومن ذي تاج قد كَبَّته لليدين والفم؛ سلطانُها دُول، وعيشُها رَنِق (أي الماء الكدر): وعَذْبُها أُجاج، وحُلوها صَبِر، وغِذاؤها سِمام، وأسبابُها رِمام[2]، وقِطَافُها سَلَع[3]؛ حيُّها بعَرَض موت، وصحيحُها بعَرَض سُقْم، ومنيعُها بعَرَض اهتضام؛ وملكُها مسلوب، وعزيزُها مغلوب، وسليمُها منكوب وجارُها محروب؛ مع أنّ وراء ذلك سَكَراتِ الموت، وهولَ المُطَّلَع، والوقوفَ بين يدي الحكم العدل ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾ [النجم: الآية ٣١] ألستم في مساكن من كان قَبلكم أطوَلَ منكم أعمارًا، وأَوضحَ منكم آثارًا؛ وأعدَّ عديدًا، وأكثَفَ جنودًا، وأشدَّ عُقودًا، تُعُبّدوا[4] للدنيا أيَّ تَعَبُّد، وآثروها أيَّ إيثار، وظَعَنوا بالكَرْه والصَّغار، فهل بلغكم أنّ الدنيا سَمحتْ لهم نفسًا بفِدْية، أو أغنَتْ عنهم فيما قد أهلَكتْهم بخَطْب؟ بل قد أرهقَتْهم بالفَوادح، وضعضَعتْهم بالنوائب، وعَقَرتْهم بالفجائع؛ وقد رأيتم تنكُّرَها لمن رادَها وآثرها وأَخْلَدَ إليها، حِينَ ظَعنوا عنها لفراق الأبَد، إلى آخر المُسْنَد[5]؛ هل زَوَّدَتْهم إلا السَّغَبَ[6]، وأَحَلَّتهم إلا الضَّنْك، أو نَوَّرتْ لهم إلا الظُّلمة، أو أعقبتْهم إلّا الندامة؟ أفهذه تؤثِرون، أم على هذه تَحرِصون، أم إليها تطمئنُّون؟ يقول الله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ

---

(١) أوبأ المكانُ: كثر فيه الوباء أو المرض العام.

(٢) رمام: مفردها رُمّة، وهي قطعة الحبل البالية. يريد القول إن حبالها بالية.

(٣) السلع: ضرب من الصبر.

(٤) تُعُبِّدوا للدنيا: صاروا عبيدًا للدنيا. يقال تعبد فلان فلانًا إذا اتخذه عبدًا.

(٥) المسند: الدهر. (٦) السغب: الجوع.

أَعْمَلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾﴾ [هُود: الآية ١٥] فبئست الدارُ لمن أقام فيها، فاعلموا إذ أنتم تعلمون أنكم تاركوها لا بدّ، فإنما هي كما وصفها الله باللعب واللّهو، وقد قال الله تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ [الشُّعَرَاء: الآيات ١٢٨ - ١٣٠].

وذَكَر الذين قالوا: من أشَد منا قوّة ثم قال: حمَلوا إلى قبورهم فلا يُدعَون رُكبانًا، وأُنزِلوا فلا يُرعون ضيفانا، وجعَلَ الله لهم من الضريح أَكْنانًا، ومن الوَحْشةِ ألوانًا، ومن الرُّفات جيرانًا؛ وهم في جِيرة لا يجيبون داعيًا، ولا يَمنعون ضَيمًا، إن أَخصبوا لم يَفرحوا، وإن قَحِطُوا[1] لم يَقنَطوا؛ جَمعٌ وهُم آحاد، جِيرة وهم مُتَناؤُون[2]، لا يزورون ولا يُزارون؛ حُلَماء قد ذَهبتْ أضغانُهم، وجُهَلاء قد ماتت أحقادُهم؛ لا يُرجَى نفعُهم، ولا يُخشَى دفعُهم؛ وكما قال الله تعالى: ﴿فَتِلْكَ مَسَكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَارِثِينَ﴾ [القَصَص: الآية ٥٨] فاستبدلوا بظهر الأرض بطنًا، وبالسَّعة ضِيقًا، وبالأهل غُربة، وبالنُّور ظُلمة، ففارَقوها كما دخلوها، حُفاةً عُراةً فُرادى، غيرَ أن ظَعَنوا بأعمالهم إلى الحياة الدائمة، وإلى خلود الأبد، يقول الله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبيَاء: الآية ١٠٤] فاحذروا ما حذَّركم الله، وانتفِعوا بمواعظه، واْعتصِموا بحبله، عَصَمنا الله وإيّاكم بطاعته، ورَزَقنا وإيّاكم أداء حقِّه.

ومن كلام أبي مُسلم الخُراسانيّ صاحب الدولة[3]، قيل له: ما كان سببُ خروج الدولة عن بني أميّة؟ فقال: لأنهم أبعدوا أولياءهم ثِقةً بهم، وأدنَوا أعداءهم تألُّفًا لهم، فلم يَصِر العدوُّ بالدُّنوّ صديقًا، وصار الصديقُ بالبِعاد عدوًّا.

وقيل له في حَداثته: إنا نراك تَأرَق كثيرًا ولا تنام، كأنك موكَّل برَعْي الكواكب، أو متوقِّعٌ الوحيَ في السماء، فقال: والله ما هو ذاك، ولكن لي رأيٌ جَوَّال، وغَريزةٌ خيّرة وذهن صافٍ، وهمّةٌ بعيدةٌ، ونفسٌ تتُوق إلى معالي الأمور، مع عيش كعيش الهَمَج والرَّعاع، وحالٍ متناهيةٍ من الاتّضاع، وإني لأرى بعضَ هذا مصيبةً لا تُجبَر بسهر، ولا تُتَلافَى بأَرَق؛ قيل له: فما الذي يَبْرُد غليلَك، ويَشفِي أُحاح[4] صدرِك؟

(١) قَحِط: أصيب بالقحط، أي الجدب.
(٢) متناؤون: متباعدون، من نأى أي بعد.
(٣) الأصح صاحب الدعوة كما ورد في البيان والتبيين للجاحظ، ج ٢ وليس صاحب الدولة.
(٤) الأحاح: شدة العطش.

قال: الظَّفَرُ بالمُلك؛ قيل له: فاطلُب؛ قال: إن الملك لا يدرَك إلا بركوب الأهوال؛ قيل: فاركب الأهوال؛ قال: هيهات، العَقلُ مانعٌ من ركوب الأهوال؛ قيل: فما تصنع وأنت تَبلى حسرةً، وتذوبُ كَمَدًا؟ قال: سأجعل من عقلي بعضه جهلًا، وأحاول به خطرًا، لأنال بالجهل ما لا يُنال إلّا به، وأدبِّرَ بالعقل ما لا يُحفظ إلا بقوّته، وأعيشَ عيشًا يبين مكان حياتي فيه من مكان موتي عليه، فإن الخُمول أخو العَدم، والشهرة أبو الكَون.

وكتب إليه عبد الحميد بن يحيىٰ كتابًا عن مروانَ بنِ محمد، وقال لمروانَ: قد كتبتُ كتابًا إن نَجَعَ فذاك، وإلّا فالهلاك، وكان لِكبر حجمه يُحمَل على جَمل، نَفثَ فيه حواشيَ صدره، وضمَّنه غرائب عُجَرِه وبُجَرِه[١]، فلمّا ورد على أبي مسلم دعا بنار فطرحه فيها إلّا قدر ذراع فإنه كتب عليه: [من الطويل]

مَحا السيفُ أسطارَ البلاغة وأنتَحَى ليوث الوغى يقدمن من كلّ جانب
فإن يقدموا نُعمِلْ سيوفًا شَحيذةً يَهُون عليها العتْبُ من كلّ عاتب

وردّه، فأيِس الناسُ من معالجته.

وقيل: إنه شَجَر بينه وبين صاحب مَرْوٍ كلامٌ أَرْبَى فيه صاحبُ مَرْوٍ عليه، فاحتمله أبو مسلم وقال: مَهْ، لسانٌ سَبَق، ووهمٌ أخطأ، والغضب شيطان، وأنا جرّأتُك عليّ باحتمالِك، فإن كنتَ للذنب متعمّدًا فقد شاركتُك فيه، وإن كنتَ مغلوبًا فالعفوُ يَسَعك؛ فقال له صاحب مرو: عِظَمُ ذَنبي يَمنع قلبي من الهدوء؛ فقال أبو مسلم: يا عَجبًا، أقابلك بإحسان وأنت تسيء، ثم أقابلك بإساءة وأنت تُحسِن! فقال صاحب مرو: الآن وثِقتُ بعفوك.

ومن كلام جماعة من أمراء الدولتين

خَطَب يوسف بن عمر[٢] فقال: اتقوا الله عباد الله، فكم من مؤمّل أمَلًا لا يَبلُغه، وجامعِ مالًا لا يأكله، ومانعٍ ما سوف يتركه؛ ولعلّه من باطلِ جَمَعَه، ومن حقٍّ

(١) عجره وبجره: كل أموره والأصل، إن العجر هي العروق المتعقدة في الجسد. والبحر، العروق المعقدة في البطن خاصة.

(٢) يوسف بن عمر: (١٢٧٠ هـ = ٧٤٥ م) هو يوسف بن عمر بن محمد بن الحكم الثقفي، أمير من جبابرة الولاة في العهد الأموي، ولّى اليمن لهشام بن عبد الملك ثم ولّى له العراق وخراسان. (الزركلي، الأعلام).

مَنَعَه؛ أصابه حرامًا، وورّثه عدوًّا؛ واْحتَمَل إصْرَه، وباء بوِزره، ووَرَد على ربّه آسفًا لاهفًا ﴿خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الحجّ: الآية ١١].

وقال خالد بن عبد الله القَسْريُّ(١) على المنبر خطيبًا، فحمِد الله وأثنى عليه، وصلّى على النبي ﷺ، ثم قال: أيها الناس، نافِسوا في المكارم، وسارِعوا إلى المغانم، واشتروا الحمد بالجُود، ولا تكسِبوا بالمَطل ذمًّا، ولا تَعتدُّوا بالمعروف ما لم تعجّلوه، ومهما يكن لأحدكم عند أحد نعمةٌ فلم يبلُغ شكرها فالله أحسَنُ لها جزاءً، وأجزل عليها عطاء؛ واعلموا أنّ حوائج الناس إليكم نعمةٌ من الله عليكم؛ فلا تَملّوا النعم فتُحوَّل نقمًا؛ واعلموا أنّ أفضل المال ما أكسب أجرًا، وأورث ذكرًا؛ ولو رأيتم المعروف رجلًا رأيتموه حَسَنًا جميلًا يَسرّ الناظِرين، ولو رأيتم البخل رجلًا رأيتموه مشوَّهًا قبيحًا، تَنفِر منه القلوب، وتُغَضّ عنه الأبصار؛ أيها الناس، إنّ أجوَد الناس مَن أعطَى من لا يرجوه، وأعظمَ الناس عفوًا من عفا عن قدرة، وأوصَلَ الناس مَن وَصَل مَن قَطَعه، ومن لم يَطِب حَرْثُه لَم يَزكُ نَبتُه؛ والأصولُ عن مَغارسها تنمو، وبأصولها تسمو؛ أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

قيل لما ولي أبو بكر بن عبد الله المدينة وطال مكثه عليها كان يبلُغهُ عن قوم من أهلها أنهم يَنالون من أصحاب رسول الله ﷺ، وإسعافٌ من آخرين لهم على ذلك، فأمر أهلَ البيوتات ووجوهَ الناس في يوم جمعة أن يقربوا من المنبر، فلما فرغ من خطبة الجمعة، قال: أيها الناس، إني قائل قولًا، فمن وعاه وأدّاه فعلى الله جزاؤه، ومن لم يَعِه فلا يعدو من ذمامها، إن قصرتم عن تفصيله، فلن تَعجِزوا عن تحصيله، فأرعوه أبصارَكم، وأوعوه أسماعَكم، وأشعِروه قلوبَكم؛ فالموعظة حياة، والمؤمنون إخوة ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ [النحل: الآية ٩] ﴿وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النحل: الآية ٩] فأتوا الهدى تهتدوا، واجتنبوا الغي تَرشُدوا، ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النُور: الآية ٣١] والله جلّ ثناؤه، وتقدّست أسماؤه، أمركم بالجماعة ورضيها لكم، ونهاكم عن الفُرقة وسَخِطَها منكم، فـ ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ۝١٠٢ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ [آل عمران: الآيتان ١٠٢، ١٠٣] جعلَنا الله وإيّاكم ممّن تبع رضوانه، وتجنب

---

(١) خالد بن عبد الله القسري: (٦٦ ـ ١٢٦ هـ = ٦٨٦ ـ ٧٤٣ م)، أمير العراقين وأحد خطباء العرب وأجدادهم. من أهل دمشق ولّي مكة للوليد بن عبد الملك ثم ولاه هشام العراقين (الكوفة والبصرة) وأقام في الكوفة حتى عزله هشام سنة ١٢٠ هـ. (الزركلي، الأعلام).

سخطَه، فإنما نحن به وله؛ وإنّ الله بعث محمدًا ﷺ بالدِّين، واختاره على العالمين، واختار له أصحابًا على الحقّ، ووزراء دون الخَلْق، إختصّهم به، وانتخبَهم له، فصدَّقوه ونصروه، وعزَّروه ووقَّروه، فلم يُقدِموا إلّا بأمره، ولم يُحجِموا إلّا عن رأيه، وكانوا أعوانَه بعهدِه، وخُلفاءه مِن بَعده، فوَصَفَهم فأحسنَ صِفتَهم، وذَكَرَهم فأثنى عليهم، فقال ـ وقولُه الحقّ ـ: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ﴾ [الفَتح: الآية ٢٩] إلى قولِه: ﴿مَّغۡفِرَةً وَأَجۡرًا عَظِيمًۢا﴾ [الفَتح: الآية ٢٩] فمن غاظوه كَفَر وخاب، وفجر وخَسِر، وقال الله عزّ وجل: ﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا﴾ إلى قوله: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: الآيات ٨ ـ ١٠]، فمن خالف شَريطةَ الله عليه لهم، وأمْرَه إيّاه فيهم، فلا حقَّ له في الفَيء، ولا سهمَ له في الإسلام في آي كثيرة من القرآن؛ فمَرَقتْ مارقةٌ من الدِّين، وفارَقوا المسلمين، وجعلوهم عِضِين[1]؛ وتَشعّبوا أحزابًا، أُشاباتٍ وأوشابًا[2]؛ فخالفوا كتاب الله فيهم، وثناءه عليهم، وآذَوا رسول الله ﷺ فيهم؛ فخابوا وخسروا الدنيا والآخرة ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [الزُمَر: الآية ١٥]، ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم ١٤﴾ [محمَّد: الآية ١٤]؛ ما لي أرى عيونًا خُزْرًا[3]، ورقابًا صُعرًا، وبطونًا بُجرًا[4]؟ شجًى لا يُسيغه الماء، وداءً لا يُشرَب فيه الدواء؛ ﴿أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ صَفۡحًا أَن كُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّسۡرِفِينَ ٥﴾ [الزخرف: الآية ٥] الهِناء[5] والطِّلاء حتى يَظهرَ العذرُ، ويَبُوحَ السرُّ، ويَضِحَ الغَيب، ويُسوَّسَ[6] الجُنُب[7]؛ فإنكم لَم تُخلَقوا عبثًا، ولَم تُترَكوا سدى؛ ويْحَكم، إني لست أتاويًا[8] أعلَّم، ولا بدَويًا أفهَّم؛ قد حلبتُكم أشطرًا وقلبتكم أبطُنًا وأظهُرًا؛ فعرَفتُ أنحاءكم وأهواءكم، وعلمتُ أنّ قومًا أظهروا الإسلام بألسنتهم، وأسَرّوا الكفر في قلوبهم، فضربوا بعضَ أصحاب رسول الله ﷺ ببعض، وولَّدوا الرواياتِ فيهم، وضربوا الأمثال، ووَجدوا على ذلك من أهل الجهل من أبنائهم أعوانًا يأذنون لهم، ويُصغُون إليهم؛ مهلًا مهلًا قبل وقوع القوارع، وطُولِ الروائع، هذا لهذا ومع هذا[9]، فلست

---

(١) عضين: جمع عضة، وهي الفرقة.
(٢) إشابات وأوشابًا: يعني أخلاط الناس.
(٣) خزرًا: جمع أخزر، وهو النظر من طرف عينه.
(٤) البجر: العظيمة.
(٥) الهناء: القطران.
(٦) يسوَّس: يروَّض ويذلل.
(٧) الجُنُب: الصعب الذي لا ينقاد.
(٨) الأثاوي: الغريب عن القوم.
(٩) لعله يريد أن أعد لكل عمل جزاء.

أعتنش[١] آئبًا ولا تائبًا، ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ [المَائدة: الآية ٩٥] فأسِروا خيرًا وأَظهِروه، وٱجهروا به وأخلِصوا، فطالما مشَيتم القهقرى ناكِصين، وليَعلمْ من أدبر وأصَرّ أنها موعظة بين يديْ نِقمة؛ ولستُ أدعوكم إلى أهواء تُتَبَع، ولا إلى رأيٍ يُبتدَع؛ إنما أدعوكم إلى الطريقة المُثْلى، التي فيها خيرُ الآخرة والأولى؛ فمن أجاب فإلى رُشدِه، ومن عَميَ فعن قصدِه؛ فهلُمّ إلى الشرائع الجدائع[٢]، ولا تُولّوا عن سبيل المؤمنين، ولا تستبدِلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير، ﴿بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: الآية ٥٠] إيّاكم وبُنيّاتِ[٣] الطريق، فعندها الترنيقُ والرَّهَق[٤]، وعليكم بالجادة، فهي أسَدُّ وأورَدُ، ودعوا الأمانيّ فقد أردَت من كان قبلكم، وليس للإنسان إلا ما سعى، ولله الآخرة والأولى، و﴿لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ [طـه: الآية ٦١]، ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾ [آل عِمرَان: الآية ٨].

هذا ما ٱتفق إيراده من رسائل وخُطب بُلغاء الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ وكلامِ التابعين وغيرِهم مما يحتاج الكاتب إلى حفظه.

وأما رسائل المتقدّمين والمعاصِرين التي يحتاج إلى النظر إليها دون حفظها ـ فهي كثيرة جدًا، سنُورد من جيّدها ما تقِف عليه إن شاء الله.

ذكر شيء من رسائل وفصول الكتاب والبلغاء المتقدّمِين والمتأخِّرين والمعاصرين من المشارقة والمغاربة

وهذه الرسائل والفصول كثيرة جدًا، وقد قدّمنا منها فيما مرّ من كتابنا هذا ما حلا ذِكرُه، وفاح نشْرُه؛ وأنِس به سامعُه، وأَيِس من الإتيان بمثله صانعُه، وأوردنا في كل باب وفصلٍ منه ما يناسبه، وسنُورد إن شاء الله في فنّي الحيوان والنبات عند ذكر كلّ حيوان أو نبات يستحقّ الوصف ما سمعناه وطالعناه مِن وصفه نظمًا ونثرًا، مع ما يندرج في فنّ التاريخ من الرسائل والفصول والأجوبة والمحاورات عند ذكر الوقائع، وإنما نُورده ثَمّ وإن كان هذا موضعَه ليكون الكلام فيه سِياقةً، وتَرِدُ الوقائعُ يتلو بعضُها

(١) أعتنش: أظلم.

(٢) الأصح الجوامع لا الجدائع.

(٣) بنيات الطريق: يريد بها الطرق الصغيرة المتشعبة من الطريق الرئيسة. ويعني: إياكم وسلوك طريق غير طريق الجماعة.

(٤) الرهق، والترهيق: السفه، أو ركوب الشر.

بعضًا، فلا ينقطع الكلام على ما تقِف إن شاء الله تعالى عليه في مواضعه، فلنُوردْ في هذا الموضع ما هو خارج عن ذلك النّمط من كلامهم، ولنَبدأ بذكر شيء من المكاتَبات البليغة المُوجزة.

من ذلك ما كتب به عبدُ الحميد بنُ يحيىٰ بالوَصاة بإنسانٍ فقال: حقُّ مُوصل هذا الكتاب عليك كحقه عليّ إذ رآك مَوْضَعًا لأمَله، ورآني أهلًا لحاجته، وقد أَنجزتُ حاجتَه، فحقِّق أَمَلَه.

ومنه ما حُكي أنّ المأمونَ قال لعمرو بن مَسعَدةَ[1]: أُكتب إلى فلانٍ كتابَ عنايةٍ بفلان في سطر واحد، فكَتب: هذا كتابُ واثقٍ بمن كُتِب إليه، مُعْتَنٍ بمن كُتِبَ له، ولن يضيع بين الثقةِ والعنايةِ حاملُه.

وكتب عمرو بنُ مَسعَدةَ إلى المأمون يستعطفه على الجند: كتابي إلى أمير المؤمنين ومَنْ قِبَلي مِن أجنادِه وقُوّادِه في الطاعة على أفضل ما تكون عليه طاعةُ جندٍ تَأخّرت أرزاقُهم، واْختَلّت أحوالُهم. فأَمَرَ بإعطائهم رِزقَ ثمانية أشهر.

وكتب أحمدُ بنُ يوسفَ[2] إلى المأمون يذكّره بمن على بابِه من الوفود فقال: إنّ داعِيَ نَداك، ومنادِيَ جَدْواكَ، جَمعا ببابك الوفود، يرجون نائلَك العَتِيد؛ فمنهم من يَمُتُّ بحُرمة، ومنهم من يُدْلِي[3] بخِدمة؛ وقد أجحَف بهم المُقام، وطالت عليهم الأيام؛ فإنْ رأى أميرُ المؤمنين أن يَنعَشَهم بسَيْبِه[4]، ويحتَوِشَ ظُنونَهم بطَولِه فَعَل. فوقّع المأمون في كتابه: الخَيرُ متّبَع، وأبوابُ الملوك مَواطنُ لذوي الحاجات، فأحصِ أسماءهم، واْجلُ مَوائنَهم، ليصير إلى كلّ اْمرئٍ منهم قدر اْستحقاقِه، ولا تكدّر معروفًا بالمَطْل والحجاب، فإنّ الأوّل يقول: [من الوافر]

فـإنـك لـن تَـرَى طَـرْدًا لـحُـرٍّ كـإلـصـاقٍ بـه طَـرَفَ الـهـوانِ
ولَم يَـجْـلُب مـودّةَ ذي وفـاء كـمِثـلِ البَذل أو بـسطِ الـلسـانِ

---

(١) عمرو بن مسعدة: (٢١٧ هـ = ٨٣٢ م)، هو عمرو بن مسعدة بن سعد، أبو الفضل الصولي، وزير المأمون وأحد الكتاب البلغاء. اتصف إنشاؤه بالإيجاز والجزالة. (الزركلي، الأعلام).

(٢) أحمد بن يوسف: (٢١٣ ـ هـ = ٨٢٨ م)، هو أحمد بن يوسف بن القاسم بن صبيح العجلي بالولاء المعروف بالكاتب. وزر للمأمون وولي ديوانه. كان فصيحًا قوي البديهة ينظم الشعر. (الزركلي، الأعلام).

(٣) يدلي: يتوسل.

(٤) السيب: العطاء.

وكتب محمدٌ إلى يحيىٰ بن هرمةَ(١) ـ وكان عامِلَه على أَصْفَهانَ، وقد تظلّمَ منه أهلُها ـ : يا يحيىٰ، قد كَثُر شاكُوك، وقَلّ شاكروك؛ فإمّا عَدَلتَ، وإمّا ٱعتَزَلتَ.

وكتب أبو بكر الخُوَارَزْميُّ جوابًا عن هديّة: وصلَت التُّحفة، ولَم يكن لها عيب إلّا أنّ باذلَها مسرِفٌ في البِرّ، وقابِلَها مقتصِدٌ في الشكر؛ والسَّرَفُ مذمومٌ إلّا في المجد، والاقتصادُ محمودٌ إلّا في الشكرِ والحمد.

وكتب مَلِكُ الروم إلى المعتصم يتوعّدُه ويتهدّده، فأَمَرَ الكتّاب أن يكتبوا جوابَه، فكَتبوا فلم يعجبه مما كتبوا شيءٌ، فقال لبعضهم: أُكتب: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ، أمّا بعد، فقد قرأتُ كتابَك، وفَهِمتُ خطابَك، والجوابُ ما تَرَى لا ما تَسمَع، ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرّعد: الآية ٤٢](٢).

ومن كلام بديعِ الزّمانِ أبي الفضل أحمدَ بنِ الحسين الهَمَذانيِّ ـ قيل: ذُكِر الهَمَذانيُّ في مجلس أبي الحسين بن فارس فقال ما معناه: إنّ البديعَ قد نسِيَ حقّ تعليمنا إيّاه، وعَقّنا وشمخ بأنفه، عنّا، فالحمد لله على فساد الزمان، وتغيُّرِ نوعِ الإنسان؛ فبلغ ذلك البديع، فكتب إلى أبي الحسين:

نَعم أطال الله بقاءَ الشيخ الإمام، إنه الحَمَأُ المسنُون، وإن ظُنّت الظنون؛ والناسُ لآدم، وإن كان العهدُ قد تَقادَم؛ وٱرتبكت الأَضْداد، وٱختَلَطَ الميلاد؛ والشيخ يقول: فَسَد الزمان، أفلا يقول: متى كان صالحًا؟ أفي الدّولة العبّاسيّة وقد رأَينا آخرَها وسمعنا أوّلَها؛ أم المدّةِ المَرْوانيّةِ وفي أخبارها: [من السريع]

«لا تَـكْـسَـعِ الـشَّـولَ بـأغـبـارِهـا»(٣)

---

(١) لا نعرف بالضبط من هو محمد هذا صاحب التوقيع. ولكن ابن خلكان ينسبه إلى جعفر بن يحيىٰ بن خالد البرمكي وزير هارون الرشيد. (ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ١، ص ٢٩٢).

(٢) هذه قراءة أبي عمرو بن العلاء. أما سائر القراءات فهي ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾.

(٣) هذا صدر بيت للحارث بن حلزة الشاعر الجاهلي البكري، وتمامه:

«أنـك لا تـدري مـن الـنـاتـج»

وتفسيره: لا تغزر إبلك تطلب بذلك قوة النسل، واحلبها لأضيافك، فلعل عدوًا يغير عليها فيكون نتاجها له دونك». لا تكسع: لا تترك حليب الناقة في خلفها. الشول: واحدتها شائل، وهي الناقة التي مضى على حملها سبعة أشهر فقل لبنها أو خف ضرعها. أغبارها: جمع غبر، وهو بقية اللبن في الضرع.

أم السنين الحَرْبيّةِ(١): [من مجزوء الكامل]

والسيفُ يُعمَل في الطُّلَى(٢) والرُّمْحُ يُرْكَز في الكُلَى
ومَبيتُ حُجْرٍ(٣) في الفَلا والحَرّتان(٤) وكَرْبَلا(٥)

أم البَيعةِ الهاشميّةِ وعليٌّ يقول: ليت ٱلعشرةَ منكم براس، مِن بَني فِراس؛ أم الأيّامِ الأموية والنَّفيرُ إلى الحجاز، والعيونُ إلى الأعجاز؛ أم الإمارةِ العَدَويةِ(٦) وصاحبُها يقول: هلمّوا إلى النزول؛ أم الخلافةِ التَّيميّة(٧) وهو يقول: طوبى لمن مات في نَأْنأة(٨) الإسلام؛ أم على عهد الرسالة ويومَ ٱلفتح قيل: أُسكني يا فلانة، فقد ذهبَت الأمانة؛ أم في الجاهليّة ولَبِيدٌ يقول: [من الكامل]

* وبَقِيتُ في خَلْفٍ(٩) كجِلد الأجربِ *

أم قَبل ذلك وأخو عادٍ يقول: [من الطويل]

بلادٌ بها كنا وكنا نحبّها إذ ٱلناس ناسٌ والزمانُ زمانُ

أم قَبل ذلك ويُروَى لآدم عليه السلام: [من الوافر]

تَغيّرت البلاد ومَن عليها فوجهُ الأرض مغبَرٌّ قَبيحُ

أم قَبل ذلك والملائكةُ تقول لبارئها: ﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٣٠] ما فسَدَ الناس، ولكن ٱطَّرد القياس؛ ولا أَظلمَت الأيام،

---

(١) الحربية: نسبة إلى حرب بن أمية بن عبد شمس، يريد خلافة معاوية وابنه يزيد. (ابن منظور، لسان العرب، مادة لسع).

(٢) الطلى: واحدها طلية، أي العنق.

(٣) حجر: هو حجر بن عدي الكندي، من أهل العراق، قتله معاوية لتشيعه لعلي ولعنه معاوية. (الطبري، التاريخ، حوادث سنة ٥١ هـ).

(٤) الحرتان: إشارة إلى وقعة الحرة بين يزيد بن معاوية وأهل المدينة شرقي المدينة. وقد قتل فيها الكثير من أهل المدينة سنة ٦٣ هـ.

(٥) كربلاء: موقع قرب الكوفة، قتل فيها الحسين بن عليّ على يد جنود يزيد بن معاوية. (ياقوت، معجم البلدان).

(٦) الإمارة العدوية: أي خلافة عمر بن الخطاب الذي ينتسب إلى عدي بن كعب.

(٧) الخلافة التيمية: خلافة أبي بكر نسبة إلى تيم بن مرة رهط أبي بكر.

(٨) نأنأة الإسلام: أول الإسلام.

(٩) الخلف: بفتح الخاء وسكون اللام: الأردياء الأخساء. وصدر البيت هو:
«ذهب الذين يعاش في أكنافهم»

إنما اْمتدّ الإظلام؛ وهل يَفسُد الشيءُ إلّا عن صلاح، ويمسي المرء إلّا عن صباح؟ ولعمري إن كان كرَمُ العهد كتابًا يَرِد، وجوابًا يَصدُر، إنّه لَقريبُ المَنال، وإنّي على توبيخِه لي لَفقيرٌ إلى لقائه، شفيقٌ على بقائه، منتسِبٌ إلى وَلائه، شاكرٌ لآلائه.

وكتب بديع الزمان يستعطفه: إنّي خدمت مولاي، والخِدمةُ رِقٌّ بغير إشهاد، وناصحتُه، والمناصَحةُ للودِّ أوثقُ عِماد؛ ونادمتُه، والمنادَمةُ رَضاعٌ ثان؛ وطاعمته، والمطاعَمةُ نَسَبٌ دان، وسافرتُ معه، والسَّفرُ والأخوة رضيعَا لبان، وقمتُ بين يديه، والقيامُ والصلاةُ شريكَا عِنان[1]؛ وأثنَيتُ عليه، والثناءُ عند الله بمكان؛ وأخلَصتُ له، والإخلاصُ مشكورٌ بكلّ لسان.

ومن كلام أبي الفضل محمد بن الحسين بن العَميد ـ وكان وزيرًا كاتبًا ـ كَتب عن ركن الدّولة بنِ بويه كتابًا لمن عَصى عليه:

كتابي وأنا مترجِّحٌ بين طمع فيك، وإياسٍ منك، وإقبالٍ عليك، وإعراضٍ عنك؛ فإنك تُدْلِي بسابق خِدمة، وتَمُتّ بسالف حُرمة؛ أيسرُها يوجب رِعاية، ويَقتضِي محافَظةً وعناية؛ ثم تَشفَعُهما بحادثِ غُلولٍ وخيانة، وتتبعُها بآنِفِ خلافٍ ومعصية؛ وأدنَى ذلك يُحبِط أعمالَك، ويَمحَق كلَّ ما يُرعَى لك؛ لا جَرَمَ أنّي وقفت بين مَيلٍ إليك، ومَيلٍ عليك؛ أقدِّم رِجلًا لِصَمْدِك، وأؤخِّر أخرى عن قَصدِك؛ وأبسُط يَدًا لاصطلامِك[2] واجتياحِك، وأثني ثانيةً نحو استبقائك واستصلاحِك؛ وأتوقَّف عن اْمتثال بعض المأمور فيك ضنًّا بالنعمة عندك، ومنافَسةً في الصَّنيعة لديك؛ وتأميلًا لَفيئتِك واْنصرافِك، ورجاءً لمراجَعتِك وانعطافِك؛ فقد يَعزُب العقل ثم يؤوب، ويَغرُب اللّبُّ ثم يَثُوب، ويذهب العزم ثم يعُود، ويَفسُد الحزم ثم يَصلُح، ويضاع الرأي ثم يستدرَك، ويَسكَر المرء ثم يصحو، ويَكْدَر الماء ثمّ يصفو؛ وكلُّ ضِيقةٍ فإلى رخاء، وكلُّ غمرة فإلى اْنجلاء؛ وكما أنك أَتيتَ من إساءتك ما لم تحتسبْه أولياؤك، فلا تَدَعْ أن تأتيَ من إحسانك ما لم ترتقبْه أعداؤك؛ وكما استمرّت بك الغفلةُ حتى رَكِبتَ ما رَكِبتَ، واخترتَ ما اخترتَ، فلا عجب أن تنتبهَ انتباهةً تبصر فيها قبيحَ ما صنعتَ، وسوءَ ما آثرت؛ وسأقيم على رسمي في الإبقاء والمماطَلةِ ما صَلَح، وعلى الاستِيناءِ والمطاوَلةِ ما أمكَن، طمعًا في إنابتك، وتحكيمًا لحُسن الظنّ بك؛ فلستُ أعدم فيما أظاهره من إعذارك، وأُرادفُه من إنذارِك،

(١) شريكا عنان: شريكان متساويان، لأن العنان يتألف من طاقين متساويين.

(٢) الاصطلام: البتر والقطع. صلم الأذن: قطعها.

احتجاجًا عليك، وٱستدراجًا لك؛ وإن يشأ الله يُرشِدْك، ويأخذ بك إلى حظّك ويسدِّدْك؛ فإنه على كلّ شيء قدير.

وفي فصل منه: وزعمتَ أنك في طَرَفٍ من الطاعة بعد أن كنت متوسِّطَها، وإن كنتَ كذلك فقد عرفتَ حالتيها، وحلبتَ شَطْريها، فناشدتك الله لَما صدقتَ عما أسألك: كيف وَجدتَ ما زُلتَ عنه، وتجد ما صرتَ إليه؟ ألم تكن من الأوّلِ في ظلّ ظَليل، ونسيمٍ عليل، وريحٍ بَليل؛ وهواءٍ عَذِي، وماءٍ رَويّ، ومِهادٍ وَطِيّ؛ وكِنٍّ كَنين، ومكانٍ مَكين، وحصنٍ حَصين؛ يَقِيك المتالف، ويؤمنك المخاوف؛ ويَكنُفُك من نوائب الزمان، ويَحفظك من طوارق الحِدْثان؛ عَزَزتَ به بعد الذِّلّة، وكثرت بعد القِلّة؛ وارتفعتَ بعد الضَّعة، وأيسرتَ بعد العُسر، وأَثْريتَ بعد المَتْرَبة، واتَّسعتَ بعد الضيق، وأطافت بك الوِلايات، وخَفَقت فوقك الرايات؛ ووَطِيء عَقِبَك الرجال، وتعلّقَتْ بك الآمال؛ وصرت تكاثر ويكاثَر بك، وتُشير ويشار إليك؛ ويذكَر على المنابر اسمُك، وفي المَحاضر ذِكرُك؛ ففيم أنت الآن من الأمر؟ وما العِوضُ مما ذكَرتُ وعَددت، والخَلَفُ عمّا وَصفت؟ وما استفدتَ حين أخرجتَ من الطاعة نفسَك، ونفضتَ منها كفَّك، وغمستَ في خلافها يدَك؟ وما الذي أظَلّك بعد انحسار ظلّها عنك؟ أَظِلٌّ ذو ثلاث شُعَب، لا ظَليل ولا يُغنِي من اللَّهب؟ قل: نعم، فذاك والله أكثَفُ ظلَالِك في العاجلة، وأرْوَحُها في الآجلة؛ إن أَقمتَ على المُحادّة والعُنود[1]، ووقفت على المُشاقّة والجُحود.

ومنه: تأمّل حالَك وقد بلغتَ هذا الفصل مِن كلامي فستُنكِرها، والمُس جسدك فانظر هل يحسّ، وٱجسُسْ عرقك هل يَنبِض، وفتِّش ما حُنِيَ عليه أضلاعُك هل تجد في عِرْضِها قلْبَك؟ وهل حَلِيَ بصدرك أن تظفَرَ بفوتٍ مُزيح[2] أو موتٍ مُريح؟ ثمّ قِسْ غائبَ أمرِك بشاهدِه، وآخرَ شأنِك بأوّلِه.

وكَتب الصاحب أبو القاسم كافي الكُفاة في وصف كتاب: ومن هو الذي لا يُحبّه وهو عَلَم الفضل، وواسطةُ الدهر؛ وقَرارةُ الأدب والعِلْم، ومَجمَعُ الدّرايةِ والفهم؛ أمّن يرغب عن مكاثَرة مَن يُنسَب الربيعُ إلى خُلقه، ويَكتسِب محاسنَه من طبعِه، ويَتوشّح بأنواره، ويَتوضّح بآثار لسانه ويده؟ وصل كتابُه، فارتَحتُ لِعُنوانه قَبل عِيانِه، حتى إذا فَضضتُ ختامَه أقبلت الفِقَرُ تَتكاثر، والدُّرَرُ تَتناثر؛ والغررُ تَتراكم،

(١) العنود: من عند الطريق إذا مال. (٢) مُزيح: مُبعد.

والنّكتُ تَتزاحم؛ فإذا حَكمتُ للفظة بالسَّبْقِ أتت أختُها تتنافس، وأقبَلتْ لديها تتفاخر؛ حتى استعفَيتُ من الحُكومة، ونفضتُ يدي من غبار الخصومة؛ وأخذت أقول: كلُّكنّ صَوادرُ عن أصلٍ واحدٍ فتسالَمْن، وأرفادٌ عن معدن رافد فتَصالَحن، وقد ولَّيتُ النظرَ بينهما مَن كَمل لِنَسْجِ بُرودِهما، ووَفَّى بنَظْمِ عُقودِهما؛ على أنني يا مولاي أنشأتُ هذه الأحرفَ وحولي أعمالٌ وأشغالٌ لا يسلس معهما فِكْر، ولا يَسلَم بينهما طبع؛ وتناولتُ قلمًا كالابنِ العاقّ، بل العدوِّ المُشاقّ؛ إذا أردتُه استقال، وإذا قوّمتُه مال؛ وإذا حَثَثتُه وَقَف، وإذا وقفتُه انحرف؛ أحْدَل[1] الشّق، متفاوت البَرْيِ، معدوم الجَرْيِ؛ محرَّف القَطّ، مثبَّج[2] الخَطّ؛ ثم رأيتُ العُدول عنه ضربًا من الانقياد لأمره، والانخراطِ في سِلكه، فجهَدتُه، على رَغْمِه، وكَدَدتُه على صَعَرِه؛ لا جَرَمَ أنّ جناية اللَّجاج باديةٌ على صفحات الحروف لا تخفى، وعاديةَ المَحْكِ[3] لائحةٌ على وجوه السطور تَتجلّى.

وكتب: واللّهُ يعلم أني أُخبِرتُ بورود كتابه واستفزّني الفرحُ قبل رؤيته، وهَزَّ عِطْفي[4] المَرَح أمام مشاهَدته؛ فما أدري، أسمعتُ بورود كتاب، أم ظَفِرتُ برجوع شباب؟ ثم وصل بعد انتظار له شديد، وتطلّع إلى وصوله طويلٍ عريض؛ فتأمّلتُه فلم أدر ما تأمّلت، أخطًا مسطورًا، أم روضًا ممطورًا، أم كلامًا منثورًا، أم وَشْيًا منشورًا؟ ولم أدر ما أبصرتُ في أثنائه، أأبيات شِعر، أم عقودَ دُرّ؟ ولم أدر ما جُملتُه، أغيثٌ حَلَّ بِوادي ظمآن، أم غَوثٌ سبَقَ إلى لَهْفان؟

وكتب: وصل كتاب القاضي فأعظَمتُ قَدْرَ النعمة في مَطْلعِه، وأجلَلت محلّ الموهبة بمَوقِعِه؛ وفضضتُه عن السحر حلالًا، والماءُ زُلالًا؛ وسرّحتُ الطَّرْفَ منه في رياض رقّت حواشيها، وحُللٍ تَأنّقَ واشيها؛ فلَمَ أتجاوزْ فصلًا إلّا إلى أخطَر منه فضلًا، ولم أتخطَّ سطرًا إلا إلى أحسَنَ منه نَظمًا ونثرًا.

وكتب أيضًا: وصل كتابك فجعَلتُ وُصولَه عيدًا أؤرّخ به أيّامَ بهجتي، وأَفتَتِح به مواقيتَ غِبطتي؛ وعرفتُ من خَبَر سلامتك ما سألتُ الله الكريم أن يصله بالدوام، ويرفعَه على أيدي الأيام.

---

(١) الأحدل: المائل الشق.
(٢) مثبج الخط: خفيه.
(٣) المحك: اللجاج.
(٤) العطف: الجانب.

وكتب أيضًا: وصل كتابُه ـ أيّده الله ـ يَضحَك عن أخلاقه الأَرِجة، ويَتهلّل عن عِشْرته العَطِرة؛ ويُخبِر عن عافية الله لمن رَأيتُ شَمْلَ الحُرّيّة به منتظِمًا، وشَعْبَ المروءة له ملتئمًا؛ ويَحمِلُ من أنواع بِرّه ما أَقصُر عن ذِكرِه، ولا أطمَع في شكرِه؛ ويؤدِّي مِن لطيفِ اعتذارِه في أثناء عَتْبِه، ما تَزداد أسبابُ المودّة تمهيدًا به؛ وفهِمتُه، ورَغِبتُ إلى الله بأَخلَص طَويّة، وأَمحَضِ نيّة.

وقال أبو الفرج البَبْغاء[1] من رسالة إلى عُدّة الدّولة أبي تغلب جاء منها: أَصَحُّ دلائلِ الإقبال، وأصدَقُ براهينِ السعادة ـ أطال الله بقاء سيِّدنا ـ ما شَهِدت العقولُ بصحّتِه، ونَطقت البصائرُ بحقيقتِه، ونعمةُ الله على الدّنيا والدِّين بما أولاهما من اختيار سيّدِنا لحِراستهما بناظِرِ فضلِه، وسترِهما بظلّ عدلِه؛ مُفصِحةٌ بتكامُلِ الإقبال، مُبشِّرةٌ بتصديق الآمال: [من البسيط]

مَحروسةٌ ضَمِن الشكرُ الوفيُّ لها ... على الزيادة نَيلَ السّؤل والدَّرَكِ
تحقَّقَ العصرُ أنّ المُلكَ منذ نشا ... له أبو تغلِبَ اسمٌ غيرُ مشترك
واستَخلَف الفَلَكُ الدوّارُ هِمّتَه ... فلو وَنَى أغنت الدنيا عن الفَلَكِ

مأمونُ الهفوات، متناصِرُ[2] الصفات؛ رِبْعيُّ[3] النَّفاسة، حَمدانيُّ السياسة، ناصريُّ الرياسة؛ عُطارِدي الذَّكاء، موفَّقُ الآراء؛ شمسيُّ التأثير، قَمَريُّ التصوير، فَلَكيُّ التدبير؛ للصّدقِ كلامُه، ولِلعدلِ أحكامُه، ولِلوفاءِ ذِمامُه؛ وللحسامِ غَناؤه، ولِلقَدَرِ مَضاؤه، ولِلسحابِ عطاؤه: [من البسيط]

دعـوتُـه فـأجـابـتـنـي مـكـارمُـه ... ولو دعوتُ سوى نعماه لم تُجِبِ
وجدتُه الغيثَ مشغوفًا بعادته ... والروضُ يحيا بما في عادة السّحُبِ
لوْ فاته النَّسبُ الوَضّاحُ كان له ... من فضلِه نسبٌ يُغني عن النَّسبِ
إذا دعته ملوكُ الأرض سيّدَها ... طرًّا دعته المعالي سيّدَ العَرَبِ

وكتب أبو الحسن عليّ بن القاسم القاشانيّ:

---

(١) أبو الفرج الببغاء: (٣٩٨ هـ = ١٠٠٨ م)، هو عبد الواحد بن نصر بن محمد المخزومي، أبو الفرج المعروف بالببغاء. شاعر مشهور، وكان مترسل من أهل نصيبين، اتصل بسيف الدولة. ودخل الموصل وبغداد وقاوم الملوك والأمراء. له ديوان مطبوع. [الزركلي، الأعلام].
(٢) متناصر الصفات: تصدق صفاتها بعضها بعضًا.
(٣) ربعي: نسبة إلى الربيع، على غير قياس.

ما أرتضي نفسي لمخاطبة مولاي إذا كنتُ منفيَّ الشواغل، فارغَ الخواطر، مُخلى الجوارح، مطلقَ الإسار، سليمَ الأفكار، فكيف مع كَلالِ الحِدّة، وانغلاقِ الفهم، واستبهام القريحة، واستعجام الطبيعة؛ والمعوَّلُ على النيّة، وهي لمولاي بظَهر الغيب مكشوفةٌ، والمرجعُ إلى العقِيدة، وهي بالوَلاء المَحْضِ معروفة؛ ولا مجال للعتب على هذه الأحوال، للعذرِ وراء هذه الخِلال.

وقال محمد بن العباس الخُوارَزميّ(١): الحمد لله الذي جعل الشيخ يضرب في المحاسن بالقِدح المُعَلّى، ويسمو منها إلى الشرف الأعلى، ولَم يَجعل فيه موضعًا لِلَوْلا، ولا مجالًا لإلّا؛ فإن الاستثناء إذا اعتَرض في المدح أنصبّ ماؤه، وكُدّر صفاؤه، وأنطلق فيه حسّادُه وأعداؤه؛ ولذلك قالوا: ما أحسنَ الظَّبيَ لولا خَنَسُ(٢) أنفِه! وما أحسنَ البدرَ لولا كَلَفُ وجهِه! وما أَطْيَبَ الخمرَ لولا الخُمَار! وما أشرفَ الجُودَ لولا الإقتار! وما أحمَدَ مَغَبّة الصبر لولا فَناءُ العمر! وما أَطْيَبَ الدنيا لو دامت: [من البسيط]

ما أَعلَمَ الناسَ أنّ الجُودَ مَكسَبَةٌ   للحمد لكنّه يأتي على النَّشَبِ

ذكر شيء من رسائل فضلاء المغاربة ووزرائهم وكتابهم ممن ذكرهم أبن بسام(٣) في كتابه المترجم بالذخيرة في محاسن أهل الجزيرة

منهم ذو الوزارتين أبو الوَليد بنُ زَيدون(٤)، فمن كلامه رسالةٌ كتبها على لسان محبوبته وَلّادةَ بنتِ محمد بنِ عبد الرحمٰن الناصريّ إلى إنسان استمالها إلى نفسه عنه، وهي:

---

(١) محمد بن العباس الخوارزمي: (٣٢٣ ـ ٣٨٣ هـ = ٩٣٥ ـ ٩٩٣ م)، أبو بكر الخوارزمي، من أئمة الكتاب وأحد الشعراء العلماء. له مجموعة رسائل وديوان شعر. (الزركلي، الأعلام).

(٢) الخنس: تأخر الأنف عن الوجه مع ارتفاع قليل في الأرنبة.

(٣) ابن بسام: (٥٤٢ هـ = ١١٤٧ م)، هو علي بن بسام الشنتريني الأندلسي، أبو الحسن، أديب، من الكتاب الوزراء. اشتهر بكتابه «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ترجم لأعيان الأدب. (الأعلام للزركلي).

(٤) أبو الوليد بن زيدون: (٣٩٤ ـ ٤٦٣ هـ = ١٠٠٣ ـ ١٠٧١ م)، هو أحمد بن عبد الله بن أحمد بن غالب بن زيدون: أحد مشاهير المترسلين والشعراء المسلمين في الأندلس، وزير أمراء إشبيلية. ولد بقرطبة. نافس الوزير ابن عبدوس على ولادة بنت المستكفي فسجن. (دائرة المعارف الإسلامية).

أما بعد، أيها المصابُ بعقلِه، المورَّطُ بجهلِه؛ البيّنُ سَقَطُه، الفاحشُ غلطُه؛ العاثرُ في ذيل اغترارِه، الأعمى عن شمس نهارِه؛ الساقطُ سقوط الذباب على الشراب، المتهافِتُ تَهافُتَ الفَراش في الشهاب؛ فإنّ العُجْبَ أكْذَب، ومعرفة المرء نفسَه أصْوَب؛ وإنك راسلتني مستهديًا من صِلتي ما صَفِرتْ منه أيدي أمثالِك، متصدّيًا من خُلّتي لما قُرِعتْ فيه أُنوفُ أشكالِك؛ مرسِلًا خليلَتك مُرتادة، مستعمِلًا عشيقتَك قَوّادة؛ كاذبًا نفسَك أنك ستَنزِل عنها إليّ، وتَخلُف بعدها عليّ: [من المتقارب]

ولستَ بأوّلِ ذي هِمّةٍ دعته لما ليس بالنائل[١]

ولا شكّ في أنها قَلَتْك[٢] إذ لم تَضَنَّ بك، ومَلّتك إذ لم تَغْرْ عليك، فإنها أَعذَرتْ في السِّفارة لك، وما قَصّرتْ في النيابة عنك؛ زاعمةً أنّ المروءة لفظٌ أنت معناه، والإنسانيّةَ اَسمٌ أنت جسمُه وهَيولاه؛ قاطعةً أنّك اَنفردت بالجمال، واَستأثَرتَ بالكمال، واَستَعلَيتَ في مراتب الجلال، واستَولَيتَ على محاسن الخِلال؛ حتى خَيّلتْ أنّ يوسف عليه السلام حاسَنَك فغَضضتَ منه، وأنّ اَمرأةَ العزيز رأتك فسَلَت عنه؛ وأنّ قارونَ أصاب بعضَ ما كَنَزت، والنَّطِفَ[٣] عَثَر على فضل ما ركزت[٤]، وكِسرى حَمَل غاشيتَك[٥]، وقيصرَ رعى ماشيتَك؛ والإسكندرَ قَتَلَ دارًا[٦] في طاعتِك، وأَرْدَشِيرَ[٧] جاهد ملوكَ الطوائف لخروجهم عن جماعتِك؛ والضَّحّاكَ[٨] اَستَدعى

---

(١) هذا البيت للمتنبي. (٢) قلتك: من قلى أي أبغض.

(٣) النَّطِفُ: هو ابن جبير بن حنظة اليربوعي التميمي أغار على قافلة تحمل أموالًا لكسرى من اليمن وحصل على الكثير منها فضرب به المثل. وجاء في اللسان لابن منظور (مادة نطف) أن اسمه حِطّان على رأي ابن دريد. بينما الجوهري وابن بري يقولان إن اسمه النطف. (انظر: سرح العيون، ص ٢٥، المطبعة الأميرية).

(٤) ركزت: من الركاز، وهو دفين مال الجاهلية.

(٥) أراد غاشية السرج، وهي غطاؤه.

(٦) دارًا: إشارة إلى مقتل دار الأصفر هذا ابن دارا الأكبر بن أردشير ملك الفرس على يد الإسكندر بن فيليب اليوناني في معركة نصيبين. وقد هزم فيها الفرس. (ابن نباتة، سرح العيون، طبعة بولاق. د.ت. وإليها رجعنا في شرح رسالة ابن زيدون).

(٧) أردشير بن بابك استعاد الملك بعد حكم الإسكندر، وتغلب على ملوك الطوائف الذين عينهم الإسكندر، وتسمى بعد ذلك شاهنشاه الأعظم أي ملك الملوك. (المصدر ذاته).

(٨) ربما كان الضحاك بن قيس الفهري الذي ثار على بني أمية في الشام وقتل في معركة مرج راهط ٦٨٤م (المنجد).

مسالَمَتَك، وجَذِيمةَ[١] الأَبرش تمنّى منادَمتَك؛ وشِيرِينَ[٢] نافستْ بُورانَ[٣] فيك؛ وبِلْقِيسَ[٤] غايرت الزَّبّاءَ[٥] عليك؛ وأنّ مالكَ[٦] بن نُوَيرةَ إنما ردف لك؛ وعُروةَ[٧] بن جعفر إنما رحَل إليك؛ وكُلَيب[٨] بنَ رَبيعة إنما حَمى المرعى بعِزّتك؛ وجسّاسًا[٩] إنما قتَلَه بأنَفَتك؛ ومُهَلْهِلًا[١٠] إنما طَلَب ثأرَه بهِمّتك؛ والسموألَ[١١] إنما وَفَى عن عهدِك، والأحنَفَ[١٢] إنما احتَبَى في بُرْدِك؛ وحاتمًا[١٣] إنما جاد بوَفْرِك، ولَقِيَ الأضيافَ بِبِشرِك؛ وزيدَ[١٤] بنَ مهلهل إنما رَكب بفخذيك، والسُّلَيكَ[١٥] بنَ السُّلكة

---

(١) جذيمة الأبرش: هو جذيمة بن مالك بن عامر التنوخي وقيل الأزدي. أول من قاد العرب وملك على قضاعة في الحيرة والأنبار. (المصدر ذاته).

(٢) شيرين زوجة أبرويز بن هرمز من ولد كسرى أنوشروان. (المصدر ذاته).

(٣) بوران: بنت أبرويز المتقدم، وقد ملكت بعد شهريار. ابن أبرويز. (المصدر ذاته).

(٤) بلقيس: هي ابنة الحرث بن سبأ، ملكة اليمن ورد ذكرها في القرآن (سورة النمل) وكان لها علامة مع سليمان الحكيم. (المصدر ذاته).

(٥) الزباء: ملكة تدمر في بلاد الشام في العهد الروماني. لقبت بالزباء لطول شعرها. اسمها بارعة أو ميسون أو زنوبيا بنت عمرو بن الظرب الذي قتله جذيمة الأبرش وأخذ ملكه، وقامت الزباء بأخذ ثأره. غلبها وأسرها الامبراطور الروماني أوليانوس سنة ٢٧٣ م. (المنجد).

(٦) مالك بن نويرة بن شداد اليربوعي التميمي. فارس شجاع من ذوي الردافة في الجاهلية. أدرك الإسلام وأسلم ولكنه ارتد بعد وفاة النبي فقتله خالد بن الوليد زمن أبي بكر الصديق. (انظر اللسان لابن منظور، مادة ردف).

(٧) عروة بن جعفر بن عامر بن صعصعة. عرف بعروة الرحال لكثرة رحلاته إلى الملوك. اتصف بالعقل والشهامة. (ابن نباتة، السرح).

(٨) هو كليب بن ربيعة بن الحارث الوائلي. ساد قبائل وائل وكان له حمى واسع لا يقربه أحد. قتله جساس بن مرة بسبب ذلك.

(٩) جساس بن مرة البكري الوائلي، قاتل كليب لأن كليبًا رأى ناقة كانت لخالة جساس في حماه فأنكرها ورماها بسهم فعظم ذلك على جساس وخالته فقصده ورماه بسهم قتله.

(١٠) مهلهل: هو أخو كليب، اسمه عدي، ولقب بالمهلهل لأنه أول من هلهل نسج الشعر، أي أرقه.

(١١) السموأل بن عادياء، من يهود يثرب. ضرب به المثل في الوفاء لأنه رفض تسليم دروع امرىء القيس الشاعر لأعدائه وضحى بابنه. وله شعر جميل.

(١٢) الأحنف: هو الضحاك بن قيس بن معاوية السعدي، وكنيته أبو بحر يضرب به المثل في الحلم والسيادة، توفي بالكوفة سنة سبع وستين هـ. (وفيات الأعيان، لابن خلكان).

(١٣) هو حاتم بن عبد الله بن سعد الطائي، أبو سفانة، وأبو عديّ، ويضرب به المثل في الجود.

(١٤) هو زيد بن مهلهل بن زيد الطائي، كان فارسًا مظفرًا أدرك الإسلام وأسلم، وسمّاه الرسول عليه الصلاة والسلام زيد الخير وكان يسمّى قبل ذلك «زيد الخيل» لكثرة خيله.

(١٥) هو السُّليك بن عمرو بن يثربيّ أحد بني مقاعس، شاعر جاهلي كان من صعاليك العرب=

إنّما عدا على رِجليك، وعامرَ[١] بنَ مالك إنما لاعب الأسِنّةَ بيديك؛ وقيسَ بنَ زُهير[٢] إنما اُستعان بدَهائك، وإياسَ[٣] بنَ معاوية إنما استضاء بمصباحَ ذَكائك؛ وسَحْبانَ[٤] إنما تكلّم بلسانِك، وعمر بن الأهتم[٥] إنما سَحَر ببيانِك؛ وأنّ الصلحَ بين بكر وتغلبَ[٦] تمّ برسالتِك، والحَمالاتِ[٧] في دماء عَبْس وذُبيانَ أُسنِدت إلى كَفالتِك؛ وأنّ اُحتيالَ هَرِمٍ[٨] لعامرٍ[٩] وعلَقمةَ[١٠] حتى رضيا كان عن رأيِك؛ وجوابه لعمرَ وقد سأله عن أيّهما كان ينفِّر[١١] وقع بعد مشُورتِك؛ وأنّ الحجّاج[١٢] تَقلَّد وِلايةَ العراق بجَدِّك، وقُتَيبةَ[١٣] فَتَحَ ما وراء النهرِ بسعدِك؛

= ولصوصهم العذّائين.

(١) هو عامر بن مالك بن جعفر بن صعصعة، ملاعب الأسنّة ويكنى أبا براء، وأمه أم البنين أنجب امرأة في العرب ولقّب بملاعب الأسنة لقول أوس بن حجر فيه.

يلاعب أطراف الأسنّة عامرٌ فراح له حظّ الكتائب أجمع

(٢) هو قيس بن زهير بن جذيمة العبسي صاحب الحروب بين عبس وذبيان بسبب الفرسين داحس والغبراء، وكان فارسًا داهية.

(٣) هو إياس بن معاوية بن قرّة المزني ولي قضاء البصرة في زمن عمر بن عبد العزيز، وهو صاحب الفراسة والأجوبة البديعة ويضرب به المثل في الذكاء توفي سنة ١٢١ هـ.

(٤) هو سحبان بن زفر بن إياس الوائلي، كان خطيبًا يضرب به المثل في البيان واللسن، أدرك الإسلام وأسلم مات سنة ٥٤ هـ.

(٥) هو عمر بن سنان الأهتم التميمي المنقري، من سادات العرب وخطبائهم في الجاهلية، وفد على الرسول ﷺ هو والزبرقان بن بدر وأسلما مات سنة ٥٧ هـ.

(٦) بكر وتغلب هما ابني وائل، وأشار بالصّلح إلى حرب البسوس التي وقعت بينهما واستمرّت إلى وقت طويل. . .

(٧) الحمالات: جمع حمالة وهي ما يتحمّله الرّجل من دية أو غرامة وأشار بهذه العبارة إلى حرب داحس والغبراء بين عبس وذبيان.

(٨) هو هرم بن قطبة بن سيان من بني فزارة، وكان هرم هذا حكمًا من حكام العرب يقضي بين ساداتهم فلا يردّ قضاؤه.

(٩) عامر: هو عامر بن الطفيل بن مالك.

(١٠) علقمة: هو علقمة بن علاثة بن جعفر من بني عامر بن صعصعة وكان عامر وعلقمة قد تنافرا إلى هرم يحكم بينهما أيّهما أفضل، فسوّى بينهما وقال: أنتما كقائمتي البعير تقومان معًا وتقعدان معًا.

(١١) يقال: نافرته إلى الحكم فنفرني عليه، أي حاكمته فغلبني عليه. . .

(١٢) الحجاج: هو الحجاج بن يوسف الثقفي، ولد ونشأ في الطائف سنة ٤١ هـ، وعمل معلمًا في الكتاب، ولاه عبد الملك بن مروان الأموي على العراق فأخمد الفتن بقسوة وأوهى شوكة الخوارج. وتوفي بواسط سنة ٩٥ هـ.

(١٣) هو قتيبة بن مسلم بن عمرو الباهلي. ولاه عبد الملك بن مروان على خراسان ففتح بلاد ما وراء=

والمهلَّبَ[١] أَوهى شَوكةَ الأزارقة بأيدِك، وأفسَد ذات بينهم بكيدِك؛ وأنّ هِرمِسَ[٢] أعطى بلينوسَ ما أَخذ منك، وأفلاطونَ[٣] أَورد على أَرِسطوطاليسَ[٤] ما حدّث عنك؛ وبطليموسَ[٥] سَوّى الأَسْطُرلابَ بتدبيرِك، وصوَّر الكرَةَ على تقديرِك؛ وأبُقراطَ[٦] عَلِمَ العلَلَ والأمراض بلطف حسِّك، وجالينُوسَ[٧] عَرَفَ طبائعَ الحشائِش بدقّةِ نظرِك؛ وكلاهما قلّدك في العِلاج، وسألك عن المِزاج؛ واَستَوصفك تركيبَ الأعضاء، واَستشارك في الداء والدواء؛ وأنت نَهَجتَ لأبي مَعشَر[٨] طريقَ الفضاء، وأظهرتَ جابر بنَ حيّانَ[٩] على سِرّ الكِيمِياء؛ وأعطَيتَ

= النهر (نهر جيحون في خراسان). وتوفي سنة ٩٦ هـ.

(١) المهلب بن أبي صفرة الأزدي البصري، أمره مصعب بن الزبير على البصرة ثم خراسان، قاتل الخوارج وأضعف شوكتهم وتوفي زمن الحجاج سنة ٨٣ هـ.

(٢) هرمس هو نبي الصائبة المرسل الذي أتى بشرائعهم ويعتقدون أنه إدريس ذاته الذي جاء ذكره في القرآن. أما بلينوس فيزعم الصائبة أنه خلف هرمس وأخذ العلوم عنه. (ابن نباتة، سرح العيون).

(٣) أفلاطون: (٤٣٠ ـ ٣٤٧ ق.م). فيلسوف يوناني كبير تتلمذ على سقراط وأسس أكاديمية للعلم تخرج منها أرسطو الفيلسوف اليوناني الملقب بالمعلم الأول. خلف نحو ثلاثين كتابًا سميت المحاورات أهمها الجمهورية وتيماوس، والسفسطائي.

(٤) أرسطوطاليس: (٣٨٤ ـ ٣٢٢ ق.م) مؤدب الإسكندر ومؤسس الفلسفة المشائية لأنه أنشأ مدرسة في أثينا كان يلقي فيها دروسه ماشيًا. أشهر كتبه: الأورغانون في المنطق، والأخلاق، والنفس وما بعد الطبيعة. ترجمت إلى العربية في العصر العباسي وتركت أثراً عظيماً في الفكر العربي.

(٥) بطليموس: (. . . ـ ١٦٧ م)، ولد في صعيد مصر، وتوفي في الإسكندرية. عالم هيئة وتاريخ وجغرافية. أشهر مؤلفاته «المجسطي» و«آثار البلاد». قال إن الأرض ثابتة لا تتحرك وأن الفلك يدور حولها. وقد فند كوبيرنيكوس نظريته وأبطلها. (المنجد).

(٦) أبقراط (Hippocrate): (. . . ـ ٤٦٠ ق.م)، أشهر أطباء اليونان علل الأمراض باضطراب الأخلاط وجعل لها مصدرين: الهواء والغذاء. أرسل إليه ملك الفرس أرتحتشتا الهدايا ودعاه للمجيء إلى إيران فرفض خدمة أعداء بلاده ورد الهدايا. نقلت بعض كتبه إلى العربية في العصر العباسي أهمها تقدمة المعرفة، وطبعة الإنسان. (المنجد).

(٧) جالينوس Galien: (١٣١ ـ ٢٠١ م)، يعتبر آخر الأطباء الثمانية المشهورين عند اليونان الذين أولهم اسقنبلينوس تجول في البلدان مفتشًا عن الحشائش وجربها، وشرح أعضاء الجسم وله اكتشافات خطيرة في علم التشريح. (المنجد).

(٨) أبو معشر: هو جعفر بن محمد بن عمر البلخي المنجم المشهور. كان من أصحاب الحديث ينتقد الكندي ويحرض عليه العامة فدس له الكندي من حسن له علم الحساب والهندسة فانصرف إليه وإلى علم الفلك وكف عن الكندي. توفي سنة ٢٧٢ هـ. (ابن نباتة، سرح العيون).

(٩) جابر بن حيّان: (. . . ـ ٧٧٦ م) من علماء العرب في الكيمياء. عاش في الكوفة، واتصل=

النظّامَ[١] أصلًا أدرك به الحقائق، وجعلتَ للكِنديّ[٢] رسمًا ٱستخرَجَ به الدقائق؛ وأن صناعةَ الألحان ٱختراعُك، وتأليفَ الأوتار توليدُك وٱبتداعُك؛ وأن عبدَ الحميد بنَ يحيىٰ[٣] بارِي أقلامِك، وسهلَ بن هارون[٤] مدوِّنُ كلامِك؛ وعَمرو بنَ بحرٍ مستمليك[٥]، ومالكَ بنَ أنَسٍ[٦] مستفتيك؛ وأنك الذي أقام البراهين، ووضَعَ القوانين؛ وحَدَّ الماهيّة، وبيَّن الكيفيّةَ والكَميّة؛ وناظَرَ في الجوهر والعَرَض، وبيَّن الصحّةَ من المرض؛ وفكَّ المُعمَّى، وفصل بين الاسم والمسمى؛ وضَرب وقَسَّم، وعَدل وقوَّم؛ وصنَّف الأسماء والأفعال، وبوَّب الظّرف والحال؛ وبنَى وأَعرب، ونفَى وتعجَّب؛ ووَصل وقَطع، وثنَّى وجَمَع؛ وأَظهَرَ وأَضمَر، وٱبتدأ وأَخبَر؛ وأَهْمَل وقَيَّد،

= بجعفر الصادق. من كتبه «الرحمة» فيه بحث عن طريقة تحول المعادن إلى ذهب. ولكن صاحب سرح العيون يقول إنه لم يجد ترجمة صحيحة له في كتاب يعتمد عليه. (المنجد، وسرح العيون).

(١) النظام: هو إبراهيم بن سيار النظام، أبو إسحٰق، شيخ المعتزلة في عصره وأستاذ الجاحظ. ترجم له ابن المرتضى وذكره الجاحظ كثيرًا في كتبه. وهو القائل بنظرية الطفرة في حركة الأجسام. توفي في بغداد سنة ٢٣٠ هـ.

(٢) الكندي: هو يعقوب بن إسحٰق الكندي. أول فيلسوف عربي، كان جده الأشعث بن قيس من أصحاب النبي وكان أبوه واليًا على الكوفة من قبل المهدي والرشيد. ترجم له ابن أبي أصيبعة والقفطي، وذكره الجاحظ في البخلاء ورماه بالبخل. له عشرات الرسائل في الفلسفة أهمها رسالة في الفلسفة الأولى، طبعها أبو ريدة.

(٣) عبد الحميد بن يحيىٰ بن سعيد العامري، أحد الكتاب المجيدين، كتب لمروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية، ولما قتل مروان استخفى حتى عثر عليه جنود أبي مسلم الخراساني فسلموه للسفاح الذي قتله سنة ١٣٢ هـ.

(٤) سهل بن هارون بن راهبون، من أهل نيسابور نزل البصرة ثم انتقل إلى بغداد، وعمل كاتباً في بيت الحكمة عند المأمون. له مؤلفات تدل على بلاغته ورجاحة عقله ونسب إليه الجاحظ في البخلاء رسالة يدافع فيها عن البخل. توفي سنة ٢١٠ هـ.

(٥) هو عمرو بن بحر بن محبوب، لقب بالجاحظ لجحوظ عينيه، وكني بأبي عثمان. ولد بالبصرة حيث نشأ وتثقف ثقافة موسوعية ونبغ في الأدب وعلم الكلام ثم انتقل إلى بغداد واتصل بخلفاء بني العباس المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل وعندما أفل نجم المعتزلة وضيق عليهم المتوكل عاد إلى مسقط رأسه البصرة حيث توفي سنة ٢٥٥ هـ. أهم كتبه الحيوان والبخلاء والبيان والتبيين. وعشرات الرسائل. (ابن المرتضى، طبقات المعتزلة، وابن خلكان، وفيات الأعيان).

(٦) مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر التميمي، أبو عبد الله من أصحاب الحديث والفقه، له كتاب الموطأ في الفقه. عاش في المدينة ومات سنة ١٧٩ هـ. (ابن خلكان، وفيات الأعيان).

وأَرسَل وأَسنَد، وبَحَث ونَظر، وتصفّحَ الأديان، ورَجّح بين مذهبي ماني[١] وغَيلان[٢]؛ وأشار بذَبْح الجَعْد[٣]، وقتْلِ بَشار بنِ بُرْد؛ وأنك لو شئتَ خرقتَ العادات، وخالفتَ المعهودات؛ فأحلتَ البخارَ عذبة، وأعدتَ السِّلامَ[٤] رَطْبة؛ ونَقلتَ غدًا فصار أمسًا، وزدتَ في العناصر فكانت خَمسًا؛ وأنك المقولُ فيه: «كلُّ الصيد في جوف الفَرا»[٥]: [من الوافر]

و: ليس على الله بمستنكَرٍ أن يَجمع العالَمَ في واحدِ[٦]

والمعنيُّ بقول أبي تمّام: [من الوافر]

فلو صوَّرتَ نفسَك لم تزدها على ما فيك من كرم الطباعِ

والمرادُ بقول أبي الطيّب: [من الكامل]

ذُكِر الأنامُ لنا فكان قصيدةً كنتَ البديعَ الفردَ من أبياتها

فـ «كَدَمتَ غيرَ مَكْدَم»[٧] واستسمنت ذا ورم ونَفختَ في غير ضرم؛ ولَم تَجِد لرُمحٍ مَهزًا، ولا لشَفْرةٍ مَحزًا؛ بل رضيتَ من الغنيمة بالإياب، وتمنيتَ الرجوع بخفَّي حنينٍ[٨]، لأني قلتُ لها: [من الطويل]

* «لقد هان من بالت عليه الثعالبُ»[٩] *

---

(١) ماني: صاحب الديانة المانوية، ظهر أيام سابور بن أردشير، وتبعه كثير من المجوس، وقال بإلـهين إله النور وإله الظلمة، أو إله الخير وإله الشر. وقتل زمن بهرام بن سابور سنة ٢٧٦ م.

(٢) غيلان: هو غيلان بن يونس الدمشقي، أول من تكلم في القدر وخلق القرآن، وقتل زمن هشام بن عبد الملك بسبب ذلك.

(٣) الجعد: هو الجعد بن درهم مولى بني الحكم. سكن دمشق وعلم مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية. قال بتخلق القرآن، فطلب وهرب ونزل الكوفة فأخذ عنه جهم بن صفوان قوله بخلق القرآن فقبض عليه خالد بن عبد الله القسري والي العراق، وقتله زمن هشام بن عبد الملك.

(٤) السلام: واحده سلمة أي الحجر.

(٥) مثل يضرب للشيء المربي على غيره. والفرا: حمار الوحش.

(٦) البيت لأبي نواس.

(٧) مثل يضرب لمن يطلب شيئًا في غير مطلبه. ومعنى الكدم العض بأدنى الفم. والمكدم: موضع العض. أي عضضت في غير المحل الذي ينبغي عضه.

(٨) رجع بخفي حنين: مثل يضرب لمن يرجع من مسعاه خائبًا.

(٩) هذا عجز بيت للشاعر غاوي بن ظالم السلمي، أو للعباس بن مرداس السلمي. وصدر البيت: «أرب يبول الثعلبان برأسه»

وأنشَدتُ: [من الطويل]

على أنها الأيامُ قد صرن كلُّها عجائبَ حتى ليس فيها عجائبُ[١]

ونَخَرتُ[٢] وكفرت، وعبَستُ وبَسرت[٣]؛ وأبدأتُ وأعدت، وأبرقتُ وأرعدت و «هَممتُ ولَم أفعل وكدتُ وليتني» ولولا أنّ للجِوارِ ذمّة، ولِلضيافةِ حُرمة؛ لكان ٱلجوابُ في قَذال الدُّمُسْتُق[٤]، ولكنّ النعلَ حاضرةٌ إن عادت العقرب، والعقوبة ممكنةٌ إن أصرّ المذنب؛ وهَبْها لم تلاحظك بعينِ كَليلةٍ عن عيوبك، ملؤها حبيبُها، وحَسَنٌ فيها من تَوَدّ، وكانت إنما حلّتك بحُلاك، ووسمتْك بسيماك؛ ولم تُعْرك شهادة، ولا تكلّفتْ لك زيادة؛ بل صدَقتْك سنَّ بَكرِها[٥] فيما ذكرتْه عنك، ووضعت الهِناءَ[٦] مواضعَ ٱلنُّقْب فيما نسبته إليك؛ ولم تكن (كاذبة فيما أثنت به عليك)، فالمُعَيْديُّ[٧] تسمع به لا أن تراه، هَجينُ[٨] القَذال، أَرعنُ السِّبال؛ طويلُ العنق والعِلاوة[٩]، مُفرِطُ الحُمقِ والغباوة؛ جافي الطبع، سيّىءُ الجابةِ[١٠] والسَّمع؛ بغيضُ الهيئة، سخيفُ الذّهابِ والجَيئة؛ ظاهرُ الوَسواس، منتِنُ الأنفاس؛ كثيرُ المعايب، مشهورُ المثالب؛ كلامُك تمتَمة، وحديثُك غَمغَمة؛ وبيانُك فَهفَهة، وضَحكُك قَهقَهة؛ ومشيُك هروَلة، وغِناك مسألة؛ ودِينك زندقة، وعِلْمُك مَخرَقة: [من الوافر]

مَساوٍ لو قُسمن على الغواني لما أُمهِرن إلا بالطَّلاقِ[١١]

---

(١) البيت لأبي تمام.
(٢) نخرت: من النخير وهو الصوت الخارج من الأنف ومنه سمي المنخار.
(٣) بسرت: من البسر، وهو القطوب.
(٤) قذال الدمستق: إشارة إلى بيت يمدح فيه المتنبي سيف الدولة الحمداني أمير حلب بمناسبة انتصاره على قائد الروم الدمستق الذي ولي منهزمًا. والبيت هو: وكنت إذا كاتبته قبل هذه كتبت إليه في قذال الدمستق.
(٥) مثل يضرب لمن يضع الشيء في غير مكانه. والبكر: الفتي من الإبل.
(٦) الهناء: القطران.
(٧) أهل المثل كما جاء في مجمع الأمثال للميداني «تسمع بالمعيدي ولا تراه»، يضرب لمن خبره خير من مرآه. والمقول فيه هو شقة بن ضمرة بن جابر من بني نهشل.
(٨) الهجين: الذي أمه غير عربية. والقذال: مؤخر الرأس. يضرب لمن إذا أدبر عرف لؤم نسبه.
(٩) العلاوة: الرأس.
(١٠) الإجابة.
(١١) البيت لأبي تمام.

حتى إنّ باقلا[١] موصوفٌ بالبلاغة إذا قُرِن بك، وهَبَنّقة[٢] مستحقٌّ لاسم ٱلعقل إذا نُسِب منك، وأبا غَبْشانَ[٣] محمودٌ منه سَدادُ الفعل إذا أضيف إليك، وطُوَيسًا[٤] مأثورٌ عنه يُمْنُ الطائر إذا قيس عليك؛ فوجودُكَ عَدَم، والاغتباطُ بك ندم؛ والخيبةُ منك ظَفَر، والجنّةُ معك سقَر؛ كيف رأيتَ لؤمَك لكرمي كِفاء، وضَعَتَك لشرفي وَفاء؟ وأنّى جهلتَ أن الأشياء إنما تنجذب إلى أشكالها، والطيرَ إنّما تقع على أُلّافها؟ وهلّا علمت أن الشرق والغرب لا يجتمعان، وشعُرت أن ناريْ المؤمن والكافر لا يتراءيان، وقلت: الخبيثُ والطيّبُ لا يستويان، وتمثلتَ: [من الخفيف]

أيـهـا الـمـنـكِـحُ الـثـريّـا سُـهـيـلا   عَـمـرَكَ اللهَ كـيـف يـلـتـقـيـان[٥]

وذكرتَ أنّي عِلق لا يباع ممن زاد، وطائرٌ لا يصيده من أراد، وغرضٌ لا يصيبه إلا من أجاد؛ ما أحسَبك إلا كنت قد تهيّأتَ للتهنئة، وترشّحتَ للترفئة؛ أولى لك، لولا أنّ جرحَ العَجْماء جُبار[٦]، للقِيتَ ما لقيَ من الكواعب يَسَار[٧]؛ فما هَمَّ إلا بدون ما هممتَ به، ولا تَعرّض إلا لأيسر ما تعرّضتَ له؛ أين ٱدّعاؤك روايةَ الأشعار، وتعاطيكِ حِفظَ السِّيَرَ والأخبار؟: [من الطويل]

بـنـو دارِمٍ أكـفـاؤهـم آلُ مِـسـمَـعٍ   وتُنكح في أكفائها الحَبِطات[٨]

(١) هو باقل بن عمرو بن ثعلبة الأيادي، ذكره الجاحظ مراراً في البيان والتبيين وغيره من كتبه ورسائله لمثل يضرب في البيان والفصاحة.
(٢) هبنقة: هو يزيد بن ثوران بن ثعلبة، لقب بذي الورعات لأنه كان يعلق في عنقه قلادة من ودع مع طول لحيته، فسئل فقال: لئلا أضل. فضرب به المثل في الحمق. ذكره الجاحظ مرارًا في رسائله وكتبه.
(٣) أبو غبشان أو أبو عيشان مضرب المثل في الندم وخسارة الصفقة. لأنه باع من قصي مفاتيح الكعبة التي كان سادنًا لها بزق خمر. اسمه المحترش بن خليل بن سلول بن كعب بن عمرو. (القاموس المحيط).
(٤) طويس: هو مولى بني مخزوم، كنيته أبو نعيم، من سكان المدينة، ماجن طريف كان يغني بالدف. ضرب به المثل في الشؤم، لأنه ولد يوم قبض رسول الله، وفطم يوم مات أبو بكر، وختن يوم قتل عمر، وتزوج يوم قتل عثمان، وولد له يوم مات عليّ. (القاموس المحيط).
(٥) البيت لعمر بن عبد الله بن أبي ربيعة. والثريا هي بنت علي بن عبد الله بن الحارث بن أمية الأصغر. وسهيل هو ابن عبد العزيز بن مروان. (ابن نباتة، سرح العيون).
(٦) العجماء: البهيمة؛ الجُبار: الهدر الذي لا قصاص فيه. وهو قول للنبي.
(٧) يسار: عبد أسود، كانت النساء تضحك من قبحه فيظن أنهن يضحكن إعجابًا به. فحاول مرة مغازلة امرأة مولاه فقالت له: إن للحرائر طيبًا أشمك إياه. فقال: هاتيه. فأتت بالطيب وموسى، فأشمته الطيب وجدعت أنفه. وكان يلقب يسار الكواعب. (المصدر عينه).
(٨) البيت للفرزدق.

وهلّا عَشَّيتَ[١] ولم تَغترّ، وما أمّنك أن تكون وافدَ البراجِم[٢]، أو ترجعَ بصحيفة المتلمِّس[٣] أو أفعلَ بك ما فعله عَقِيلُ بن عُلَّفةَ بالجُهَنيِّ[٤] إذ جاءه خاطبًا فدهن أَستَه بزيت وأدناه من قَرْية النمل؟ ومتى كثر تَلاقِينا، واتصل تَرائينا؛ فيدعوني إليك ما دعا ابنةَ الخُسّ[٥] إلى عبدها مِن طُول السواد، وقربِ الوِساد؟ وهل فقدتُ الأَراقمَ فأُنكَح في جَنْب[٦]، أو عَضَلني همّام بنُ مرّة فأقول: زوجٌ من عُود، خيرٌ من قُعود»[٧]؟ ولعمري لو بلغتُ هذا المبلغ لارتفعتُ عن هذه الحِطّة، وما رضيتُ بهذه الخُطّة؛ فـ «النارُ ولا العار» و«المنيّةُ ولا الدَّنية» والحُرّة تجوع ولا تأكل

---

(١) مثل يضرب للاحتياط أصله «عش ولا تغتر».

(٢) وافد البراجم: إشارة إلى المثل: «إن الشقي وافد البراجم» ووافد البراجم رجل من تميم وأحد أولاد حنظلة بن مالك. والقصة هي أن عمرو بن هند أحرق تسعة وتسعين من بني تميم لثأر له عندهم وكان قد حلف على حرق مائة منهم. وبينما هو يبحث عن رجل يتمم به المائة مر رجل يسمى عمارًا فشم رائحة القتار فظن أن الملك أولم طعامًا فعدل إليه، فأحرقه. (المصدر نفسه).

(٣) المتلمس: شاعر جاهلي هو خال طرفة بن العبد، وفد مع ابن أخيه على عمرو بن هند ملك الحيرة، فغضب عليهما يومًا لأنهما عرضا به وأراد التخلّص منهما فكتب كتابين لعاملة في البحرين يأمره بقتلهما وقال لهما إنني كتبت بصلة لكما من عاملي في البحرين. فسلماه الرسالتين. فتوجها إلى البحرين، وأثناء الطريق فتح المتلمس صحيفته وعرف ما فيها فألقاها في البحر، ومضى طرفه بصحيفته إلى عامل البحرين فقتله. وضرب المثل بصحيفة المتلمس للرجل يحصل له الضرر من حيث هو يتوقع النفع. (سرح العيون).

(٤) عقيل بن علفة شاعر من شعراء العصر الأموي، اشتهر بهوجه وجفوته وعجرفته، خطب عبد الملك ابنته فأبى، وخطب جار له جهني إحدى بناته فدهن استه بزيت وأدناه من قرية النمل. (المصدر نفسه).

(٥) هي هند بنت الحسن الإيادي، عاشت في العصر الجاهلي، ذكروا أنها زنت بعيدها، فلامها الناس في ذلك، وقالوا ما حملك على الزنى؟ فقالت: قرب الوساد، وطول السواد. والسواد: المسارة. (المصدر نفسه).

(٦) الأراقم: حي من تغلب. وجنب: حي من اليمن. أشار بهذه العبارة إلى بيتين للشاعر الجاهلي امرىء القيس الذي اضطر إلى تزويج ابنته من حي في اليمن بسبب بعده عن قبيلته. والبيتان هما:

اعزز على تغلب بما لقيت أخت بني الأكرمين من جشم
أنكحها فقدها الأراقم من جنب وكان الحباء من أدم

(٧) همام بن مرة منع بناته الأربع من الزواج، أي عضلهن فقالت إحداهن: زوج من عود خير من قعود». (المصدر نفسه).

بثدييها: [من الطويل]

فكيف وفي أبناء قوميَ منكَحٌ وفتيانِ هَزّانَ الطوالِ الغَرانقة[١]

ما كنتُ لأتخطّى المسكَ إلى الرَّماد، ولا لأمتطيَ الثَّورَ بعد الجواد؛ فإنما يتيمّم من لا يجد ماء، ويَرعى الهشيمَ مَن عَدِمِ الجَميم[٢]، ويَركب الصّعبَ من لا ذَلولَ له؛ ولعلك إنما غرّك من علمتَ صبوتي إليه، وشهدتَ مساعَفتي له، مِن أقمارِ العصر، ورياحينِ المصر؛ الذين هم الكواكبُ علوَّ هِمم، والرياضُ طِيبَ شِيَم: [من البسيط]

من تَلقَ منهم تقل: لاقيتُ سيّدَهم مثل النجوم التي يَسرِي بها الساري[٣]

فَيحِنّ قِدْحٌ ليس منها؛ ما أنت وهُم؟ وأين تقع منهم؟ وهل أنت إلّا واوُ عمرٍو فيهم، وكالوَشِيظة في العَظْم بينهم[٤]؟ وإن كنتَ إنما بلغتَ قعرَ تابوتك[٥]، وتجافيتَ عن بعض قُوتِك؛ وعَطّرتَ أَرْدانَك، وجَررتَ هِمْيانَك؛ واختلتَ في مشيتِك، وحذفتَ فُضولَ لحيتِك؛ وأصلحت شاربَك، ومَططت حاجبَك؛ ودققت خَطَّ عِذارِك، واستأنفت عَقْدَ إزارِك؛ رجاء الاكتتابِ[٦] فيهم، وطمعًا في الاعتدادِ منهم؛ فظننتَ عَجزًا، وأخطأت اَستُك الحُفرة؛ والله لو كساك مُحرِّقٌ[٧] البُردين، وحلّتك ماريةُ[٨] بالقرطين؛ وقلّدك عمرٌو[٩] الصّمصامة، وحمَلك الحارثُ[١٠] على

(١) البيت للأعشى الأكبر. هزان بطن من العرب. والغرانقة جمع غرنوق وغرنيق، وهو الشاب الأبيض الجميل. (المصدر نفسه).

(٢) الجميم: النبات النامي الذي طال ولم ينضج.

(٣) البيت للعرندس البكري الكلابي يمدح به أحد الغنويين. (ابن نباتة، سرح العيون).

(٤) الوشيظة: قطعة عظم زائدة على العظم الصميم مثل يضرب للدخيل على القوم وليس منهم. (المصدر نفسه).

(٥) يعني لازمت فذلك.

(٦) يريد رجاء أن تعد فيهم وتكتب منهم.

(٧) يريد عمرو بن هند ملك الحيرة. يحكى أن وفود القبائل اجتمعوا عنده فأخرج بردين وقال ليقم أعز العرب وليأخذهما فقام عامر بن أحيمر فأخذهما. فقال عمرو بن هند: أنت أعز العرب قبيلة: فقال: أنا أبو عشرة وأخو عشرة وخال عشرة الخ... (المصدر نفسه، مادة برد).

(٨) حلتك مارية بالقرطين: إشارة إلى قرطي مارية ابنة ظالم بن وهب الكندي، زوجة الحارث الأكبر الغساني. وكان في قرطيها لؤلؤتان كبيرتان يتوارثهما الملوك، وقد وصلتا إلى عبد الملك بن مروان فأهداهما إلى ابنته لما زوجها لعمر بن عبد العزيز. ويروى أن مارية أهدتهما إلى الكعبة. (المصدر نفسه).

(٩) عمرو هو عمرو بن معديكرب. والصمصامة اسم سيفه.

(١٠) هو الحارث بن عباد التغلبي. والنعامة اسم فرسه.

النَّعامة؛ ما شككتُ فيك، ولا تكلمتَ بملء فيك؛ ولا سترتَ أباك، ولا كنتَ إلا ذاك؛ وهبك ساميتهم في ذُرْوة المجد والحسَب، وجاريتَهم في غاية الظرف والأدب؛ ألست تأوى إلى بيتٍ قَعيدتُه لَكاع؟ إذ كلُّهم عَزَبٌ خالي الذراع؛ وأين من أنفرد به، ممن لا أَغلِب إلا على الأقلّ الأخسّ منه؟ وكم بين من يعتمدني بالقوّة الظاهرة، والشهوةِ الوافرة؛ والنفسِ المصروفة إليّ، واللذةِ الموقوفةِ عليّ؛ وبين آخر قد نَزَحتْ بيرُه، ونَضَب غديرُه؛ وذهب نشاطُه، ولم يَبقَ إلا ضُراطُه؛ وهل كان يُجمَع لي فيك إلا الحَشَفُ[١] وسُوءُ الكِيلة. ويقترِن عليّ بك إلا الغُدّةُ والموتُ في بيت سَلُوليّة[٢]: [من الوافر]

تعالى الله يا سَلْمُ بنَ عمرو أذلّ الحِرصُ أعناقَ الرجالِ

(وهذا الشعر لأبي العتاهية يخاطب به سلم بن عمرو ويلومه على حرصه، ويتلوه):

هَب الدنيا تصِير إليك عفوًا أليس مصيرُ ذاك إلى زوالِ

ما كان أحقَّك بأن تَقْدِر بذَرْعك، وتَربَعَ على ظَلْعِك؛ ولا تكون بَراقشَ[٣] الدالّةَ على أهلِها، وعنزَ السوء المستثيرةَ لحَتْفِها؛ فما أراك إلا قد سَقط العشاءُ بك على السِّرحان[٤]، وبك لا بظبي أَعْفَر، قد أعذرتُ إن أغنيتُ شيًا، وأسمعتُ لو ناديتُ حيًا؛ وقرعتُ عصا العِتاب، وحَذّرتُ سوءَ العقاب. «إنّ العصا قُرِعتْ لذي الحِلم» «والشيء تَحقِره وقد يَنمِي»[٥]. فإن بادرتَ بالندامة، ورجعتَ على نفسك بالملامة؛ كنتَ قد اشتريتَ العافية لك بالعافية منك؛ وإن قلتَ: «جَعجَعةً ولا طِحْنًا» و «رُبّ صَلَفٍ تحت الراعدة»[٦] وأنشدتَ: [من مجزوء الكامل]

لا يُؤيِسنْك من مخبَّأةٍ قولٌ تُغلّظه وإن جَرحا

---

(١) إشارة إلى المثل «احشفاً وسوء الكيلة». والحشف هو الرديء من التمر.

(٢) يشير بهذه العبارة إلى قول عامر بن الطفيل حين ظهرت في رقبته الغدة التي مات بها وكان في بيت امرأة سلولية، فقال: أغدة كغدة البعير، وموت في بيت سلولية» (المصدر نفسه).

(٣) براقش: اسم كلبة نبحت قومًا قصدوا الغارة على قوم وخفي عليهم مكانهم. فلما نبحت عرفوهم وسطوا عليهم. فضربوا بها المثل «جنت على أهلها براقش». (مجمع الأمثال للميداني).

(٤) السرحان: الذئب. مثل يضرب لمن يريد أمرًا. فيقع على المكروه.

(٥) هذان مثلان يضربان في التحذير.

(٦) هذان مثلان يضربان لمن يتوعد ولا يفعل. والجعجعة هي صوت الرحى.

فعُدتَ لما نُهيتَ عنه، وراجعتَ ما استعفَيت منه؛ بعثتُ من يُزْعجكَ إلى الخضراء دَفْعًا، ويَستحِثُّك نحوها وَكْزًا وصَفْعًا؛ فإذا صِرتَ بها عَبث أكّاروها بك، وتَسلّط نواطيرُها عليك؛ فمن قَرعةٍ معْوجّةٍ تُقومّ في قفاك، وفُجْلةٍ منْتِنة يُرمى بها تحت خُصاك؛ لكي تذوق وبال أمرِك، وترى ميزانَ قدرِك: [من المتقارب]

فمن جهلتْ نفسُه قدْرَه رأى غيرُه منه ما لا يرَى[1]

وقال أيضًا في رُقْعةٍ خاطب بها ابنَ جَهْوَر ـ وهي من رسائله المشهورة ـ أوّلها:

يا مولاي وسيّدي الذي ودادي له، واعتدادي به، واعتمادي عليه ـ أبقاك الله ماضيَ حدِّ العزم، وأرى زَنْدِ الأمل، ثابتَ عهدِ النعمة ـ إن سلبتَني أعزّك الله لباسَ إنعامِك، وعطّلتَني من حَلْيِ إيناسِك، وغَضَضتَ عني طَرْفَ حمايتِك؛ بعد أن نَظر الأعمى إلى تأميلي لك، وسمع الأصمُّ ثنائي عليك، وأَحسَّ الجمادُ باستنادي إليك؛ فلا غَرْوَ قد يَغَصُّ بالماء شاربُه، ويقتُل الدواءُ المستشفَى به، ويُؤتَى الحَذِرُ من مأمنِه، وتكون منيّةُ المتمنّي في أمنيّته «والحَيْنُ قد يَسبق جَهْدَ الحَرِيص»[2] وإنّي لأتجلّد، وأُرِي الشامتِين أنّي لا أتضعضع، وأقول: هل أنا إلّا يدٌ أدماها سِوارُها، وجبينٌ عضّه إكليلُه، ومشْرَفيٌّ[3] ألصَقه بالأرض صاقلُه، وسَمهريٌّ[4] عرَضه على النار مثقِّفه، وعبدٌ ذهب سيّدُه مَذهبَ الذي يقول: [من الكامل]

فقَسا ليَزدجِرُوا ومن يك حازمًا فليَقسُ أحيانًا على من يَرحمُ[5]

والعَتْبُ محمودٌ عواقبُه، والنَّبْوَةُ غمرةٌ ثم تنجلي، والنكبةُ «سحابةُ صيف عن قريب تَقَشَّعُ» وسيّدي إن أبطأ معذور: [من الطويل]

فإن يكن الفعلُ الذي ساء واحدًا فأفعالُه اللاتي سَرَرنَ أُلوفُ[6]

---

(١) البيت للمتنبي. يريد أن يقول إن من جهل قدر نفسه فالناس يعرفون قدره.

(٢) هذا عجز بيت قاله عدي بن زيد. أما صدره فهو:

«قد يدرك المبطيء من حظه»

(انظر: تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون للصفدي ص ٤٠ طبعة بغداد وعليها اعتمدنا في الشروحات التالية).

(٣) المشرفي: السيف. (٤) السمهري: الرمح.

(٥) البيت لأبي تمام من قصيدة يمدح بها مالك بن طوق.

(٦) البيت للمتنبي من أبيات كتب بها إلى أبي العشائر الحسين بن حمدان يعاتبه على ما جرى من غلمانه.

فليت شعري ما الذنب الذي أذنبتُ ولم يسعْه العفو؟ ولا أخلو من أن أكون بريئًا فأين العدل؟ أو مُسيئًا فأين الفضل؟ وما أراني إلا لو أُمرتُ بالسجود لآدم فأبيتُ واستكبرت، وقال لي نوح: «اركب معنا»، فقلتُ: ﴿سَآوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ﴾ [هود: الآية ٤٣] وتعاطَيتُ فعَقَرت، وأَمرتُ ببناء صَرح ﴿لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ [القَصَص: الآية ٣٨] وعَكفتُ على العِجل، واعتدَيتُ في السَّبْت، وشربتُ من النهر الذي ٱبتُلَى به جنودُ طالوتَ، وقُدتُ الفيلَ لأَبرهةَ(١)، وعاهدتُ قريشًا على ما في الصحيفة(٢)، وتأوّلتُ في بَيعة العَقَبة(٣)، ونَفَرتُ إلى العِير ببَدْر(٤)، وٱنخذلتُ بثلث الناس يوم أُحُد(٥)، وتَخلّفتُ عن صلاة العصر في بني قُرَيظة(٦)، وجئتُ بالإفك على عائشةَ(٧)، وأبيتُ من إمارة أُسامةَ(٨)، وزعمتُ أن خلافة أبي بكر كانت فَلتة(٩). [من الطويل]

* ورَوَّيتُ رمحي من كَتِيبة خالد(١٠) *

---

(١) يشير في هذه العبارات إلى آيات وردت في القرآن الكريم حول ناقة صالح. واتخاذ بني إسرائيل العجل إلـهًا يعبدونه، واعتدادهم بيوم السبت، وشرب جنود طالوت من النهر، وأصحاب الفيل الذين ساروا إلى الكعبة وأرادوا هدمها يقودهم أبرهة.

(٢) يشير إلى صحيفة قريش التي تعاهدوا فيها على قطع العلاقة مع بني هاشم فلا بيع وشراء ولا زواج.

(٣) يشير إلى بيعة الأنصار لرسول الله بالعقبة.

(٤) إشارة إلى وقعة بدر التي جرت بين النبي وأنصاره ومشركي قريش وانتصر فيها عليهم. وبدر ماء يقع بين المدينة ومكة.

(٥) إشارة إلى وقعة أُحد التي نشبت بين النبي وأنصاره وبين مشركي قريش. وانتصر فيها المشركون بسبب انخذال عبد الله بن أُبيّ ابن سلول رأس المنافقين بثلث الناس، وتركه لرسول الله وحده مع أصحابه، وسط المعركة. وأحد جبل أجرد أحمر يقع شمالي المدينة على بعد ميل منها.

(٦) يشير إلى غزوة النبي لبني قريظة، وإلى قول النبي لأصحابه: لا يصلين أحد منكم العصر إلا في بني قريظة. فلما جاء العصر وهم في الطريق صلاه جماعة منهم تلبية لأمر الرسول على قصد السرعة، وصلاه الباقون في بني قريظة بعد مضي الوقت.

(٧) إشارة إلى حديث الإفك الذي رميت به عائشة زوج النبي.

(٨) أمر رسول الله أسامة وهو شاب صغير على جيش لقتال الروم فاستنكر بعضهم ذلك فغضب النبي.

(٩) إشارة إلى قول الخليفة عمر بن الخطاب عندما سمع بعض الناس يقول: لو مات الخليفة لنبايعنّ فلانًا. فخشي أن يكون في هذا إضعاف لبيعة الناس، فخطب الناس في المدينة وقال: «فلا يفترن امرؤ منكم أن يقول إن بيعة أبي بكر كانت فلتة فتمت، فإنها كانت كذلك إلا أن الله وقى شرها، رواه يونس عن الزهري.

(١٠) هذا صدر بيت لأبي شجرة السلمي، قاله في حرب الردة وكان هو يقود المرتدين وخالد بن=

ومَزَّقتُ الأديمَ الذي باركت يدُ الله فيه[١]، وضحَّيتُ بالأشمَط الذي عُنوان السجود به[٢]، وكتبت إلى عمرَ بنِ سَعدٍ أن جَعْجِعْ[٣] بالحسين، وبَذَلتُ لقَطامِ: [من الطويل]

ثـلاثـةَ آلافٍ وعـبـدًا وقَـيـنـةً وضَرْبَ عليٍّ بالحسامِ المخذَّمِ[٤]

وتَمثّلتُ عندما بلغني من وقعة الحرّة[٥]: [من المديد]

لـيـت أشـيـاخـي بـبـدرٍ شَـهِـدوا جَـزَعَ الـخـزرج مِـن وَقْـعِ الأَسَـلْ
قـد قـتـلـنـا الـقَـرْنَ من أشـيـاخـهـم وعـدلـنـاه بـبَـدرٍ فـاعـتـدَلْ[٦]

ورَجمتُ الكعبةَ، وصَلبتُ العائذَ بها على الثنيّة؛ لكان فيما جرى عليّ ما يحتمل أن يُسمَّى نكالًا، ويدعى ولو على المجاز عِقابًا[٧]: [من المتقارب]

وحـسْـبُـك مـن حـادثٍ بـامـرىءٍ يَـرى حـاسـدِيـه لـه راحِـمـيـنـا

= الوليد يقوله المسلمين، وعجزه:

«وإنـي لأرجـو بـعـدهـا أن أعـمـرا»

(١) إشارة إلى بيت قاله أحد الشعراء في رثاء الخليفة عمر بن الخطاب:

جزى الله خيرًا من إمام وباركت يـد الله فـي ذاك الأديـم الـمـمـزق

(٢) إشارة إلى قول حسان بن ثابت في رثاء عثمان بن عفان:

ضحوا بأشمط عنوان السجود به يـقـطـع الـلـيـل تـسـبـيـحًا وقـرآنـا

(٣) أشار إلى كلام عبيد الله بن زياد إلى قائده عمر بن سعد في كربلاء حيث يحاصر الحسين بن عليّ بن أبي طالب: «جعجع بالحسين...» ومعنى جعجع: ضيق.

(٤) هذا البيت قاله ابن ملجم قاتل عليّ بن أبي طالب، كان يحب امرأة جميلة بالكوفة، وأراد التزوج منها فشرطت عليه أن يكون صداقها ثلاثة آلاف عبدًا وجارية وقتل عليّ، فقبل عبد الرحمن بن ملجم وقتل عليًا. وبعده البيت التالي:

فلا مهر أغلى من عليّ وإن غلا ولا فتك إلا دون فتك ابن ملجم

(٥) هي حرة واقم شرقي المدينة، بها كانت وقعة الحرة سنة ثلاث وستين بين أهل المدينة وبين جيوش بني أمية وانتهت بهزيمة أهل المدينة وأخذ البيعة منهم ليزيد بن معاوية.

(٦) هذا الشعر لعبد الله بن الزبعرى. يشير إلى ثأر قومه لجدوده الذين قضوا في موقعة بدر على يد النبي وأنصاره. والأسل: الرمح. والقرن: السيد.

(٧) إشارة إلى مصرع عبد الله بن الزبير في مكة على يد عامل عبد الملك بن مروان الحجاج بن يوسف الثقفي، وكان ابن الزبير قد خرج على بني أمية وأعلن نفسه خليفة فحاصره الحجاج في مكة ورمى الكعبة بالمنجنيق وقتل ابن الزبير بحجر أصابه. فصلبه الحجاج سنة كاملة سنة ٧٣ هـ.

فكيف ولا ذنبَ إلا نميمةٌ أهداها كاشح، ونبأٌ جاء به فاسق؛ والله ما غَشَشتُك بعد النصيحة، ولا انحرفتُ عنك بعد الصاغية، ولا نَصَبتُ لك بَعد التشيّع فيك[1]، ففيم عَبث الجفاءُ بأذمّتي، وعاثَ في مودّتي؟ وأنّى غلبني المغلَّب، وفَخر عليّ الضعيف[2]، ولَطَمتْني غيرُ ذات سِوار[3]؟ وما لك لَم تَمنعْ مني قبل أن أُفترس، وتُدركْني ولمّا أُمزّق[4]، أم كيف لا تَتضرّم جوانح الأكْفاء حسدًا لي على الخصوص بك، وتَتقطّعُ أنفاسُ النُّظَراء منافَسةً في الكرامة عليك وقد زانني اسمُ خِدمتِك، وزهاني وَسْمُ نعمتِك وأبلَيتُ البلاء الجميل في سِماطِك، وقمتُ المَقام المحمودَ على بِساطِك: [من الطويل]

ألست المُوالي فيك نَظْم قصائدٍ هي الأنجُمُ اقتادت مع الليل أنجُما[5]

وهل لَبِس الصباحُ إلا بُردًا طرّزتُه بمَحامِدِك، وتَقلّدت الجَوزاءُ إلا عقدًا فصّلتُه بمآثرِك، وبَثَّ المسكُ إلا حديثًا أذعتُه بمَفاخرِك: «ما يومُ حَليمةَ بسِرّ»[6] وحاش لله أن أُعَدَّ من العاملة الناصبة، وأكونَ كالذُّبالة المنصوبة تُضيء للناس وهي تحترِق.

وفي فصل منه: ولَعَمري ما جهلتُ أن الرأيَ في أن أتحوَّلَ إذا بلغتْني الشمسُ، ونبا بي المنزل، وأضرِبَ عن المطامع التي تَقطع أعناقَ الرجال، ولا أَستوطيء العجْزَ فيُضرَب بي المثل: «خامِري أمَّ عامر»[7] وإني مع المعرفة بأن

---

(١) النصب: العداء. والتشيع: الموالاة. إشارة إلى فرقتي الناصبة والشيعة. الأولى تعادي عليًا والأخرى تواليه.

(٢) إشارة إلى قول امرىء القيس:

وإنك لم يفخر عليك كفاخر ضعيف ولم يغلبك مثل مغلب

(٣) ذات سوار: الحرة. لأن المرأة الحرة كانت تلبس السوار دون الأمة.

(٤) إشارة إلى قول الشاعر:

فإن كنت مأكولًا فكن خير آكل وإلا فأدركني ولما أفرق

وقد تمثل به عثمان بن عفان في كتاب بعث به إلى عليّ بن أبي طالب وهو محاصر من قبل الثوار في منزله.

(٥) البيت للبحتري من قصيدة يعاتب فيها الفتح بن خاقان.

(٦) مثل يضرب لكل متعارف مشهور. وحليمة بنت الحارث بن أبي شمر الغساني، كان أبوها قد وجه جيشاً إلى المنذر من ماء السماء ملك الحيرة اللخمي، فأخرجت طيبًا فطيبتهم. وسميت المعركة باسمها.

(٧) أم عامر: كنية الضبع. يضرب هذا المثل لمن عرف الدنيا وركن إليها رغم ما فيها من بلاء بعد رخاء، واغتر بها كما تغتر الضبع بقول القائل: «خامري أم عامر» وهي عبارة يقولها من أراد أن يصيدها لتطمئن إليه؛ ومعناها اشتري والجئي إلى أقصى مغارك.

الجَلاء سِباءٌ[١]، والنُّقلَة مُثْلَةٌ، لَعارفٌ أن الأدبَ الوطنُ الذي لا يُخشَى فراقُه، والخَليطُ ٱلذي لا يُتوقّع زوالُه؛ والنَّسبُ الذي لا يُجفَى، والجمالُ الذي لا يَخفَى؛ ثم ما قِرانُ السَّعدِ للكواكب أبهى أثَرًا، ولا أسنَى خَطَرًا، مِن اقترانُ غِنى النفسِ به، وانتظامِها نَسَقا معه؛ فإنّ الحائزَ لهما، الضاربَ بسهم فيهما ـ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ ـ أينما تَوجَّه وَرَد مَنهَلَ بِرّ، وحَطَّ في جَناب قَبول، وضُوحِكَ قَبل إنزالِ رَحْلِه، وأُعطِيَ حُكمَ الصبيِّ على أهلِه: [من الطويل]

وقيل له: أهلًا وسهلًا ومرحبًا فهذا مَبيتٌ صالحٌ وصديقُ

غيرَ أنّ المَوطنَ محبوب، والمَنشَأ مألوف؛ واللبيبُ يَحِنّ إلى وطنه، حنينَ النجيبِ إلى عَطَنِه؛ والكريمُ لا يجفو أرضًا فيها قَوابلُه، ولا يَنسى بلدًا فيه مَراضعُه؛ وأنشد قولَ الأوّل: [من الطويل]

أَحَبُّ بلادِ الله ما بين مَنْعِجٍ إليّ وسَلْمى أن يصُوب سحابُها[٢]
بلادٌ بها عَقّ الشّبابُ تمائمي وأوّلُ أرضٍ مَسّ جِلدي ترابُها

هذا إلى مُغالاتي في تعلّقِ جِوارِك، ومنافَستي في الحظّ من قُربك، وٱعتقادي أن الطمعَ في غيرك طَبَع، والغِنى من سواك عَناء، والبدَلَ منك أعوَر[٣]، والعِوضَ لَفاء[٤]: [من الكامل]

وإذا نظرتُ إلى أميري زادني ضنًّا به نظري إلى الأمراءِ[٥]

«كلُّ الصَّيدِ في جوف الفَرا» و«في كلِّ شجرٍ نار، وٱستَمجَد المَرْخُ والعَفار»[٦]؛ فما هذه البراءةُ ممن تولّاك، والمَيلُ عمّن يميل إليك؟ وهلّا كان هواك فيمن هواه

---

(١) الجلاء: الخروج عن الوطن. والسباء: الأسر.

(٢) منعج: واد يقع بين حفر أبي موسى والنباج، في بطن فلج. (ياقوت معجم البلدان). سلمى: جبل شرقي المدينة (تاج العروس، مادة سلم).

(٣) إشارة إلى قول الناس في قتيبة بن مسلم الباهلي الأعور الذي ولي خراسان مكان يزيد بن المهلب: هذا بدل أعور.

(٤) اللفاء: التراب، أو الشيء القليل، أو ما هو دون الحق.

(٥) نسبه الصفدي في تمام المتون إلى الشاعر عدي بن الرقاع.

(٦) المرخ: نبات يطول حتى يستظل به وليس له ورق ولا شوك ومنه يكون الزناد الذي يقتدح به، والواحد مرخة. والعفار: نبت صغير يشبه الغبيراء، يصلح للزناد. ويضرب بهما المثل في الشرف وعلو المنزلة.

فيك، ورضاك لمن رضاه لك؟: [من البسيط]

يا من يعِزّ علينا أن نفارقَهم وِجدانُنا كلَّ شيءٍ بَعدكم عَدَمُ(١)

أُعيذُك ونفسي من أن أَشِيمَ خُلّبا، واستمطِرَ جَهاما(٢)، وأَكدُمَ غيرَ مَكْدَم، وأشكوَ شكوى الجريح إلى العِقبان والرَّخَم؛ وإنما أَبسستُ لك(٣) لتَدِرّ، وحَرّكتُ لك الحُوارَ لتَحِنّ(٤)؛ وسَرَيتُ لك ليُحمَد المَسْرَى(٥) إليك؛ بَعد اليقين من أنك إن شئتَ عَقْدَ أمري تَيسّر، ومتى أَعذَرتَ في فكِّ أَسْرِي لَم يَتعذّر؛ وعِلْمُك يُحيط بأنّ المعروف ثمرَةُ النعمة، والشفاعةَ زَكاةُ المروءة، وفَضْلَ الجاه تَعُود به صَدَقَةٌ: [من الكامل]

وإذا امرؤ أَسْدَى إليك صَنيعةً مِن جاهِه فكأنّها مِن مالِه(٦)

لعليّ أُلقِي العصا بذَراك(٧)، وتَستقِرُّ بِيَ النوى في ظِلّك، فتستَلذَّ جنَى شكري مِن غَرْسِ عارفتِك، وتَستطِيبَ عَرْفَ ثنائي مِن رَوضِ صَنيعتِك؛ وأستأنفَ التأدّبَ بأدَبِك، والاحتمالَ على مذهبِك؛ فلا أُوجِد للحاسد مجالَ لحظة، ولا أَدَع للقادح مَساغَ لفظة؛ والله ميسِّرك من إطلابي(٨) هذه الطِّلبة، وإشكائي(٩) من هذه الشكوى لِصَنيعةٍ تصيب بها طريقَ المَصْنَع، ويدٍ تَستَودعُها أحفظَ مُستودَع؛ حسبما أنت خَليقٌ له، وأنا منك حَرِيٌّ به؛ فذلك بيدِه، وهيّنٌ عليه. وشفعَها بأبيات فقال: [من الخفيف]

الهوى في طُلوعِ تلك النجومِ والمنى في هُبوب ذاك النسيمِ
سَرّنا عيشُنا الرقيقُ الحواشي لو يدوم السرور لِلمستديمِ
وَطَرٌ ما انقضى إلى أن تَقضّى زمنٌ ما ذِمامُه بالذَّميمِ

---

(١) البيت للمتنبي في مدح وعتاب سيف الدولة الحمداني أمير حلب.
(٢) الجهام: السحاب لا ماء فيه.
(٣) أبسست: قلت للناقة عند حلبها: بُسْ بُسْ لتدر اللبن.
(٤) الحوار: ولد الناقة، يحرك حولها لتحن عليه وتدر اللبن.
(٥) إشارة إلى المثل: «عند الصباح يحمد القوم السرى»، يضرب للرجل بتحمل المشقة في سبيل الراحة.
(٦) البيت لأبي تمام من قصيدة يمدح بها إسحٰق بن ربعي كاتب أبي دلف.
(٧) ذراك: ظلك وكنفك.
(٨) الإطلاب: مصدر أطلبه إذا أعطاه ما يطلب.
(٩) الإشكاء: مصدر من أشكيته إذا أزلت شكايته.

زار مستخفيًا وهيهات أن يخـ ـتفي البدرُ في الظلام البَهيمِ
فَوَشَى الحَلْيُ إذ مشى وهفا الطِّيـ ـبُ إلى حيث كاشحٌ بالنَّميمِ
أيها المُؤذِني بظلم الليالي ليس يَومي بواحدٍ من ظَلومِ[١]
ما تَرَى البدرَ إن تأمّلتَ والشمـ ـسَ هما يُكسَفان دون النجومِ
وهو الدهرُ ليس ينفكُّ ينحو بالمُصاب العظيم نحو العظيمِ
بوّأ الله جَهْوَرًا أشرفَ السُّؤ دُدِ في السِّرِّ واللُّبابِ الصمِيمِ
واحدٌ سَلّمَ الجميعُ له الفضـ ـلَ وكان الخصوصُ وَفْقَ العمومِ
قَلّدَ الغُمْرُ ذا التجارِبِ فيه وٱكتَفَى جاهلٌ بعلمِ عَليمِ[٢]

ومنها في ذكر ٱعتقاله:

سَقَمٌ لا أُعَاد منه وفي العـ ـائِد أنسٌ يفي ببُرء السقيمِ
نارُ بغيٍ سَرتْ إلى جَنّة الأر ض بَياتًا فأصبحت كالصرِيمِ
بأبي أنت إن تشأْ تَكُ بَردًا وسلامًا كنار إبراهيمِ
لِلشفيعِ الثناء، والحمدُ في صَو بِ الحيا لِلرياحِ لا للغُيومِ[٣]

ثم قال: هاكها أعزّك الله يبسُطها الأمل، ويَقبِضها الخجل؛ لها ذنْبُ التقصير، وحرمةُ الإخلاص، فهَبْ ذنبًا لحُرمة، وٱشفَعْ نعمةً بنعمة، لتَأتيَ الإحسانَ من جهاته، وتسلُكَ الفضلَ من طرقاته؛ إن شاء الله تعالى.

ومن كلام أبي عبد الله محمد بن أبي الخِصال من جواب لابن بسّام ـ وكان قد كَتب إليه يسأله إنفاذَ بعضِ رسائله ليضمّنها كتابَه الذي ترجمه بالذخيرة، فكَتب:

وَصل من السيّد المسترِقّ، والمالك المستحقّ، وَصَل الله أنعُمَه لديه، كما قَصَر الفضلَ عليه ـ كتابُه البليغ، وٱستدراجُه المريغ[٤]؛ فلولا أن يَصْلِدَ زندُ[٥] ٱقتداحِه، ويُرَدَّ طرْفُ افتتاحِه؛ وتُقبَضَ يدُ ٱنبساطِه، وتُغبَنَ صفقةُ ٱغتباطه؛ للزمتُ معه قدْري، وضَنّ بسرّه صدري؛ لكنه بنَفْثة سِحرِه يَستنزِل العُصمَ فتُجْنَب[٦]، ويقتادُ

---

(١) يريد أن يقول إن اليوم الذي ظلم فيه ليس الوحيد. من دهر ظلوم.
(٢) الغمر: الجاهل الذي لم يجرب الأمور. (٣) صوب الحيا: أي المطر.
(٤) المريغ: المخادع. (٥) صلد الزند: صوت ولم يخرج نارًا.
(٦) العصم: جمع أعصم وهو الوعل الذي في ذراعيه بياض يقال: هو يستنزل العصم بلفظه: أي يذلل الصعاب بسحر منطقه وحسن حديثه. تجنب: تنقاد. يقال: جنبت الفرس إذا قدتها إلى=

الصّعبَ فيُصْحِب، ويَستدِرُّ الصخورَ فتُحْلَب؛ ولما جاءني كتاب ٱبتداه، وقَرَع سمعي نداه؛ فزِعتُ إلى الفِكَر، وخَفَقَ القلبُ بين الأمن والحَذَر؛ فطاردتُ من الفقر أوابدَ قَفْر، وشواردَ عُفْر، تُغْبِرُ(١) في وجه سائقِها، ولا يتوجّه اللّحاق إلى وَجيهها ولاحقِها؛ فعلمت أنها الإهابةُ والمَهابة، والإجابةُ والاسترابة؛ حتى أيأسَتْني الخواطر، وأخلفتْني المَواطر، إلا زبرجًا(٢) يعقُب جوادًا، وبَهرَجًا لا يَحتمِل انتقادًا؛ وأنى لِمثلي والقريحةُ مُزْجاة(٣) والبضاعة مُزْجاة؛ ببراعة الخطاب، ويراعة الكتاب، ولولا دروسُ(٤) معَالِم البيان، واستيلاءُ العفاء على هذا اللسان؛ ما فاز لِمثلي فيه قِدْح، ولا تحصَّل لي في سوقه رِبْح؛ ولكنه جوٌّ خال، ومِضمارُ جُهّال؛ وأنا أعزك الله أربأ بقدر الذخيرة، عن هذه النُّتَف الأخيرة؛ وأرى أنها قد بلغت مَداها، واستوفت حُلاها؛ وإنما أخشى القدْحَ في اختيارِك، والإخلال بمختارِك؛ وعذرًا إليك ـ أيدك الله ـ فإني خطَّطتُ والنومُ مغازِل، والقُرُّ نازل؛ والريحُ تلعب بالسراج، وتصول عليه صَولةَ الحَجّاج.

ثم أخذ في وصف السراج كما ذكرناه في الباب الرابع من القسم الثاني من الفن الأوّل في السِّفر الأوّل من هذا الكتاب.

ومن كلام الوزير الفقيه أبي القاسم محمد بن عبد الله بن الجَدّ(٥)، من رسالة خاطب بها ذا الوزارتين أبا بكر المعروفَ بابن القَصِيرة ـ وقد قربت بينهما المسافةُ ولم يتفق اجتماعُهما ـ:

لم أزل ـ أعزك الله ـ استنزل قربَك براحة الوهم، عن ساحة النجم؛ وأَنصِبُ لك شَرَكَ المنى، في خُلَس الكرى، وأعلِّل فيه نَفْسَ الأمل، بضرب سابِق المَثَل: [من البسيط]

ما أَقدرَ الله أن يُدني على شَحَطٍ مَن دارُه الحَزْنُ ممن دارُه صُولُ(٦)

= جنبك فهي جنيب ومجنوبة.

(١) تغبر: تثير الغبار.

(٢) الزبرج: السحاب الرقيق الذي لا ماء فيه.

(٣) مرجاة: من الأرجاء: أي التأخير. (٤) الدروس: الزوال والعفاء.

(٥) محمد بن عبد الله بن الجد (٥١٥ هـ = ١١٢١ م) مفتي ليلة بالأندلس. سكن إشبيلية وتقلد وزارة الراضي بن المعتمد بن عباد. له «المغرب في حلى المغرب» قصيدة جيدة. (الأعلام للزركلي).

(٦) الحَزْن: بلاد بني يربوع، وهي منطقة طيبة المرعى. صول: مدينة في بلاد الخزر.

فما ظنُّك به وقد نزل على مسافة يوم وطالما نفر عن حِبالة نوم، ودنا حتى هَمّ بالسلام، وقد كان من خُدَع الأحلام، وناهِيك من ظمئي وقد حُمتُ حَول المَورد الخَصِر، وذَمَمتُ الرِّشاءَ[1] بالقِصَر، ووقف بي ناهضُ القدَر، وقفةَ العَيْر بين الورْد والصَّدَر؛ فهلّا وُصِل ذلك الأملُ بباع، وسمح الزمنُ باجتماع؛ وطُويَت بيننا رقعةُ الأميال، كما زُوِيَت مراحلُ أيّامٍ وليال؛ وما كان على الأيّام لو غفلتْ قليلًا، حتى أشفَى بلقائك غليلًا، وأتنسّم منْ رَوح مشاهدتك نفَسًا بَليلًا؛ ولئن أقعدَتْني بعوائقها عن لقاءِ حُرّ، وقضاءِ بِرّ؛ وسَفَرٍ قريب، وظفَرٍ غريب؛ فما تَحيّفَتْ[2] ودادي، ولا ارتَشفَتْ مِدادي؛ ولا غاضت كلامي، ولا أحْفتْ أقلامي؛ وحسبي بلسان النُّبْلِ رسولًا، وكفى بوصوله أملًا وسُولًا؛ ففي الكتاب بُلْغةُ الوَطَر، ويُستَدلّ على العين بالأثَر؛ على أني إنما وحَيتُ وَحْيَ[3] المُشير باليسير، وأحلتُ فهمَك على المسطور في الضمير؛ وإن فرغتَ للمراجعة ولو بحرف؛ أو لَمحةِ طَرْف؛ وصلتَ صديقًا، وبَلَلتَ رِيقًا؛ وأسدَيتَ يدًا، وشَفَيتَ صدًى؛ لا زالت أياديك بيضًا، وجاهُك عريضًا؛ ولياليك أسحارًا، ومساعيك أنوارًا.

ومن كلام أبي عبد الله محمد بن الخيّاط من رُقعةٍ طويلةٍ إلى الحاجب المظفّرِ، أوّلها:

حجَب الله عن الحاجب المظفّرِ أعينَ النائبات، وقَبض دونه أيديَ الحادثات.

وجاء منها: وَرَد له كتابٌ كريمٌ جعلتُه عِوضَ يدِه البيضاءِ فَقَبّلتُه، ولمَحتُه بدل غُرّتِه الغرّاءِ فأجللتُه؛ كتاب ألقَى عليه الْحِبْرُ[4] حِبَرَه، وأهدَى إليه السحرُ فِقَرَه؛ أَنْذَر[5] ببلوغ المنى، وبشّر بحصول الغنى؛ تُخُيِّر له البيانُ فَطبّق مَفصِلَه، ورماه البنانُ فصادفَ مَقتَلَه؛ ووصل معه المملوكُ والمملوكةُ اللذان سمّاهما هديّة، وتَنزّه كرمًا أن يقول عطيّة؛ هِمّة تَرجُم السِّماكَين، ونعمةٌ تملأ الأذنَ والعين؛ وما حرّك ـ أيده الله ـ بكتابه ساكنًا بحمدِه، ولا نبّه نائمًا عن قصدِه؛ كيف وقد طلعت ٱلشمسُ التي صار بها المَغرِب شرقًا، وهَبّت ٱلريح التي صار بها الحِرمانُ رزقًا؛ صاحبُ لواء الحمد، وفارسُ مَيْدانِ المجد.

وهي رُقعةٌ طويلة قد ذكرنا منها في المديح فصلًا لا فائدة في إعادته.

---

(١) الرشاء: الحبل.
(٢) تحيف: تنقص.
(٣) الوحي: الكتابة أو الإشارة.
(٤) الحبر: العالم.
(٥) أنذر: أي أعلم.

ومن كلام أبي حفص عمر بن برد الأصغر الأندلسي، فمن ذلك أمانٌ كتبَه لمن عصَى وعاود الطاعةَ:

أما بعد، فإن الغَلَبَةَ لنا والظهور عليك جلباك إلينا على قدمِك، دون عهد ولا عَقْدٍ يَمنعان من إراقة دمك؛ ولكنا بما وهب الله لنا من الإشراف على سرائر الرِّياسة، والحفظِ لشرائع السياسة؛ تأمَّلْنا مَن ساس جهتك قبلنا فوجدنا يدَ سياستِه خرقاء، وعينَ حراستِه عَورَاء، وقدَمَ مداراتِه شَلّاء، لأنه غاب عن ترغيبِك فلَم ترجُه، وعن ترهيبِك فلَم تَخشَه؛ فأدّتك حاجتُك إلى طلاب المطامع الدنيّة، وقِلّةُ مَهابتِك إلى التهالك على المعاصي الوبيّة؛ وقد رأينا أن تُظهِرَ فضلَ سيرتنا فيك، وتَعتبِرَ بالنظر في أمرك، فمهّدنا لك الترغيبَ لتَأنَسَ إليه، وظَلّلنا لك الترهيبَ لتَفْرَقَ منه، فإن سوّت الحالتان طبعَك، وداوى الثِّقافُ والنارُ عُودَك، فذلك بفضل الله عليك، وبإظهارِه حُسْنَ السياسة فيك؛ وأمانُ الله تعالى مبسوطٌ منّا، ومواثيقُه بالوفاء معقودةٌ عَلينا؛ وأنت إلى جهتِك مصروف، وبعفونا والعافيةِ منا مكنوف، إلّا أن تَطِيشَ الصَّنيعةُ عندك فتخلَع الرِّبقة، وتمرق من الطاعة، فلسنا بأوّل من بُغِيَ عليه، ولستَ بأوّل مَن تراءت لنا مقاتلُه من أشكالك إن بغيت، وانفتحت لنا أبوابُ استئصالِه من أمثالك إن طُلِبت.

ومن كلامه يعاتب بعض إخوانه:

أَظلَم لي جوُّ صفائك، وتوعَّرتْ عليّ طُرُق إخائك؛ وأراك جَلدَ الضمير على العتاب، غيرَ ناقِع الغُلّة من الجفاء؛ فليت شعري ما الذي أقصى بهجة ذلك الوُدّ وأَذبَل زهرةَ ذلك العهد؛ عهدي بك وصِلتُنا تَفرَق مِن اسم القطيعة، ومودّتُنا تَسأل عن صفة العتاب ونسبة الجفاء، واليومَ هي آنسُ بذلك مِن الرضيع بالثدي، والخَليعِ بالكأس؛ وهذه ثُغرةٌ إن لم تحرسها المراجعة، وتَذْكُ[1] فيها عيونُ الاستبصار توجّهت منها الحِيلُ على هدم ما بَنَينا، ونَقْضِ ما اقتنَينا؛ وتلك نائحةُ الصفاء، والصارخةُ[2] بموتِ الإخاء؛ لا أَستَنِد أعزك الله من الكتاب إليك - وإن رَغَمَ أنفُ القلم، وانزوت أحشاءُ القرطاس، وأُجِرَّ[3] فمُ الفِكْر، فلم يَبقَ في أحدها إسعادٌ لي على مكاتَبتِك،

---

(١) تذكو: تتوقد، تشتعل. (٢) الصارخة: الناطقة.

(٣) أُجرَّ: منع من النطق. والأصل من الإجرار، وهو أن يشق لسان الفصيل لئلا يرضع. ومنه قول عمرو بن معديكرب:

فلو أن قومي أنطقتني رماحهم نطقت ولكن الرماح أجرت

ولا بشاشةٌ عند محاولة مخاطَبتِك ـ لِقَوارِص عتابِك، وقوارعِ ملامِك التي أَكَلتْ أقلامَك، وأَغَصَّت كُتبك، وأَضجَرتْ رُسلَك، وضميري طاوٍ لم يَطْعَم تجنّيًا عليك، ونفسي وادعةٌ لم تحرِّكْ ذنبًا إليك، وعَقْدي مستحكِم لَم يمسَسْه وَهْنٌ فيك؛ وأنا الآن على طَرَف الإخاء معك، فإما أن تبهرني بحُجّة فأتنصّل عندَك، وإما أن تَفيَ بحقيقةٍ فأستديم خُلّتَك، وإما أن تأزِمَ عليّ فأسك فأقطع حبلي منك؛ كثيرًا ما يكون عتابُ المتصافِين حِيلةً تُسْبَر المودةُ بها، وتُستثار دفائنُ الأخوّةِ عنها، كما يُعرَض الذهب على اللّهَب، ويصفّى المدامُ بالفِدام[1]، وقد يخلُص الوُدُّ على العَتْب خلوصَ الذهب على السبك، فأما إذا أُعيدَ وأبدَى ورُدّد وتوالى فإنه يُفسد غرسَ الإخاء، كما يفسد الزرعَ تَوالي الماء.

ومن كلام أبي الوليد بن طريف من جواب عن المعتمِد إلى ذي الوزارتين ابنِ يحفور صاحبِ شاطبةَ بسبب أبي بكر بن عَمّار:

وقفتُ على الإشارة الموضوعةِ من قِبَلِك على إخلاصٍ دَلّ على وجوه السلامة، المستنامِ فيها إلى شرفِ مَحْتِدِك وصفاءِ مُعتَقَدِك أكرَمَ استنامة؛ بالشفاعة فيمن أساء لنفسِه حظَّ الاختيار، وسَبّبَ لها سببَ النكبةِ والعثار؛ بغَمْطِه لعظيم النعمة؛ وقطعِه لعلائِق العصمة؛ وتَخبُّطِه في سَنَنِ غَيِّه واستهدافه، وتجاوُزِه في ارتكاب الجرائم وإسرافِه؛ حتى لم يدعْ للصلح موضعًا، وخرق سِتْرَ الإبقاء بينه وبين مُولي النعمة عنده فلم يَترُكْ فيه مَرْقَعًا؛ وقد كان قَبل ٱستشراءِ رأيِه، وكشفِه لصفحة المعاندة، وإبدائه غَدْرَه في جميع جناياته مقبولًا، وجانبُ الصفحِ له معرَّضًا مبذولًا؛ لكن عَدَتْه جوانبُ الغَواية، عن طُرقِ الهداية؛ فاستمَرّ على ضلالِه، وزاغ عن سَنَنِ ٱعتدالِه؛ وأَظهَرَ المناقضة، وتَعرَّض بزعمه إلى المساوَرةِ والمعارَضة؛ فلم يزل يُريغ[2] الغوائل، ويَنصِب الحبائل؛ ويركب في العناد أصعبَ المَراكب، ويذهب منه في أوعر المذاهب؛ حتى عَلِقتْه تلك الأشراكُ التي نصبها، وتَشبَّثتْ به مساوي المقدّمات التي جرّها وسَبَّبها؛ فذاق وبالَ فِعلِه، ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: الآية ٤٣] ولم يَحصُل في الأُنشوطةِ التي تَورّطَها، والمحنةِ التي اشتَملتْ عليه وتَوسَّطَها؛ إلا ووجهُ العفوِ له قد أَظلَم، وبابُ الشفاعةِ فيه قد أبهِم؛ ومَن تأمَّل أفعاله الذميمة، ومذاهبَه اللئيمة؛ رأى أنّ الصفحَ عنه بعيد، والإبقاءَ عليه داءٌ حاضرٌ عتيد.

---

(١) الفدام: المصفاة للكوز والإبريق ونحوهما. (٢) يريغ: يطلب ويريد.

وفي فصل منه: ففوّق لمناضَلة الدولة نِباله، وأعمَل في مكايدها جُهْدَه واْحتيالَه؛ ثم لم يَقتصِر على ذلك بل تَجاوَزه إلى إطلاق لسانه بالذمّ الذي صدَر عن لؤم نِجارِه، والطعنِ الشاهدِ بخبثِ طويّتِه وإضمارِه؛ ومَن فسَد هذا الفسادَ كيف يُرجى اْستصلاحُه، ومَن اْستَبطَن مِثلَ غِلّه كيف يؤمَّل فلاحُه؛ ومن لك بسلامة الأديم[1] النَّغِل، وصفاءِ القلبِ الدَّغِل؛ وعلى ذلك فلا أعتقد عليك فيما عرضتَ به من وجه الشفاعة غيرَ الجميل، ولا أتعدّى فيه حُسنَ التأويل؛ ولو وفَدتْ شفاعتُك في غير هذا الأمر الذي سَبَقَ فيه السيفُ العَذَل، وأَبطَل عاقلُ الأقدار فيه الإلطافَ والحِيَل؛ لَتُلُقِّيَتْ بالإجلال، وقوبلتْ ببالغِ المَبرّةِ والاهتبال[2].

ومن كلام ذي الوزارتين أبي المغيرة بن حَزْمٍ من رسالة.

لَم أزل أَزجُر للقاء سيّدي السانح، وأستمطر الغادي والرائح؛ وأروح أقتناصَه ولو بشَرَك المنام، وأحاول اختلاسَه ولو بأيدي الأوهام؛ وأعاتب الأيّامَ فيه فلا تُعْتِب، وأقودها إليه فلا تُصْحِب؛ حتى إذا غَلب اليأس، وشمِت الناس[3]؛ وضُرِبت بيَ الأمثال، فقيل: أكثرُ الآمال ضلال؛ تنبّه الدهرُ من رَقدتِه، وحَلّ من عقدته؛ وقَبِل منّي، وأَظهَر الرضى عنّي؛ وقال: دونك ما طَمَح فقد سَمح، وإليك فقد دنا ما قد جَمَح؛ فطرتُ بجَناح الارتياح، وركبتُ إلى الغمام كواهلَ الرّياح؛ وقلت: فرصةٌ تُغتَنَم، وركنٌ يُستلَم؛ وطرقتُ روضةَ العِلم عَميمةَ الأزهار، فصيحةَ الأطيار؛ رَيَّا الجداول، باردةَ الضحى والأصائل؛ وطفتُ بكعبةِ الفضلِ مصونةَ الْحِبَر[4]، ملثومةَ الحَجَر؛ عزيزةَ المقام، معمورةَ المَشعَرِ الحرام؛ فما شئنا من محاضرة، تَجمع بين الدنيا والآخرة؛ بين يدي نثرٍ يُدنِي الإعجاز، ونَظْمٍ ما أَشبهَ الصدورَ بالأعجاز؛ وحديثٍ تُثَقَّف العقولُ بآرائه، وتُروَّى بصافي مائِه؛ فحين شَمَخ بالظَّفَر أنفي، واْهتَزَّ لنَيلِ الأملِ عِطفي ـ والدهر يضحك سِرًّا، ويَتأبّط شرًّا؛ وقد أذهلني الجَذَلُ عن سوء ظنِّي به، وأوهَمَني نُزوعَه عن ذميم مذهبِه ـ أتت ألوانُه، وفسا ظَرِبانُه[5]؛ ونادى: لِيقم مَن قَعد، ويَنتبِهْ مَن رقَد؛ إنما فَترتُ تلك الفَتْرة، ليكون ما رأيتَ عليك حسرة؛ وسمحتُ لك مَرّة، لتذوق من الأسف عليها كأسًا مُرّة؛ فرأيتُ وقد غطّى على

(١) الأديم: الجلد. النغل: الفاسد الدباغة.
(٢) الاهتبال: الاغتنام، والمراد اغتنام العمل.
(٣) شمِت الناس: استطلعتهم وتبصّرتهم.
(٤) الحِبَر: أستار الكعبة.
(٥) فسا ظربانه: فاحت منه رائحة كريهة. والظربان: دويبة كالهرة منتنة الريح.

بصري، وعَقَلْتُ وكنت في عمياءَ من خبري؛ وقلتُ: هو الذي أعهده من لؤمِه، وأعرفه من شؤمِه؛ فما وَهَب، إلا وسَلَب؛ ولا أَعطى، إلا ساعاتٍ كإبهام القَطا؛ فيا له من قادرٍ ما ألأمَ قدرتَه، وذابحٍ ما أَحَدَّ شَفْرتَه! ولو تَسلّط علينا، من يُظهِر شخصَه إلينا، لأدركتْه رماحُنا، وعصفتْ به رياحُنا؛ لكنه أميرٌ مِن وراء سَجِفْ، يسعى بلا رِجلٍ ويصول بلا كَفّ.

ومن كلام الوزير الكاتب أبي محمد بن عبد الغفور إلى بعض إخوانه ـ وكان قد وصف له امرأةً ومدَحها وحضّه على زواجها، وكان لذلك الصديق امرأةٌ سوداءُ ـ فأجابه ابنُ عبد الغفور:

بينما كنت ناظرًا من المرآة في شَعرٍ أَحَمّ[١]، ورأسٍ أَجَمّ[٢]، لا أخاف معه الذم؛ إذ تَقدّم رسولُك إليّ، يخطُب بنتَ فلانٍ علَيّ؛ ويُرغِّب منها في سَعةِ مال، وبراعة جمال؛ ويقسِم إنها لَبرَّةٌ بالزوج بَرِيكة، لا تحوجه عند النوم إلى أَرِيكة؛ ولو يُسّرتُ ـ وعياذًا بالله ـ لهذا النكاح، لرُزِقتُ قَبل الولدِ منها آلةَ النِّطاح؛ ولا حاجة لي بعد الدَّعَة والسكون، إلى حربٍ زبون[٣]، وقِراعٍ بالقُرون[٤]، ولو حَملتْ إليّ تاجَ كسرى وكنوزَ قارون؛ فاطلب لهذه السِّلْعة المباركةَ مشتريًا غيري، ولا تَسُقها ولو في النوم إلى...؛ وابْتعْها ولو بأرفع الأثمان إلى نفسِك، وأضِفْ عاجَها النفيسَ إلى آبنُوس[٥] عِرْسِك؛ ولا عذر لها في النُّشوزِ والإعراض، فإنما يَحسُن السوادُ الحالكُ بالبياض؛ والله يمدّك بقَرنينِ قَبل الحَين[٦]، ويَضَعُ لك صِنْعَين وبِيلين[٧]، فيُسقِطَك بهذا النكاح الثاني للفم كما أُسقِطتَ بالأوّل لليَدين.

كمل السفر السابع من كتاب «نهاية الأرب في فنون الأدب» للنويري
رحمه الله تعالى ـ ويليه الجزء الثامن منه، وأوّله
ذكر نبذة من كلام القاضي الفاضل

(١) الأحمّ: الأسود. (٢) الأجمّ: الكثيف الشعر.
(٣) الحرب الزّبون: الشديدة المتدافعة. (٤) القرون: السيوف، والقرن: حدّ السيف.
(٥) الآبنوس: شجر إفريقي خشبه أسود صلب. (٦) الحين: الهلاك.
(٧) الصنعين: تثنية صنع، وهو سفود الشعراء والوبيل: الوخيم العاقبة.

المصـادر والمراجـع

١ ـ **القرآن الكريم**.

٢ ـ **البيان والتبيين**، للجاحظ، دار الهلال، بيروت.

٣ ـ **تاج العروس**، للزبيدي.

٤ ـ **تاريخ أبي الفداء**، للملك المؤيّد، ط، القسطنطينية.

٥ ـ **تاريخ البشرية**، لتوينبي.

٦ ـ **تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون**، للصفدي.

٧ ـ **الحيوان**، للجاحظ، دار الهلال.

٨ ـ **دائرة المعارف الإسلامية**.

٩ ـ **الذخيرة**، لابن بسّام.

١٠ ـ **سرح العيون**، لابن نباتة، ط، بولاق.

١١ ـ **الشعر والشعراء**، لابن قتيبة، دار الكتب العلمية.

١٢ ـ **صبح الأعشى**، للقلقشندي، دار الكتب العلمية.

١٣ ـ **طبقات المعتزلة**، لابن المرتضى، المطبعة الكاثوليكية.

١٤ ـ **لسان العرب**، لابن منظور، دار صادر.

١٥ ـ **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، لعبد الواحد بن علي التميمي.

١٦ ـ **معجم الأدباء**، لياقوت الحموي.

١٧ ـ **معجم البلدان**، لياقوت الحموي، دار صادر.

١٨ ـ **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم**، لمحمد فؤاد عبد الباقي، دار الكتب العلمية.

١٩ ـ **معجم الأمثال**، للميداني.

٢٠ ـ **مفتاح البلاغة**، للسكاكي.

٢١ ـ **مفتاح العلوم**، للخوارزمي.
٢٢ ـ **الإيضاح في علوم البلاغة**، للقزويني، دار الهلال.
٢٣ ـ **وفيات الأعيان**، لابن خلكان.
٢٤ ـ **يتيمة الدهر**، للثعالبي.

فهرس المحتويات